وزارة الثقافة والارشاد القومى
المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر

المزيفون

تأليف
أندريه جيد

ترجمة
يحيى سعد

مراجعة
مصطفى فوده



الى الاستاذ الكبير الدكتور عبد [illegible]

اهدى هذه المحاولة المتواضعة فى ترجمة "جيد"

واهدى تحية التقدير العميق ودا

يحيى سعد

٢/١٠/ ١٩٦٤

المزيّفون

تأليف **أندريه جيد**

ترجمة **يحيى سعد**

مراجعة **مصطفى فوده**

وزارة الثقافة والإرشاد القومى

المؤسسة المصرية العامة

للتأليف والترجمة والطباعة والنشر

هذه ترجمة قصة :

LES FAUX MONNAYEURS

Par

André Gide

الناشر
دار سعد مصر بالقاهرة

المزيفــون

LES FAUX MONNAYEURS

الجزء الأول

باريس

الفصل الأول

حدث برنارد نفسه قائلا : « إنها اللحظة التي يخيل إلى فيها أنني أسمع وقع أقدام » . ثم رفع رأسه وأرهف السمع . ولكن لا ، فوالده وشقيقه الأكبر في عملهما بدار القضاء ، ووالدته في زيارة ، وشقيقه في حفل موسيقى ، أما شقيقه الأصغر « كالوب » فهو في معهد خاص يحتجزه إثر خروجه من المدرسة كل يوم . وقد بقي برنارد بروفيتا نديو في المنزل ليستذكر دروسه فهو يتأهب لاجتياز الشهادة الثانوية وليس بينه وبين الامتحان سوى ثلاثة أسابيع ؛ إن أسرته لتحترم وحدته ، ولكن الشيطان لا يبالي بها . لقد خلع برنارد سترته ومع هذا كان يختنق من لفح الحرارة المتسربة إليه من النافذة المفتوحة المطلة على الشارع ، وكانت جبهته تتصبب عرقا ، وانحدرت قطرة على أنفه واستقرت فوق رسالة كان يقرؤها .

وخاطب برنارد نفسه قائلا :

كأن هذه القطرة دمعة . . . ولكن العرق خير من الدموع .

إن تاريخ الرسالة حاسم . وليس ثمت مجال للشك ، فالأمر يتعلق ببرنارد نفسه ، والرسالة موجهة إلى والدته . إنها رسالة حب انقضى عليها سبعة عشر عاما . ولم تمهر بأي توقيع .

ولكن ما دلالة هذا الحرف ؟ قد يكون « ف » وقد يكون « ن » ماذا يعني ؟ هل يليق أن أسأل أمي في هذا الأمر ؟ فلأثق بحسن ذوقها ، ولي أن افترض أن عشيقها كان أميرا !! .. ولكن يا له من موقف لو علمت أنني ابن لصعلوك ؟ ... بيد أن جهلي باسم والدي يريحني من خشيتي أن أكون على شاكلته . الأفضل لي إذن ألا أتعمق بحث الأمر وكفاني اليوم ما علمته .

وطوى برنارد الرسالة ... كانت في حجم الرسائل الاثنتي عشرة الأخرى في هذه المجموعة ، وأعاد الشريط الحريري الدقيق ، الذي كان يضمها إلى مكانه

ولم يكن قد احتاج إلى حل عقدته ، ثم وضع حزمة الرسائل فى صندوقها وأرجع الصندوق إلى مكانه بدرج منضدة حجرة الاستقبال ، ولم يكن الدرج مفتوحا وقد فضح سره من أعلاه ، وأعاد الألواح الخشبية لغطاء المنضدة إلى ما كانت عليه ، ووضع فوقها اللوح الرخامى الذى يغطيها ، وعالج الأمر ببطء وفى حذر . وفوق الرخام ، وضع المصباحين البللوريين والساعة الثقيلة التى كان يلهو بإصلاحها منذ قليل .

ودقت الساعة التى كان برنارد قد ضبط توقيتها ، معلنة الرابعة .

« إن السيد قاضى التحقيق والسيد ابنه المحامى لن يعودا قبل السادسة . أمامى إذن وقت كاف . يجب أن يجد السيد القاضى على مكتبه عند عودته الرسالة التى سأخبره فيها برحيلى ، ولـكننى أشعر بأنى فى حاجة ملحة إلى تنظيم أفـكارى المشوشة قبل كتابتها ، وإلى رؤية عزيزى أوليفيه لأضمن على الأقل ملجأ آوى إليه ولو مؤقتا » .

« أى صديق أوليفيه ، حان الوقت لأختبر ودك لى ولأبلو قدرك فى الملمات ! إن أروع ما فى صداقتنا هو أن أحدنا لم يسأل صاحبه خدمة حتى الآن » .

« ولـكن لا بأس ! لن يكون طلبى ثقيلا ، ولـكن مايضايقنى هو أن أوليفيه لن يكون وحيدا فليكن ، سأعرف كيف أنفرد به . أريد أن أروعه بهدوئى . فلست أشعر أنى على سجيتى إلا فى الخارق من الأمور .

عاش برنارد حتى هذه اللحظة فى شارع « ت ... » على مقربة من حديقة اللوكسمبورج ، وفى هذه الحديقة بجوار نافورة ميديسيس وفى الممر الذى يشرف عليها ، اعتاد أن يلتقى كل أربعاء بين الرابعة والسادسة ، ببضعة من رفاقه ... وكانوا يتناقشون فى أمور الفن والفلسفة والرياضة والسياسة والأدب .

وفى هذا اليوم سار برنارد مسرعا ، وما إن اجتاز سور الحديقة حتى لمح أوليفيه مولينيه فأبطأ الخطى فوراً .

فى ذلك اليوم كان عدد المجتمعين أكثر من المألوف لأن الجو بديع . وانضم للجماعة رفاق لم يسبق لبرنارد معرفتهم . كان كل منهم يتقمص فور وجوده مع الآخرين شخصية غير شخصيته ويبدو عندئذ بعيدا كل البعد عن طبيعته .

وما إن رأى أوليفييه صديقه برنارد يقترب منه حتى كسا الاحمرار وجهه ، وانفلت مبتعدا عن امرأة شابة كان يحادثها ... برنارد هو صديقه الحميم وأقرب الناس إلى قلبه ، وقد كان يؤثر ألا يبدو عليه أنه ينشده ، وتظاهر بأنه لايراه .

وتظاهر برنارد بدوره بأنه لايتحرى صديقه فراح يتباطأه هو الآخر — كأنه لايراه — خاصة وأن جمعا من الرفاق كان يفصل بينهما .

كان أربعة من الرفاق يحيطون بشاب قصير ملتح يضع على عينيه نظارة تمسك بأنفه ... وكان واضحا أنه أكبر منهم سنا ، وكان فى يده كتاب . . . أنه دورمير يحاور رفاقه .

— ما قولك ؟

وكان يخص بحديثه أحدهم بالذات ، ولكنه سعيد لأن الجميع يصغون إليه . قال :

— « لقد قرأت الكتاب حتى الصفحة الثلاثين دون أن أجد كلمة واحدة معبرة عن لون أو وصف ... إن الكتاب يتحدث عن امرأة ولست أدرى أثوبها أحمر اللون أم أزرقه . فأنا لا أرى شيئا ألبتة فيما أقرأ ، إذا افتقر الوصف إلى الألوان .

وليميل فى نفسه إلى المبالغة ، ولإحساسه بأن كلامه لم يؤخذ مأخذ الجد أردف قائلا :

— لم أر شيئا على الإطلاق .

وكف برنارد عن الإصغاء إلى صاحب الحوار ولكنه رأى أن الانصراف بسرعة أمر غير مناسب ، وراح ينصت إلى آخرين يتشاجرون خلفه ، وكان أوليفييه

قد لحق بهم بعد أن ترك السيدة الشابة ، وكان أحد هؤلاء يقرأ ، وهو جالس على مقعد ، جريدة (L'action Francaise)[1]

وبدأ أوليفيه مولينييه بين كل هؤلاء جادا كئيبا ! مع أنه من أصغرهم سنا . إن وجهه ، مع ما فيه من سمات الأطفال ، ونظرته ينمان عن فكر ناضج قبل الأوان . كان سريع الخجل بادى الرقة للجميع ، ومع هذا فثمة شيء من التحفظ أو الحياء فى نفسه يجعلان زملاءه ينأون عنه وإنه ليعانى من ذلك ، ولولا برنارد لكان عناؤه أشد مضضا .

تظاهر أوليفيه لحظة بالإصغاء إلى كل المجموعة من حوله وحذا برنارد حذوه . والحق إن أوليفيه لم يكن يهمه شيء ألبتة مما يقال .

وانحنى فوق كتف قارئ الجريدة وسمعه برنارد دون أن يلتفت إليه وهو يقول :

— أنت مخطئ إذ تقرأ الجرائد . إن ذلك يدفع الضيق إلى نفسك .

فأجابه الآخر بلهجة مرة :

— أما أنت فوجهك يتغير بمجرد أن تتكلم عن « موراس »[2] .

وسأل ثالث بلهجة ساخرة :

— هل يلذ لك أن تقرأ مقالات « موراس » ؟

وأجاب الأول : إنها تخنقنى ولكن أرى أنه على حق فيما يقول .

وقال رابع لم يتعرف برنارد على صوته :

— كل ما لا يضايقك تعتقد أنه خال من العمق .

وصاح الأول محتجا :

— أتعتقد أنه يكفى أن يكون الشخص تافها ليصبح ما يقوله ظريفا ؟

---

(١) جريدة يمينية متطرفة كانت تظهر قبل الحرب العالمية الثانية .

(٢) هو Ohrrles Maurras محرر الجريدة اليمينية Action Francaise وعضو الأكاديمية الفرنسية وقد حرم منها لتعاونه مع الألمان .

— تعال يا أوليفييه . قالها برنارد بصوت خفيض وهو يسحبه من ذراعه وسار به خطوات .

— أجبنى بسرعة فإننى فى عجلة من أمرى . سبق أن أخبرتنى أنك تنام فى غرفة ليست بنفس الطابق الذى يسكنه والداك . أليس كذلك ؟

— لقد أريتك باب غرفتى وهو يقع مباشرة على السلم وبينها وبين الطابق الذى نشغله نصف طابق .

— قلت لى أيضا أن أخاك ينام بنفس الغرفة .

— جورج ؟ نعم .

— أنتما بمفردكما ؟

— نعم .

— والصغير هل يعرف كيف يمسك لسانه ؟

— إذا لزم الأمر . لماذا ؟

— أصغ إلى . لقد تركت البيت ، أو بالأصح سوف أتركه هذا المساء . ولست أدرى بالتحديد أين أنا ذاهب . أيمكنك أن تستضيفنى ليلة واحدة ؟

وشحب وجه أوليفييه وكان انفعاله شديدا حتى تعذر عليه أن ينظر إلى برنارد .

— نعم . ولكن لا تأت قبل الحادية عشرة لأن والدتى تمر لتحيتنا كل مساء ثم تغلق بابنا بالمفتاح .

— ولكن إذا ...

وابتسم أوليفييه .

— معى مفتاح آخر . عليك أن تطرق الباب بخفة حتى لا يستيقظ جورج إذا كان نائما .

— هل يسمح لى بواب المنزل بالدخول ؟

— سوف أطلب منه ذلك فعلاقتى به حسنة للغاية وهو بنفسه الذى أعطانى المفتاح الآخر ... إلى لقاء قريب .

وافترقا دون أن يشد أحدهما على يد الآخر .

وابتعد برنارد مفكرا فى الرسالة التى أزمع كتابتها ، والتى كان يريد أن يجدها القاضى عند عودته .

ذهب أوليفييه للقاء لوسيان بركايل خشية أن يظن الرفاق أنه لاينفرد إلا ببرنارد وكان الرفاق قد تركوا لوسيان على مقربة . ولولا إيثار أوليفييه لبرنارد لأحب لوسيان حبا جما . وبقدر ما كان برنارد مقداماً ، بقدر ما كان لوسيان خجولا . إنك لتشعر بأنه ضعيف هش . يبدو كأنه لا يحيا إلا بقلبه وفكره . إنه لايجرؤ على التقدم ، ولكنه يكاد يفقد صوابه فرحا إذا ما لمح أوليفييه يقترب منه . وقد يشك الجميع فى أن لوسيان يكتب شعرا ، ولكن أوليفييه وحده — على ما أعتقد — هو الشخص الذى يقف على سر صاحبه ومشاريعه .

وتقدم لوسيان وأوليفييه نحو إحدى الشرفات فى الحديقة .

قال لوسيان : « ما أريده ، هو أن أحكى قصة ، لا قصة شخص ، بل قصة مكان ، وليكن على سبيل المثال ممرا بحديقة ، مثل هذا الممر . أريد أن أحكى ما يحدث فيه منذ الصباح حتى المساء . تأتى إليه أولا مربيات أطفال ، ورضع تزين الشرائط ملابسهن . . . لا ، لا . . . يأتى أولا أشخاص قائمون لا تدرى فى أى سن هم ، ولا تعرف أرجال هم أم نساء . فيكنسون الممر ويسقون العشب وأصص الزهر ، أو بمعنى أصح يعدون المسرح والمناظر قبل أن تفتح أسوار الحديقة أبوابها ، أتفهمنى ؟ وعندئذ يدخل الأطفال . وثمت صغار يصنعون فطائر من الرمال وآخرون يتشاجرون والمربيات يصفعنهم . ثم يحين وقت خروج التلاميذ الصغار من بيوتهم وتتبعهم العاملات ثم يحضر إلى الممر بعض الفقراء ليتناولوا طعامهم على مقاعد الحديقة . وبعد حين يحضر شباب فمنهم من يتحرى رفاقه ، ومنهم من يتهرب من صحبه ، وثمت آخرون ينفردون بأنفسهم ؟ إنهم الحالمون . ثم يتدفق جمهور الناس عندما تعزف الموسيقى وعند خروج المحلات التجارية والطلبة كما ترى الآن . وفى المساء ترى عشاقا يتعانقون وآخرون يتفارقون وهم يبكون . وأخيرا وإ ،ذا ما أرخى

الليل سدوله ، ترى كهلا وكهلة معاً . . . وفجأة تسمع دقات الطبول ، عند ميعاد إغلاق الحديقة فيخرج الجميع . هنا تنتهى التمثيلية . أتفهم ما أعنيه ؟ إننى أعنى قصة تعبر عن نهاية كل شىء ، عن الموت . . . ولكن دون أن أتكلم عن الموت طبعاً .

فرد أوليفييه وكان فكره مشغولا ببرنارد ولم يسمع كلمة واحدة مما قاله صاحبه :

— نعم أفهم ما تعنيه جيداً .

وأردف لوسيان فى حماس : ولا ينتهى الأمر عند هذا الحد . . . نعم لا ينتهى عند هذا الحد ، بل أرغب أن أصف فى الختام هذا الممر نفسه فى الليل وبعد رحيل الناس ، وهو خاو ، وأروع مما كان أثناء النهار ، أصفه فى السكون العميق وفى أصوات الطبيعة جميعا : خرير النافورة ، حفيف الريح بين الأوراق ، وتغريد عصفور من عصافير الليل . لقد فكرت أولا أن أجعل بعض الأشباح تتجول فى الممر ، ثم فكرت فى شىء كالتماثيل . . . ولكن يبدو أن هذه الفكرة ليست رائعة . ما رأيك فى ذلك ؟

وأجاب أوليفييه : « لا تماثيل . . . لا تماثيل » . قالها بلهجة شاردة ثم أردف وهو يلمح النظرة الحزينة التى ارتسمت فى عين صديقه :

— ستكون ياصديقى . . . رائعاً إذا ما نجحت فى ذلك .

الفصل الثانى

«ليس فى رسائل بوسان أثر يوحى بالعرفان لأهله . ولم يبد فيما بعد أسفا لافتراقه عنهم . لقد استقر بإرادته فى روما وفقد كل رغبة فى العودة بل قد يخيل للمرء أنه فقد كل رغبة فى الذكرى » .

بول دى جاردان من كتابه « بوسان »

كان السيد بروفيتا نديو يتعجل العودة إلى منزله ، ووجد أن زميله مولينيه الذى رافقه طوال مرورهما بشارع « سان جرمان » يسير ببطء شديد . لقد قضى البيريك بروفيتا نديو يوما مليئاً بالعمل فى دار العدالة ، وقلق لشعوره بشىء من الألم بجنبه الأيمن ، إذ أن الإرهاق عادة يؤثر على كبده الحساس .

كان يفكر فى الحمام الذى سيأخذه بعد قليل فليس ثمت شىء يريحه من همومه مثل الاستحمام . واستعداداً لهذا ، لم يتناول غداءه فهو يرى أن النزول فى الماء — حتى لو كان فاتراً — يستلزم أن تكون المعدة خاوية . وربما كان ذلك مجرد رأى فطير . ولكن الآراء الفطيرة هى دعائم المدنية .

أما أوسكار مولينيه فقد أحث الخطى جهد استطاعته محاولا اللحاق ببروفيتا نديو ولكنه كان أقصر منه قامة وأضعف ساقا ثم إن قلبه مغلف بطبقة من الشحم مما يبهر أنفاسه سريعاً . ولكن بروفيتا نديو لا يزال نشيطا وهو فى الخامسة والخمسين كما أنه عريض الصدر رشيق المشية فى مقدوره أن يسبق زميله فى السير . غير أنه حريص على أصول اللياقة فزميله أكبر منه سناً وأرقى منه فى سلك الوظيفة وله فى عنقه حق الاحترام وعليه أن يتناسى فى هذا المقام ثراءه الذى انتقل إليه بوفاة أقرباء زوجته ، وكان ثراء كبيرا ، بينما لم يكن مولينيه يملك إلا راتبه الذى يتقاضاه عن وظيفته كرئيس دائرة بالمحكمة ، وهو راتب ضئيل لا يتناسب مع هيبة المركز الذى يتبوأه بجدارة كبيرة يحاول أن يخفى بها رقة حاله . وحاول بروفيتا نديو أن يخفى تبرمه ، وكان يلتفت إلى مولينيه وينظر إليه وهو يجفف عرقه . وإن ما يقوله مولينيه ليثير اهتمامه رغم اختلاف وجهات نظرهما فيما يتكلمان فيه ، واحتدم الجدال بينهما .

قال له مولينيه : « ضع المنزل تحت الرقابة وحاول أن تحصل على معلومات البواب والخادمة الزائفة . ولكن حذار أن يخرج الأمر من يدك إن أنت دفعت التحقيق إلى أكثر مما يقتضيه المجال . . . وأعنى أن يؤدى بك التحقيق إلى أبعد مما كنت تظن فى بادىء الأمر » .

— لا علاقة بين هذه المخاوف وبين مقتضيات العدالة .

— صبراً ، صبراً يا صديقى ، إن كلاً منا يعرف تماماً ما يجب أن تكون عليه العدالة وما هى عليه فعلا . إننا نبذل أقصى جهودنا ولكننا مهما فعلنا فلن نبلغ إلا نتائج تقريبية والقضية التى تشغلك هذه الأيام حساسة للغاية ، إذ هناك من الخمسة عشر متهما — أو من بين من يصبحون متهمين بكلمة تقولها — هناك تسعة من القاصرين ، وبعض هؤلاء الصغار كما تعلم من عائلات محترمة جداً . ولذلك أرى أن أى أمر بالقبض فى هذه الحالة يعتبر سوء تقدير للعواقب . فلسوف تهتم الجرائد الحزبية بالأمر ، وتفتح أنت الباب لكل أنواع التشهير وكل ألوان التجريح . ولن تستطيع مهما كنت حذراً أن تمنع الإفصاح عن بعض الأسماء . . . وليس من حقى أن أبدى لك النصح ، بل إنك لتعرف جيداً أنه يحلو لى على النقيض من ذلك أن أطلب منك النصح إذ أننى أثق دائماً فى بعد نظرك ، ورجاحة عقلك واستقامتك . . . ولكننى لو كنت مكانك لتصرفت على النحو الآتى : ألقى القبض على أربعة أو خمسة ، أى على المحرضين وأتجنب بذلك هذه الفضيحة . . . الشنيعة . . . نعم إننى أعلم أن إلقاء القبض عليهم شىء عسير ولكن هذه طبيعة عملنا . لو كنت مكانك لأمرت بإغلاق الشقة مسرح هذه الجرائم الأخلاقية ودبرت الأمر بحيث ألفت نظر أولياء هؤلاء الصبية الفجرة ، فى سر ، ودون ضوضاء ، وفى بساطة حتى أضمن عدم عودة أبنائهم إلى هذا المنكر . عليك مثلا أن تأمر بالقبض على هؤلاء النسوة . إننى أوافقك على مثل هذا الإجراء ، ورأيى أننا فى هذه القضية نتعامل مع مخلوقات على جانب كبير من الانحطاط ، ومن الأفضل أن نطهر المجتمع منها . ولكنى أحذرك مرة أخرى من أن تلقى القبض على هؤلاء الصغار بلا كتف بتخويفهم ثم أخف كل هذه.

التصرفات تحت العبارة المألوفة « تصرف بدون تقدير للعواقب » . ولا تنس أن ثلاثة منهم لم يتجاوزوا الرابعة عشرة وأن ذويهم يضعونهم فى عداد الملائكة ويعتبرونهم مثالا للطهر والبراءة . ولكن يا صديقى أخبرنى ، أكنا نفكر فى النساء ونحن فى هذه السن ؟ . . .

ووقف مولينيه وقد أرهقته فصاحته أكثر مما أرهقته السير وأمسك بذراع بروفيتا نديو مرغما إياه على الوقوف . وأردف : ولو قد فكرنا فيهن ، ونحن فى هذه السن لكان ذلك على نحو مثالى ، صوفى أو دينى لو جاز مثل هذا التعبير . أما صغار اليوم ، كما ترى ، فليس لهم أى مثل أعلى . . . وبهذه المناسبة كيف حال أولادك ؟ بالطبع أنا لم أكن أعنيهم بما قلت وأنا أعلم أنهم تحت إشرافك وبفضل تربيتك لا يتعرضون لمثل هذه الانحرافات .

والحق أن بروفيتا نديو لم يصادف حتى هذه اللحظة ما يدعوه للشكوى من أولاده . ولكنه لم يخدع نفسه ، وكان يعرف أن التربية الحسنة لا قبل لها بمقاومة غرائز الشر . حمداً لله أن أولاده أبرياء من هذه الغرائز ، وكذلك أولاد مولينيه دون شك . ولذا كانوا يحمون أنفسهم بأنفسهم من معاشرة قرناء السوء أو من القراءات المفسدة ، إذ ما قيمة أن تمنع ما لا يمكن منعه ، فالطفل يقرأ خفية ما تمنعه من قراءته . ولكن بروفيتا نديو لم يكن يمنع أولاده من القراءة غير أنه كان يدبر أمره بحيث يباعد بينهم وبين الرغبة فى مثل هذه القراءات . أما عن موضوع القضية التى يتولى تحقيقها فإنه سوف يفكر فيه ، ووعد صديقه ألا يتخذ أى إجراء قبل أن يتحدث إليه فيه . وسوف يكتفى بأن تستمر الرقابة على هؤلاء الصبية عن قرب وبطريقة خفية ، وما دام الأمر قد دام ثلاثة أشهر فلا بأس من أن يستمر بضعة أيام أو بضعة أسابيع أخرى وزيادة على ذلك فالاجازة الصيفية نفسها كفيلة بأن تشتت هؤلاء المنحرفين .

وحيا بروفيتا نديو صديقه وافترقا . .

واستطاع بروفيتا نديو أخيراً أن يسرع الخطى .

وما إن دخل بيته حتى أسرع إلى الحمام وفتح صنابير المياه . وكان أنتوان الخادم ينتظر عودته ولذا دبر الأمر بحيث التقى به فى الممر .

عمل هذا الخادم الأمين فى البيت منذ خمسة عشر عام ، وكبر الصغار على عينه ، وما أكثر ما رأى من أمور وتشكك فى أخرى ولكنه كان يتظاهر بأنه لايلاحظ شيئا مما يحاولون إخفاءه عنه .

وكان برنارد يشعر بود حقيقى لأنتوان ولم يرد أن يرحل عن البيت دون أن يودعه . بل ربما شعر وهو فى ثورته على أسرته ببعض المتعة فى أن يبث هذا الخادم سر رحيله في الوقت الذى سيجهل فيه أهله سببه . ولكن تبرئة لبرنارد يجب الاعتراف بأن أحداً من ذويه لم يكن فى المنزل عند ذاك . ثم إنهم لو كانوا هناك لما استطاع أن يودعهم دون أن يحاولوا منعه من الرحيل . كان برنارد يخشى الاستفسارات . أما مع أنتوان ففى استطاعته أن يقول ببساطة : « إنى ذاهب » . وفعل ذلك فمد يده بشكل فيه جد وجلال حتى دهش الخادم العجوز وقال :

— ألا يعود السيد برنارد للعشاء ؟

— ولا للنوم يا أنتوان .

وبينما كان هذا الأخير فى حيرة من أمره يتساءل عما يمكن أن يفهمه من هذا التصرف ، فكر : أكان عليه أن يطلب منه المزيد من الإيضاح ؟

وأعاد برنارد قوله « إنى راحل » بطريقة فيها المزيد من التأكيد . ثم أردف :

— تركت رسالة على منضدة . . .

ولكنه لم يستطع أن ينطق بكلمة « والدى » وأضاف :

— . . . على منضدة حجرة المكتب . وداعا .

وكان يشعر ، وهو يشد على يد أنتوان بانفعال شديد وكأنه يفارق ماضيه كله ،

وكرر بسرعة كلمة « وداعا » ثم رحل قبـل أن يترك الشهقة التى غص بها حلقه تفلت منه .

وشعر أنتوان بمسئولية إذ تركه يرحل هكذا ، ولـكن كيف السبيل إلى منعه من الرحيل ؟

سيفجأ أهل برنارد هذا الرحيل وسيكون أمراً فظيعاً بالقياس إليهم ، وإن أنتوان ليعلم هذا تماما ، ولـكن مقتضيات مهنته ـ باعتباره خادما ممتازاً ـ تفرض عليه أن يخفى دهشته فليس من حقه أن يعرف ما يجهله السيد بروفيتا نديو . نعم كان يستطيع أن يقول له ببساطة : « هل يعرف سيدى أن السيد برنارد قد رحل ؟ ولـكن سؤالا كهذا خليق بأن ينزله من مكانته كما أنه غير مقبول . وإن كان قد انتظر سيده بلهفة فلـكى يلقى له بالخبر فى نبرة مجردة من أى انفعال ، وبكل احترام ، كأن ما كلفه برنارد بإبلاغه ليس غير أمر عادى ، ولـكى يلقى له هذه الجملة التى أعدها بعناية :

ــ ترك السيد برنارد قبل أن يرحل رسالة لسيدى فى حجرة مكتبه .

إنها جملة بسيطة تـكاد لفرط بساطتها أن تمر فلا تلفت النظر . وقد بحث دون جدوى عن ألفاظ تـكون أشد إيضاحاً ولـكنه لم يجد كلاما آخر يبدو فى شكل طبيعى . ولـكن برنارد لم يعتد الغياب عن البيت ولهذا لم يستطع السيد بروفيتا نديو ــ وكان أنتوان ينظر إليه من طرف عينه ــ أن يكبت انفعاله إذ صاح :

ــ كيف ! . قبل . . .

ــ وتمالك نفسه فى الحال فليس من اللائق أن يدع دهشته تبدو أمام شخص أدنى منه مرتبة ، لم يكن إحساسه بكبريائه يزايله أبداً . وأردف بلهجة هادئة وبصوت وقور حقاً :

ــ حسناً .

وأضاف وهو فى طريقه إلى حجرة مكتبه :

— أين هذه الرسالة ؟

— على مكتب سيدى .

وما إن دخل الحجرة حتى رأى الرسالة موضوعة بطريقة لافتة للنظر فى مواجهة المقعد الذى اعتاد أن يجلس عليه ليكتب . ولكن أنتوان لم يكن ليتركه بهذه السرعة ولذلك لم يكد بروفيتا نديو يقرأ سطرين من الرسالة حتى سمع نقراً على الباب وصوت خادمه يقول :

— نسيت أن أخبر سيدى أن هناك شخصين ينتظران فى حجرة الاستقبال .

— أى شخصين ؟

— لا أعرف .

— هل حضرا معا ؟

— لا يبدو عليهما ذلك .

— وماذا يريدان منى ؟

— لا أعرف ـ إنهما يرغبان أن يريا سيدى .

وضاق بروفيتا نديو ذرعا فقال :

— سبق أن قلت وكررت القول بألا يزعجنى أحد هنا ـ ولاسيما فى هذه الساعة إن لى أياما وساعات محددة لاستقبال الناس بالمحكمة . . . فلماذا سمحت لهما بالدخول ؟

— قالا إن عندهما أمرا ملحا يريدان أن يخبرا سيدى به .

— هل هما هنا منذ وقت طويل ؟

— منذ ساعة تقريبا .

وسار بروفيتا نديو بضع خطوات فى الحجرة ومر بيده على جبينه وكان يمسك بيده الأخرى رسالة برنارد .

وبقى أنتوان بجانب الباب محتفظا بوقاره ولا يبدو عليه أى انفعال وأخيرا

استمتع لأول مرة فى حياته بمنظر سيده وهو يفقد هدوءه ، وسمعه يرعد وهو يدق الأرض بقدمه :

— ليتركانى وشأنى — ليتركانى وشأنى . قل لهما إنى مشغول وليعودا مرة أخرى . وما إن غادر « أنتوان » الغرفة حتى جرى بروفيتا نديو نحو الباب صائحا « أنتوان! أنتوان! » . . . أغلق صنابير حوض الاستحمام . ولكن كان ينتظر السيد « بروفيتانديو » حمام من نوع آخر ... لقد اقترب من النافذة وقرأ ما يلى :

سيدى

أكتشفت بمحض الصدفة بعض الحقائق اليوم ، وأدركت أنه يجب على أن أكف عن اعتبارك أباً لى . وقد استرحت لمعرفة ذلك إذ كنت أتوهم أننى ابن عاق كلما شعرت بقلة حبى لك ولذلك سررت بالحقيقة التى اكتشفتها اليوم . ولعلك ترى أننى مدين لك بالعرفان لأنك عاملتنى كابن من أبنائك ، ولكنى أشعر دائما بالفرق فى معاملتك لى ومعاملتك لهم ، وقد عرفت أن ما كنت تظهره لى من المحبة واللطف لم يكن الا خشية الفضيحة ، أى لإخفاء حقيقة لاتشرفك كثيرا ، وأخيرا لأنك لم تكن تملك أن تتصرف على نحو آخر ، وإنى لأوثر الرحيل دون أن أرى والدتى لأننى أخشى أن أضعف عند توديعها الوداع الأخير ، ثم إنى لا أحب أن أسبب لها جرحا . وأنا أشك فى أن يكون حبها لى قويا . فلقد قضيت أغلب الوقت بالمدارس الداخلية ولم يتح لها الوقت لتعرفنى على حقيقتى ، وربما كان فى رؤيتها لى ما يذكرها بشىء فى حياتها كانت تحب محوه ، ولعلها ترى الآن فى رحيلى نوعا من العزاء أو حتى من السعادة .

قل لها — إن كانت لك القدرة على ذلك — إننى لا أحمل لها فى نفسى أية ضغينة لأنها جعلت منى إبناً غير شرعى ، بل إننى على العكس لأوثر أن أكون كذلك على أن أكون ابنا لك (واعذرنى أن كنت أقول ذلك . وليس قصدى أن أوجه لك سبابا وربما ساعدك قولى هذا على أن تحتقرنى وفى هذا ما يهون الأمر عليك)

« وإذا كنت تريد أن أكتم الأسباب التى دفعتنى إلى ترك بيتك فإننى أطلب منك مقابل ذلك ألا تحاول إعادتى إليه فالقرار الذى اتخذته قرار لا رجعة فيه . ولا أدرى مقدار ما تكبدته فى الإنفاق على حتى اليوم . وقد كنت أقبل أن تعولنى مادمت أجهل حقيقة أمرى ، ولكن من البديهى أننى من الآن لا أقبل منك أى شىء . فمجرد شعورى بأنى مدين لك بأى شىء يسبب لى ألما شديدا ، ولو عشت حياتى مرة أخرى لآثرت الموت جوعا على الجلوس إلى مائدتك .

أذكر أنى سمعت — لحسن الحظ — أن أمى كانت أكثر ثراء منك عندما تزوجتك . ومن حقى أن أعتقد أننى كنت أعيش على حسابها هى . وأنا أشكرها على ذلك وأعتبرها قد قامت بالتزاماتها نحوى كما أطلب منها أن تنسانى . ولعلك تجد طريقة تفسر بها أسباب رحيلى لمن يدهشهم الأمر . وأنا أسمح لك بأن تحملنى مسئولية هذا العمل (ولكنى أعرف أنك لا تنتظر سماحى هذا لكى تحملنى تلك المسئولية) .

وإنى أوقع الرسالة بذلك الاسم الذى أود أن أعيده إليك .

« برنارد بروفيتا نديو »

ملحوظة : أترك لديك حاجياتى فقد يستفيد بها ابنك « كالوب » وأرجو أن يكون أحق منى بها ... »

واتجه السيد « بروفيتا نديو » إلى مقعد وثير وهو يترنح . كان بوده أن يفكر فى الأمر ولكن الأفكار تخبطت بغموض فى رأسه . أضف إلى ذلك أنه شعر بألم فى جنبه الأيمن . إنها أزمة الكبد .

ترى هل بالمنزل بعض الماء المعدنى ؟

آه لو كانت زوجته بالمنزل ! ولكن كيف يخبرها بهروب برنارد ؟ أيريها الرسالة ؟ إنها لرسالة ظالمة . بل بالغة الظلم . جدير به أن يسخط عليها . وأنه ليود أن يأخذ حزنه مأخذ السخط . كان يتنفس بصعوبة وكل شهقة تصحبها هذه العبارة :

« آه يا إلهى » ! وكان ينطقها بسرعة وضعف كأنه يتنهد ... وامتزج ألم الجنب مع الحزن، وأكد الألم الحزن بل ركزه حتى خيل إليه أن الحزن «فى كبده» وارتمى على المقعد وأعاد قراءة رسالة « برنارد » وكان يرفع كتفيه فى حزن . لاشك أن هذه الرسالة بالغة القسوة ولـكنه أحس بما فيها من حقد وتحد وسخرية ... وأى ولد من أولاده الحقيقيين ، لم يكن يستطيع أن يكتب هكذا . كما أنه هو نفسه يعجز عن ذلك بدوره ، وهو يعرف هذه الحقيقة جيدا فما من شىء فى نفوس أبنائه إلا وقد لمسه فى نفسه . لقد شعر دائما بأن عليه أن ينتقد ما فى برنارد من جدة وتصلب وتمرد . ولـكن عبثا ما شعر به ، فقد كان يحس تماما أنه يعزه بسبب ما فيه من ذلك إعزازاً لم يعززه للآخرين .

ومنذ لحظات كان عزف سيسيل يسمع من الحجرة المجاورة ، فقد عادت من الحفل الموسيقى وجلست إلى المعزف وراحت تعيد هذا اللحن فى إصرار وعناد وأخيرا لم يطق « البيريك بروفيتا نديو » صبرا فوارب باب حجرة الاستقبال لها بصوت فيه رجاء بل توسل — لأن ألم كبده بدأ يعذبه بقسوة — (فضلا عن أنه كان فى معاملته لها خجولا بعض الشىء) .

— يا صغيرتى . هل تستطيعين أن تبحثى عن بعض المياه المعدنية فإن لم تجديها فى المنزل أرجوك أن ترسلى فى إحضارها . كما أرجوك أن تكفى عن عزفك قليلا .

— هل أنت متعب ؟

لا ، لا ولـكنى فى حاجة إلى أن أفـكر فى شىء حتى يحين موعد العشاء ، وعزفك يعوقنى عن التفكير .

وأضاف برقة ، لأن الألم يورثه الوداعة عادة .

— ما كنت تعزفيه جميل جدا . ماذا كنت تعزفين ؟

وخرج دون أن يسمع جوابها . ومع كل فابنته التى تعرف جهله بالموسيقى لم يكن فى نيتها أن تجيبه على سؤاله . ولـكن ها هو ذا يفتح الباب ثانية ويسأل :

ـ هل عادت أمك ؟

ـ لا . لم تعد بعد .

هذا مستحيل ، ستعود متأخرة ولن يكلمها قبل العشاء . وماذا يستطيع أن يجد من أسباب ليبرر ولو مؤقتا تغيب « برنارد » ؟ ومع كل ليس فى مقدوره أن يسرد الحقيقة فيكشف لأولاده عن الخطيئة العارضة التى ارتكبتها أمهم . آه ! لقد شمل العفو كل شىء وطواه النسيان . وجاء ميلاد ابنهما الأخير فمهر صلحهما ، وفجأة برز هذا الشبح المنتقم من غياهب الماضى ، هذه الجثة التى أعادتها الأمواج ...

ما هذا أيضا ؟ لقد انفتح باب مكتبه دون ما صوت ، وبسرعة وضع الرسالة فى جيب سترته الداخلى . لقد ظهر خلفه « كالوب » وهو يقول :

ـ يا أبتاه ... ما معنى هذه الجملة اللاتينية ؟ إنى لا أفهم منها شيئا ...

ـ سبق أن قلت لك ألا تفتح الباب دون أن تطرقه ، ثم إنى لا أريد أن تحضر لإزعاجى فى كل وقت . لقد اعتدت أن يساعدك الآخرون وأن تعتمد عليهم بدلا من أن تبذل مجهودا ذاتيا . كانت أمس مادة الهندسة ، وها أنت اليوم ... لمن هذه الجملة اللاتينية ؟

ومد « كالوب » يده بكراسته وهو يقول :

ـ لم يقل لنا إسمه . ولكن خذ وانظر ؟ إنك سوف تعرفه . لقد أملاها لنا . وربما أسأت كتابتها . وكنت أود أن أعرف على الأقل هل كتبتها صحيحة ؟

وأمسك السيد « بروفيتا نديو » بالكراسة ولكنه شعر بألم مبرح ودفع عنه الطفل برفق وهو يقول :

ـ فيما بعد . سوف نذهب للعشاء . هل عاد « شارل » ؟

ـ لقد نزل إلى مكتبه (وشارل المحامى يستقبل زبائنه بالطابق الأرضى) .

ـ أطلب منه أن يحضر لمقابلتى . إذهب بسرعة .

ودق أخيراً جرس الباب ودخلت السيدة « بروفيتا نديو » وهى تعتذر عن تأخيرها إذ أنها اضطرت للقيام بعدة زيارات ، وحزنت عندما رأت زوجها متألما . ترى ماذا تعمل من أجله ؟ حقاً إن دلائل الألم بادية عليه ، ولن يستطيع العشاء ، إذن فليجلسوا إلى المائدة بدونه ولتأت بعد العشاء لتراه هى والأولاد .

— آه ! برنارد ! لقد نسيت ، إن صديقه ... أتعرفينه ؟ هذا الصديق الذى اعتاد أن يتلقى معه دروسا فى الرياضة ، لقد جاء ليصحبه للعشاء .

وبدأ السيد « بروفيتا نديو » يشعر بشىء من التحسن . كان يخشى أول الأمر أن يعوقه الألم الشديد عن الكلام ، وكان عليه أن ينتحل عذراً لاختفاء « برنارد » وهو يعرف الآن ما يجب قوله ، مهما كان ذلك أليما . وأحس فى هذه اللحظة بالثبات والتصميم . كل ما كان يخشاه هو أن تقاطعه زوجته بالبكاء أو بالصياح ، أو أن تنهار .

وبعد العشاء حضرت ومعها أولادها الثلاثة ثم اقتربت منه وأجلسها بجانبه وقال لها فى صوت خفيض ولكن فى نبرة آمرة :

— حاولى أن تتماسكى ولا تردى بكلمة واحدة . وسنتحادث سويا فيما بعد . وبينما هو يتكلم احتفظ بإحدى يديها بين يديه .

— هيا ، اجلسوا يا أولادى . لكم يضايقنى أن أراكم وقوفاً أمامى وكأنكم فى امتحان ولكن على أن أنبئكم بأمر محزن للغاية ... لقد غادرنا برنارد ولن نراه ... لبعض الوقت . ويجب أن أخبركم اليوم بما أخفيته عليكم حتى الآن لرغبتى فى أن أراكم تحبونه كأخ لكم ، فوالدتكم وأنا نفسى كنا نحبه وكأنه ابن لنا . ولكنه لم يكن ابننا ... وقد جاء هذا المساء خال له ، أخ لأمه الحقيقية التى عهدت به إلينا عند وفاتها — ليأخذه .

وأعقب كلماته هذه سكوت مؤلم وأخذ الجميع ينتظرون اعتقاداً منهم أنه سوف يزيد شيئاً ولكنه أبدى حركة بيده وقال :

— اذهبوا الآن ياأولادى لأنى فى حاجة إلى أن أتحدث مع أمكم .

وبعد خروجهم بقى السيد « بروفيتا ندبو » طويلا دون أن يقول شيئاً . وبدت يد زوجته التى تركتها بين راحتيه وكأنها مجردة من الحياة ورفعت يدها الأخرى منديلها إلى عينيها واتكأت بمرفقها على المنضدة الكبيرة وأشاحت بوجهها لكى تبكى . وسمعها « بروفيتا ندبو » تتمتم ببعض العبارات التى كانت تهزها هزاً ، بهذه الكلمات :

ـ أواه ؟ كم أنت قاس ... أواه ؟ لقد طردته ...

كان قد قرر ألا يخبرها بشىء عن رسالة « برنارد » ولكنه أمام هذا الاتهام الظالم مد يده بها وقال :

ـ خذى : اقرئى .

ـ لا أستطيع .

ـ يجب أن تقرئيها .

ولم يعد يفكر فى أوجاعه وأخذ يتابعها بعينيه وهى تقرأ الرسالة سطراً بعد سطر . لقد كان منذ لحظات يجد صعوبة فى حبس عبراته عاما ، أما الآن فقد زايله انفعاله وراح ينظر إلى زوجته . فيم تفكر ؟

وبنفس الصوت الشاكى وخلال عبراتها غمغمت قائلة :

ـ أواه ! لماذا أخبرته بذلك ... ما كان عليك أن تحكى له ...

ـ ولكنك ترين جيداً أننى لم أحك له شيئاً ... إقرئى رسالته بإمعان .

ـ لقد قرأتها جيداً ... ولكن كيف اكتشف الأمر إذن ؟ من قال له إذن ؟ .

ماذا ! أهى تفكر فى ذلك ! أهذه نبرة حزنها ! كانت هذه المحنة خليقة بأن تجمعهما معاً : ولكن وا أسفاه ! لقد أحس « بروفيتا ندبو » إحساساً غامضاً بأن أفكارها تسير فى طريقين مختلفين . وبينما هى تحاول جاهدة أن تشكو وأن تتهم وأن تطالب ، حاول هو أن يوجه هذا الذهن الناشز إلى مشاعر أشد ورعا . قال :

ـ هذا هو التكفير .

ودفعته حاجة فطرية إلى السيطرة فوقف منتصباً غير مبال بأوجاعه البدنية بل ناسياً إياها ، ووضع يده بوقار وحنان بل بتسلط على كتف « مرجريت » وهو موقن تماما أنها لم تندم الندم الكافى على فعلتها التى اعتبرها هفوة عابرة . وهو يود الآن لو استطاع أن يقول لها إن هذا الأسى وهذه المحنة يمكن أن يساعداها على التكفير عن خطيئتها ، ولكنه بحث دون جدوى عن صيغة يرضى عنها وتقتنع هى بها ، وشعر أن كتف « مرجريت » لا يريد أن يتجاوب مع ضغط يده الرقيق . وكانت «مرجريت» تعرف جيداً أنه لابد له أن يستخرج من كل حدث من أحداث الحياة ـ مهما كان تافها ـ موعظة من مواعظه الأخلاقية فهو يفسر كل شىء أو يؤوله طبقاً لعقيدته فى الحياة . وهاهو ينحنى عليها . وكم ود لو قال لها هذه الكلمات :

« ياعزيزتى ، لا يخرج الخير من الإثم أبداً ، ولم تنفعك فى شىء محاولته تغطية غلطتك . وا أسفاه ! لقد بذلت كل ما فى وسعى من أجل هذا الولد ، وعاملته كما لو كان ابنى . ولكن الله يرينا الآن أن هذا التصرف كان تصرفا خاطئاً » ولكنه نطق أول جملة ثم كف عن الكلام .

ولا شك أنها فهمت هذه الكلمات القليلة المفعمة بالمعانى . ولا شك أنها نفذت إلى قلبها فها هى العبرات تعاودها ، ولكنها ازدادت انهماراً مع أنها كانت قد كفت عن البكاء ، ثم ها هى تنثنى وكأنها تتأهب لتجثو أمامه ، وها هو بدوره ينحنى نحوها ويمسكها . ما ذا تقول من بين عبراتها ؟ لقد انحنى حتى لاصق شفتيها وسمعها تقول :

ـ ها أنت ترى ... هاأنت ترى ... آه ! لماذ ! عفوت عنى ... ؟ آه ! لم أكن خليقة أن أعود ! .

كان صوتها خفيضاً حتى اضطر أن يحدس ليفهم همسها . ثم سكتت إذ وجدت أنها هى أيضاً عاجزة عن أن تقول أكثر من ذلك . كيف تستطيع أن تقول له إنها تحس أنها سجينة فى هذه الفضيلة التى يطلبها منها ، وأنها تختنق ، وأنها لا تأسف فى هذه اللحظة على خطيئتها بقدر ما تأسف لندمها عليها ؟ وانتصب « بروفيتانديو » قائــلا :

« يا عزيزتى ـ قالها بلهجة فيها وقار وحزم ـ إننى أخشى أن تكونى قد صدمت هذه الليلة . الوقت متأخر والأفضل لنا أن نذهب لننام » . ثم ساعدها على النهوض وصحبها إلى غرفتها ووضع شفتيه على جبينها ، وعاد إلى مكتبه وارتمى على مقعد . شىء غريب ، لقد خفت أزمة كبده ولكنه شعر أنه محطم وبقى ممسكا بجبينه بين راحتيه عاجزاً عن البكاء لفرط حزنه . ولم يسمع طرقا على الباب فلما انفتح رفع رأسه إنه ولده شارل :

ـ جئت لأحييك تحية المساء .

واقترب شارل منه ولقد فهم كل شىء وهو يريد أن يشعر أباه بأنه فهم ، كما يريد أن يبدى له عطفه عليه وتفانيه فى حبه ، ولكن من يتصور أن محاميا مثله يكون على هذا القدر من العجز فى التعبير عن مشاعره ، أو ربما بدا بهذا العجز فى التعبير لصدق مشاعره ، ولذا عانق والده . والطريقـة اللمحة التى وضع بها رأسه على كتف والده ، وبقاؤه فى هذا الوضع بعض الوقت أقنعت الوالد بأن ابنه قد أدرك كل شىء . لقد فهم كل شىء حتى أنه سأل وهو يرفع رأسه ـ ولم يكن بارعا فى سؤاله كما هو شأنه دائماً ـ ولكن قلبه كان منزعجا لدرجة أنه لم يستطع أن يمسك لسانه ـ سأل هذا السؤال :

ـ و « كالوب » ؟

وكان السؤال سخيفاً لأنه بقدر ما كان « برنارد » مختلفاً عن الأسرة بقدر ما كان « كالوب » شبيها بها وربت « بروفيتا نديو » برفق على كتف « شارل » وهو يقول :

ـ لا ، لا ، اطمئن . « برنارد » وحده .

وعندئذ قال « شارل » بوقار متكلف .

ـ طرد الله الدخيل إلى ...

ولكن « بروفيتا نديو » أوقفه ، لأنه لم يكن فى حاجة لأن يقال له مثل ذلك الكلام ، وقال :

— صنه .

ولم يعد للأب والإبن شيء يقولانه ، فلنتركهما وقد قاربت الساعة الحادية عشرة. ولنترك السيدة « بروفيتا نديو » في غرفتها ، جالسة على مقعد صغير غير مريح . لم تعد تبكي ، بل إنها لا تفكر في شيء وإنها لتتمنى هي الأخرى أن تفر . ولكنها لا تستطيع ذلك . عندما كانت مع عشيقها والد « برنارد » — ولا تهمنا معرفته — كانت تقول لنفسها : « مهما فعلت فستكونين امرأة شريفة » كانت بطبعها تخاف الحرية والجريمة والانسياق وراء الغرائز ، ولهذا عادت بعد عشرة أيام إلى بيتها نادمة . كان أبواها إذن على حق عندما قالا لها فيما مضى : « إنك لا تعرفين ما تريدين » .

فلندعها هي الأخرى . وقد نامت سيسيل. أما « كالوب » فإنه ينظر بيأس إلى شمعته لأنها لن تستمر وقتاً كافياً لتتيح له أن يفرغ من قراءة قصة مغامرات تلهيه عن رحيل « برنارد » . إن الفضول ليدفعني إلى معرفة ما قال « انتوان » لصديقته الطاهية ولكن لا يمكن أن نسمع كل شيء . حان ميعاد اللقاء بين « برنارد » و « أوليفيه » . ولا أدري بالضبط أين تناول عشاءه ذلك المساء إن كان قد تناوله .. لقد مر بسلام أمام غرفة البواب وصعد السلم خلسة ...

الفصل الثالث

« الرخاء والسلم يلدان الجبناء ، والتقشف أبو الإقدام »
شكسبير

أوى « أوليفييه » إلى فراشه وانتظر قبلة أمه فقد اعتادت تقبيله وأخيه كل مساء وهما في سريرهما . ولم يكن ليتوانى عن ارتداء ملابسه ثانية ليستقبل « برنارد » ولكنه ما برح يشك في مجيئه ، كما خشى أن يثير شكوك أخيه الأصغر . وكان من عادة « جورج » أن ينام بسرعة كما كان من عادته أن يستيقظ متأخراً . ولعله لم يشعر هذه الليلة بشيء غير عادى .

وسمع « أوليفييه » طرقا خيفا على الباب ، فقفز من سريره ووضع قدميه بسرعة في خف وأسرع إلى الباب يفتحه . ولم يكن في حاجة إلى إشعال الضوء لأن القمر المكتمل كان يضيء الغرفة .

وعانق « أوليفييه » « برنارد » ...

— كم انتظرتك ! ولكنى ظننت أنك لن تأتى . أيعرف والداك أنك لن تقضى الليلة بالبيت ؟ .

ولكن « برنارد » كان ينظر أمامه في ظلام الليل ، ورفع كتفيه :

— أتعتقد أنه كان على أن أسألهما إذناً بذلك ؟

وكانت في نبرة صوته برودة تمتزج بالسخرية حتى أن « أوليفييه » شعر فجأة بسخف سؤاله . ولم يفهم بعد أن « برنارد » غادر داره دون رجعة . وظن أنه سيقضى هذه الليلة فقط بعيداً عن بيته ، ولم يدرك سبب هذا الهروب ، وسأله :

— متى تنوى العودة إلى بيتك ؟

لن أعود إليه أبداً !

وهنا بدأت الأمور تتضح فى ذهن « أوليفييه » . وكان همه أن يظهر أنه فى مستوى الظروف وألا شىء يدهشه ، ومع هذا أفلتت من شفتيه هذه الجملة . « إن ما تفعله لأمر خطير حقاً » .

ولم يسىء برنارد أن يدهش صديقه بعض الدهشة . وسرته لهجة التعجب فى فى عبارة صاحبه وما تخفيه من إعجاز ، ومع ذلك رفع كتفيه ولم يرد . وهنا أخذ « أوليفييه » يده بين يديه وقال بلهجة جادة يستشف منها القلق :

— ولكن ... لماذا تترك بيتك ؟

آه ! هذا يا صديقى من شئونى ، ولا أستطيع أن أقوله لك .

ولكى لا يبدو جاداً أكثر من اللازم ، راح يلهو بطرف حذائه فأسقط الخف من قدم « أوليفييه » وكان الأخير يؤرجحه وهما جالسان على حافة السرير .

— وفى أى مكان تنوى إذن أن تعيش ؟

— لا أعرف .

— وبأى طريقة ؟

— سوف أتدبر الأمر .

— ألديك مال ؟

— عندى ما يكفينى لأتناول وجبة الإفطار غداً .

— وبعد ذلك ؟

— وبعد ذلك على أن أبحث عن وسيلة . وسوف أجد شيئاً ما . سوف ترى . وسأقص عليك ما سأفعله .

وشعر « أوليفييه » بإعجاب فائق نحو صديقه ، وهو يعلم أنه صلب المراس . ولكنه ما برح يشك فى نجاحه . إنه لا مورد له ، وستلح عليه الحاجة قريباً فهلا يعود إلى بيته ؟ وطمأنه برنارد قائلا إنه سوف يحاول أى شىء ولكنه لن يعود

إلى ذويه . ولما كرر عبارة « أى شىء » فى عنف وشدة ، استحوذ القلق على قلب « أوليفييه » ، وأنه ليود أن يحدثه فى الأسر ولكنه لا يجرؤ . وأخيراً بدأ يقول بصوت متردد وهو يطأطىء رأسه :

— « برنارد » ... ولكنك على أى حال ... لا تنوى ... ثم كف عن الكلام ورفع برنارد نظره إليه فلمس ارتباكه رغم أنه لم يره جيداً .

— عن أى شىء تتكلم ؟ ماذا تعنى ؟ تكلم . أتعنى أنى سأسرق ؟

وأومأ « أوليفييه » برأسه نفياً . إنه لا يعنى ذلك . وانخرط فجأة فى البكاء ، ثم احتضن « برنارد » وهو ينتفض .

— عدنى أنك لن ...

وهنا عانقه « برنارد » ثم أبعده عنه وهو يضحك . لقد فهم :

— إننى أعدك بهذا . لا لن أقوم بدور القواد ... ثم أضاف :

— ولكنك تعرف طبعاً أن هذا أيسر السبل .

واطمأن « أوليفييه » وهو يعرف تماماً أن برنارد لم يقل هذه الكلمات الأخيرة إلا متكلفاً .

— وامتحانك ؟

— نعم هذا مايضايقنى حقاً . ولا أحب أن أرسب فيه . وأعتقد أنى متأهب له . وغاية ما فى الأمر هو أنى أرجو ألا أكون متعباً فى ذلك اليوم . ويجب أن أتصرف بلباقة وبسرعة لأتغلب على الأمر . وفى هذا بعض المجازفة ، ولكننى سوف أخرج من المأزق ، وسوف ترى .

وبقيا لحظة صامتين . ووقع الخف الثانى من قدم أوليفييه فقال « برنارد » سيصيبك البرد — هيا إلى سريرك .

— لا . هيا أنت إلى السرير .

— أتمزح ؟ — هيا ، أسرع ، ودفع « أوليفييه » إلى سريره .

— ولكن أنت ؟ أين ستنام ؟

— فى أى مكان — على الأرض — فى ركن — يجب أن أعتاد ذلك .

— لا . أصغ إلى ... أريد أن أقول لك شيئاً ، ولكننى لن أستطيع ذلك إن لم أشعر بأنك قريب منى جداً . تعال إلى سريرى .

ولحق به « برنارد » بعد أن خلع ملابسه ، وقال « أوليفييه » :

أتذكر ما سبق أن قلته لك فى المرة السابقة ... لقد انتهى الأمر . لقد ذهبت إلى ذلك المكان .

وفهم « برنارد » هذا الكلام المبهم . وضم صديقه إليه ، وقال أوليفييه : إنه أمر تعافه النفس إنه شىء فظيع ... وبعد أن أقدمت عليه شعرت بالرغبة فى أن أبصق ، وأن أفرغ مافى جوفى ، أو أنتزع جلدى من جسدى ، أو أن أقتل نفسى .

— إنك تبالغ فى الأمر .

— أو أن أقتلها ، إنها ..

— من كانت ؟ ألم تكن متهوراً على الأقل ؟

— لا . إنها امرأة يعرفها « دورمير » جيداً وقد قدمنى إليها . حديثها بخاصة هو الذى أغثى نفسى . لم تكف عن الكلام . وكم هى غبية !

إننى لا أفهم أن يتكلم الناس فى هذه اللحظات . لقد تمنيت أن أضربها أو أن أخنقها ...

— يا عزيزى ! كان عليك أن تفهم أن « دورمير » لا يمكن أن يقدم إليك إلا مغفلة ... هل كانت جميلة على الأقل ؟

— أتظن أننى نظرت إليها !

ـ إنك غبي ، إنك ظريف للغاية . هيا بنا ننم ... هل استطعت على الأقل أن ...

ـ الشيء الذى يغثى نفسى أكثر من أى شيء آخر هو أنى استطعت بالرغم من كل شيء ... وكأننى أرغب فيها فعلا .

ـ حسنا يا صديق .

ـ صه . إن كان هذا هو « الحب » فلقد شبعت منه ولأجل طويل .

ـ يا لك من طفل !

ـ كنت أريد أن أراك مكانى .

ـ أنا لا أسعى وراء ذلك . وسبق أن قلت لك إنى أنتظر الفرصة . أنتظرها بلا تحمس لأن الأمر لا يهمنى كثيرا . ولكن لا مانع إذا ما ...

ـ إذا ما ...

ـ إذا كانت ... لا شيء . لننم . وأدار ظهره فجأة وهو يبتعد قليلا عن هذا الجسد الذى ضايقته حرارته . ولكن عاد أوليفييه بعد لحظة يقول :

ـ أتعتقد أن « بارس » سينتخب ؟

ـ أهذا أمر يهمك ؟

ـ لا . لا أهتم به على الإطلاق ... إصغ إلى قليلا ...

وهنا ضغط على كتف « برنارد » الذى استدار وقال :

ـ لأخى خليلة .

ـ جـــورج ؟

وعندما سمع « جورج » الصغير اسمه أمسك أنفاسه وكان يتظاهر بالنوم ، ولكنه كان ينصت لحديثهما مرهفا السمع فى الظلام .

ـ أمعتوه أنت ! إنى أحدثك عن « فنسان » (وفنسان أكبر سنا من « أوليفييه » وكان قد أتم سنواته الأولى فى دراسة الطب) .

ـ هل قال لك ذلك ؟

ـ لا . علمت بالأمر دون أن يساوره شك فى ذلك . أما والداى فلا علم لهما بشىء عن ذلك .

ـ وماذا يمكن أن يفعلا لو علما بالأمر ؟

ـ لا أعرف . أمى خليقة بأن ينتابها يأس شديد . أما أبى فربما طلب منه أن يفصم علاقته بها أو أن يتزوجها .

ـ يا للعجب لايتصور السبور جوازيون الشرفاء شرفاً إلا على طريقتهم . وكيف علمت بالأمر ؟

ـ اعتاد « فنسان » منذ وقت ما أن يخرج فى الليل بعد أن يأوى والدانا إلى فراشهما . يحاول ألا يحدث أى ضوضاء عند نزوله ولكننى أعرف خطواته وأعرف دقاتها بالشارع . وفى الأسبوع الماضى ، وكان يوم الثلاثاء على ما أعتقد ، اشتدت الحرارة فى الليل حتى لم أستطع أن أبقى راقدا فى فراشى . ووقفت فى النافذة لأستنشق الهواء . وسمعت صوت الباب فى أسفل البيت يفتح ويغلق ، وانحنيت ، ولما مر بالقرب من مصباح الشارع رأيت أخى فنسان . وكانت الساعة قد جاوزت منتصف الليل . وكانت تلك أول مرة . أعنى كانت أول مرة آراه فيها ، ومنذ تلك الليلة بدأت أتابعه — أوه ! وعلى غير إرادة منى ... وكنت أسمعه كل ليلة تقريبا يخرج . إنه يحمل معه مفتاحا وقد سبق أن أعد له والداى غرفتنا القديمة ، أى غرفتى أنا وجورج ، وجعلا منها حجرة ليستقبل فيها المرضى مستقبلا بعد تخرجه . وغرفته هذه تقع بالقرب من غرفتنا الحالية على يسار المدخل وباقى الشقة يوجد على اليمين . وفى إمكانه أن يخرج وأن يدخل متى شاء دون أن يشعر به أحد . وأنا لا أسمعه عادة عند عودته إلى المنزل ولكنى أول أمس ، أى يوم الاثنين مساء ، ولم أدرى ما كان بى ، كنت أفكر فى مشروع مجلة « دورمير » ... ولا أستطيع النوم ، فسمعت أصواتا على السلم وظننت أنه « فنسان » .

وسأله « برنارد » كم كانت الساعة وقتئذ ؟ ولم يكن هذا السؤال لرغبة فى أن يعرف ما حدث بقدر ما كان لإشعار « أوليفييه » إنه مهتم بحديثه .

ـ كانت الثالثة صباحا على ما أعتقد . ونهضت وألصقت أذنى بالباب . وكان « فنسان » يتحدث مع امرأة . أو على الأصح كانت هى التى تتكلم .

ـ كيف عرفت أنه هو « فنسان » ؟ جميع السكان يمرون أمام باب بيتكم .

ـ هذا أمر يضايق للغاية ، فكلما كان الوقت متأخرا ، زادوا ضجيجهم وهم يصعدون السلم ، وهم لا يأبهون بالنائمين ! ... لم يكن هناك مجال لأى لبس لأن المرأة كانت تناديه باسمه . وكانت تقول له ... أواه إنى لأشعر بالاشمئزاز إذا كررت ماسمعته منها .

ــ هيا . قل ما سمعته .

ــ كانت تقول : فنسان ، يا عشيقى ، ياحبيبى ، لا تتركنى !

ــ هل كانت تخاطبه بضمير الجمع ؟ (١) .

ــ نعم وهذا شىء غريب للغاية .

ــ أكمل قصتك .

ــ كانت تقول له : ليس من حقك أن تتركنى الآن . ماذا تريد منى أن أفعل ؟ أين تريدنى أن أذهب ؟ قل لى شيئاً . كلمنى ! ـ ثم كانت تناديه باسمه وتكرر قولها (ياعشيقى ، ياعشيقى) بنبرة تزداد حزنا وبصوت يضعف شيئاً فشيئاً ثم سمعت ضوضاء (لابد أنهما كانا على درجات السلم) . صوت شىء يسقط . وأعتقد أنها جثت على ركبتيها .

ـ وهو ؟ ألم يجبها بشىء ؟

ـ لابد أنه صعد الدرجات الأخيرة الباقية ؟ وقد سمعت صوت باب شقتنا وهو

---

(١) وهو Vous واستعماله فى الفرنسية يدل على الكلفة .

يغلق ، ومكثت هي بعد ذلك طويلا إلى باب غرفتي . وكنت أسمعها تجهش بالبكاء .

— كان عليك أن تفتح لها الباب .

— لم أجرؤ على ذلك وفنسان خليق أن يثور لو عرف أني على علم بأموره الخاصة . ثم إنني خشيت أن أحرجها إذا ما فاجأتها وهي تبكي ولم أكن أعرف ما يمكن أن أقوله لها .

واستدار « برنارد » نحو « أوليفييه » وقال :

— لو كنت مكانك لفتحت لها الباب .

— أوه ! إنك تجرؤ على كل شيء ، وتفعل كل ما يدور برأسك .

— هل تأخذ على ذلك ؟

— لا إنني أغبطك .

— هل تعرف من تكون هذه المرأة ؟

— وكيف تريد مني أن أعرف ذلك ؟ طابت ليلتك !

وأسر « برنارد » في أذن « أوليفييه » :

— قل لي ... هل أنت متأكد من أن « جورج » لم يسمعنا ؟

وبقيا بعض الوقت وهما يراقبانه .

وقال « أوليفييه » بصوته الطبيعي :

— لا . إنه نائم . ثم لو أنه سمع ما تقول لما فهم معناه . هل تعرف أي سؤال سأله لوالدي منذ عدة أيام ؟ ... لماذا الـ ...

وفي هذه المرة لم يطق « جورج » صبراً . وانتصب نصف انتصابة في سريره وقاطع أخاه وهو يصيح :

— أيها المغفل . ألم تدرك إنني تعمدت ذلك ؟ ... حسنا ، نعم لقد سمعت كل ما قلتماه الآن . لقد كنت أعرف ما يعمله « فنسان » منذ وقت طويل . والآن

ياعزيزىّ أرجوكما أن تخفضا صوتكما لأنى أشعر بالرغبة فى النوم . أو اسكتا .

استدار أولفيه ناحية الحائط أما برنارد فأخذ يجيل نظره بين معالم الغرفة ـ لأن النوم لم يداعب أجفانه بعد ـ وكان القمر المكمل قد جعلها تبدو أكبر حجما . وكان لا يعرفها إلا قليلا ، لأن « أوليفيه » نادراً ما يبقى بها أثناء النهار ، وفى المرات القليلة التى جاء فيها استقبله صاحبه فى الشقة بالدور الأعلى . ومس ضوء القمر الآن مقدمة السرير الذى رقد فيه « جورج » وقد نام أخيراً . لقد سمع كل ماقاله أخوه وعنده الآن ما يمكن أن يحلم به . وفوق سرير « جورج » مكتبة صغيرة مكونة من رفين عليهما كتب مدرسية . وعلى منضدة بالقرب من فراش «أوليفييه» تبين «برنارد» كتابامن حجم أكبر ، ومد يده وأخذه وقرأ عنوانه: «توكفيل»[1] ، ولكنه عندما هم بوضعه على المنضدة سقط على الأرض فأيقظ « أوليفيه » .

— هل تقرأ لتوكفيل الآن ؟

— لقد أعارنى إياه دوباك .

— وهل يعجبك ؟

— إنه ممل إلى حد ما ، ولكن به أشياء حسنة .

— اسمع . . ماذا تفعل غداً ؟

اليوم التالى إجازة للطلبة وبرنارد يفكر أنه سيلقى صديقه فيه . وقد انتوى عدم العودة للمدرسة اعتقاداً منه أنه ليس فى حاجة إلى متابعة الدروس وسيستعد للامتحان معتمداً على نفسه .

وأجابه « أوليفييه »

— سأذهب غداً فى الحادية عشرة إلى محطة سان لازار فأنتظر قطار « دييب » لأقابل خالى « ادوارد » العائد من انجلترا . وفى الثالثة بعد الظهر سأذهب للقاء « دوربير » باللوفر . أما عن بقية ساعات النهار فيجب أن أستذكر دروسى .

---

(١) « توكفيل » كاتب سياسى فرنسى (١٨٠٥ — ١٨٥٩) وهو مؤلف كتاب «الديمقراطية بأمريكا فى العهد القديم » (أى ما قبل الثورة) وفى عهد الثورة .

— خالك « ادوارد » ؟

— نعم إنه أخ غير شقيق لوالدتى . وهو غائب منذ ستة شهور ولا أعرفه إلا قليلا ولكنى أحبه كثيراً . وهو لا يعلم أنى ذاهب للقائه وأخشى ألا أتعرف عليه . فهو لايشبه إطلاقا باقى أفراد العائلة وهو شخص ممتاز .

— وماذا يعمل ؟

— إنه كاتب . وقد قرأت معظم مؤلفاته ، ولكن مضى عليه وقت طويل لم ينشر فيه شيئاً .

— هل يكتب قصصاً ؟

— نعم ، نوعا من القصص .

— ولماذا لم تكلمنى أبداً عنه ؟

— لو حدثتك عنه لقرأت كتبه ولو فرضنا أنها لم تعجبك ...

— حسناً . أكمل .

— لضايقنى ذلك كثيراً . وهذا ما أعنيه .

— وماذا الذى جعلك تقول عنه إنه ممتاز ؟

— لا أعرف بالضبط . قلت لك إن معرفتى به ضئيلة . وحكمى عليه مبنى على مجرد شعور خفى . وأشعر أنه يهتم بأشياء كثيرة لا يهتم بها والدى ، كما أشعر بأن من الممكن أن يكلمه المرء فى كل شىء . وذات يوم ، قبيل رحيله ، كان يتناول الغداء عندنا ، وكان يتحدث مع والدى وشعرت بأنه لا يكف عن النظر إلىّ ، وبدأ الأمر يضايقنى ، وكنت على وشك الخروج من الحجرة ـ حجرة الطعام ، وكانوا يتناولون القهوة بعد الأكل . ولكنه بدأ يوجه أسئلة لوالدى بشأنى . فضايقنى ذلك أكثر وأكثر ، ونهض أبى فجأة ليحضر له أبيات شعر كنت قد نظمتها منذ وقت قصير وكنت لسخفى قد عرضتها عليه .

— أبيات شعر من نظمك ؟

— نعم — ألا تذكر القصيدة التي قلت إنها تشبه قصيدة « الشرفة »[1] ؟

— كنت أعرف جيداً أنها لا تساوى شيئاً ، ولذلك ضايقنى كثيراً أن كله أبى عنها ، وبقيت مع خالى وحيدين عندما ذهب أبى ليحضر قصيدتى ، وشعرت باحمرار يصعد إلى وجهى . وكنت لا أجد شيئاً أقوله ،ورحت أوجه نظراتى إلى مكان آخر ، وفعل هو نفس الشىء وبدأ يصنع لفافة تبغ ولكى يهون على الأمر — فلا بد أنه رأى احمرار وجهى — نهض من مكانه وتوجه إلى النافذة وراح ينظر خلالها . وقال لى لجأة :

— أشعر بحرج أكثر منك .

وأعتقد أنه قال ذلك ليجاملنى. ثم عاد أبى أخيراً وأعطاه قصيدتى . فشرع فى قراءتها وكنت أحس ضيقاً شديداً حتى إنى أعتقد أنه لو أثنى على لكنت خليقاً أن أشتمه . ولا شك أن أبى كان يتوقع مديحاً ، ولما لم يقل خالى شيئاً من ذلك سأله والدى :

— حسناً . ما رأيك فيها ؟ فأجابه وهو يضحك :

— « يضايقنى أن أكلمه عن هذه الأبيات أمامك » .

وعندئذ خرج والدى وهو يضحك بدوره . ولما ظهرنا وحيدين قال لى إنه يجد أن قصيدتى رديئة جداً .

وقد طاب لى أن أسمع منه هذا القول ومما زاد فى سرورى أنه أشار إلى بيتين ، وهما وحدهما اللذان يعجبانى فى القصيدة ، ونظر إلى وهو يبتسم وقال : « هذا الجزء حسن » .

أليس هذا شيئاً جميلا ؟ ليتك سمعت اللهجة التى حدثنى بها . ولكم وددت أن أعانقه .

---

(١) قصيدة شهيرة لبودلير

وقال لى إن خطئى إنى أبنى أشعارى على فكرة واحدة وإنى لا أترك الفرصة للكلمات حتى توجهنى . ولكننى لم أفهمه لأول وهلة غير أنى أعتقد الآن أنى فهمت ما كان يعنيه وأنه على حق فى ذلك . وسوف أشرح لك هذا فى مرة أخرى .

— إنى أفهم الآن لماذا تريد أن تكون فى استقباله عند وصوله .

— أوه ! ما قصصته عليك الآن لا قيمة له . ولست أدرى لأى سبب حكيته لك . لقد تحدثنا فى أمور أخرى كثيرة .

— أتقول إنه سيصل فى الحادية عشرة والنصف ؟ وكيف علمت أنه سيصل بهذا القطار ؟

— لقد كتب ذلك فى رسالة بعث بها إلى أمى ، ثم إنى راجعت المواعيد على دليل القطارات .

— هل فى نيتك أن تتناول معه الغداء .

— لا ، لا بد أن أعود إلى بيتى فى الظهر . لن أجد إلا وقتاً قليلا لأشد على يده ، ولكن هذا يكفينى ... آه ! قل لى قبل أن أنام : متى سأراك ؟

— لن ترانى قبل أيام . لن ترانى قبل أن أدبر أمرى .

— ولكنى ... هل أستطيع أن أساعدك فى شىء ؟

— هل تستطيع أن تساعدنى ؟ — لا ! ليس هذا فى نيتى . سوف يبدو لى عندئذ أنى أغش نفسى . نم نوما طيباً .

الفصل الرابع

« كان والدى قليل الذكاء ، ووالدتى فطنة ، وكانت على مذهب التجرد(١) . وهى امرأة صغيرة الحجم وديعة ، وكثيرا ماقالت لى: يابنى ستلقى عذاب السعير . ولكن هذا لم يؤلمها قط » .

فونتنيل

لا ، لم يكن « فنسان فولينيه » يتوجه كل ليلة إلى عشيقته . إنه يسرع الخطى ، فلنتبعه . إنه ينحدر من شارع « نوتردام دى شامب » حيث داره ، إلى شارع « سان بلاسيد » الذى يعتبر امتدادا له ، ثم يتجه إلى شارع « باك » حيث يسير بعض البورجوازيين المتأخرين فى السهر . ويقف فى شارع « نابليون » أمام باب كبير ينفتح أمامه ، وها هو ذا فى دار الكونت « دى باسافان » . ولو لم يعتد المجىء هنا لما جرؤ على الدخول بهذه البساطة فى هذا القصر الضخم . ويعرف الخادم الذى فتح له الباب جيداً أن وراء مظهر « فنسان » المتسم بالثقة المفتعلة نفسا خجولة ويتظاهر « فنسان » بأنه لايريد أن يعطيه قبعته ويقذف بها من بعيد إلى مقعد . ومع هذا فإن « فنسان » حديث عهد بهذا المكان . أما « روبيردى باسافان » الذى يدعى الآن أنه صديقه فهو صديق لكثير جدا من الناس . ولست أدرى كيف أمكن أن يتعارفا . لاشك أن ذلك كان بالمدرسة ، وإن كان « روبيردى باسافان » يبدو أكبر سناً من « فنسان » بشكل ملحوظ . كانا قد افترقا بضع سنوات ثم تقابلا من جديد ذات مساء فى أحد المسارح ، وتصادف فى هذه الليلة أن كان « فنسان » يصحب أخاه على غير العادة . وقدم باسافان لهما أثناء الاستراحة بعض الحلوى المثلجة . وعلم أثناء ذلك أن فنسان انتهى من الجزء الأول فى الطب وأنه متردد فى التقدم للجزء الثانى .

---

(١) Qwiétisme : مذهب التجرد ، أى تجرد النفس من المادة وتوجيهها إلى الله

كانت العلوم الطبيعية تستهويه أكثر من الطب ، ولكن حاجته إلى كسب العيش ... وخلاصة القول إن « فنسان » قبل راضيا العرض السخى الذى قدمه إليه «روبيردى باسافان» وهو أن يحضر كل ليلة لعلاج أبيه العجوز الذى اعتلت صحته إثر جراحه ، وكان الأمر لايخرج عن تجديد بعض الضمادات أو إعطاء بعض الإبر ، أى العناية الطبية التى كانت تستدعى يداً خبيرة، ولكن فضلا عن ذلك كانت هناك أسباب خفية جعلت الكونت يتقرب من فنسان كما كان لهذا الأخير أسباب أخرى دفعته إلى قبول هذا العرض . وسوف نحاول فيما بعد أن نكشف السبب الخفى الذى دفع «روبير» إلى التقرب من «فنسان» أما عن السبب الذى حدا بفنسان إلى قبول العرض فها هو : لقد دفعته إلى هذا ، حاجة ملحة إلى المال ، فالمرء ذو الضمير ، والذى تدفعه تربيته السليمة إلى الشعور بالمسئولية ، يصعب عليه جداً أن يكون له ولد من امرأة ، ولايحس ببعض الالتزامات نحوها ، لاسيما إن كانت هذه المرأة قد تركت زوجها من أجله . لقد قضى «فنسان» حتى هذا الوقت حياة فاضلة . وكانت مغامراته مع «لورا» تبدو له بين ساعة وأخرى ، طوراً بشعة وطورا آخر طبيعية . فيكفى فى كثير من الأحيان أن نضيف كمية من الأحداث البسيطة بعضها إلى بعض لكى نحصل منها على مجموع مروع . وكان يردد ذلك بينه وبين نفسه وهو يسير ، ولايخرجه هذا من ورطته . ومما لاشك فيه أنه لم يفكر أبدا فى أن يعول هذه المرأة مدى الحياة ، أو أن يتزوجها بعد طلاقها أو أن يحيا معها بدون زواج ، وكان مرغماً على أن يعترف أمام نفسه بأنه لايشعر نحوها بحب كبير ، ولكنه كان يعرف أنها لا موارد لها فى باريس ، كما يعرف أنه سبب بأسها وبؤسها ، وكان يعرف أن عليه أن يقدم لها معونة ولو كانت مؤقتة وهزيلة ، ولكنه فى كل يوم يزداد شكا فى قدرته على ذلك . فى الأسبوع الماضى كان لا يزال يملك مبلغ الخمسة آلاف فرنك الذى ادخرته أمه بصبر وبعناء شديدين لكى تيسر له المرحلة الأولى من حياته العملية . وكل هذا المبلغ ، ولاشك ، يكفى لتغطية مصاريف الوضع وأجر الإقامة فى المستشفى والعناية بالطفل . ولكن هذا المبلغ الذى كان قد خصصه — فى ذهنه — لهذه المرأة، والذى وقفه عليها وكرسه لها ، والذى كان يعتبر

نفسه مجرماً إذا ما اختصر منه شيئاً ، قد وسوس له الشيطان ذات مساء أنه غير كاف . ولم تكن هذه النصيحة صادرة عن «روبيردى باسافان» فإن «روبير» لم يقل شيئاً من هذا القبيل ، ولكنه اقترح أن يصحبه إلى قاعة من قاعات القمار وصادف أن كان ذلك فى هذا اليوم بالذات . وقبل «فنسان» الاقتراح .

وكان ذلك المكان يتميز بشىء خداع ، هو أن اللعب فيه يتم بين أصدقاء من علية القوم . وقدم «روبير» «فنسان» إليهم . وفوجئ «فنسان» بهذا الأمر فلم يستطع أن يلعب ذلك المساء إلا لعبا خفيفا . ولم يكن معه إلا القليل جدا من المال كما رفض المبلغ الذى اقترح الكونت أن يعطيه له ، ولكنه ربح وشعر بالأسف لأنه لم يجازف بمبلغ أكبر ووعد بالحضور فى اليوم التالى .

وقال له الكونت : الجميع الآن يعرفونك ولست فى حاجة إلى أن أصحبك مرة أخرى .

وكان هذا اللعب يدور عند «بييردى بروفيل» الذى يسمونه «بيدرو» اختصارا ومنذ تلك الليلة الأولى وضع «روبيردى باسافان» سيارته تحت تصرف صديقه الجديد . وكان «فنسان» يحضر حوالى الحادية عشرة ويتجاذب أطراف الحديث مع «روبير» وهو يدخن لفافة ثم يصعد إلى الطابق الأول ليشرف على مريضه . ويمكث بجانبه وقتا يطول أو يقصر تبعا لمزاج الكونت العجوز ، وتبعا لصبره أو لما تستدعيه حالته ، ثم تصحبه السيارة إلى شارع «سان فلورانتان» عند «بيدرو» وتعود به بعد ساعة وتوصله لا إلى داره ، إذ كان يخشى أن يلفت ذلك الأنظار إليه ، بل إلى أقرب تقاطع طريق إلى بيته .

ومنذ ليلتين جلست «لورا دوفييه» على درجات السلم الذى يؤدى إلى شقة عائلة «مولينييه» وانتظرت «فنسان» حتى الثالثة صباحاً إذ لم يعد إلى بيته إلا فى تلك الساعة .

وفى تلك الليلة لم يكن «فنسان» قد توجه إلى «بيدرو» فلم يعد معه مالاً يخسره . ولم يبق معه منذ يومين شىء من الخمسة آلاف فرنك . وكان قد أخطر

« لورا » بذلك . كتب لها وقال إنه لم يعد يستطيع أن يساعدها بشيء ونصحها فى رسالته بأن تلوذ بزوجها أو بأبيها ، كما نصحها بأن تعترف بكل شيء ، ولكن الاعتراف بدا مستحيلا فى نظر « لورا » بل لم تكن تستطيع حتى أن تتخيله . وما طلبه عشيقها منها يسبب لها إشمئزازاً لا يزايلها إلا ليحل محله اليأس . وجدها « فنسان » فى هذه الحالة عند عودته وأرادت أن تحتجزه ولكنه انتزع نفسه من بين ذارعيها واضطر أن يصطنع الشدة اصطناعا لأن قلبه حساس للغاية ، وكان شهوانياً أكثر منه عاشقا ، ولذا سهل عليه أن يجعل من القسوة واجبا . ولم يجب على توسلاتها وشكاياتها وبقيت طويلا على درجات السلم بعد أن تركها « فنسان » وأغلق دونها الباب . وهى تسكب دموعا فى سواد الليل، كما أسرّ ذلك «أوليفييه» لبرنارد فيما بعد ، إذ كان قد سمع ما دار بينهما .

وانقضت على هذه الليلة أكثر من أربعين ساعة ولم يتوجه « فنسان » إلى منزل « روبيردى باسافان » فى الليلة السابقة ، ويبدو أن والده تماثل للشفاء، ولكنه تسلم برقية تستدعيه ، إذ أن « روبير » يريد أن يراه .

ودخل « فنسان » حجرة مكتب « روبير » — وهى حجرة اتخذ منها أيضا غرفة للتدخين واعتاد أن يقضى بها أغلب أوقاته ، وعنى بتنظيمها وتزيينها وفقا لمزاجه ، ومد له « روبير » يده بإهمال ، دون أن ينهض ليلقاه . كان «روبير» يكتب جالسا أمام مكتب مغطى بالكتب ، وأمامه باب يفتح على شرفة تطل على حديقة ، وكان الباب مفتوحا على مصراعيه وتنفذ خلاله أشعة القمر ، وكان يتكلم دون أن يلتفت نحو محدثه .

— هل تعرف ماذا أكتب الآن ؟ ... ولكنى أرجوك ألاتبوح بهذ السر ... ! أتعدنى بذلك ؟ ... إعلان يمهد لفتح مجلة «دورمير» . وأنا بالطبع لا أوقع باسمى فى هذه المجلة ... لا سيما أننى أمتدح نفسى على صفحاتها ... ثم أننى أوثر ألا يعرف الناس الآن أننى أساهم فيها ما دام سينتهى بهم الأمر إلى معرفة أننى مموّلها . ولذا أطلب منك الكتمان ! وبهذه المناسبة أذكر أنك أخبرتنى بأن أخاك الصغير يميل إلى الكتابة والتأليف . ما اسمه ؟

— إنه يدعى « أوليفييه » .

— نعم « أوليفييه » . كنت قد نسيت اسمه ... أرجوك ألا تبقى واقفا هكذا . اجلس على هذا المقعد . ألا تشعر بالبرد ؟ أتريد أن أغلق النافذة ؟... إنه ينظم الشعر أليس كذلك ؟ أرجو أن يأتيني بعض شعره ... ولكنني طبعا لا أعد بالنشر ... ومع كل يدهشني أن يكون شعره رديئا لأن أخاك يبدو ذكيا جدا . ثم إن المرء يشعر بأنه ملم بأشياء كثيرة . كنت أريد أن أتحدث معه . أرجو أن تطلب منه أن يأتي ليقابلني . إنني أعتمد عليك . هل لك في لفافة ؟ — وقدم له علبة لفائفه الفضية .

— بكل سرور .

— والآن أصغ إلى يا « فنسان » . يجب أن أكلمك في أمر جاد . لقد تصرفت كالأطفال ذلك المساء ... وأنا أيضاً تصرفت مثلك . لا أقول إني أخطأت في اصطحابك إلى « بيدرو » ؟ ولكنني أشعر بأني مسئول ـ إلى حد ما ـ عن المبلغ الذي خسرته ولا أقول لنفسي إنني كنت السبب في أن تفقده . ولا أدرى إن كان ذلك هو ما يسمونه وخز الضمير ، ولكن هذا الأمر بدأ يؤرقني ويقض مضجعي ، إنني أؤكد لك ذلك ! ثم إنني أفكر في تلك المرأة التعسة التي حدثتني عنها ... ولكن هذا موضوع آخر يجب أن لا نمسه ، إنه شيء مقدس . إن ما أريد قوله لك ، وما أرغب فيه تماماً هو أن أضع تحت تصرفك مبلغاً يساوى ما خسرته في القمار . لقد كان خمسة آلاف فرنك ، أليس كذلك ؟ وسوف تقامر به من جديد . أكرر لك أنني أعتبر نفسي مسئولا عما فقدت ، وأنني مدين لك به ، وعليك ألا تشكرني على ذلك فسوف ترده لي إذا ما ربحت . وإلا فليكن ما يكون وسأكون قد سددت ديني . عد إلى « بيدرو » هذا المساء وكأن شيئاً لم يكن . وسوف تحملك إليه سيارتي ثم ترجع السيارة لأستقلها إلى منزل « ليدي جريفيث » وأرجو منك أن تلحق بي عندها بعد ذلك . إنني أنتظر مجيئك وسترجع السيارة بعد ذلك لتحضر بها .

ثم فتح درج مكتبه وأخرج منه خمس ورقات سلمها لفنسان :

— هيا اذهب بسرعة ...

ــ ولـكن والدك ...

ــ آه ! لقد نسيت أن أخبرك أنه توفى منذ ... ثم أخرج ساعته وصاح :

ــ كم الوقت ؟ إنه متأخر ! أوشكنا على منتصف الليل ... اذهب بسرعة ، نعم لقد توفى منذ أربع ساعات .

وقال «باسافان» ما قال فى غير عجلة ، بل كان فى لهجته شىء من عدم المبالاة .

ــ ألا تبقى بجانبه لـ ...

وقاطعه «روبير» : لأسهر بجواره ؟ لا ، أخى الأصغر يتكفل بهذا الأمر ، وهو فى الطابق الأعلى ومعه مربيته العجوز وكانت تتفاهم مع الفقيد أكثر مما كنت أتفاهم معه ...

ولما رأى «فنسان» لا يتحرك من مكانه أردف :

ــ أصغ إلى يا صديقى العزيز . إننى لا أريد أن أبدو أمامك شريراً ولـكننى أشمئز من المشاعر المتعارف عليها . وكنت قد رضت قلبى على نوع من الحب البنوى ولـكنه كان كالثوب الفضفاض ولذلك اضطررت إلى أن أضيق من حجمه . ولم يجلب لى أبى سوى الضيق والملل والمتاعب . وإن بقى فى قلبه بعض الحنان ، فما أشعرنى به قط ، ولم يقابل وثبات حبى الأولى نحوه ــ حين لم أكن أعرف التحفظ ــ إلا بالصد والجفاء ، مما علمنى الـكثير ... ولعلك لاحظت ذلك بنفسك عندما كنت تعالجه ... هل شكرك يوماً ؟ هل ألقى إليك نظرة أو بسمة عابرة ؟ كان يظن دائماً أن الناس مدينون له . كان رجلا من الذين يطلق عليهم شخصية وأعتقد أنه آلم أمى كثيراً رغم أنه كان يحبها هذا إذا فرض أنه عرف الحب ، وأعتقد كذلك أنه آلم كل من حوله : خدمه وكلابه وجياده وعشيقاته . أما أصدقاءه ــ فلا ــ فلم يكن له صديق ، لقد تنفس الـكل الصعداء بموته وأعتقد أنه كان ذا قيمة كبيرة فى عالمه كما يقولون، ولـكننى لم أستطع أن أتبينها . كان ذكياً جداً ، هذا أمر مؤكد . وكنت أشعر نحوه ، ولا زلت، ببعض الإعجاب . أما أن أجفف بمنديلى دموعاً ... أو أن أنتزع الدموع من عينى ... فلست طفلا لأفعل هذا . هيا ! أسرع وعد بعد ساعة

لمقابلتى عند ليليان — ماذا ؟ — هل يضايقك ألا تكون مرتدياً رداء السهرة ؟ كم أنت أبله ! لماذا ؟ سنكون بمفردنا . أعدك أن أبقى بملابسى العادية . لقد اتفقنا . أشعل سيجاراً قبل أن تخرج ، وأرسل لى السيارة بسرعة وسوف ترجع لتحملك من جديد .

ونظر إلى « فنسان » وهو يخرج ورفع كتفيه وتوجه إلى غرفته ليستبدل ملابسه وكانت بذلته فى انتظاره موضوعة على إحدى الأرائك .

وفى غرفة بالطابق الأول كان الكونت العجوز فى فراش الموت . وقد وضعوا صليباً فوق صدره ، ولكنهم نسوا أن يضموا يديه ، وكانت لحيته المستطيلة ، التى لم تهذب منذ أيام ، تخفف زاويتى ذقنه التى تدل على الحزم . أما التجاعيد العميقة المتقاطعة فوق جبهته من تحت شعره الذى وخطه الشيب وارتفع إلى أعلى كالفرجون فقد بدت وكأنها أقل عمقاً ، بل وكأنها انبسطت شيئاً ما ، وغارت عيناه تحت حاجبيه الغليظين . وإنى لأمعن فيه النظر لأننا لن نراه بعد الآن. وكان بجانب فراشه مقعد وثير جلست فوقه « سيرافين » الخادم العجوز وها هى تنهض وتقترب من منضدة عليها مصباح زيت من طراز عتيق يضىء الحجرة إضاءة خافتة . وفوق المصباح غطاء يعكس الضوء على كتاب يقرأه « جونتران » الصغير ...

— إنك لمتعب يا سيد جونتران وأفضل لك أن تذهب لتنام .

ونظر « جونتران » إلى « سيرافين » نظرة فيها حنان وكان شعره الأشقر الذى أبعده عن جبينه يطفو على جانبى رأسه . إنه فى الخامسة عشرة من عمره . ووجهه كوجه النساء ، ولا يعبر إلا عن الحنان والحب . ورد على « سيرافين » بقوله :

— حسناً ! وأنت ! عليك أن تذهبى لتنامى فقد سهرت طوال الليلة الماضية .

— أوه ! إنى معتادة على السهر ، لقد نمت فى النهار ، أما أنت ...

— لا . لا أشعر بالتعب ، ثم إنى أجد راحة فى البقاء هنا لأقرأ وأتأمل . إنى لم أعرف والدى إلا قليلا ، وأعتقد أنى سوف أنساه تماماً إذا لم أنظر إليه

بإمعان . وفى نيتى أن أسهر بجانبه حتى مطلع الفجر . كم قضيت من الزمن عندنا يا « سيرافين » .

— أنا هنا منذ العام السابق لميلادك ، وها أنت قد أوشكت على بلوغ السادسة عشرة من عمرك .

— وهل تذكرين أمى جيداً ؟

— أذكرها جيداً ؟ سؤال غريب ! لكأنك تسألنى إن كنت أعرف اسمى . بلا شك إننى أذكرها تماماً .

— وأنا أيضاً أذكرها ، أذكرها قليلا ... فلم تكن سنى إلا خمس سنوات عندما توفيت ... أخبرينى ... هل كان والدى يتحدث معها كثيراً ؟

— كان الأمر يختلف باختلاف الأيام . لم يكن والدك بطبيعته كثير الكلام . ولم يكن يحب أن يبدأه الناس بالكلام . ومع كل فقد كان فى الأيام الأولى أكثر كلاماً مما كان عليه فى الآونة الأخيرة . ثم إنه من الأفضل ألا نحرك هذه الذكريات كثيراً ، وأن نترك لله الحكم على كل هذا .

— أتعتقدين يا « سيرافين » العزيزة أن الله سيهتم حقاً بكل هذه الأمور ؟

— إن لم يهتم الله بهذه الأمور ، فمن إذن يهتم بها ؟

وهنا وضع « جونتران » شفتيه على يد « سيرافين » التى كساها الاحمرار وقال لها :

— أتدرين ما يجب عليك أن تفعليه ؟ عليك أن تذهبى لتنامى . وأعدك بأن أوقظك مع طلوع النهار ، وعند ذلك أذهب أنا لأنام بدورى إننى أرجوك .

وما إن تركته « سيرافين » بمفرده حتى جثا على ركبتيه عند أسفل الفراش ودفع برأسه فى الأغطية ولكنه لم يستطع البكاء ، فليس من شىء يحرك قلبه وبقيت عيناه جامدتين . ثم نهض إذ يأس من البكاء ونظر إلى هذا الوجه الجامد . وكم ود أن يستشعر فى هذه اللحظة المهيبة شعوراً نادراً سامياً ، وأن يستمع إلى صوت من

العالم الآخر وأن يحلق بفكره في السماوات العلا ولكن أفكاره بقيت عالقة بالأرض ونظر إلى اليدين التي جمدت الدماء في عروقها وراح يسائل نفسه : « إلى متى ستستمر الأظافر في النوم؟ » وعاف منظر هاتين اليدين المنفرجتين وود أن يضمهما وأن يجمعهما لتمسكا بالصليب . آه ، هذه فكرة طيبة ! وفكر أن « سيرافين » ستدهش عندما تجد هاتين اليدين منضمتين وراح يتلهى مقدماً بهذه الفكرة ، ثم ما لبث أن احتقر نفسه على أنه يتلهى بمثل هذا . ومع كل فقد انحنى على الفراش وأمسك بذراع المتوفى البعيدة عنه ولكنه وجد الذراع متصلبة لا تطاوعه وحاول « جونتران » أن يثنيها ولكن هذه الحركة هزت الجسم كله . ثم أمسك بالذراع الأخرى فبدت له أكثر طواعية .

وأوشك جونتران أن يحرك اليد إلى المكان الذي يريد ، وأمسك بالصليب وحاول أن يضعه بين الإبهام والأصابع الأخرى . ولكن لمس هذا اللحم البارد أوهنه . وأحس أنه سيغمى عليه ورغب أن يستدعى « سيرافين » ، وترك كل شيء ، ترك الصليب مقلوباً على الأغطية المتهدلة والذراع ساقطة من جديد لتعود إلى مكانها الأول . ثم إذا به يسمع فجأة في هذا الصمت الجنائزى هذه الكلمة : « اللعنة » وقد ألقيت بلهجة عنيفة ... ويتلفت ؟ ولكن لا ، ليس هناك إلا هو ، هذه الكلمة لم تصدر إلا عنه هو الذى لم يلعن أبداً من قبل ، ثم يبتعد ليجلس من جديد في مكانه وينغمس ثانية في القراءة .

الفصل الخامس

(كان روحا وجسدا لاينفذ الوخذ إليهما)
سانت بوف

انتصبت «ليليان» نصف انتصابة ، ومست بطرف أناملها شعر «روبير» الكستنائى قائلة :

— بدأت ياصديقى تفقد شعرك . حذار فأنت لم تتجاوز الثلاثين والصلع قبيح لايناسبك . إنك تنظر إلى الحياة نظرة صارمة .

ورفع روبير وجهه نحوها ونظر إليها باسما .

— ولكنى بجانبك لا أنظر إلى الحياة بهذا الجد .

— هل أخبرت « فلسان مولينييه » ليحضر إلى هنا ؟

— نعم ، مادمت قد طلبت منى ذلك .

— وهل أقرضته نقودا ؟

— خمسة آلاف فرنك كما قلت لك — وسوف يخسرها من جديد عند « بيدرو » .

— ولماذا تعتقد أنه سيخسرها ؟

— هذا ظاهر للعيان . وقد عرفت من أول ليلة لعب فيها أنه لايجيد اللعب .

— لقد أتيح له الوقت ليتعلم . . . هل تراهننى أنه سيربح هذا المساء ؟

— إذا شئت ذلك .

— أوه ! ولكنى أرجوك ألا تحمل هذا الاقتراح محمل العقاب . إننى أحب أن يعمل المرء مايعمله عن طيب خاطر .

— لاتغضبى . اتفقنا . إذا ربح فسيرد الدين لك لا لى . أما إذا ماخسر فسوف تدفعينه لى أنت . أيرضيك هذا ؟

وهنا ضغطت على زر جرس .

— أحضر لنا نبيذ « التوكيه » وثلاثة أكواب — وأردفت :

وإذا ماجاء ومعه الخمسة آلاف فقط أى إذا لم يربح ولم يخسر فسوف تتركها له ، أليس كذلك ؟

— هذا لا يحدث أبدا . إنه لأمر عجيب أن تهتمى به على هذا النحو .

— عجيب !؟ ألا ترى أنه شخص يثير الاهتمام ؟

— إنك ترينه على هذا النحو لأنك تحبينه .

— إنك على حق يا عزيزى . من الممكن أن أعترف لك أنت بهذه الحقيقة . ولكنه لا يثير اهتمامى لهذا السبب بل على العكس من ذلك ، فإذا شغل شخص فكرى بردت عاطفتى . وهنا ظهر خادم يحمل النبيذ والأكواب .

— سنشرب الآن نخب الرهان ، ثم نشرب مع الرابح . وسكب الخادم النبيذ وشربا نخب رهانهما .

وقال « روبير » — : إننى أعتقد أن صديقك « فنسان » هذا شخص ممل .

— تقول « صديقك فنسان » وكأنك لست أنت الذى أحضرته إلى . ثم إننى أنصحك بألا تكرر فى كل مكان أنك تسأمه فسرعان ما سيدرك الناس لماذا تعاشره .

واستدار « روبير » قليلا ووضع شفتيه على قدمها العارية وسرعان ما سحبتها « ليليان » وأخفتها تحت مروحتها .

وقال : هل أخجل ؟

— لا تحاول أن تخجل معى . فلن تستطيع .

وأفرغت ما فى كأسها ثم أردفت :

— أتريد أن أقول لك رأيى فيك يا عزيزى ؟ إنك تتمتع بكل صفات الأدباء : فأنت مغرور ، ولئيم ، وطموح ، ومتقلب ، وأنانى ...

— إنك تخلعين على كل الصفات الطيبة ! ...

— نعم كل هذه الصفات التى تتمتع بها تجعلك جذابا ، ولكنك لن تصير أبداً قصصياً ممتازا .

— ولماذا ؟

— لأنك لا تجيد الإصغاء .

— يبدو لى إننى أصغى إليك كل الإصغاء .

— أما « فنسان » — وهو ليس أديبا — فإنه يجيد الإصغاء إلىّ أكثر منك ولكننا عندما نكون معا فإننى أنا التى أصغى ..!

— إنه يجهل فن الكلام تقريبا .

— لأنك تتكلم طوال الوقت . إننى أعرفك جيدا . أنت لا تترك له الفرصة لينطق بكلمتين .

— أعرف مقدما كل ما يمكن أن يقول .

— هل تظن ذلك ؟ أتعرف قصته مع هذه المرأة ؟

— أوه ! المسائل العاطفية فى رأيى أكثر الأشياء مجلبة للسأم !

— إننى أحب كثيراً أن أصغى إليه عندما يتكلم فى التاريخ الطبيعى .

— التاريخ الطبيعى أيضاً أسخف من المسائل العاطفية . هل ألقى عليك إذن محاضرة ؟

— آه لو استطعت أن أعيد على مسامعك كل ما قاله فى هذا الشأن ... إنه لشىء مثير يا عزيزى . لقد قص علىّ أموراً كثيرة تتعلق بحيوانات البحر . وأنا دائماً شغوفة بكل ما يعيش فى البحار . أتعرف أنهم يبنون فى أمريكا الآن سفناً جوانبها من الزجاج ليستطيع المرء أن ينظر من حوله ويرى ما يجرى فى المحيطات ! يبدو إنه شىء عجيب . يرى الإنسان مرجانا حيا و ... و... كيف تسمى هذه الأشياء ؟ إسفنجا ، وطحالب ، وأسرابا من السمك . ويقول « فنسان » إن هناك ضربا من الأسماك تنفق فى المياه التى تزداد أو تقل فيها نسبة الملح ، وأن ثمت أنواعا أخرى

تحتمل نسباً متفاوتة من هذا الملح ، وهى تبقى على حافة التيارات حيث المياه أقل ملوحة ؛ لكى تأكل الأسماك الأخرى عندما ينتابها الوهن . خليق بك أن تطلب منه أن يسرد عليك هذه الأشياء ... وأؤكد لك أنها أمور غريبة . عندما يتكلم « فنسان » عنها يصبح شخصاً غير عادى . فلا تكاد تتعرف عليه ... ولكنك لا تعرف كيف تحثه على الكلام ... وكذلك حديثه عندما يحكى قصته مع « لوراد رفيه » ... نعم إنه اسم تلك المرأة ... أتدرى كيف تعرف عليها ؟

— هل روى لك هذه القصة ؟

— يحكى لى الناس كل شىء ، وأنت تعرف هذا جيداً أيها الرجل الفظيع ! وطفقت تداعب وجهه بريش مروحتها المغلقة ، وقالت :

— هل تشك فى أنه يأتى ليرانى كل يوم منذ المساء الذى جئت به إلى ؟

كل يوم ؟! أهذا حقيق ؟ لم أكن أتصور ذلك .

— فى اليوم الرابع لم يطق صبراً ، وحكى لى كل شىء ... ولكنه راح كل يوم بعد ذلك يضيف بعض التفاصيل .

— أولم يضايقك ذلك ؟ إنك لا شك تستحقين الإعجاب .

— قلت لك إننى أحبه .

ثم أمسكت ذراعه بحركة فيها تكلف .

— وهو ... أيحب هذه المرأة ؟

وجعلت ليليان تضحك وقالت :

— كان يحبها . أوه ! لقداضطررت بادىء الأمر أن أتظاهر بالاهتمام بأمرها ، حتى لقد كنت أبكى معه ، ومع ذلك كنت أشعر بغيرة مروعة . أما الآن ، فلا . اسمعنى سأحكى لك كيف بدأت علاقتهما ، كانا معا فى مدينة « بو » فى مصحة أرسلا إليها لاعتقاد ذويهما أنهما مصابان بالسل ، والحقيقة أنهما ليسا مصابين ، ولكنهما توهما أنهما فى غاية المرض .

ولم يكن أحدهما يعرف الآخر ، وتقابلا هناك للمرة الأولى . كان كلاهما متمددا على مقعد طويل فى شرفة بحديقة المصحة ، ومن حولهما مرضى آخرون يستلقون هكذا طيلة النهار فى الهواء الطلق للإستشفاء ... واعتقد كلاهما أن لا أمل فى شفائهما ، واقتنعا بأن كل ما يفعلانه لن يؤدى إلى نتيجة ، وأعاد على مسامعها أن ليس أمامهما غير شهر يعيشانه ، وكان ذلك فى الربيع . وقد حضرت إلى المصحة تاركة وراءها زوجها ، وهو مدرس بسيط للغة الفرنسية بانجلترا ، وكانت قد تزوجته منذ ثلاثة أشهر ، ولا شك أنه تكبد الكثير ليبعث بها إلى هذا المكان ، وكان يراسلها يومياً . أما هى ، فإنها من أسرة محترمة جداً ، حسنة التربية ، محتشمة وخجولة ، وإذ ألفت نفسها فى هذا المكان ... ولا أعرف ما استطاع فنسان أن يقوله لها ، ولكنها فى اليوم الثالث اعترفت له بأنها وهى فى صميم الحياة الزوجية لم تكن تعرف حتى تلك اللحظة ،معنى اللذة .

— وبماذا أجابها عندئذ ؟

— أخذ يدها ــ وكانت متدلية إلى جانب مقعدها المستطيل ــ وضغطها طويلا على شفتيه .

— وماذا قلت له عندما سرد عليك هذا ؟

— أنا ! إن ما عملته لفظيع . . . تصور أنى انفجرت ضاحكة بشكل جنونى . لم أستطع مقاومة الضحك كما لم أستطع السيطرة على نفسى . . ،ولم يضحكنى ما قاله بقدر ما أضحكنى ماتكلفته من اهتمام ودهشة ، لأحمله على الاستمرار فى الحديث .

وخشيت أن أبدو متلهية بما يقول ، وكان مايقصه رائعاً جداً . مؤلما جداً ، وكان فى غاية التأثر وهو يقص على ذلك .

ولم يكن قد حكى هذه الأمور لأحد من قبل . أما عن ذويه ، فلا يعرفون بالطبع شيئاً عنها .

— أنت الجديرة بأن تكتبى قصصا .

— يا إلهى ! إذا ما حاولت ذلك فلا أدرى بأية لغة أكتب هذه القصص؟! بالروسية

أم الإنجليزية أم بالفرنسية ؟ لن أستقر أبداً على رأى فى هـذا الشأن . . .
وأردفت : . . . وفى اليوم التالى ذهب « فنسان » إلى لقاء صديقته الجديدة فى غرفتها ، وهناك علمها كل ماعجز زوجها عن تعليمها إياه ، واعتقد أنه أحسن تعليمها ، ولما كانا مقتنعين أن ليس أمامهما غير فترة قليلة يعيشانها ، فإنهما طبعا لم يتخذا أى احتياط ، واستمرت حالتها الصحية فى التحسن الملموس ، وقد ساعدهما الحب على ذلك فلما أحست بالحمل ، وبهت كلاهما ـ وكان ذلك فى الشهر الماضى ـ وقد بدأ الحر وهو فى مدينة « بو » لايطاق ، وعاد الاثنان إلى باريس ، وكان زوجها يعتقدأنها لدى والديها اللذين يديران مدرسة داخلية بالقرب من حى « اللوكسمبورج » ولـكنها لم تجرؤ على أن تذهب إليهما . أما والداها ، فاعتقدا أنها لاتزال بمدينة « بو » ولـكن سوف ينكشف كل شىء بعد قليل ، وكان « فنسان » يقسم فى البدء أنه لن يتركها ، وراح يقترح عليها أن يرحلا إلى أى مكان ، إلى أمريكا ، أو إلى بلاد المحيط الهادى ، ولـكنهما افتقرا إلى المال ، وفى ذلك الوقت بالذات تعرف عليك ، وبدأ يلعب الميسر .

— لم يحك لى شيئاً من ذلك .

— أرجوك ـ بصفة خاصة ـ ألا تقول له إننى سردت عليك هذه الأشياء . وهنا سكتت وأرهفت السمع :

— حسبت أنه هو . . . ، وقال لى : إنه خلال الرحلة من بو إلى باريس اعتقد أنها فى سبيلها إلى الجنون ، لقد فهمت وشيكا أنها حامل ، وكانت تجلس أمامه بمقصورة فى القطار ، وكانا بمفردهما ، ولم تقل له شيئاً منذ الصباح ؛ إذ كان عليه أن يعد كل مايتعلق برحلتهما ، وتركته يتصرف فى كل شىء ، وقد بدا عليها أنها فقدت الشعور بما يدور حولها ، وأمسك بيديها ، ولـكنها كانت تنظر أمامها بنظرات زائغة وكأنها لا تراه ، وكانت شفتاها ترتجفان ، وانحنى نحوها . كانت تقول : « عشيق ! عشيق ! لى عشيق » . وتردد هذه الـكلمة بنبرة واحدة كأنها لاتعرف سواها ، وأؤكد لك ياصديقى أنه بعد أن سرد لى هذه القصة لم تعد لى رغبة فى الضحك ، فلم أسمع طوال حياتى قصة أدعى إلى إثارة الشفقة منها ، ومع ذلك شعرت أنه كلما استرسل فى حديثه كلما فصم الرباط بينه وبين مغامرته هذه ، وكأن عاطفته تتلاشى مع كلماته ، وبدا

وكأنه يحمد لى أن حل تأثرى بالأمر محل تأثره هو به .

— لست أدرى كيف يمكن أن تقولى هذا بالروسية أو بالإنجليزية ، ولكنى أؤكد لك أنه رائع بالفرنسية .

— شكرا . أعرف ذلك ، وعقب حديثه هذا بدأ يكلمنى فى التاريخ الطبيعى ، وحاولت أن أقنعه بأنه من الخطل أن يضحى بمستقبله من أجل حبه .

— أى أنك بذلت له النصح ليضحى بحبه ، وهل انتويت أن تعوضيه عن هذا الحب ؟

ولم تجب « ليليان » بشىء .

وقال « روبير » وهو ينهض :

— فى هذه المرة أعتقد أنه هو الذى حضر . . . سأقول لك كلمة سريعة قبل أن يدخل : لقد مات أبى لتوه .

— آه ! قالتها ببساطة .

— ألا يهمك أن تصبحى الكونتيسى « دى باسافان » ؟

وفى الحال استلقت « ليليان » على ظهرها وهى تنفجر من شدة الضحك .

— ولكن ياعزيزى . . . مازلت أذكر أنى نسيت زوجا بانجلترا ! ماذا !؟ ألم أقل لك ذلك من قبل ؟

— ربما لم تقوليه .

— هناك لورد يدعى « جريفيث » وهو موجود بمكان ما ، وابتسم الكونت « دى باسافان » ولم يكن قد صدق قط صحة لقب صديقته ، وأردفت :

— قل لى : أتقترح على الزواج لأنك تجد فيه قناعا تخفى وراءه حياتك ؟ لا ياعزيزى ، لا ، لنبق — كما نحن — صديقين .. أليس كذلك ؟ ومدت له يدها فطبع عليها قبلة .

وصاح « فنسان » وهو يدخل الحجرة :

— حقا ، كنت متأكدا من ذلك ، لقد لبس ملابس السهرة ، الخائن .

وأجاب (روبير) : نعم ، وعدته أن أبقى بملابسى العادية حتى لا أحرجه ، ولـكن أطلب صفحك ياصديقى العزيز ، فقد تذكرت فجأة أننى فى حداد .

وكان (فنسان) رافع الرأس ، وكل شىء فيه ينضح بالانتصار والفرح ، وكانت (ليليان) قد قفزت عند مجيئه ، وصوبت إليه نظرها لحظة ، ثم انطلقت نحو (روبير) بمرح ، وأخذت تضرب ظهره بقبضة يدها وهى تقفز وتصيح (إن ليليان لتثيرنى عندما تقلد الأطفال هـكذا) .

— لقد خسر رهانه ! لقد خسر رهانه !

وسأل فنسان : أى رهان ؟

— لقد راهنى على أنك ستخسر من جديد ، هيا . قل بسرعة : كم ربحت ؟

— كانت لدى الشجاعة الخارقة ، والقدرة بأن أقف عند خمسين ألف ، وأن أترك اللعب عند هذا الحد .

وصاحت ليليان سعيدة :

— مرحى ! مرحى ! وقفزت وطوقت عنق فنسان بيديها ؛ وشعر بليونة جسدها المتقد الذى يضوع منه شذى الصندل الحبيب ، ولثمته على جبينه وعلى وجنتيه وعلى شفتيه ، واستخلص نفسه منها وهو يترنح ، وأخرج من جيبه حزمة من الأوراق النقدية ، وقال لروبير :

— خذ ، استرد ما أقرضته لى .

— أنت مدين بهذا المبلغ الآن لليدى (ليليان)

وسلمها (روبير) الأوراق فقذفت بها على الأريكة ، وتلاحقت أنفاسها ، فذهبت إلى الشرفة تستنشق الهواء . كانت الساعة التى يلفظ فيها الليل أنفاسه ، والتى يقدم فيها الشيطان حسابه ، وفى الخارج صمت كل شىء ، وجلس (فنسان) على الأريكة واستدارت (ليليان) نحوه ، وقالت له وهى تكلمه بضمير المفرد لأول مرة بلا كلفة :

— وماذا فى نيتك أن تفعل الآن ؟

وأمسك برأسه بين راحتيه ، وقال فى لهجة تشبه البـكاء :

— لم أعد أعرف .

واقتربت (ليليان) منه ، ووضعت يدها على جبينه ، فرفع رأسه ، وكانت عيناه جافتين متقدتين ، وقالت :

— سنشرب الآن الأنخاب ، وملأت الأقداح الثلاثة بنبيذ (التوكى) وبعد أن شربوا قالت لهما :

— والآن اتركانى ، الوقت متأخر ، ولم أعد قادرة على البقاء ، وصحبتهما إلى الغرفة الخارجية وبينما كان (روبير) يمر أمامها ، دفعت إلى يد (فنسان) بشىء معدنى ، وهمست :

— اخرج معه وعد بعد ربع ساعة

وكان بالغرفة الخارجية خادم ينعس ، فهزت ذراعه بقوة ، وقالت له :

— إشعل شموعك ، واصحب هؤلاء السادة حتى باب البيت .

وكان السلم معتما . وكان من الأسهل طبعاً أن يضاء بالكهرباء ، ولكن (ليليان) كانت تصر على أن يرى دائما أحد خدمها ضيوفها وهم يخرجون من بيتها .

وأضاء الخادم الشموع المثبتة فى شمعدان كبير ، وأمسك به رافعا إياه إلى أعلى ، وسار أمام (روبير) و (فنسان) وهما ينزلان الدرج ، وكانت سيارة (روبير) تنتظر أمام الباب الذى أغلقه الخادم بعد خروجهما .

وقال (فنسان) لروبير ــ عندما فتح باب السيارة ودعاه للركوب معه ــ :

— أفضل أن أعود إلى منزلى سيراً على الأقدام ، فأنا فى حاجة إلى المشى قليلا ؛ لأسترد اتزانى .

— ألا تريد حقا أن أوصلك إلى منزلك ؟ وفجأة أمسك (روبير) بيد (فنسان) ــ وكان هذا الأخير قد أبقاها مغلقة ــ وقال له :

— هيا افتح يدك ؛ أرنى ما تمسك به .

وكان فنسان لسذاجته يخشى غيرة (روبير) . ولذا احمر وجهه وهو يبسط

أصابعه فوقع مفتاح صغير على الرصيف . والتقطه (روبير) فى الحال . ونظر إليه ، ثم أعاده لفنسان وهو يضحك قائلا :

— حسنا ! ورفع كتفيه ، ودخل السيارة ، واستند بظهره إلى المقعد ، وقال لفنسان الذى ما زال خجلا حائراً :

— اليوم الخميس ، قل لأخيك إننى أنتظره اليوم ابتداء من الساعة الرابعة (ثم أغلق باب السيارة بسرعة دون أن يدع لفنسان وقتا ليرد عليه) .

وانطلقت السيارة وسار (فنسان) بضع خطوات على رصيف نهر السين ، ثم عبر النهر ، ووصل إلى خارج أسوار حديقة التويلرى ، ثم اقترب من حوض ماء صغير ، وغمس منديله فى الماء ، ووضعه على جبينه وعلى جانبى رأسه ، ثم عاد يبطء إلى حيث تسكن (ليليان) . لنتركه الآن وشأنه ، إن الشيطان لينظر إليه وهو يولج المفتاح الصغير فى قفل الباب دون ضوضاء .

وفى هذه الساعة ، وفى غرفة حقيرة بأحد الفنادق كانت (لورا) — عشيقته بالأمس — على وشك أن تنام بعد أن بكت طويلا ، وأنت كثيراً . أما (إدوارد) فها هو ذا فى خيوط الفجر الأولى على ظهر سفينة تعود به إلى فرنسا يقرأ الرسالة التى تسلمها من (لورا) وهى رسالة شاكية تطلب فيها النجدة ، وهذا شاطىء بلاده الحبيبة على مرأى النظر ، ولكن لابد من عين خبيرة لترى الشاطىء خلال الضباب ، ولم يكن ثمت غيمة فى السماء ، وأوشكت الشمس على الطلوع ، واحمر جفن الأفق وأخذ ينفرج ، سيكون الطقس حارا اليوم فى باريس ، حان الوقت لنرجع إلى (برنارد) ، وها هو ذا يستيقظ من نومه فى فراش (أوليفية) .

الفصل السادس

كلنا أبناء غير شرعيين ، وهذا الرجل الموقر ، الذى
كنت أدعوه أبى ، لست أدرى أين كان يوم أن ولدت .
« شكسبير »

حلم « برنارد » حلما سخيفا ، وهو لا يذكر ماذا حلم ، ولا يحاول أن يتذكر ، بل يريد أن يتخلص منه ، وعندما عاد إلى عالم الواقع أحس بجسد « أوليفييه » يضغط عليه . كان صديقه ، أثناء نومهما ـ أو أثناء نوم برنارد ـ قد اقترب منه ، كما أن ضيق الفراش لم يتح فسحة فيه ، وكان « أوليفييه » قد تقلب ، وهو ينام الآن على جنبه فيشعر « برنارد » بأنفاسه تلفح عنقه ، ولم يكن يرتدى إلا قميصا قصيرا عاديا ، ثم يلتف ذراع (أوليفييه) حول جسده ، ويضغطه بطريقة تضايقه ، حتى ليشك لحظة أن صديقه نائم حقا فيخلص نفسه من ذراع صاحبه برفق ، وينهض يرتدى ملابسه دون أن يوقظ (أوليفييه) ، ويعود ويضطجع على الفراش .

الوقت مبكر جدا ، ولم تحن ساعة الرحيل ، فالساعة الآن الرابعة ، وقد بدأ الفجر فى الشحوب ، ولا تزال أمامه ساعة يستريح فيها ، ويستعيد نشاطه ، ليبدأ نهاره بإقدام ؛ فقد زايله النعاس نهائيا .

وينظر (برنارد) إلى زجاج النافذة الذى أزرق ، وإلى جدران الغرفة الرمادية ، وإلى السرير الحديدى الذى يضطرب فوقه (جورج) وهو يحلم .

وقال (برنارد) لنفسه : سأذهب بعد لحظة إلى مصيرى ، يالها من كلمة جميلة : المغامرة ! ما يخبئه القدر ! ما ينتظرنى من مفاجآت ! ولست أدرى إن كان غيرى مثلى ، ولكننى ما إن أستيقظ حتى أشعر باحتقار من ينامون ، سأرحل ياصديق (أوليفييه) دون أن أودعك . هيا ! قف أيها المقدام ، حان الوقت .

ومسح وجهه بطرف منشفة مبللة بالماء ، ثم أعاد تمشيط شعره ، ولبس حذاءه ، وفتح الباب دون ضوضاء . إنه فى الخارج !

آه ! ما أصح الهواء الذى لم يستنشقه أحد ! وسار (برنارد) بحذاء أسوار حديقة اللوكسمبورج ، ثم اتجه إلى شارع (بونابارت) وبلغ أرصفة السين ، وعبر النهر. إنه ليفكر فى حياته الجديدة وقد وجد لها منذ قليل شعارا : (إذا لم تفعل ذلك ، فمن يفعله ؟ وإذا لم تفعله فى التو ، فمتى تفعله ؟)— إنه يفكر فى أشياء عظيمة ، ويخيل إليه أنه سائر نحو أشياء عظيمة ، وجعـــل يردد وهو سائر (أشياء عظيمة) آه لو عرف هذه الأشياء ! ... ولـكنه يعرف فى هذه اللحظة ، يعرف أنه يشعر بالجوع ، وها هو بجانب الـ « هال »[1] وفى جيبه أقل من فرنك ، ودلف إلى مقهى وتناول قهوة باللبن ، وهلال خبز وهو واقف أمام خوان المقهى ، وثمن هذه الوجبة نصف فرنك ، وبقى معه بعد ذلك ½ فرنك ، ولـكنه ترك بكل جرأة نصف ما معه على الخوان ، وأعطى الباقى لمسكين كان ينقب فى صندوق القمامة . أهو إحسان ؟ أم تحد ؟ الأمر سواء ، وإنه ليشعر الآن بالسعادة وكأنه ملك ، فلم يبق معه شىء وكل شىء له ! وحدث نفسه قائلا : إننى أنتظر من القدر كل شىء ، وإذا ما سمح القدر فوضع أمامى ساعة الظهيرة شريحة طيبة من الشواء لالتهمتها بشغف ! فهو لم يتناول عشاءه فى الليلة السابقة ، وكانت الشمس قد أشرقت منذ وقت طويل .

وعاد (برنارد) إلى رصيف النهر ، وأحس خفة فى الحركة ، فكان إذا جرى خيل إليه أنه يطير . وهنا وثبت — فى لذة — إلى ذهنه فـكرة ، وطفق يفكر :

العسير فى الحياة هو أن يحمل الإنسان شيئاً ما محمل الجد فترة طويلة ، وهكذا فإن حب أمى لمن كنت أدعوه أبى ، هذا الحب آمنت به خمسة عشرة عاما . كنت أومن به حتى أمس ، ولـكن أمى لم تستطع أن تحمله محمل الجد طويلا ، ولست أدرى هل أحتقرها أو أبجلها لأنها جعلت من ابنها ابنا غير شرعى ...؟

---

(١) الحى الذى يمون باريس بكل ماتحتاج من مأكولات .

ومع هذا قلست أصر على أن أعرف حقيقة شعورى ؛ فمن الأفضل للمرء أن لا يستوضح حقيقة شعوره نحو من أنجبوه . أما عن شعورى نحو من تخونه زوجته ، فإنه شعور الكراهية ، ويجب أن أعترف لنفسي اليوم — بعد أن علمت ما علمت — أن هذا الإحساس طبيعى ، وذلك سبب أسفى اليوم ؛ لأنى لو لم أفتح هذا (الدرج) عنوة لقضيت عمرى كله أعتقد أن شعورى نحو هذا الأب شعور غير طبيعى ! فياله من عزاء لى أن عرفت الحقيقة ! ... ثم إنى على أية حال لم أفتح الدرج عنوة كما يبدو ، بل لم أكن أفكر فى فتحه ... وهناك أيضا ظروف مخففة ؛ إنى كنت أشعر ذلك اليوم بملل قظيع ، وهناك حب الاستطلاع الذى يقول عنه فنلون : (حب الاستطلاع المردى) ويبدو أنى ورثته عن أبى الحقيقى لأنه لا أثر لهذه الخصلة فى عائلة « بروفيتا ندبو » ولم أصادف فى حياتى رجلا أقل تطلعا من السيد زوج أمى ، وبنوه الذين أنجبهم منها على شاكلته فى هذا الأمر ، ويجب أن أفكر فيهم بعد أن أتناول غدائى ... رفع الغطاء الرخامى من فوق منضدة واكتشاف درج مفتوح تحته ليس كفتح قفل عنوة ، ولست ممن يفتحون الاقفال عنوة ، ويمكن أن يحدث لأى إنسان أن يرفع الغطاء الرخامى من فوق منضدة ، ولعل (تيزيه)[1] كان فى مثل سنى عندما رفع الصخرة ، وما يعوق عن رفع تلك الرخامة عادة هو وجود ساعة ثقيلة فوقها ، ولولا رغبتى فى إصلاح تلك الساعة لما رفعت الغطاء الرخامى ... ولكن الذى لا يحدث عادة هو أن يجد المرء تحت هذا الغطاء أسلحة ، أو رسائل حب أثيم ، ولكن لا بأس ، المهم فى كل هذا هو أنى علمت الحقيقة ، وليس لكل الناس حظ «هاملت» الذى أوتى (الشبح الكاشف) .

(هاملت) ! كم يبدو الأمر غريبا ؛ فإن وجهات النظر تختلف حسبما

---

(١) إنه شخصية نصف خيالية ونصف حقيقية كان يبحث عن وحش فى غياهب الممرات المعقدة فى جبال قبرص .

يكون المرء إبنا شرعيا أو غير شرعى ، وسوف أفكر فى هذا الأمر ثانية بعد أن أتناول غدائى ... أكان شرا أن قرأت تلك الرسائل ؟ لو كان شرا لشعرت بتأنيب الضمير ، ولو لم أقرأ هـذه الرسائل لعشت فى جهل وكذب وخنوع ، فلنخرج إلى الهواء الطلق ، لنخرج إلى عرض البحر ! (برنارد) ! (برنارد) ! دع هذا الشباب الغض ... كما وصفه (بوسويه) — أجلسه على هذا المقعد يابرنارد . ما أجمل الجو هـذا الصباح ! هناك أيام تبدو فيها الشمس وكأنها تداعب الأرض . آه لو أطلقت نفسى قليلا ، لنظمت الشعر .

وتمدد على أريكة ، وأطلق نفسه ... فنام .

الفصل السابع

ارتفعت الشمس ، وأتت من النافذة لتداعب قدم فنسان العارية على السرير العريض ، حيث ترقد ليليان إلى جواره ، ونهضت ليليان قليلا وهى لا تعرف أنه استيقظ ، ونظرت إليه ، وأدهشها ما ارتسم على وجهه من هموم .

ربما كانت « الليدى جريفيث » تهوى « فنسان » ولكنها كانت تحب فيه النجاح ؛ ففنسان طويل القامة ، جميل الملامح ، رشيق ، ولكنه لا يعرف كيف يتصرف فى حضرة الناس ، ولا كيف يجلس ، ولا كيف ينهض . كان وجهه معبرا ولكنه لا يحسن تصفيف شعره ، وإنها لتعجب خاصة بجرأته ، وبقوة فكره . وفنسان — ولا شك — على قسط وافر من العلم ولكنه يبدو لها غير مثقف ، وكانت تحنو على هذا الطفل الكبير مدفوعة بغريزة العاشقة والأم معا ، كانت تريد أن تجعله حلقا آخر وكأنه تمثال تصنعه ، وكانت تعلمه كيف يعنى بأظافره ، وكيف يمشط شعره ويفرقه إلى جانب بدلا من تصفيفه إلى الوراء — كما اعتاد — مما كان يظهر جبهته شاحبة عريضة ، ثم علمته أن يستبدل بأربطه عنقه المتواضعة أنواعا من الأربطة الملائمة . نعم ، كانت ليدى جريفيث تحب فنسان ، ولكنها لم تحتمل أن تراه واجما أو عابسا على حد قولها .

وراحت تمر بإصبع رفيق فوق تقطيبة مزدوجة راسية وسط جبهته ، وكأنها تبغى محوها ، وانحنت عليه قائلة : « إن كنت ستحمل إلى هنا همومك وأسفك على الماضى ، وتأنيب ضميرك ، فمن الأفضل ألا تعود » .

وأغمض فنسان عينيه ، وكأن ضوءاً ساطعا سلط عليه ، فقد بهره المرح الساطع من نظرات ليليان .

— أنت هنا وكأنك فى معبد ، يجب أن تخلع حذاءك ساعة الدخول حتى

لا تحمل معك أوحال الخارج . لعلك تتصور إننى لا أعرف فيم تفكر ! ـ ولما أراد فنسان أن يضع يده على فمها قالت فى ثورة :

ـ لا ، اتركنى أكلمك بجد : لقد فكرت طويلا فيما حدثتنى به منذ أيام ؟ يعتقد الناس أن النساء لا يعرفن التفكير ، ولكن ذلك يتوقف على نوع النساء ... مازلت أذكر ما كنت تقوله لى عما ينتج عن جمع جنسين من الحيوانات ... وأنه لا يمكن الحصول على نتاج طيب إلا عن طريق الانتقاء ... أترانى حفظت الدرس الذى ألقيته على مسامعى ... ؟ حسنا ! أعتقد أنك فى هذا الصباح تفكر فى أمر عجيب ... إننى أقرأ ذلك فى تقطيبه جبينك . أنت حانق ؛ لأنك تركت لورا . إننى أقرأ ذلك فى تقطيبة جبينك ، إن شئت أن تعود إليها فلتقل لى ذلك الآن واتركنى ، عندئذ أكون أخطأت فى تقديرك ، فأتركك ترحل دون أسف عليك . أما إذا أردت أن تبقى معى ، فاخلع هذا الوجه المكتئب . إنك تذكرنى ببعض الإنجليز ؛ فكلما تحررت أفكارهم كلما تمسكوا بالأخلاق ، حتى إن بعض مفكريهم الأحرار يعتبرون أكثر الناس تمسكا بالدين . أتتصور أننى امرأة بلا قلب ؟ إنك إذن تخطىء : أفهم جيدا أن تشفق على «لورا » . ولكن فى هذه الحال ، ماعساك تفعل هنا ؟

ولما أدار فنسان وجهه عنها أضافت :

ـ إصغ إلى . إذهب إلى الحمام ، وحاول أن تترك همومك تذهب عنك مع مياه الاستحمام ، وسوف أطلب شايا ، وعندما تعود إلى سأشرح لك أمرا يبدو أنك لا تفهمه جيدا .

وكان قد نهض ، ووثبت نحوه قائلة :

ـ لا ترتد ملابسك مباشرة ، ستجد فى صوان الملابس بجانب السخان برانس ، وملابس شرقية ، وبيجامات ، فاختر منها ما يحلو لك .

وعاد فنسان مرة أخرى بعد عشرين دقيقة مرتديا جلبابا من الحرير الأخضر الفاتح وصاحت ليليان مظهرة إعجابها به :

ـ إنتظر ! إنتظر حتى أنسق ملابسك ، وأخرجت من درج فى خزانة

شرقية ملفحتين فى لون (الباذنجان) وربطت إحداهما حول وسطه ، وعممت بالثانية رأسه ، وأضافت :

ـــ تتلون أفكارى دائما بلون ملابسى (وكانت قد ارتدت منامة (بيجامة) حمراء اللون عليها خطوط من لون الفضة الزاهى) أذكر يوما ـــ وكنت لا أزال حديثة السن فى (سان فرنسيسكو) ، ألبسونى ثوبا أسود ؛ لأن خالة لى توفيت ، ولم أكن رأيتها قط ، وبقيت أبكى طوال النهار ، وشعرت بحزن عميق ، وتصورت أن قلبى مفعم بالأسى ، وإننى متألمة جدا على خالتى ... ولم يكن ذلك الشعور إلا بسبب الملابس السوداء ، وأعتقد أن الرجال يبدون اليوم أكثر وقارا من النساء ؛ لأنهم يرتدون ملابس أكثر تحشما ، وأنا أراهن أن أفكارك الآن ليست كما كانت منذ لحظات ، إجلس هنا على حافة السرير ، وبعد أن تشرب قدحا من (الفودكا) وفنجانا من الشاى ، وتأكل شطيرتين أو ثلاثا ، سوف أقص عليك قصة ، وقل لى متى تريد أن أبدأ ... ، وكانت فى هذه الأثناء قد جلست على الطنفسة الصغيرة بجانب السرير بين ساقى (فنسان) وقد التفت فى أرديتها كتمثال فرعونى ، وأسندت ذقنها على ركبتها ، وبعد أن شربت وأكلت بدأت قصتها :

كنت على الباخرة « البورجونيا » فى اليوم الذى غرقت فيه ، وكنت فى السابعة عشرة من عمرى ـــ وهذا بمثابة اعتراف منى اليوم بسنى ـــ وكنت أتقن السباحة ، ولأثبت لك أن قلبى ليس صلدا كالحجر ، أقول إن فكرتى الأولى كانت أن أنقذ نفسى ، وفكرتى الثانية أن أنقذ شخصا آخر ، بل وربما كانت هذه الفكرة الثانية أول ماراود ذهنى ، أو لعلنى بالأحرى لم أفكر فى شىء على الإطلاق ، ونفسى لاتعاف شيئا كما تعاف أولئك الذين لايفكرون إلا فى أنفسهم فى مثل تلك اللحظات ، وكذلك أشعر بمثل هذا الشعور نحو هؤلاء النساء اللواتى يصرخن ، وكانوا قد ملأوا أول قارب من قوارب الإنقاذ بالنساء والأطفال ، وطفق بعضهن يصرخ حتى أن صياحهن كاد يفقد الناس صوابهم ، وجرت عملية الإنقاذ بطريقة سيئة حتى أن القارب بدلا من أن ينزل إلى الماء فى وضع أفقى مال بمقدمته ، فأفرغ من فيه قبل أن يصل إلى الماء .

وجرى كل ذلك على أضواء المشاعل والمصابيح ، ولا تتخيل كم كان المشهد مؤسيا رهيبا مقبضا ، وكانت الأمواج عالية شيئا ما وكل شيء لايغمره الضوء يختفي وراء الموج في غياهب الليل ، ولم يتح لي قط أن عشت حياة مليئة كما عشت في تلك الأثناء ، وكنت عاجزة عن التفكير ، ولا أذكر جيدا ما يمكن أن يكون قد حدث ، ولكن ذهني يحتفظ بشيء واحد وهو أنني لمحت في القارب صبية في الخامسة أو السادسة من عمرها ، وكانت جد لطيفة ، ولما رأيت القارب ينقلب قررت أن أنقذها هي ، وكانت في بادىء الأمر مع أمها غير أن أمها لم تكن تجيد السباحة ، ثم إن رداءها عاق حركتها كما يحدث دائما في هذه اللحظات . أما أنا فقد خلعت ملابسي بطريقة آلية ، وكانوا ينادونني لآخذ مكاني في القارب التالي ، واضطررت أن أصعد إليه ، ولا بد أني قفزت إلى الماء من هذا القارب نفسه ، وأذكر أنني سبحت مدة طويلة ومعي الطفلة وهي متعلقة حول عنقي ، وكانت في حالة فزع شديد وتضغط عنقي بقوة حتى إنني لم أقو على التنفس ، ومن حسن الحظ أنهم استطاعوا رؤيتنا من القارب ، وانتظروا وأخذوا يجدفون حتى لحقوا بنا . وهذا الذي أرويه لك ليس هو مايعنيني من القصة ، فثمة ذكرى بقيت عالقة بذهني ، ولن تمحى أبدا من عقلي أو من قلبي : كنا مكدسين في هذا القارب ، وكان عددنا يربو على الأربعين بعد أن التقطوا الكثيرين من السباحين كما التقطوني أنا ، وكان الماء يصل إلى حافة القارب ، وكنت في المؤخرة ، أضم إلي الطفلة التي أنقذتها ضما قويا ؛ لأدفئها ولأمنعها من رؤية ما كنت آراه . وكنت مضطرة أن أراه ، كان في القارب ملاحان مسلحان ، أحدهما يحمل بلطة ، والآخر سكينا . أتعرف ماذا كانا يفعلان ؟ . . . كانا يقطعان أصابع وأيدي بعض السباحين الذين كانوا يحاولون جاهدين أن يصعدوا إلى قاربنا . . واستدار أحدهما نحوي (وكان الآخر زنجيا) وكانت أسناني تصطك من البرد ، ومن الهول والفزع ، وقال : (إذا زاد عددنا واحدا هلكنا جميعا ، القارب ممتلىء) وأضاف : إنه في جميع حوادث الغرق يضطرون أن يفعلوا هذا ، ولكنهم يخفون مايفعلون .

وأعتقد أنه أغمى على ، وعلى أى حال لا أذكر شيئا مما حدث بعد ذلك ، كما يصم المرء مدة طويلة بعد سماعه دويا مروعا ، وإذ عدت إلى صوابى على ظهر السفينة التى التقطتنا ، أدركت أنى أصبحت امرأة أخرى ، فلم أعد نفس الفتاة العاطفية التى كنتها قبل هذا الحادث . لقد أدركت أنى تركت قطعة من نفسى تغرق مع الباخرة (لابورجوينا) وأنى منذ تلك اللحظة قادرة أن أقطع أصابع وأيدى كثير من العواطف الرقيقة فى نفسى ؛ حتى لاتصعد إلى، وتغرق قلبى .

ونظرت إلى (فنسان) بطرف عينها، وقالت ــ وهى تميل بجذعها إلى الخلف ــ :

ــ هــذه عادة يجب أن يكتسبها المرء .

وكان شعرها قد انسدل على كتفيها، فنهضت واقتربت من مرآة ، وأخذت تصلح من تصفيفه وهى تــكمل حديثها .

ــ عندما تركت أمريكا بعد وقت طويل ، شعرت أنى شىء ثمين ، وأنى راحلة بحثا عمن يقهر قلبى ، ولقد أسأت التصرف أحيانا ، وأخطأت أحيانا ..، وربما كنت مخطئة اليوم فى أن أحدثك ــ كما أفعل الآن ــ ولــكنى أرجو ألا تتصور أنك غزوت قلبى ، لأنى استسلمت لك ، وتأكد من ذلك ؛ فإننى أحتقر العادى من الرجال ، ولا أستطيع أن أحب إلا قاهرا ، فإذا أردتنى فليكن ذلك ؛ لأساعدك على أن تكون قاهرا . أما إذا شئت أن أكون معك لأشفق وأهون عليك ، ولأدللك... فلا ياصديق ، لن تــكون فى حاجة إلى ، بل إلى (لورا) .

قالت ذلك دون أن تلتفت ، واستمرت فى تنسيق شعرها النافر ، ولــكن لمح فنسان نظرتها فى المرآة . وقال لها ــ وهو ينهض ــ :

ــ اسمحى لى ألا أجيبك على هذا إلا عندما ألتقى بك هذا المساء . (قالها وهو يخلع ملابسه الشرقية ليرتدى ملابسه العادية) ــ أما الآن فيجب أن أعود سريعا إلى بيتى قبــل أن يخرج (أوليفييه) فهناك شىء مهم للغــاية يجب أن أقوله له .

قال ذلك على سبيل الاعتذار ولكي يبرر رحيله ولكنه ما إن اقترب من (ليليان) حتى استدارت نحوه باسمة جميلة ، فاتنة فتردد وقال : —

— اللهم إلا إذا تركت له رسالة ليقرأها وقت الغذاء .

— هل تتحادثان كثيرا ؟

— نادرا ما نتحدث ، ولكنها دعوة يجب أن أوصلها له .

— من لدن (روبير) ؟ ... أوه فهمت ....— قالتها وهي تبتسم بطريقة غريبة — يجب أن نتحدث أيضا في مرة أخرى عن (روبير) هذا ... إذن ، إرحل بسرعة . ولكن عد في السادسة لأن سيارته ستمر علينا في السابعة لتصحبنا لتناول العشاء في الغابة .

وكان فنسان غارقا في تأملاته وهو سائر . وكان يشعر بأن اشباع الرغبات يمكن أن يولد نوعا من اليأس يصحب المتعة وكأنه يحتمي وراءها .

الفصل الثامن

علينا أن نختار شيئا من اثنين : إما أن نعشق النساء
وإما أن نفهمهن ، وليس ثمت حد وسط بين الاثنين

شامفور

جلس « ادوارد » فى قطار باريس السريع ، يقرأ قصة « القضيب الثابت » « لباسفان » ، وقد ظهرت حديثا واشتراها لتوه من محطة « دييب » . وهذا الكتاب ينتظره ولا ريب فى باريس ، ولكنه متلهف على معرفة حقيقة هذه القصة ، فالجميع يتكلمون عنها ولم يحظ أى كتاب من كتبه هو بالظهور فى واجهات مكتبات المحطات . سبق أن قيل له ما يجب أن يبذله من مسعى لتظهر كتبه فى هذه المكتبات إلا أنه لا يبالى ، وأعاد على نفسه القول أنه لايهتم كثيرا بعرض كتبه فى واجهات مكتبات المحطات ، ولكنه وجد أنه فى حاجة لأن يكرر ذلك القول لنفسه عندما رأى كتاب « باسافان » معروضا فيها .

كل ما يعمله «باسافان» يقض مضجعه ، وكذلك كل ما يحيط به ، مثل المقالات التى تشيد بكتابه حتى لتسمو به إلى أوج المجد ، بل إن الأمر يبدو وكأنه مقصود ، فالجرائد الثلاث التى اشتراها لحظة أن رست به الباخرة تشيد بكتاب « القضيب الثابت » وفى جريدة رابعة قرأ رسالة من «باسافان» يحتج فيها على مقال نشرته الجريدة وكان قليل الإشادة بالكتاب . وفى الرسالة دافع « باسافان » عن كتابه وشرحه وادعى أنه يبغى تنوير الجمهور ، وهكذا استجلب رضاه بلباقة . لم يحدث قط أن أثار كتاب من كتب « ادوارد » مثل هذا العدد من المقالات ، كما أن ادوارد لم يهتم أبدا بأن يكتسب رضاء النقاد ، فإذا لم يبال هؤلاء به ، فهذا أمر لايهمه . ولكنه شعر وهو يقرأ المقالات عن كتاب منافسه أنه فى حاجة لترديد هذا القول : إنه لايهمنى .

وليس معنى ذلك أنه يكره «باسافان» . لقد قابله من قبل ووجد فيه شخصا جذابا . وكان (باسافان) دائما لطيفا جدا معه . إلا أن مؤلفاته لاتعجبه . كان (سافان) فى رأيه مؤلفاً أكثر منه فنانا . والآن كفاه تفكيرا فى (باسافان)

وأخرج (ادوارد) من جيب سترته رسالة (لورا) ، وكان قد أعاد قراءتها على سطح السفينة ، وراح يتلوها للمرة الثالثة وها هى ذى : —

أى صديقى)

كانت آخر مرة قابلتك فيها — ولعلك تذكر ذلك — بحديقة (سانت جيمس) فى اليوم الثانى من شهر أبريل عشية رحيلى إلى جنوب فرنسا — وجعلتنى أعدك بأن أكتب لك إذا ما وجدت نفسى فى مأزق — وها أنا أفى بوعدى .

ولمن غيرك ألجأ ؟ أولئك الذين أتمنى أن أستند عليهم ، هم ذاتهم الذين يجب على أن أخفى عنهم ما أنا فيه من يأس ، وأنا يا صديقى فى يأس عظيم . ربما قصصت عليك ذات يوم قصة حياتى منذ أن تركت زوجى (فليكس) . لقد صحبنى حتى مدينة (پو) ثم عاد وحيدا إلى (كامبردج) حيث محاضراته . أما ماحدث لى هناك بعد أن أصبحت وحيدة ، وتركت نفسى لنفسى وللنقاهة ، وللربيع ... هل سأستطيع أن أبوح لك بما لا أقدر أن أبوح به لفيلكس ؟ حان الوقت لألحق به . وا أسفاه ! لم أعد أهلا لأن أراه ، الرسائل التى أكتبها له منذ مدة رسائل كاذبة . أما رسائله لى فليس فيها إلا التعبير عن بهجته لتحسن صحتى . لماذا لم أبق مريضة ! لماذا لم أمت هناك ! لقد اضطررت يا صديقى أن أخضع للواقع ، إننى حامل ، والطفل الذى أنتظره ليس منه . لقد تركت (فيلكس) منذ أكثر من ثلاثة أشهر ، ولست قادرة على أن أخدعه هو بالذات . ولا أجرؤ على العودة إليه ، بل ولا أستطيع ذلك ، ولا أريده . إنه رجل بالغ الطيبة ، وإنى على ثقة أنه سيصفح عنى ، ولكننى لا أستحق ذلك ولست أريد منه أن يغفر لى ، ولا أجرؤ على العودة إلى والدى اللذين يعتقدان أننى مازلت فى (پو) ، لو علم والدى ذلك أو فهم حقيقة ما فعلت لا ستنزل اللعنة على ولأبعدنى ، وكيف أواجه فضيلته وكراهيته للخطيئة وللكذب

ولكل دنس ؟ وأخشى كذلك أن أفجع أمى وأختى . أما عن هذا الذى ... ولكننى لا أريد أن أتهمه ، فهو عندما وعد بمساعدتى كان قادرا أن يفعل ذلك . ولكنه ـ ليكون أقدر على ذلك ـ بدأ لسوء الحظ يقامر وخسر المبلغ المخصص لإعالتى ولنفقات الوضع . لقد خسر كل شىء ، وكنت قد فكرت فى بادىء الأمر أن أرحل معه إلى أى مكان ، وأن أعيش معه بعض الوقت على الأقل ، لأننى لم أكن أرغب فى إزعاجه أو فى أن أكون عالة عليه ، ومما لاشك فيه إننى كنت سأهتدى إلى طريقة أكسب بها عيشى ، ولكنى لست قادرة على ذلك فى الحال . وأنا أرى بجلاء أنه يتألم لتخليه عنى ، ولأنه لايستطيع أن يفعل شيئا آخر ، ولذا ترانى لا أتهمه . ولكنه هجرنى على أية حال ، وأنا هنا خاوية الوفاض وأعيش فى فندق صغير مرجئة دفع أجر إقامتى فيه إلى حين ، ولكن هذا لا يمكن أن يستمر ، ولست أدرى ما يمكن أن أصير إليه . وا أسفاه ! إن هذه الطرق المفعمة باللذات التى سلكتها لم تكن لتؤدى إلا إلى غياهب الظلمات .

وأنا أكتب إليك على العنوان الذى أعطيتنيه بمدينة (لندن) ولا أعرف متى ستصل إليك هذه الرسالة ؟ أنا التى كنت أتمنى أن أصبح أما ! إنى لا أكف عن البكاء طوال اليوم ، انصحنى إن استطعت فلست آمل فى مساعدة أحد غيرك . ابذل لى النصح فلست أنتظر شيئا إلا منك ... أنجدنى إن كان ذلك فى طاقتك وإلا ... وا أسفاه ! لو كنت فى ظروف أخرى لكنت أكثر شجاعة ، ولكننى الآن فى وضع مختلف ، إذا أننى لن أموت بمفردى ، فإذا لم تحضر إلىّ ، أو إذا ما قلت لى فى رسالتك : لا أستطيع أن أفعل شيئا من أجلك ، فلن ألومك . وسوف أحاول وأنا أترك الحياة ألا آسف عليها كثيرا . وإذ أودعك ، أعتقد أنك لم تفهم تماما أن الصداقة التى منحتنى إياها ستبقى بالقياس إلىّ أطيب ما عرفت ، وأعتقد كذلك أنك لم تفهم أن ما أدعوه صداقتى لك إنما كانت تحمل فى قلبى معنى أكبر ..

لورا فيلكس دوفييه

(ملحوظـة :

سأذهب للقائه للمرة الأخيرة قبل أن أضع هذه الرسالة بصندوق البريد. سأنتظره عند بيته هذا المساء . إذا تسلمت هذه الرسالة يكون معنى ذلك حقيقة ... وداعا ، وداعا ، فلم أعد أعرف ماذا أكتب)

وتسلم (ادوارد) هذه الرسالة صبيحة يوم رحيله ، ومعنى ذلك أنه قرر الرحيل بمجرد أن استلمها ، وعلى العموم لم يكن فى نيته أن يطيل إقامته بانجلترا ، ولا أعنى بذلك أنه كان قادرا على الامتناع عن العودة إلى باريس خصيصا لنجدة لورا ، بل وأضيف أنه كان سعيدا بالعودة . لقد حرم من المتع حرمانا أثناء هذه الفترة الأخيرة بانجلترا .

وأول ما سيفعله بباريس هو أن يتوجه إلى مكان من أمكنة اللهو ، ولما كان حريصا على ألا يحمل معه فى مثل هذه الحالات أوراقا شخصية فقد أنزل حقيبته من فوق رف القطار وفتحها ليضع فيها رسالة (لورا) .

ليس مكان هذه الرسالة بالحقيبة بين البذلات والقمصان ، لقد وصل فى بحثه إلى ما تحت ملابسه وأمسك بكراسة مغلفة بالورق المقوى نصفها بخط يده ، ووضع رسالة (لورا) بين الورقات الأولى فى الكراسة ، وهى أوراق كان قد كتبها فى العام الماضى ، وها هو ذا يعيد قراءتها .

يوميات « ادوارد »

١٨ أكتوبر — لا يبدو على (لورا) أنها تعرف حقيقة تأثيرها علىّ ، وإنى أعرف ما فى صميم قلبى ، وأدرك جيدا أنى لم أكتب سطرا حتى الآن إلا وكانت هى بطريقة غير مباشرة ، ملهمتى فيه ، إنها تبدو وهى إلى جوارى كأنها ماتزال بعد طفلة ، وبراعتى فى الحديث لا ترجع إلا لرغبتى الدائمة فى أن أعلمها وأفتنها . لست أرى شيئا أو أسمع شيئا دون أن أسأل نفسى فى الحال : ما رأيها فى ذلك ؟

وأتخلى عن انفعالى ولا أعرف إلا انفعالها . ويبدو لى أنها لو لم تكن إلى جوارى لتشعرنى بشخصيتى لضاعت تلك الشخصية فى إطار مبهم غير محدد المعالم ، إنى لا أجمع شتات نفسى ولا أحدد معالمها إلا إذا كانت هى إلى جوارى . ولست أدرى كيف خدعت نفسى وقتا ما ، فخلت أنى سأجعل منها شخصية على شاكلتى بينما كنت أخضع لتأثيرها هى ، ولكننى لم ألاحظ ذلك فى حينه ! أو بمعنى أصح : أدمج الحب كيان كل منا فى الآخر فتغير كلانا !

وكل من عشق يتشكل — دون وعى منه أو إرادة — على نسق معشوقه ، فهو يعمل على أن يشبه هذه الدمية التى يتأملها فى قلب الآخر . وكل من عرف العشق حقا فإنما يتخلى عن بعض ذاته .

وهكذا خدعتنى . كان فكرها مع فكرى فى كل مكان . وكنت أعجب بذوقها وطلعها وبثقافتها ، ولم أكن أدرى أن حبها لى هو الذى جعلها تهتم بكل ما أشغف به . لم تكن قادرة على الاكتشاف، وكان إعجابها بالشيء — وإنى لأفهم ذلك الآن — بمثابة أريكة تمد عليها فكرى إلى جوار فكرها، ولم يكن فى ذلك صدى حقيقى لشيء يعتمل فى نفسها ، وربما قالت :

(إن أفكارى لا تتزين ولا تتجمل إلا من أجلك) ، والحق إنى كنت أوثر أن يكون ذلك من أجلها هى، وأن يكون مبعثه حاجة ملحة فى نفسها، ولكنى أعرف أن كل ما تدثر نفسها به من أجلى سيذهب ، ولن يبقى منه حتى الأسف عليه والإحساس بأن ثمت شيء قد ضاع . ويأتى يوم يبزغ فيه الكائن الحقيقى من جديد بعد أن يعريه الزمن من كل ملبس مستعار ، وإذا كان المحب قد عشق فيه الزينة الزائفة فسيحس عندئذ أنه لم يعد يضم إلى صدره غير سراب وذكرى وحزن ويأس .

أواه ! كم من الفضائل وكم من صفات الكمال خلعت عليها ! إن مسألة الصدق لتثير الحنق حقاً . كلما تحدثت عن الصدق فلا أفكر إلا فى صدقها هى ، وإذا أدرت وجهى نحو نفسى فإنى أكف عن فهم ما تعنيه هذه الكلمة . لست إلا ما أومن أنى هو . وذلك أمر دائم التغير بحيث لو لم أحرص دائما على المزج بين الحالين فلن

يعرف (كيانى فى الصباح) (كيانى فى المساء). ولن يكون ثمت شىء أكثر بعداً عن ذاتى سوى. ذاتى إننى لا أتبين نفسى على حقيقتها إلا فى العزلة فقط، وعندئذ أشعر بنوع من الاستمرار للصفات الكامنة فى نفسى، ولكن يبدو لى فى هذه اللحظات أن حياتى تتجه إلى التوقف، أو أننى فى طريقى إلى العدم. إن قلبى لا يخفق إلا بدافع الحب، ولا أعيش إلا بغيرى، إلا بوكالة من غيرى أو بامتزاج به — إن استطعت هذا التعبير — ولا أشعر إنى أعيش حقاً إلا عند ما أهرب من ذاتى لأصبح شخصاً آخر أيا كان.

إن هذه القوة المضادة للأثرة الكامنة فى نفسى تبدو وكأنها تبخر فى ذاتى الإحساس «بالتملك»، وذلك يؤدى إلى التجرد من الإحساس بالمسئولية. إن شخصاً مثلى لا يمكن أن تتزوجه امرأة. كيف أستطيع أن أقنع «لورا» بذلك؟

٢٦ أكتوبر — لا يمكن أن أشعر بوجود شىء إلا إن كان هذا الشىء «شاعريا».

(وأضفى على هذه الكلمة كل ما تحمله من معان) — وأول هذه الأشياء هو ذاتى.

يبدو لى أحيانا أننى لست موجوداً حقاً وأننى أتخيل فقط أنى كائن، وأصعب ما أصل إليه هو الإيمان بحقيقة ذاتى. إننى أهرب دائماً من ذاتى، وعندما أنظر إلى نفسى وهى تعمل أعجب لما أرى، لأنى لا أصدق أن الذى يعمل هو نفس من يدهش لهذا العمل، إذ لا يمكن أن يكون الشخص فاعلا ومتفرجا معاً.

لقد فقد التحليل النفسى كل أهمية بالقياس إلىَّ مذ تبينت أن الإنسان لا يشعر إلا بما يتصور أنه يحس به، ومعنى ذلك أنه يتخيل الإحساس بما يشعر به، وأنا أرى هذا عن طريق حبى للورا — إذ كيف يمكن أن أتبين الفارق بين الحب وتوهم الحب أو بين توهم نقص حبى لها ونقص هذا الحب فعلاً؟ فى عالم الشاعر لا يمكن التميز بين الواقع والوهم.

وإذا كفى توهم الحب لكى يحب المرء حقا، فكذلك يكفى أن يقول المحب لنفسه

إنه يتخيل الحب ، فينقص حبه فى الحال ويبتعد شيئاً ما عمن يحب ، ولـكن حين يقول المرء لنفسه هذا ، أليس ذلك دليلا على أن حبه قد نقص فعلا ؟

وبمثل هذا التعليل ، سيحاول « س » فى كتابى أن ينفصل عن « ز » — وسيحاول بخاصة أن يفصلها عن نفسه .

٢٨ أكتوبر — لا يكف الناس عن التحدث عن (التبلور) المفاجئ للحب . أما (التميع) الدريجى للحب ، فلا أسمع أحداً يتحدث عنه ، وأنا أعتبر هذا ظاهرة سيكولوجية تثير اهتمامى أكثر مما يثيره « تبلور » الحب ، وأعتقد أنه من الممكن تتبع مراحل هذا « التميع » بعد وقت يطول أو يقصر فى كل حالات الزواج الناتج عن الحب . لن يخفى على « لورا » من ذلك (لحسن الحظ) إذا ماتزوجت (فيلكس دوفيه) كما ينصحها بذلك العقل وعائلتها ، وأنا نفسى. إن (دوفيه) مدرس أمين جداً ، وله كثير من الخلال الحميدة ، كما أنه كفء فى مادته (وقد قيل لى إن تلاميذه يقدرونه جداً) وسوف تكتشف فيه (لورا) بعد المعاشرة كثيراً من الحسنات ، وإن كانت قد تتخيل فيه العكس قبل الزواج . إننى أشعر بأنها عندما تتكلم عنه وعندما تمتدحه فإنها لا تفيه حقه ، وفى اعتقادى أن (دوفيه) أفضل بكثير مما تعتقد (لورا) .

ياله من موضوع رائع لقصة ! . (التميع) التدريجى للحب بين الزوجين ومن الطرفين بعد خمسة عشر عاما أو عشرين عاما من الحياة الزوجية . طالما أحب العاشق وأراد أن يحب فلا يمكن أن يبدو على حقيقته كما أنه فى الواقع لا يرى الطرف الآخر ، ولـكنه يرى مكانه دمية — يزينها ويؤلهها ويخلقها .

إذن حذرت (لورا) من نفسها ومنى ، وحاولت أن أقنعها بأن حبنا لا يمكن أن يوفر لا لها ولا لى أسباب السعادة الحقيقية الدائمة وآمل أن أكون قد وفقت فى إقناعها بعض الشىء .

وهنا رفع (ادوارد) كتفيه ، وأغلق كراسة مذكراته بعد أن وضع بين

طياتها رسالة (لورا) . أودع الكراسة بدورها فى الحقيبة ، كما وضع فى الحقيبة حافظة نقوده بعد أن أخذ منها ورقة من فئة المائة فرنك سوف تكفيه ولا شك إلى أن يعود لاسترداد حقيبته من الأمانات ، حيث أزمع أن يتركها هناك عند وصوله إلى محطة باريس . وما يضايقه هو أن هذه الحقيبة لا تغلق بمفتاح ، أو بمعنى أصح ليس معه مفتاح ليغلقها به . وقد دأب على إضاعة مفاتيح حقائبه . ولكن لا بأس لأن عمال الأمانات يكونون عادة مرهقين بالعمل أثناء النهار ، ولا يكونون أبداً بمفردهم ، وسوف يستردها حوالى الساعة الرابعة ، ويحملها إلى حجرته ثم يذهب إلى نجدة (لورا) فى محنتها ، وسوف يحاول اصطحابها للعشاء .

وشعر (ادوارد) بالنعاس ، وراحت أفكاره تأخذ مجرى آخر ، وتساءل : لو لم يعرفها أكان يستطيع أن يستنتج من قراءة رسالتها لخسب لون شعرها الأسود ؟ ثم قال : لنفسه إن مؤلفى القصص عندما يصفون شخصيات قصصهم وصفا دقيقا فإنهم بهذا يعوقون عمل الخيال ، ويا حبذا لو تركوا للقارىء حرية تخيل هذه الشخصيات بالطريقة التى تحلوله . وجعل يفكر فى القصة التى يعدها والتى أزمع أن لا تشابه فى شىء كل ما كتب حتى الآن .

ترى ، هل أحسن اختيار العنوان (المزيفون) ؟ لقد أخطأ فى أن أعلنه . إنها ولا شك عادة سخيفة أن يُعلن الكاتب عما لا يزال فى دور الإعداد حتى يغرى قراءه . فهذا لا يغرى أحداً بل إنه يقيد المؤلف ... ثم إن (ادوارد) ليس متأكداً من حسن اختياره للموضوع . إنه دائب التفكير فى هذا الأمر ، ومنذ زمن طويل لم يكتب سطراً واحداً فى هذه القصة — لم يفعل سوى أن سجل فى مفكرته بعض ملاحظاته وتأملاته .

وأخرج المفكرة من حقيبته ، وأخرج قلمه من جيبه وخط هذه السطور :

(يجب تجريد القصة من كل العناصر التى تعتبر دخيلة على طبيعتها فى حد ذاتها) وكما أن فن التصوير الشمسى قد خلص الفنانين من الرغبة فى تصوير بعض الدقائق ، فإن الحاكى سوف يخلص الكتاب الواقعيين ، فى القريب العاجل ، من رغبتهم

فى سرد تفاصيل الحوار بين شخصياتهم ، وهم حتى الآن ، كثيراً ما يشعرون بالفخر لذلك .

ومن الأفضل أن تترك القصة للسينما الوقائع الخارجية والأحداث والمضاعفات الناتجة عنها ، فهى داخلة فى نطاق طبيعتها . بل حتى وصف الشخصيات ، لا أعتقد أنه من عمل القصة . نعم ، يبدو لى أنه ليس للقصة الخالصة النقية — والنقاء هو ما يهمنى فى الفن — أن تعنى بمثل هذه الأمور .

والأمر كذلك أيضاً فيما يتعلق بالفن المسرحى ولا يأتين أحد فيقول إن الكاتب المسرحى لا يصف شخصياته لأن المتفرج يراهم أحياء على خشبة المسرح ، فلكم رأينا مدى الضيق الذى يعترينا فى المسرح بسبب الممثل ، ولكم قاسينا لأنه بعيد عمن كنا خليقين بأن نتخيله دون عون منه — إن الروائى عادة لا يثق بخيال القارئ) .

ما هى اللحظة التى اجتزناها الآن كالبرق ؟ إنها (أزنييره) وهنا وضع (ادوارد) مفكرته فى الحقيبة . ولكن لا شك أن التفكير فى (باسافان) لا يزال يؤرقه . وأخرج مفكرته مرة أخرى ودون فيها :

(ليس العمل الفنى بالقياس إلى (باسافان) هدفا بقدر ما هو وسيلة . آراؤه الفنية التى يتفاخر بها لا تبدو عنيفة كما هى عليه إلا لعدم عمقها ، فليس ثمت دافع قوى فى نفس الكاتب يسيطر عليها ، إنها صدى لوحى الساعة ، وشعارها هو : انتهاز الفرص .

أما فيما يتعلق بقصة (القضيب الثابت) فما يبدو فى بادىء الأمر جديداً جداً سرعان ما سيظهر قدمه بعد قليل . فكل تملق للذوق العام ، وكل تكلف ، إنما هو علامة من علامات الشيخوخة . ولكن هذا هو سر إعجاب الشباب بباسافان ، وهو لا يهمه المستقبل فى شىء . إنه يوجه كلامه إلى جيل اليوم (وهذا فى رأيى أفضل من أن يوجه حديثه لجيل الأمس) — ولكنه إذ لا يوجه كلامه إلا للجيل الحاضر فإن ما يكتبه سيزول مع الجيل الحاضر ، وهو يعرف ذلك ولا يعد نفسه بالخلود . وهذا هو سبب دفاعه المستميت عن نفسه ، ليس عندما يهاجمونه فقط بل

عندما يبخلون عليه بالمديح أيضاً . لو شعر (باسافان) بأن عمله الفني باق مع الزمن لترك لهذا العمل الفني وحده مهمة الدفاع عن نفسه ، ولما حاول باستمرار أن يبرر آراءه . على أنني أعتقد أيضاً أنه ربما سره أن يساء فهمه ، أو أن يحكم عليه بحكم قاس على أمل أن يضمن له ذلك اهتمام نقاد الغد ؟ .

ونظر (ادوارد) إلى ساعته . لقد بلغت الحادية عشرة وخمساً وثلاثين دقيقة . وسأل نفسه : أيمكن أن يجد (أوليفييه) فى انتظاره عند نزوله من القطار ؟ إنه لا يتوقع ذلك ألبتة . وكيف يمكنه أن يتصور أن يكون (أوليفييه) قد علم بأمر البطاقة التى أرسلها لأهل هذا الأخير ليخبرهم بعودته — وقد حدد لهم فيها ساعة وصوله ، دون أن يبدو أنه تعمد إخبارهم بذلك . وقال لهم هذا وكأنه لا يعنى ما قال ، وكأنه مجرد سهو منه .

ووقف القطار ، وفكر لحظة أن ينادى بسرعة حمالا . لا ! لا داعى لذلك فالحقيبة ليست ثقيلة ، ومحل الأمانات ليس بعيداً ... ولكن لنفرض أن (أوليفييه) حضر فهل سيستطيعان أن يتعرف أحدهما على الآخر فى هذا الزحام ؟ لم ير أحدهما الآخر إلا مرات قليلة جداً . وربما تغير شكله كثيرا ! ...

آه ! ياللسماء ! هل من الممكن أن يكون هو ؟

الفصل التاسع

لم نكن لنرثى لما حدث فيما بعد لو أظهر كل من « إدوارد » و « أوليفييه » سروره بلقاء الآخر ، ولكن عجز كل منهما عن تقدير مكانته فى قلب الآخر قد شلهما معاً ، واعتقد كل منهما أنه وحده متأثر بهذا اللقاء ، وشغل بفرحته عن كل شيء ، واستشعر كأنه خجل لفرط هذه البهجة ، ولم يكن له هم سوى أن يخفى شدتها .

وهذا ما جعل (أوليفييه) يعتقد أنه من المناسب أن يتحدث إلى صاحبه عن مجيئه قرب المحطة فى ذلك الصباح لتأدية بعض الأعمال . فعل هذا بدلا من أن يساعد على فرح (إدوارد) بإظهار لهفته على المجيء للقائه ، ولفرط حساسيته ، حاول أن يقنع نفسه بأن مجيئه ربما ضايق (إدوارد) . ولم يكد يكذب حتى علت الحمرة وجهه ولحظ أوليفييه هذه الحمرة . ولكنه عزاها — لفرط حساسيته أيضاً — إلى أنه كان ممسكا بذراع صديقه ضاغطاً عليه فى لهفة .

كان قد قال : حاولت أن أقنع نفسى أنك لن تكون هنا ، ولكننى كنت واثقاً فى قرارة نفسى بأنك ستأتى .

واعتقد أن (أوليفييه) ربما رأى فيما قاله نوعاً من الغرور :

وعندما سمع (أوليفييه) يقول بمظهر من لا يبالى : جئت إلى هذا الحى لبعض الأعمال ، ترك ذراع صاحبه وفتر حماسه . وتمنى لو سأل (أوليفييه) : هل فهم أن البطاقة التى أرسلها لوالديه لم تكن إلا له هو . ولكنه ما إن هم بسؤاله حتى خانته شجاعته . وخشى أوليفييه أن يضايق إدوارد ، أو أن يسيء الحكم عليه إذا ما تكلم عن نفسه فآثر السكوت . وراح ينظر إلى إدوارد وقد دهش عندما لمح رعشة شفتيه ، وخفض ناظريه ، أما إدوارد ، فإنه كان يتمنى أن ينال هذه النظرة من أوليفييه ، كما كان يخشى فى الوقت عينه أن يعتبره عجوزاً . وراح يلف فى عصبية

قصاصة من الورق بين أصابعه . كانت هذه الورقة هي الإيصال الذى سلمته إياه الأمانات ولـكنه لم يلتفت إلى فعلته .

ورأى أوليفييه إدوارد يضغط الورقة بين أصابعه بغير اهتمام ، ثم يقذف بها وهو شارد ، فحدث نفسه قائلا : لو كانت هذه الورقة هى إيصال الأمانات لما قذف بها على هذا النحو . ولم يلتفت أوليفييه إلا لحظة ليرى الريح وهى تدفع بهذه القصاصة بعيداً خلفهما على الرصيف . ولـكن لو نظر إليها مدة أطول لرأى شاباً يلتقطها . وكان ذلك الشاب هو (برنارد) الذى تتبعهما منذ خروجهما من المحطة … وشعر أوليفيه بالأسى لعدم اهتدائه إلى شىء يقوله لإدوارد وأصبح السكوت بينهما شيئاً لا يطاق .

وحدث نفسه قائلا : عندما نصل إلى مدرسة (كوندورسيه) سأقول له : الآن يجب أن أعود إلى البيت ، إلى اللقاء — فلما بلغا المدرسة قرر أن يقول ذلك عندما يصلان إلى منعطف شارع (بروفانس) . ولـكن (ادوارد) — الذى ضايقه هذا الصمت أيضاً — لم يستطع أن يتصور أن يفترقا على هذه الصورة ، فدعا صديقه إلى دخول مقهى ، فربما ساعدهما نبيذ البورتو على التغلب على ما يشعران به من حرج . وشربا الأنخاب .

وقال إدوارد وهو يرفع كأسه :

— أشرب نخب نجاحك — ما ميعاد امتحانك ؟

— بعد عشرة أيام .

— أتشعر أنك متأهب له ؟

وهنا رفع أوليفييه كتفيه وقال :

— هل يمكن للمرء أن يعرف ذلك ؟ يكفى أن لا يكون الشخص فى حالته الطبيعية فى ذلك اليوم .

ولم يجرؤ على أن ينطق بكلمة (نعم) خشية أن يظهر بمظهر الواثق من نفسه .

وكان يشعر بالضيق إذ كانت تتنازعه الرغبة والخوف معاً فى أن يكلمه بصيغة المفرد ، وكان يحاول أن يعطى لجمله صيغة غير مباشرة ليتحاشى كلمة أنت ، وكان بعمله هذا يحرم ادوارد لذة أن يطلب منه الكلام بلا كلفة . وهو يذكر أن ادوارد كان قد حصل منه على ذلك قبل سفره بأيام .

— هل ذاكرت دروسك جيداً ؟

— لا بأس بها ، ولكن ليس بقدر ما كنت أستطيع . وأجابه ادوارد بلهجة جادة :

— يشعر المجدون دائماً بأنه فى مقدورهم أن يعملوا أكثر مما عملوا . لقد نطق بهذه اللهجة رغماً عنه ثم شعر فى الحال بأن جملته سخيفة فأردف :

— هل ما زلت تنظم الشعر ؟

— من حين إلى آخر... وأنا فى حاجة شديدة إلى النصائح ورفع نظره إلى ادوارد وكأنه يريد أن يقول : إلى نصائحك . وكانت نظرته تعبر عما يعنيه أكثر مما يعبر كلامه ، ولذا اعتقد ادوارد أن أوليفيه قال ذلك على سبيل الاحترام أو المجاملة . ولكن ما الذى دفعه إلى هذه الإجابة الجافة ؟ :

— أوه ! النصائح يجب أن نعطيها لأنفسنا ، أو يجب أن نطلبها من رفقائنا ! أما نصائح من هم أكبر منا سناً فليس لها أية قيمة .

وقال أوليفيه لنفسه : ولماذا يحتج ؟ إننى لم أطلب منه أية نصائح . وكان كل منهما — بالرغم منه — لا يجد إلا ألفاظاً جافة أو متكلفة ينطق بها فاعتقد كل منهما أنه المسئول أو المتسبب فيما يقوله الآخر من ألفاظ جافة .

إن مثل هذه الأحاديث لا يمكن أن ينتج عنها شىء طيب ، إلا إذا تصادف وجد عليها جديد . ولكن لم يجد عليها شىء .

كان أوليفيه يشعر بضيق منذ استيقظ هذا الصباح . فقد اعتراه الحزن عند يقظته إذ لم يجد برنارد بجانبه وكان قد رحل دون أن يودعه ، ونسى هذا الحزن

فترة لسروره بلقاء برنارد ، ولكن عاوده الحزن ، وكأنه أمواج قاتمة تغرق كل أفكاره . لقد ود لو تحدث إلى ادوارد عن برنارد وعما وقع له ، وتمنى لو كلمه فى أمور أخرى كثيرة ، ولو جعله يهتم بأمر صديقه . ولكن خشى أن يجيبه ادوارد ببسمة مما كان خليقاً أن يؤلمه أشد الألم ، كما خشى أن ينطق هو بما يمكن أن يفصح عما يعتمل فى نفسه من مشاعر عنيفة ومتضاربة ، فاكتفى بالسكوت . وأحس أن ملامحه تزداد جموداً ، ولكنه كان فى قرارة نفسه يشعر بحاجة ملحة إلى أن يرمى بنفسه بين أحضان ادوارد وأن يجهش بالبكاء . وأساء ادوارد فهم هذا السكوت ومعنى هذا الوجه المتقلص . ولم يكن قادراً على النظر إليه مع أنه كان يشعر برغبة فى ضمه إلى صدره وفى ملاطفته ، كأنه طفل ، وكان يقول لنفسه عندما تلتقى عينه بنظرته الحزينة : نعم إننى أضايقه وأتعبه . يا له من مسكين ، إنه لا ينتظر سوى كلمة منى ليتركنى . ثم قال ادوارد بالرغم عنه وهو مشفق على أوليفييه :

— يجب أن تتركنى الآن فوالداك ينتظرانك للغداء ، إننى متأكد من ذلك .

وأساء أوليفييه مرة أخرى فهم هذه العبارة . ونهض باندفاع ومد يده .

كان يريد أن يسأل ادوارد : متى أراك ثانية ؟ أو متى نلتقى ثانية ؟

وكان ادوارد ينتظر تلك العبارة . ولكن لم تأت سوى هذه الكلمة العادية . وداعاً .

الفصل العاشر

أيقظت الشمس برنارد ونهض من مقعده وهو يشعر بصداع شديد . كان العزم الذى لازمه فى الصباح قد زايله ، وشعر بوحدة بشعة وملأ قلبه شىء لاذع لم يكن يرغب فى أن يسميه بالحزن ، ولكنه أصعد العبرات إلى عينيه ، وطفق يتساءل : « ماذا أفعل ؟ وأين أذهب ؟ ... إنه إذ توجه إلى محطة « سان لازار » فى الساعة التى يعرف أن أوليفيه سيكون فيها هناك ، فلم يكن ذلك بقصد معين ولا لرغبة ما سوى رؤية صاحبه . وطفق يلوم نفسه على الطريقة الفاجئة التى ترك بها صديقه فى الصباح : إذ ربما تضايق أوليفيه من هذا التصرف . ألم يكن أوليفيه المخلوق الذى يحبه برنارد أكثر من أى شخص آخر على هذه الأرض ؟ ... ولكنه عندما أبصر صديقه ممسكا بذراع ادوارد إعتراه شعور غريب ، شعور جعله يتبع الاثنين ، ولا يظهر نفسه لهما . وشعر شعورا مؤلما بأن وجوده غير مستحب ، ومع هذا تمنى لو أقحم نفسه بينهما . وبدا له ادوارد بديعا ، وأعلى قامة بقليل من أوليفيه ، ولا يكبره فى السن إلا قليلا . وقرر برنارد أن يتحدث إلى ادوارد بعد أن يتركه أوليفيه . ولكن أية ذريعة يتذرع بها ؟ .

وفى هذه اللحظة رأى القصاصة تقع من يد ادوارد الشاردة . وتبين بعد أن التقطها أنها وصل « الأمانات » ... حسنا ، هذه هى الذريعة ! .

ورأى الصديقين يدخلان المقهى معا ، ومكث لحظة مرتبكا ثم استأنف حديثه مع نفسه قائلا : « أى صعلوك عادى لابد أن يفكر توا فى إعادة هذه الورقة . كم تبدو لى أمور هذه الحياة تافهة لا قيمة لها ولا جدوى ! . سمعت هذه العبارة تقال لهاملت . ولكن أية فكرة تراودك يا برنارد ؟ بالأمس فقط كنت تنقب فى أحد الأدراج . أى طريق تسلك الآن ؟ ... ولكن حذار ، حذار يابنى ... عامل الأمانات الذى سلمه ادوارد حقيبته سيذهب الآن لتناول غدائه وسيحل آخر محله . ألم تعد صديقك بالإقدام على عمل أى شىء ؟ .

ولكنه فكر مع ذلك أن الاندفاع ربما أضاع كل شيء وربما أثار شكوك العامل بعجلته ، وقد يراجع العامل سجل الإيداع لتشككه فى أن تسحب وديعة أودعت قبل الظهر بدقائق وربما قد رآه عابر سبيل أو متطفل وهو يلتقط الورقة وقرر برنارد أن يتجه نحو ميدان « الكونكورد » دون عجلة ليستغرق وقتا يكفى لأن يتناول فيه أى شخص وجبة غدائه . فمن المألوف أن يضع المرء حقيبته فى الأمانات للمدة التى تستغرقها وجبة الغداء ثم يستردها . أليس كذلك ؟ .

وزايله الصداع . والتقط بدون كلفة وهو يمر أمام شرفة مطعم عودا من الخلة (وكانت أعواد الخلة موضوعة على شكل حزم فوق المناضد) ، وكان فى نيته أن يخلل بها أسنانه أمام مكتب الأمانات ليبدو عليه مظهر من أكل وشبع ، وكان من حسن حظه أن تبدو عليه مظاهر الصحة والأناقة ، والرقى وصراحة البسمة والنظرة .

وشعر بفزع عندما طلب منه الموظف عشرة سنتيمات أجرا للإيداع ولم يكن يمتلك مليما واحدا . ما العمل ؟ الحقيبة أمامه على الرف . وسوف ينتبه الموظف إليه إن بدر منه مايشتم منه عدم الثقة بنفسه أو عدم وجود نقود معه . ولكن الشيطان لن يدعه فى هذا الموقف ، ولذا فإنه يضع فى يد برنارد القلقة — التى كانت تبحث فى الجيوب واحدا تلو الآخر فى يأس — قطعة صغيرة من ذات الخمسين سنتيما ، قطعة نسيها فى أحد جيوب صدريته منذ مدة لا يعلمها إلا الله . فيمد يده بها للموظف دون أن يظهر من ارتباكه شيئا . وأخذ الحقيبة ثم وضع بقية النقود التى أعادوها إليه فى جيبه بحركة بسيطة كما يفعل أى شخص شريف .

أف ! إنه يشعر بحرارة . إلى أين يذهب ؟ ساقاه تخونانه ، والحقيبة ثقيلة . ماذا يمكن أن يفعل بها ؟ ... وتذكر فجأة أنه لا يملك مفتاحها ولكن لا ، لا ، لا ، لن يحاول أن يكسر قفلها ، إنه ليس لصا ؟ يا للشيطان ! ... ولكنه أحس بالرغبة فى أن يعرف ما بداخلها فقط ، إن ذراعه ليشعر بثقلها وهو يسبح فى عرقه فيقف لحظة ويضع حمله على الرصيف . لا شك أن فى نيته إعادتها إلى صاحبها . آه لو عرف ما بداخلها ؟ وامتدت يده مصادفة إلى قفلها . أواه ! يالها من معجزة ! الحقيبة تفتح

ويظهر من فتحتها هذه اللؤلؤة الثمينة : حافظة نقود تبرز منها أوراق نقدية . ويستحوذ برنارد على اللؤلؤة ويغلق القوقعة فى الحال .

إنه يملك الآن مالا ، فهيا بسرعة ! إلى أى فندق ؟ إنه يعرف أحد الفنادق بشارع (أمستردام) وهو على مقربة منه . ثم إنه يشعر بجوع شديد . ولكنه قبل أن يجلس ليأكل يريد أن يضع الحقيبة فى مأمن . الخادم الذى يحمل الحقيبة يسير أمامه على السلم ثلاثة طوابق ، ثم ممر ... وباب . فيغلق هذا الباب على كنزه ... ثم يهبط الدرج .

وها هو يجلس وأمامه شريحة من اللحم ، إلا أنه لا يجرؤ على إخراج حافظة النقود من جيبه (من يدرى لعل أحدا يراقبك ؟) ولكن يده اليسرى تتحسسها بشغف فى أسفل جيبه الداخلى .

وكان يقول لنفسه . — إن الصعوبة هى أن أقنع ادوارد بأنى لست لصا . ترى أى نوع من الرجال يكون ادوارد ؟ قد تجيبنا الحقيبة على هذا السؤال . أما أنه رجل جذاب ، فهذا أمر لاشك فيه . ولكن كم من الرجال الجذابين لا يفهمون معنى الدعابة . ولكنه إذا اعتقد أن حقيبته سرقت فلا شك فى أنه سيفرح بعودتها إليه ، وسوف يشكرنى على أنى أرجعتها وإلا كان إنسانا فظاً . وسوف أعرف كيف أجعله يهتم بى فلأتناول بعض الحلوى بسرعة ثم لأصعد إلى غرفتى لأتدارس الموقف . فلأطلب الحساب ولأترك للخادم منحة سخية .

وبعد لحظات كان فى غرفته .

— والآن أيتها الحقيبة ، لنتفاهم معا ! ... ها هى حلة تبدو أكبر حجما منى قليلا . إن نسيجها فاخر وذوقها سليم وها هى بعض الملابس الداخلية . ثم أدوات للزينة . لست متأكدا من أنى سأعيد إليه كل هذه الأشياء . ولكن ما يثبت أنى لست لصا هو أن هذه الأوراق التى بيدى الآن سوف تشغلنى أكثر من أى شىء آخر . لنقرأ أولا هذه :

إنها الكراسة التى وضع فيها ادوارد رسالة لورا . إننا على علم بما جاء فى صفحاتها الأولى ، وها هو ما جاء بها بعد ذلك مباشرة .

الفصل الحادى عشر

يوميات « ادوارد »

أول نوفمبر : — منذ خمسة عشر يوما — لقد أخطأت فى أننى لم أسجل ذلك فى حينه . وليس سبب هذا أن الوقت لم يسعفنى ولكن الحقيقة أن قلبى كان لا يزال مفعماً بحب لورا — أو بمعنى أصح لم أكن أريد أن أشغل فكرى بشىء سواها . ثم إننى لا أريد أن أذكر هنا أشياء جاءت عن طريق الصدفة ولم أكن أتصور بعد ، أن ما سأقصه الآن ستكون له آثار . أوعلى الأقل كنت أرفض أن أتصور مثل ذلك الأمر . ولكى أقنع نفسى بذلك ، تعمدت ألا أذكره فى مذكراتى . ولكننى أشعر جيدا ، مهما حاولت أن أدافع عن نفسى ، إن وجه أوليفييه يجذب الآن كل أفكارى وأنه يحول مجراها وأننى إذا لم أعمل له حسابا فلن أستطيع أن أفهم نفسى جيدا أو أن أتبين حقيقة ذاتى .

منذ خمسة عشر يوما ، كنت عائدا من عند (بيران) حيث كنت أشرف على إعادة طبع كتابى القديم . وإذ كان الجو جميلا فقد أخذت أسير على غير هدى على أرصفة النهر فى انتظار حلول وقت الغداء .

وقبل أن أصل إلى محل (فانييه) بقليل ، وقفت أمام معرض للكتب القديمة . ولم تكن هذه الكتب لتهمنى ، وإنما لفت نظرى تلميذ صغير فى حوالى الثالثة عشرة من عمره ، كان ينقب فى الرفوف باحثا عن كتاب ، كانت عين الملاحظ الجالس على مقعد من القش أمام باب الحانوت تراقبه فى هدوء . وتظاهرت بأننى أتفرج على المعروضات ، ولكننى كنت بدورى أراقب هذا الصبى بركن عينى ، وكان يرتدى معطفا باليا جدا ، قصير الكمين حتى ظهر من تحتهما كما سترته ، وكان الجيب الجانبى الكبير منفرجاً رغم أنه خاو ، وكان ممزقا فى ركن من أركانه .

وفكرت أن هذا المعطف سبق أن استعمله أخوة عديدون ، وأن هؤلاء الأخوة اعتادوا أن يضعوا أشياء كثيرة جدا فى جيوبهم ، وفكرت أيضا فى أن والدة هذا الصبى مهملة جدا أومشغولة جدا ، لأنها لم تصلح هذا المعطف . ولكن الصغيراستدار قليلا فى هذه اللحظة فرأيت عندئذ أن الجيب الآخر كان مرفعاً بطريقة غليظة ، بخيط أسود سميك متين . وفى الحال تخيلت اللوم الذى توجهه له أمه : لاتضع كتابين معا فى جيبك ، ستمزق بهذه الطريقة معطفك ، وتمزق جيبك مرة أخرى . إنى أنبهك إلى أنى لن أرتقه لك فى المرة القادمة ، ألاترى كم تبدو مهملا ! ـــ ... تخيلت كل هذه العبارات ، التى كانت ترددها على مسامعى المرحومه والدتى ، ولم أكن مثله أعيرها أى اهتمام ، كانت صدريته الهاهلة تظهر خلال معطفه المفتوح . ولفت نظرى ما يشبه الوسام الصغير ، شريط صغير على شكل زهرة صفراء اللون كان يثبتها فى عروة سترته ، وأنا أذكر هذه الأشياء بحكم ما رضت نفسى عليه من نظام ، ولأن تسجيل هذا يضايقنى .

ونودى الملاحظ فدخل الحانوت . ولكنه لم يبق فيه إلا لحظة ثم عاد ليجلس على مقعده ، ولكن هذه اللحظة كانت كافية لتسمح للصبى بأن يضع فى جيب معطفه خلسة الكتاب الذى كان يمسك به فى يده ، ثم شرع بعد ذلك مباشرة فى التنقيب بين الرفوف وكأن شيئاً لم يحدث . ومع هذا كان قلقا ، ورفع رأسه وتبين نظرتى ، وفهم أنى رأيته ، أوعلى الأقل قال لنفسه : إن من المحتمل أن أكون قد رأيته . ولا شك أنه لم يكن متأكدا تماما من هذا ، غير أنه فقد ثقته بنفسه بسبب هذا الشك ، ولذا احمر وجهه ، وبدأ يتظاهر بأنه فى حالته الطبيعية ، إلا أن ذلك كان يكشف ما هو فيه من حرج . ولم أرخ نظرى عنه ، فأخرج الكتاب المسروق من جيبه ثم وضعه فى جيبه ثانية وابتعد بضع خطوات ، ثم أخرج من داخل سترته حافظة أوراق صغيرة بالية ، وتظاهر بأنه يبحث فيها عن نقود يعلم هو جيدا أنها لا وجود لها بحافظته . ثم رسم على وجهه نظرة مسرحية معبرة لا شك أنى مقصود بها ، وكأنه يقول . بالسوء الحظ ! ليس معى ما أشترى به

وكأنه يعني أيضاً : أن هذا أمر عجيب ، كنت أعتقد أن معي نقودا . وكان في هذه الحركة شيء من المبالغة ، وكأنه ممثل يخشى أن لايفهم الجمهور ما يعنيه ثم اقترب من جديد من رفوف المعرض ، ويمكنني أن اؤكد أنه فعل ذلك تحت وطأة نظرتي ، وأخرج الكتاب من جيبه ووضعه بعنف في المكان الذي كان يشغله من قبل ، وفعل كل ذلك بشكل طبيعي لدرجة أن اللاحظ لم يلحظ شيئا . ثم رفع الصبي رأسه من جديد وهو يأمل أن يظهر في هذه المرة بأن الأمر قد سوى . ومع ذلك كنت لا أزال ألاحقه بنظرتي وكأنها عين قابيل . ولكن الفرق بين عيني وعين قابيل ، هو أن عيني كانت تبتسم كنت أرغب في أن أكلمه ، وكنت أنتظره حتى يبتعد عن معرض الكتب لكي أفعل ذلك ، ولكنه لم يتحرك ، وبقي واقفا أمام الكتب . وفهمت أنه سيبقى كذلك ما دمت أنظر إليه . وعندئذ تظاهرت بالابتعاد بضع خطوات ، وكنت في موقفي هذا كمن يلهو بفريسته . ورحل هو ولكنه ما إن وصل إلى عرض الشارع حتى لحقت به وسألته فجأة : — ما اسم هذا الكتاب ؟ وحاولت أن أجعل نبرات صوتي وملامح وجهي تعبر عن أقصى ما أستطيع من رقة .

ونظر إلي في ثبات وشعرت بأن خوفه مني قد زال . ولم يكن جميلا ، ولكن كم كانت نظرته رائعة ! رأيت في تلك النظرة كل المشاعر تهتز ، وكأنها أعشاب في قاع جدول من الماء .

— إنه دليل الجزائر . ولكن ثمنه باهظ ... ولست أملكه .

— كم ثمنه ؟

— فرنكان ونصف .

— ولكن هذا لا يمنع أنك كنت تنوي أن تهرب به في جيبك لولا أنك لاحظت أني أراك .

وهنا أتى الصغير بحركة تدل على الاحتجاج والثورة وأجابني بلهجة بوقحة جداً :

— لا ، أتتهمنى بأنى سارق ؟ ... قالها بقوة إقناع جعلتنى أشك فيما رأيت ، وشعرت بأنى سوف أفقده إن أنا أصررت على اتهامه . فأخرجت ثلاث فرنكات من جيبى وقلت له :

— هيا ! إذهب واشتره . إنى أنتظرك .

« ورأيته بعد دقيقتين يخرج من الحانوت وهو يفتح الكتاب الذى كان يتمناه . وأخذته من بين يديه ، وكان دليلا قديما من عمل « جوان » صور فى سنة ١٨٧١ وسألته وأنا أعيده إليه :

— ماذا تنوى أن تفعل بهذا الدليل ؟ إنه قديم جدا ، ولم يعد له نفع . فأجابنى بأنه على العكس من ذلك مفيد ، وأن « الدليل » الأحدث عمرا غال جدا ، وأن الخرائط التى فيه وافية بالغرض الذى يقصده من شراء الكتاب .

ولن أحاول أن أعيد عباراته لأنها ستفقد طابعها إذا ما تجردت من لهجة سكان الضواحى التى كان يتكلم بها . ثم أن عباراته كان فيها نوع من التأنق .

... ...

« يجب أن أختصر جدا هذه الفقرة . رأيى أننا لا نحصل على الدقة فى الوصف بسرد تفاصيل الحديث ، بل يكفى أن نرسم فى مخيلة القارىء خطين أو ثلاثة خطوط تأتى فى المكان الصحيح . ثم إنى أعتقد أن رواية الصبى للأمر بنفسه شىء أكثر إثارة للاهتمام . ولا شك أن وجهة نظره تكون فى هذه الحال أدق تعبيرا عن وجهة نظرى . وهذا الصبى يشعر فى وقت واحد بالضيق وبالفخر لأنه كان محل اهتمامى . إلا أن ثقل نظرتى قد زيف اتجاهه شيئا ما . الشخصية الغضة والتى ما برحت بعد غير واعية تحاول أن تحتمى وأن تختفى وراء مظهر مفتعل . ليس ثمت أصعب من ملاحظة من هم فى دور التكوين !

يجب محاولة النظر إليهم من زاوية ، من جانب ، لا مواجهة .

وأعلن الصبى فجأة أن أكثر شىء يستهويه هو « الجغرافيا » . وأعتقد أن وراء هذا الحب غريزة التشرد .

وسألته : — أتحب أن تذهب إلى هناك ؟

وأجابني وهو يرفع كتفيه — : نعم !

واعتقدت أنه قد لا يكون سعيدا مع ذويه . فسألته : أيعيش مع والديه ؟

— نعم .

ثم سألته هل الإقامة معهم تطيب له ؟

وهنا احتج بطريقة رخوة ، وبدا أنه يأسف أن كشف عن حقيقة نفسه، وأضاف:

— لماذا تسألني هذه الأشياء ؟

وأجبته في الحال — ؟ لا أعني من ذلك شيئا . ثم قلت وأنا أضع إصبعي على الشريط الأصفر المثبت في عروة سترته — : ما هذا ؟

— إنه شريط كما ترى .

ولا شك أن أسئلتي ضايقته ، واستدار فجأة نحوي بطريقة عدائية وسألني بلهجة وقحة فيها تحد ، لهجة لم أكن أتصور أنه يستطيع أن يتكلم بها ، لهجة أحرجتني : —

— قل لي ... أمن عادتك أن تطارد تلاميذ المدارس ؟

وبينما كنت أحاول متلعثما أن أجيبه بشيء فتح حقيبة المدرسة التي يحملها تحت إبطه ليضع فيها الكتاب الذي اشتراه ، وكان قد كتب عليها اسمه بحروف غليظة . وهنا وثب قلبي من مكانه عندما تبينت في هذا الاسم ابن شقيقتي : «جورج مولينيه».

(وهنا قفز قلب « برنارد » بدوره وهو يقرأ هذه السطور . وهنا أيضا بدأت هذه القصة تستهويه كل الاستهواء) .

سوف أصادف عند كتابة قصة « المزيفون » صعوبة في إقناع قارئي بأن من سيقوم بدوري في القصة لم يكن يعرف أبناء شقيقته، مع أنه كان على صلات طيبة بها — لقد شعرت دائما بعجزي عن أن أضع قناعا على الحقيقة . وأعتقد أن مجرد تغيير لون الشعر مثلا هو نوع من الغش خليق في رأيي أن يجعل الحقيقي يبدو بعيدا عن الواقع .

وأشعر بأن كل شيء في الحياة يتماسك وأن هناك بين وقائع هذه الحياة روابط خفية ، وأن أى تغيير يصيب جزءا من أجزائها كفيل بأن يغير من معالمها جميعاً . ولا أستطيع إغفال أن أم هذا الصبى ليست سوى أخت غيرشقيقة ، وأنها ثمرة الزواج الأول لوالدى ، وأنى بقيت لا أراها طوال المدة التى عاشها والدى ، وأن أموراً تتعلق بالميراث اضطرتنا إلى إيجاد نوع من الصلة بيننا ... كل هذا لامفر منه ، ولا أتصور أنه يمكننى أن أخترع أسباباً أخرى كتماناً للأسرار وحفظاً لها ، وكنت أعرف أن لأختى هذه ثلاثة أبناء . ولاأعرف منهم إلا الابن الأكبر ، الطالب بكلية الطب ، ولم أره إلا قليلا جداً لأنه اضطر أن يقطع دراسته وأن يرحل إلى الجنوب للعلاج من مرض السل الذى أصابه . ولم يصادف أبداً أن رأيت الآخرين فى منزلهما عندما كنت أذهب لأرى (پولين) ، ولاشك أن الصبى الذى أتكلم عنه الآن هو الأصغر . ولم أظهر له شيئا من دهشتى ، ولكننى تركت (جورج) الصغير فجأة لما علمت أنه عائد إلى بيته لتناول الغداء ، وقفزت إلى سيارة أجرة لأصل قبله إلى شارع (نوردام دى شامب) حيث يسكن .

وتصورت أن وصولى فى هذه الساعة سوف يجعل (پولين) تحتجزنى لتناول الغداء ، وهذا ماحدث . وكان إهداؤها النسخة التى أحملها من كتابى والتى جئت بها من مطبعة (بيران) عذراً كافياً ، لأبرر به زيارتى لها فى وقت غير مناسب .

وكانت هذه أول مرة أتناول فيها الغداء عند (پولين) . كنت مخطئاً فى شعورى بعدم الارتياح إلى زوج شقيقتى ، إنه ليس على كفاءة كبيرة فى القانون ، ولكنه يعرف كيف يتحاشى التحدث فى شئون مهنته كما أتحاشى ذلك أنا أيضاً ولهذا تفاهمنا .

ومن الطبيعى أنى لم أشر بكلمة واحدة إلى مقابلتى فى هذا الصباح لابنهما . وقلت لپولين عندما رجتنى أن أبقى للغداء :

ـ ستتيح لى هذه الفرصة التعرف على أبنائك ، وأنت تعرفين أنى لم أتعرف بعد على اثنين منهما . وأجابتنى :

ـ سيعود (أولفييه) متأخراً لأنه يأخذ دروساً خاصة ، سنتناول الغداء بدونه

ولكنيها أنا أسمع خطوات (جورج) . سوف أستدعيه . وصاحت وهي تجري نحو الغرفة المجاورة :

ـ جورج ! تعال لتحيي خالك .

واقترب الصغير ومد لي يده ، وعانقته ... كم أعجب بقوة الأطفال في إخفاء مشاعرهم ! لم تبدر عليه أية بادرة تدل على الدهشة ، وكأنه لم يتعرف علي ، وكل ماحدث هو أن وجهه كساه احمرار شديد . ولم تر أمه في ذلك إلا مظهراً من مظاهر الخجل . واعتقدت عندماتركنا في الحال وعاد إلى الغرفة المجاورة أنه متضايق من لقاء الشخص الذي فضح أمره منذ قليل ، وكانت الغرفة المجاورة ـ كما فهمت ـ هي حجرة الطعام. وكانت تستغل مابين الوجبات كغرفة للاستذكار للأولاد ، ولكنه ظهر بعد قليل ، وانتهز اللحظة التي دعانا فيها والده للدخول إلى حجرة الطعام ليمسك بيدي دون أن يرانا والده . وتصورت في بادىء الأمر أن هذه علامة من علامات الصداقة ولكني كنت مخطئاً ، إذ فتح يدي ووضع فيها ورقة صغيرة لاشك أنه كتبها منذ قليل ، ثم ثنى أصابعي عليها وضغط يدي بشدة . وتجاوبت معه ، فوضعت الورقة في جيبي خلسة ولم أخرجها إلا بعد الغداء . وهاهو ماقرأته فيها :

إذا ما سردت على والدي قصة الكتاب (وهنا شطب عبارة : سوف أبغضك) سأخبرهم بأنك عرضت علي عروضاً .

وكتب أسفل هذه العبارة :

ـ (إنني أخرج كل يوم من المدرسة في الساعة العاشرة) .

عاقتني زيارة (س) أمس عن متابعة كتابة مذكراتي . لقد ترك حديثه في نفسي شعوراً بالضيق .

فكرت كثيراً فيما قاله لي (س) . إنه لايعرف شيئا عن حياتي ، ولكني حدثته كثيراً فيما أنويه بخصوص قصة (المزيفون) إن نصائحه تفيدني دائماً لأن وجهة نظره تختلف تماماً عن وجهة نظري ، وهو يخشى أن أجنح إلى الافتعال وأن أبتعد عن

الموضوع الحقيقي لأتمسك بظل الموضوع المرتسم فى مخيلتى ، وما يزعجنى حقاً هو أن أشعر أن الحياة (حياتى) تنفصل عن عملى الفنى ، وأن عملى الفنى ينفصل عن حياتى . ولكننى لم أستطع أن أقول له هذا . وأما حتى الآن ، لا يغذى مؤلفاتى إلا ذوقى وشعورى وتجاربى الخاصة . وكنت وما زلت أشعر عند قراءة جملى — وأحسنها صياغة — أن قلبى يخفق فيها ، ولكن منذ هذه اللحظة أرى الرباط بين ما أفكر فيه وما أحس به قد انفصم وربما كان امتناعى اليوم عن ترك العنان لقلبى هو الذى دفع بكتابى إلى هذا التجرد وهذا التكلف . وقد أتاح لى التفكير فى هذا الأمر فهم معنى أسطورة « أبولون ودافنيه »[1] فقلت لنفسى : سعيد من استطاع أن يحتضن فى وقت واحد إكليل الزهور ومحبوبه .

كتبت طويلا جداً عن مقابلتى لجورج بحيث وجب على أن أكف عن الكلام عنه بعد أن ظهر « أوليفييه » ، والواقع أنى لم أتكلم إلا عن « جورج » وحين أتكلم عن أوليفييه أدرك أن الرغبة فى إرجاء هذه اللحظة كانت سبب تلكئى . ما إن رأيت « أوليفييه » ، وما إن جلس إلى المائدة معنا ، ومن أول نظرة منى إليه ، أو بالأحرى من أول نظرة منه إلى ، شعرت أن تلك النظرة قد استحوذت على ، وأنى لم أعد أتصرف فى حياتى .

تصر (بولين) على أن أزورها أكثر مما أفعل وترجونى بإلحاح أن أهتم قليلا بأمور أولادها . وتشعرنى بأن أباهم يفهمهم جيداً . وكلما تحدثت معها بدت لى أكثر جاذبية . ولست أفهم ماجعلنى أبقى أمداً طويلا لا أتردد عليها . لقد تربى أولادها فى أحضان الدين الكاثوليكى ، إلا أنها لم تنس نشأتها البروتستانتية . لقد تركت بيت والدنا فى اللحظة التى دخلته فيها أمى ، ومع هذا فقد اكتشفت كثيراً من أوجه الشبه بينى وبينها . لقد ألحقت أولادها بالمدرسة التى يملكها والدا (لورا) حيث مكثت أنا بها وقتاً طويلا فى القسم الداخلى .

---

(١) تروى هذه الأسطورة أن الجنية « دافنيه » تحولت إلى إكليل من الزهر عندما أوشك ألوبون أن يلحق بها .

ومدرسة (آزائيس) — وهذا اسمها — تهتم بألا يكون لها لون ديني خاص (وعندما كنت طالباً بها كنت أرى فيها حتى الأتراك) بالرغم من أن (آزائيس) العجوز (صديق والدى) ، والذى أنشأها وما زال يديرها ، كان فيما سبق راعياً بروتستانتياً .

تتلقى پولين أخباراً حسنة من المصحة التى يستكمل فيها فنسان شفاءه . وقد قالت لى أنها تحدثه عنى فى رسائلها ، وهى تود أن أعرفه أكثر مما عرفته ، لأننى فى الواقع لم أره إلا قليلا ، وهى تبنى آمالا عريضة على ابنها الأكبر . وهم يضحون أكبر التضحيات فى سبيل أن يرتب حياته — ومعنى ذلك أن يكون له مسكن مستقل ليستقبل فيه مرضاه ، وقد استطاعت مؤقتاً أن تحتجز له جزءا من المسكن الصغير الذى يشغلونه بعد أن نقلت كلا من (أوليفييه) و (جورج) إلى غرفة خالية بالطابق الذى يقع تحتهم . والهم الأكبر الآن هو : هل سيضطر فنسان إلى عدم استكمال دراسته بسبب حالته الصحية ؟

والحق أننى لا أهتم كثيراً بأمر (فنسان) ، وإن كنت أتكلم عنه كثيراً مع والدته فذلك مجاملة لها فقط ، ولكى أتمكن بعد ذلك من التحدث طويلا عن (أوليفييه) . أما عن (جورج) فإنه يعاملنى ببرود ، ولا يكاد يجيب على أسئلتى وهو يلقى على عندما أصادفه نظرة ملؤها الشكوك . ويبدو أنه لا يغفر لى أننى لم أذهب لانتظاره أمام باب مدرسته كما طلب أو أنه لا يغفر لنفسه أن عرض على ذلك .

وأنا لا أرى أوليفييه كثيراً ، وعندما أذهب لرؤية والدته لا أجرؤ على الذهاب إلى الغرفة التى أعرف أنه يستذكر دروسه فيها ، وإذا قابلته صدفة شعرت باضطراب ولم أجد ما أقوله له . وإن ذلك ليشقينى ، حتى أننى أوثر أن أذهب لرؤية والدته فى الأوقات التى أعرف أنه غير موجود فيها بالمنزل .

الفصل الثاني عشر

يوميات « إدوارد » (تابع)

٢ نوفمبر — حديث طويل مع دوفيه بعد خروجنا من بيت والدى لورا . وقد اصطحبنى حتى مسرح الأوديون عبر حديقة اللوكسمبورج . إنه يعد رسالة دكتوراه عن (وردزورث) ، ولكنى أشعر من الكلمات القليلة التى قالها عنه أن أهم مميزات شعر هذا الشاعر تفوت إدراكه . وكان أحسن لو اختار الشاعر (تنيسون) . أشعر بأن ثمت لدى دوفيه شيئا من عدم الكفاية والتجرد والسذاجة . إنه يرى فى الأشياء وفى الكائنات مظهرها الخارجى ، ولعل مرجع ذلك أنه هو نفسه يظهر دائما بما هو عليه فعلا . وقال لى :

— أعرف أنك أحسن صديق للورا . وكان يجب أن أشعر بشىء من الغيرة منك . ولكنى لاأستطيع ذلك — بل على العكس لقد ساعدنى كل ما قالته لى عنك على أن أفهمها أكثر مما فهمتها ، وجعلنى أتمنى أن أصبح صديقك . وقد سألتها منذ أيام : هل يضايقك أننى سأتزوجها ؟ فأجابتنى بأنك على العكس من ذلك نصحتها بأن تتزوجنى (وأعتقد أنه قال هذه العبارة بنفس الطريقة السطحية التى أذكرها هنا) وأنا أود أن أشكرك على ذلك ، وألا تجد فى هذا الأمر مايدعو للسخرية لأننى أفعله بإخلاص . — ولقد قال هذه العبارة وهو ينتزع الابتسام ولكن كان صوته مرتعشا والعبرات تملأ عينيه .

ولم أكن أدرى بماذا أجيبه ، فقد شعرت بأننى أقل انفعالا مما كان يجب أن أكون ، أحسست بعجزى عن أن أتأثر مثله . ولعلنى ظهرت أمامه بمظهر جاف ، ولكن على أى حال ضايقنى ماقال . ومع كل فقد شددت على اليد التى مدها لى بكل حرارة . هذه المواقف التى يقدم المرء فيها من قلبه أكثر مما يطلب منه إنما هى

مواقف مؤلمة للغاية . كان يتصور بذلك أنه سيكسب مودتى . ولو أنه كان أثقب نظرا لأحس أنه قد سرق . ولـكننى رأيت على العكس من ذلك أنه راض ، وأنه يتصور أن ما قاله وجد صدى فى نفسى . وإذ لم أقل شيئا — ولعله شعر ببعض الحرج من سكوتى هذا — أضاف :

— إننى أعتمد على أن غربتها فى كامبردج ستحول بينها وبين مقارنة ستكون فى غير صالحى .

ماذا قصد بهذا ؟ حاولت ألا أفهم . لعله كان يأمل أن أحتج على هذا القول ، ولـكن احتجاجا كهذا ربما زاد الموقف بيننا حرجا . إن دوفييه من هؤلاء الناس الذين لا يحتملون — من فرط خجلهم — السكوت ، وهو أيضا من الذين يتصورون فى هذه المواقف أن عليهم أن يشجعوا محدثهم بأظهار شعور مبالغ فيه نحوه ، وهم يقولون بعد ذلك : لقد كنت دائما صريحا معك .

ولـكن ليس المهم فى نظرى أن تـكون صريحا ، ولـكن المهم أن تترك لمحدثك الفرصة لـيكون صريحا . ولم يفهم دوفييه أن صراحته منعتنى من أكون صريحا .

ولـكن إذا لم أستطع أن أكون صديقا ، له فليس هذا بمانع أن يكون زوجا ممتازا للورا . على أن ما آخذه عليه هو حسناته . ثم تكلمنا عن مدينة كامبردج ووعدت بالذهاب إليها لزيارتهما .

أية رغبة سخيفة حدت بلورا إلى أن تكلمه عنى ؟

عجيب ميل المرأة إلى التضحية ! إن الرجل الذى تحبه ليس فى أغلب الأحيان فى نظرها إلا مشجبا تعلق عليه حبها . إن لورا قادرة على أن تبدل شخصا بآخر فى يسر صادق . إننى أفهم أن تتزوج من دوفييه ، وكنت أول من نصحها بذلك ، ولـكن كان من حقى أن أنتظر منها بعض الاسى . سيتم الزواج بعد ثلاثة أيام .

لقد ظهرت بعض المقالات عن كتابى . الصفات التى ينسبونها إلى هى بالذات التى أمقتها ... هل وفقت فى أن أعيد نشر هذه الأراء العتيقة ؟ إنها لم تعد تعبر عما

أحبه الآن . ولكنى لم أشعر بذلك إلا الساعة . لا أعتقد أننى تغيرت ، ولكن يبدو أننى بدأت الآن فقط أفهم نفسى . ولم أكن أعرف ذاتى حتى الآن . هل من الممكن أن أكون دائما فى حاجة إلى من يوضح لى حقيقة نفسى ؟ تبلور هذا الكتاب تبعا لما أرادته لورا ، ولذا لا أحب أن أعثر على نفسى خلال سطوره .

ثقابة النظر هذه المصنوعة من التعاطف ، هل حرّمت علينا ؟ ثقابة النظر التى تتيح لنا أن نسبق الزمن ؟ .

أية مشاكل سوف تقلق جيل المستقبل ؟ إننى أريد أن أكتب لهذا الجيل الجديد . أريد أن أقدم قوتا لتطلعهم الذى لم يزل غامضا ، وأن أرضى فيهم رغبات لم تتحدد بعد ، بحيث يدهش من لايزال طفلا اليوم ، عندما يلقانى فى طريقه مستقبلا.

كم يعجبنى أن أجد لدى أوليفييه كل هذا التطلع ، وعدم الرضا عن الماضى ... يبدو لى أحيانا أن الشعر هو الشىء الوحيد الذى يلقى اهتماما منه . وأشعر عندما أقرأ الشعر وأنا أفكر فيه مدى قلة أولئك الشعراء الذين تركوا للفن العنان ليقودهم، بدلا من أن يقودهم قلبهم أو عقلهم . والغريب فى الأمر أن أوسكار مولينيه عندما أرانى أشعار أوليفييه ، نصحت هذا الأخير بأن يحاول أن يترك نفسه للألفاظ تقوده ، بدلا من أن يحاول إخضاعها . ولكن يبدو لى الآن أن أولفييه نفسه هو الذى يعلمنى .

كم يبدو لى كل ما كتبته حتى الآن سخيفا ومملا ومضحكا من فرط ما فيه من منطق ! .

٥ نوفمبر — تمت مراسم الزواج فى الكنيسة الصغيرة التى تقع بشارع (مدام) والتى لم أدخلها منذ زمن بعيد . وكانت عائلة (فيدل آزائيس) حاضرة بكامل هيئتها : جد (لورا) وأبوها وأمها وشقيقتاها وشقيقها الأصغر ثم عدد من الأعمام والعمات ومن أبناء عمومتها . أما عن عائلة (دوفيه) فكان يمثلها ثلاث من العمات يلبسن الحداد ولا شك أن الكاثوليكية كانت خليقة أن تجعلهن راهبات . وقد علمت أنهن يعشن معا وأن (دوفيه) كان يعيش معهن أيضا منذ وفاة والديه .

وكان تلاميذ مدرسة (آزاثيس) يملأون المقاعد بالشرفة . وملأ البقية الباقية من مقاعد القاعة أصدقاء العائلة وجلست فى آخر القاعة . ورأيت ـ غير بعيد عنى ـ شقيقتى ومعها أوليفييه ولابد أن جورج كان فى الشرفة ـ مع رفاق فى مثل سنه . وكان (لابيروز) العجوز يعزف على الأرغن ، ورأيت عليه أمارات الشيخوخة وقد زاد وجهه حسنا ووقارا ، ولكن تجردت نظرته من ذلك البريق الذى كان ينقل إلى حماسته وقت أن كان يلقننى دروسا فى العزف على البيانو . والتقت نظراتنا وشعرت خلال الابتسامة التى حيانى بها مدى أساه ، ولذا قررت أن أنتظره عند الخروج . وتحرك بعض الحضور من أماكنهم وخلا مقعد بجانب (بولين) . وفى الحال أشار إلى (أوليفييه) ثم دفع أمه لكى أتمكن من الجلوس بجانبه ، وأمسك بيدى وتركها طويلا فى يده . وكانت تلك أول مرة يتصرف فيها معى بمثل هذه الألفة وقد أغلق عينيه طوال المدة التى استغرقها القس فى إلقاء موعظته مما أتاح لى أن أتملى منه طويلا . إنه يشبه تمثال ذلك الراعى النائم المنحوت على الحجر والموجود فى متحف مدينة (نابولى) والذى أحتفظ بصورة له على مكتبى . ولولا ارتعاش أصابعه لاعتقدت أنه نائم فعلا ، وكانت يده تنتفض كالعصفور فى يدى .

ورأى القس أن يسرد تاريخ العائلة جميعها . فبدأ بتاريخ (آزاثيس) الجد وكان زميله فى الدراسة بمدينة (ستراسبورغ) قبل الحرب ، ثم زميلا له فى الدراسة بكلية اللاهوت . وحاول أن يشرح فى جملة معقدة لا تكاد تنتهى أن (آزاثيس) عندما أدار مدرسته ، وعندما كرس حياته لتربية النشء ، لم يبتعد بهذا العمل عن حياة رجال الدين . ثم تكلم عن الجيل الجديد ، كما أشاد بعائلة (دوفييه) وإن كان يبدو أنه لا يعرف عنها شيئا يذكر . وكان سمو عاطفته يغطى ضعف خطابته ، وسمع بعض الحضور يمسحون أنوفهم من عبرات التأثر . وكنت أود أن أعرف رأى أوليفييه فى كل ما يجرى .

وأعتقد أن ما يجرى فى هذا الجو البروتستانتى لابد أن يكون جديدا عليه فقد نشأ نشأة كاثوليكية ولا شك أن هذه أول مرة يحضر فيها إلى هذا المعبد . إن السهولة التى أتجرد بها من شخصيتى والتى تتيح لى أن أشعر بما يشعر به الآخرون ،

جعلتنى أحس بما يحس به (أوليفييه) ، أحس ما تصورت أنه يشعر به . وبالرغم من أن عينيه كانتا مغلقتين ، أو ربما لهذا السبب نفسه ، كنت أرى أنى أنظر بعينيه — وللمرة الأولى — إلى هذه الجدران العارية وهذا الضوء الغامض الشاحب الذى شمل الحاضرين ، ثم منصة الخطابة التى يتعارض لونها مع لون الحائط الأبيض خلفها ، ثم هذه الخطوط المستقيمة وهذه الأعمدة المجردة من الزخرف والتى تحمل الشرفات ، وطابع هـذا الفن المعمارى الذى يتميز بميله إلى الزوايا والنفور من الألوان . وكان كل ذلك يظهر لى بجموده وصرامته وتقشفه . وإن كنت لم أشعر بذلك من قبل فسبب هـذا ولا شك أنى تعودت عليه منذ الصبا ... ورجعت بذاكرتى إلى أول عهدى بالأشياء الدينية وإلى حماستى الدينية عند ذاك وإلى لورا ، وإلى قداس يوم الأحد . حيث كنا نلتقى وكان كل منا يشرف على فرقته . وكانت الحماسة تملأ قلبينا كما كنا لا نميز — فى هذه النشوة التى تستنفد كل ما فى نفوسنا من دنس — بين ما على أحدنا للآخر وبين ما عليه لله . وأسفت فى الحال لأن (أوليفيه) لم يشعر مثلى هذا الحرمان الحسى الذى ينأى بالروح عن مظاهر الحياة ، أسفت أن لا يكون له مثلى ذكريات كهذه . ولكن شعورى بأن هذه الأمور غريبة عليه ساعدنى على التخلص منها .

وضغطت بلهفة على يده التى تركها فى يدى ، ولكنه سحبها فجأة فى هذه اللحظة . وفتح عينيه لينظر إلى ثم مال على وتمتم فى لهجة فيها خبث الطعونة . وإن كان يلطف من حدتها وقار جبينه العجيب وكان القس فى هذه اللحظة بالذات يذكر جميع المسيحيين بواجباتهم ويعطى نصائحه للعروس وزوجها ، تمتم :

— أما عنى فلا يهمنى كل ذلك . إننى كاثوليكى .

إن كل شىء فيه يجذبنى ويستغلق على .

وقابلت عند باب الخروج « لابيروز » العجوز ، وبادرنى بلهجة حزينة وإن كانت مجردة من العتاب :

— إنك تنسانى قليلا ، على ما أعتقد

وانتحلت بعض الاعذار بمشاغلى ؛ لأنى لم أزره كل هذه المدة الطويلة ، ووعدته بأن أزوره بعد يومين ، وحاولت أن أصحبه إلى بيت عائلة « آزائيس » ـ إذ كنت مدعوا لتناول الشاى بعد حفل القران ـ ولكنه اعتذر عن ذلك ، وقال : إن مزاجه منقبض ، وأنه يخشى أن يصادف كثيرا من الناس يضطر إلى محادثتهم بينما هو يشعر بعدم قدرته على ذلك .

واصطحبت « بولين جورج » وتركتنى مع « أوليفيه » وقالت لى ضاحكة :

ـ إننى أعهد به إليك .

ويبدو أن قولها هذا ضايق أوليفيه ؛ لأنه أشاح بوجهه ، وجذبنى إلى الشارع وقال :

ـ لم أكن أدرى أنك تعرف جيدا عائلة آزائيس .

وقد اندهش لما أخبرته أنى أقمت عندهم سنتين ، فسألنى :

ـ كيف أمكنك أن تفضل هذا النوع من الإقامة على أى نمط آخر من الحياة يحفظ لك حريتك ؟

وأجبته :

ـ لقد وجدت فى ذلك بعض الراحة ، ولم أكن أستطيع أن أخبره أن لورا كانت تشغل بالى فى هذه الفترة ، وأنى كنت أقبل أقسى الأنظمة فى سبيل أن أكون إلى جوارها ، وسألنى ثانية :

ـ أولم تكن تشعر بالاختناق وأنت تعيش فى ذلك الجو ؟ ولما لم أجبه بشىء ، أضاف :

ـ على العموم ، لا أدرى كيف أطيق هذا الجو أنا نفسى ، ولا كيف بقيت فيه ؟ فإننى ، وأنا فى القسم نصف الخارجى ، يبدو لى أن ذلك شىء لا يطاق .

واضطررت إلى أن أشرح له مدى الصداقة التى كانت تربط جده بمدير هذه المدرسة ، وكيف أن ذكرى هذه الصداقة دفعت أمه إلى هذا الاختيار .

وأضاف : ـ إننى على العموم ـ أفتقر إلى الأسباب التى تمكننى من المقارنة بين هذا المكان وغيره من الأماكن ، ولكن لا شك فى أن كل هذه الأماكن الخانقة متشابهة ، بل وأعتقد ـ تبعا لما سمعته ـ أن المدارس الأخرى أسوأ حالا من مدرستى ؛ ولكن ذلك لا يمنع أن أسعد أعظم السعادة

لو استطعت الخروج منها ، ولولا اضطرارى إلى تعويض ما فاتنى بسبب مرضى لما دخلتها ألبتة . على أن هناك سببا آخر ، وهو أنى منذ وقت طويل لا أتردد عليها إلا للصداقة التى تربط بينى وبين أرمان :

وعلمت عندئذ أن هذا الأخ الأصغر للورا كان زميلا لأوليفييه ، وقلت لأوليفييه : إننى لا أعرف أرمان إلا معرفة بسيطة جدا .

فأجابنى : ومع ذلك فهو أكثر أفراد هذه العائلة ذكاء واستهواء للنفوس .

وأجبته : أى هو الشخص الوحيد فى هذه العائلة الذى اهتممت بأمره أكثر من غيره .

— لا ، لا ، أؤكد لك أنه عجيب ، وإذا أردت ، فلنذهب إلى غرفته لنتجاذب معه أطراف الحديث ، وأرجو أن يجرؤ على الحديث أمامك .

وكنا فى هذه اللحظة قد وصلنا إلى المدرسة .

وكانت عائلة « فيدل آزائيس » قد استعاضت عن وليمة الزفاف بحفل شاى أقل تكاليف ، وكانت غرفة الاستقبال الكبيرة وغرفة مكتب القس فيدل مفتوحتين لاستقبال المدعوين ، أما حجرة الاستقبال الصغيرة الخاصة بزوجة القس فلم يكن مسموحا بدخولها إلا لبعض الخاصة ، وكان الباب الموصل بين هذه الغرفة وغرفة الاستقبال الكبيرة قد أغلق ليمنع المدعوين من احتلال الغرفة الصغيرة ، ولذا كان أرمان يجيب من يسألونه عن كيفية دخولهم هذه الغرفة لمقابلة والدته : بأن ذلك يكون عن طريق المدفأة .

وكان الازدحام كبيرا ، والحرارة شديدة ، وكان المدعوون جميعا من البروتستانتيين ما عدا زملاء دوفييه من هيئة التدريس . كانت روح البروتستانتية المتطهرة تفوح فى كل مكان ، وكانت رائحتها أشد مما فى اجتماعات الكاثوليكية أو اليهود عندما يلتقون ويتركون لأنفسهم العنان ، ولكنى أعتقد أن اجتماعات الكاثوليكيين تتميز بنوع من التقدير للفرد ، وأن اجتماعات اليهود تمتاز بالتقليل من شأنه ، أما البروتستانتيون فهم لا يستطيعون هذا التقدير إلا فيما ندر ، وإذا كان اليهود

يمتازون بطول أنوفهم ، ويشمون كل شيء ، فإن البروتستانتيين مسدودو الأنوف ؛ أما أنا ، فلم ألحظ شيئا من هذه الخصيصة في الجو البروتستانتي طالما كنت منغمسا فيه ، لم ألحظ مافيه من سمو ونورانية وسذاجة .

وفي آخر القاعة مدت مائدة على شكل مقصف ، وقدمت الشاي راشيل شقيقة لورا الكبرى ، وسارة شقيقتها الصغرى ، ومعها بعض صديقاتها من الفتيات في سن الزواج ،

وما أن لمحتني لورا حتى قادتني إلى مكتب أبيها حيث عقد اجتماع ديني ، واستطعنا أن نتحادث دون أن يسمعنا أحد ، ونحن نحتجب في تجويف نافذة من النوافذ ، وكنا فيما مضى من الزمان قد سجلنا اسمينا على إطار هذه النافذة ، وقالت لي :

تعال وانظر ما زال اسمانا هنا ، وأعتقد أن أحدا لم يلحظهما ، كم كان عمرك حينئذ ؟

وكنا قد سجلنا فوق اسمينا تاريخا ، وحسبت حسابي وأجبتها :

ثمانية وعشرين عاما ، وكنت أنا في السادسة عشرة ، ها قد مرت عشرة أعوام منذ ذلك التاريخ .

لم يكن الظرف مناسبا لتحريك هذه الذكريات ، وكنت أحاول أن أبتعد بحديثنا عن هذه الأمور ، بينما كانت تعيدني بإلحاح قلق إلى ذلك الموضوع ، ثم سألتني فجأة — وكأنها خشيت أن تتخاذل — أما زلت أذكر ستروفيلهو ؟

كان « ستروفيلهو » تلميذاً بالقسم الداخلي ، وكان يزعج والدي لورا إزعاجاً كبيراً في ذلك الوقت ، وكان المفروض أنه يحضر لبعض الدراسات ، ولكنه كان يجيبك بإهمال قائلا : عندما تسأله : أي دراسات هذه ؟ أو أية امتحانات ينوي دخولها —

— إنني أنوّع دراساتي .

وكانوا يتظاهرون في أول عهدهم به بتقبل وقاحاته على أنها دعابات ، لكي يخففوا من وطأتها ، وكان بدوره يصحب هذه الدعابات بضحكة عريضة ، إلا أن هذه

الضحكة أخذت تزداد سخرية ، بينما كانت تعليقاته تتخذ صفة الهجوم المتزايد ، ولم أكن أفهم السبب الذى يجعل القس يقبل مثل هذا التلميذ فى مدرسته ، اللهم إلا إن كان هذا السبب مالياً ، أو لأنه يشعر نحو ستروفيلهو بنوع من الود المختلط بالشفقة عليه ، وربما كان القس يتمسك بأهداب أمل ضعيف فى إقناعه ، أو بمعنى أصح فى إصلاح أمره ، وكذلك لم أكن أفهم السبب الذى من أجله استمر ستروفيلهو فى الإقامة بهذه المدرسة ، وقد كان فى مقدوره أن يذهب إلى مكان آخر ، ولم يكن يبدو عليه أن ثمة أسباباً عاطفية تشجعه على البقاء مثلى .

ولكن ربما كان السبب فى بقائه ما كان يشعر به من متعة فى محاوراته مع القس المسكين الذى كان يعجز دائماً عن الدفاع عن نفسه ، وكان يدع لستروفيلهو الفرصة لينتصر عليه دائماً .

وسألتنى « لورا » هل أذكر اليوم الذى سال فيه ستروفيلهو والدها إن كان يحتفظ وهو يلقى خطابه الدينى على المنبر بسترته من تحت عباءته .

وأجبتها بأنه سأل هذا السؤال بطريقة لطيفة للغاية ، حتى أن والدها لم يلمح ما فى السؤال من خبث ، وأن هذا الحديث كان يجرى على المائدة ، وأنى أذكر كل ذلك جيداً ...

— أو تذكر اللهجة البريئة التى أجابه بها والدى حين قال : إن عباءته ليست ثقيلة ، وأنه يخشى أن يصاب بالبرد إن خلع سترته ؟

— ومظهر الأسف الزائف الذى بدا على ستروفيلهو عندئذ ، وكيف اضطر أن يعلن أخيراً أن هذا الأمر ليس له أية أهمية سوى أن والدك من عادته أن يقوم بحركات ، ولهذا كانت تظهر أكمام سترته من تحت عباءته مما كان له تأثير غير مستحب على بعض الحاضرين .

— وكانت نتيجة ذلك أن ألقى المسكين خطبته الدينية بأكملها لاصقا ذراعيه بجسمه ، وفوت عليه ذلك كل تأثيرات فصاحته .

— ثم إنه عاد يوم الأحد التالى وهو مصاب بزكام شديد ؛ لأنه خلع سترته ، وكذلك المناقشة عن التينة العقيم التى جاء ذكرها فى الإنجيل ، والأشجار التى لا تثمر فاكهة ... وقوله للقس : لست شجرة فاكهة . إنى لا أحمل غير الظل يا سيدى الراعى . إننى أفئ عليكم من ظلى .

— وهذا القول أيضا قاله على المائدة .

— بالطبع ؛ إذ أننا لم نكن نراه إلا وقت الوجبات .

— وكل هذا قاله بلهجة مليئة بالتحدى ، وعندئذ طرده جدى . أتذكر كيف انتصب جدى واقفا فجأة ـ وهو الذى لم يكن يرفع رأسه عن طبقه ؟ عادة ـ وكيف قال له وهو يمد ذراعه : اخرج ؟

— لقد بدا مهولا ومخيفا ، وكان غاضبا ، وأعتقد أن ستروفيلهو خاف حقا .

— لقد ألقى منشفته على المائدة واختفى ، وقد ذهب دون أن يسدد ما عليه ، ولم نره منذ ذلك الحين .

— ترى ، ماذا صار الآن ؟

وأردفت لورا بلهجة حزينة ، يا لجدى المسكين ، كم بدا لى جميلا فى ذلك اليوم ! إنه يحبك كثيراً كما تعلم ، عليك أن تصعد إليه لزيارته فى مكتبه ، ولو للحظة ، وأنا واثقة أنه سيسر كثيراً لذلك .

لقد سجلت كل هذه الأشياء فى حينها ؛ لأننى شعرت بأن تسجيل ذلك بعد حدوثه يفقد الحوار كثيراً من دقته ، ولكننى بدأت منذ تلك اللحظة أصغى إلى « لورا » بشرود ، وكنت قد تبينت على مسافة منى « أوليفييه » الذى غاب عن ناظرى منذ اللحظة التى قادتنى فيها « لورا » إلى غرفة مكتب أبيها ، وكانت عينا « أوليفييه » تلمعان ، وملامح وجهه تعبر عن الانفعال بطريقة غريبة .

وعلمت فيما بعد أن « سارة » أخذت تلهو فدفعته إلى شرب ست كئوس متوالية من « الشمبانيا » وكان « أرمان » معه ، والاثنان يلاطفان ويتبعان بين

المدعون « سارة » وفتاة إنجليزية فى مثل سنها كانت قد التحقت بالقسم الداخلى بالمدرسة منذ أكثر من عام ، وأخيراً خرجت « سارة » وصديقتها من الحجرة ، ورأيت خلال الباب المفتوح الشابين وهما يندفعان للحاق بهما على السلم ، وكنت على وشك أن أخرج بدورى لأنفذ ما طلبته منى « لورا » أى زيارة جدها ، ولكنها أوقفتنى قائلة :

— اصغ إلى يا « إدوارد » . بودى أن أقول لك شيئاً ... ثم أصبحت لهجتها جادة جداً ، وأردفت :

— ربما بقينا طويلا دون أن نلتقى ، وأود أن تعيد على مسامعى ... أريد أن أعرف : أما زلت أستطيع الاعتماد عليك ... كصديق ؟

ولم أشعر قط فيما مضى بمثل هذه الرغبة فى تقبيلها ، ولكننى اكتفيت بتقبيل يدها بحنان وشدة ، وأنا أتمتم : مهما يحدث .

ولكى أخفى عنها الدموع التى طفرت إلى عينى ، هربت منها بسرعة ، وذهبت أبحث عن «أوليفييه» . وكان أوليفييه يترقب خروجى جالساً بالقرب من «أرمان» على درجة من درجات السلم ، وكان — ولا شك — ثملا قليلا ، ونهض وجذبنى من ذراعى وهو يقول :

— تعال . سنذهب إلى غرفة « سارة » لندخن لفافة ، وهى تنتظرنا .

— سوف ألحق بكم بعد لحظة ، يجب أن أزور « آزائيس » أولا ، ولكننى لن أهتدى أبداً إلى هذه الغرفة .

وهنا صاح « أرمان » : إنك تعرفها جيداً ، إنها غرفة « لورا » سابقاً ، ولما كانت هذه الغرفة من أفضل غرف البيت ، فإننا خصصناها للنزيلة الجديدة ، ولكن نظراً لأنها لم تكن تدفع مبلغاً مناسباً مقابل ذلك ، فإن « سارة » تقتسم الغرفة معها . لقد وضعوا لهما سريرين ، وهذا لمجرد المحافظة على المظهر ، ولكن لم يكن لهذا لزوم ...

وهنا قال « أوليفييه » ضاحكا وهو يدفع أرمان : لا تصغ إليه ، إنه ثمل . فرد أرمان : إذن تــكلم أنت، ثم وجه الحديث لإدوارد قائلا :

— سوف تأتى ، أليس كذلك ؟ إننا ننتظرك .

ووعدت أن ألحق بهما فى غرفة سارة .

تغير شكل العجوز آزائيس كثيراً منذ أن اعتاد تصفيف شعره على شكل الفرجون ، لقد تنازل لعائلة صهره عن الطابق الأول والطابق الثانى من البيت الكبير، وبقى فى الطابق الثالث ، وهو يطل ـ من هذا الارتفاع ـ من نافذة حجرة مكتبه — المؤثثة بأثاث مصنوع من خشب الأرو ، مكسو بالحرير والشمع — فيرى التلاميذ وهم يغدون ويروحون فى الفناء ، وقال لى آزائيس :

— أترى كيف يدللوننى ؟ قالها وهو يشير إلى باقة كبيرة من زهر الكريزانتيم، كانت قد أحضرتها والدة أحد التلاميذ وهى صديقة قديمة للعائلة ، وكان جو الحجرة يتسم بوقار جدير بأن تذبل فيه أية أزهار فى الحال ، وأردف :

— لقد تركت جموع المدعوين ، فقد تقدمت بى السن ، وأصبح ضجيج المناقشات يرهقنى ، ولكن هذه الأزهار سوف تؤنس وحدتى ، إنها تتحدث بطريقتها الخاصة وهى تصف أمجاد الله أحسن مما يصفها الناس (أو قال شيئاً من هذا القبيل) .

هذا الرجل الوقور لا يمكن أن يتصور إلى أى مدى يصل الملل بالتلاميذ عندما يقول لهم مثل هذه الأشياء ، وإن كان فيما يقوله نبرة إخلاص تمنعك من أن تسخر منه . إن القلوب البريئة ـ مثل قلب آزائيس ـ هى أصعب القلوب استغلاقاً على فهمى، لو لم يكن المرء بسيطاً مثلهم ، لاضطر لكى يجاريهم إلى أن يمثل دوراً ما ، وهذا وضع غير أمين ، ولكن ما العمل فى مثل هذه الظروف ؟ إن المرء لا يستطيع أن يناقشهم ، ولا أن يحاول أن يستوضحهم ، ولذا يضطر إلى موافقتهم على ما يقولونه . إن آزائيس يدفع من حوله إلى نوع من أنواع النفاق إن لم يشاركوه معتقداته ، لقد كنت فى أول عهدى بهذه العائلة أغضب إذ أرى أحفاده يكذبون عليه ، ولكننى اضطررت أن أسايرهم.

أما عن القس بروسبير فيدل ، فهو رجل جم المشاغل .

وزوجته السيدة « فيدل » على شيء من البساطة ، وأنها لغارقة فى نوع من الشرود الشاعرى الدينى يجعلها تفقد إحساسها بكل ما هو واقعى .

والجد هو الذى أخذ على عاتقه تربية النشء فى العائلة وتعليمهم ، وكنت أستمع مرة فى الشهر — فى المدة التى قضيتها عندهم — إلى مناقشاته العاصفة ، وكان يختتمها دائما بتلك العبارات المؤثرة :

« من الآن فصاعدا ، لن يخفى بعضنا عن بعض شيئا ، سوف نبدأ عهدا جديدا شعاره الصراحة والإخلاص (ومن دأبه أن يستعمل مترادفات كثيرة فى التعبير عن شيء واحد — وهى عادة قديمة اكتسبها منذ كان من رجال الدين) . وسوف نلقى عنا هذه النيات السيئة ، هذه الأفكار القبيحة التى تعتمل داخل نفوسنا ، وسيواجه بعضنا بعضا بصراحة ، ولن يخفى بعضنا عن بعض شيئا ، أليس كذلك ؟ لقد اتفقنا »

وبعد هذه المناقشات ، كان الجميع ينغمسون فيما دأبوا فيه : هو فى سذاجاته ، وأولاده فى كذبهم عليه .

وكانت هذه النصائح توجه بصفة خاصة إلى شقيق للورا يصغرها بعام ، وكانت فورة الشباب تدفعه إلى محاولات لإرضاء غرائزه (ولقد رحل إلى المستعمرات ليعمل فى التجارة ولم أره بعد ذلك) وذات مساء ، وبعد أن أعاد العجوز جملته التقليدية ، ذهبت إلى مكتبه لأقابله ، وحاولت أن أفهمه أن هذه الصراحة التى يطلبها من حفيده كانت مستحيلة ، ما دام هو بدوره لا يتساهل أبدا ، وغضب عندئذ « آزائيس » وصاح قائلا :

— إذن ، يجب عليه ألا يرتكب ما يخشى أن يعترف به ، قالها بلهجة لا تسمح بالجدل .

وهو مع ذلك رجل ممتاز ، بل هو أفضل من هذا ، إنه مثال للفضيلة ، إنه ما اتفق الناس على التعبير عنه بقولهم : « له قلب من ذهب » ، إلا أن أحكامه على الناس صبيانية ، ومصدر تقديره لى أساسه اعتقاده بأن لا عشيقة لى ، ولم يخف عنى

أمنيته فى أن يرانى زوجا للورا ، وهو يشك فى أن يكون (دوفييه) زوجا صالحا لها ، وكرر لى قوله هذا : « إن اختيارها يدهشنى » . ثم أردف : « على العموم أعتقد أنه رجل شريف ... ما رأيك فيه ؟ » وقد أجبته قائلا :

— بالتأكيد .

كلما انغمست النفس فى التدين كلما فقدت الإحساس بالواقع وتذوقه وحبه والحاجة إليه ، وقد تبينت ذلك أيضا عند « فيدل » رغم أنه لم يتح لى أن أحدثه إلا قليلا ، فبهرة إيمان الناس تعميهم عن رؤية العالم الذى يحيط بهم ، بل عن رؤية أنفسهم ، أما بالقياس إلىّ — وهمى أن أرى ما يجرى فى هذه النفوس — فإنى أذهل حين أبصر جسامة الكذب الذى يمكن للإنسان المتدين أن يعيش فيه راضيا .

« حاولت أن أجعل (آزائيس) يكلمنى عن (أوليفيه) ولكن اهتمامه موجه بخاصة إلى جورج .

وبدأ حديثه عن (جورج) قائلا : لا تجعله يشعر بأنك تعرف ما سأقوله لك ، وعلى العموم كل ما سأقوله مشرف له ... تصوّر أن ابن أختك الصغير ، وبعض رفاقه قد كوّنوا فيما بينهم نوعا من الحلف هدفه أن يحفز بعضهم بعضاً على فعل الخير ، وهم لايشركون معهم إلا من يرونه جديرا بذلك ؛ أى من يثبت تمسكه بالفضيلة . إنه نوع من (جوقة الشرف) مكونة من الأطفال ، ألا ترى أن ذلك شىء لطيف ؟ وكل واحد منهم يثبت فى عروة سترته شريطا صغيرا غير واضح ، إلا أننى لمحته مع ذلك ، وقد أحضرت الطفل إلى مكتبى فارتبك عندما طلبت منه أن يشرح لى معنى هذا الشعار ، وكان الصغير العزيز يتوقع تأنيبا منى ، ثم أفصح لى وهو مرتبك ووجهه يكسوه الاحمرار عن تكوين هذا النادى ، يجب ألا نبتسم عند سماع مثل هـذا خشية خدش هذه العواطف الرقيقة ... وقد سألته عما يحدو به وبزملائه إلى إخفاء هذه الأمور ، وعدم إعلانها ، ثم كلمته عن مدى الدعاية التى يمكن أن يبذلوها ، وعن قوة التبشير بمذهبهم ، وعن الدور الجميل الذى يمكن أن يقوموا به . . . ولكنهم فى مثل هذه السن يحبون الغموض ... ولأكسب ثقته قلت له : إننى عندما كنت فى مثل

سنه انتميت إلى جمعية من هذا القبيل ، وكان أعضاؤها يحملون اسم فرسان الواجب ، وكان كل منا يستلم من رئيس الجمعية مفكرة يدون فيها أخطاءه وهفواته بإخلاص تام .
وأخذ جورج يبتسم عند سماع ذلك ، واعتقد أن مسألة المفكرات هذه أوحت إليه فكرة جديدة ، ولم ألح عليه في أن يفعلوا ذلك ، ولكني لن أدهش إن علمت يوما أنه أقنع زملاءه باتباع هذا النظام . من رأيي أنه يجب أن نعرف كيف نعامل هؤلاء الأطفال ، ويجب أن نظهر لهم أولا أننا نفهمهم ، وقد وعدته أن أكتم السر عن والديه ، وشجعته على أن يكلم والدته في هذا الأمر ؛ إذ سوف يسعدها ذلك للغاية ، ولكن يبدو أنه وزملاءه قد أقسموا بشرفهم على أن يظل الأمر طي الكتمان ، ورأيت من الحكمة ألا ألح في النصح ، ولكني سألت معه الله ونحن نصلي — قبل أن يتركني — أن يبارك حلفهم .

لك الله أيها الأب العجوز العزيز المسكين ! إنني واثق أن الصبي قد سخر منه في كل ما قال له ، وأن ليس في قوله كلمة صدق واحدة ، ولكن كيف كان يتسنى لجورج أن يجيبه إلا بهذه الطريقة ... ؟ سوف نحاول أن نوضح حقيقة هذا الأمر فيما بعد .

لم أتعرف في بادىء الأمر على غرفة « لورا » إذ كانوا قد أعادوا تنظيمها واختلف جوها تماما ، وبدت لي سارة أيضاً مجهولة ، وكنت أعتقد أنني أعرفها تمام المعرفة ، وكانت تشعرني دائما بثقتها بي ، وقد كنت دائما بالنسبة لها (الشخص الذي يمكن أن تبوح له بكل شيء) إلا أن شهوراً عديدة قد انصرمت ، ولم أذهب خلالها لزيارة عائلة فيدل .

وكان ثوب « سارة » يكشف عن ذراعيها وعن عنقها . كانت تبدو وقد كبرت وازدادت جرأة ، وكانت تجلس على أحد السريرين بجانب « أوليفييه » ، ملتصقة به ، وكان هذا الأخير مستقليا دون كلفة حتى ليبدو نائما . كان بالتأكيد ثملا ، وقد تألمت لرؤيته على هذه الحال . إلا أنه كان يبدو أجمل من أي وقت مضى ، ولقد كان الأربعة ثملين إلى حد ما ، أما الإنجليزية الشابة ، فتنفجر في الضحك عند سماعها سخافات أرمان ، وآلمت ضحكتها الحادة أذني ، وكان أرمان يقول كلاما لا معنى

له ، ولكنه كان مزهوا بضحكاتها ، وكانت سخافاته لا تقل تفاهة ووقاحة عن هذه الضحكات ، وكان يتظاهر بأنه يرغب فى أن يشعل سيجارته من خد أخته وخد أوليفيه الملتهبين ، كما كان يتظاهر بأن أصابعه ستحترق عند لمس خديهما ، ويحاول بحركة وقحة — أن يقرب بالقوة جبهتيهما ، وكان كل من أوليفيه وسارة يتجاوبان معه فى لهوه ، وكان هذا الأمر بالنسبة لى مؤلماً للغاية ، ولكنى أستبق الحوادث ...

كان أوليفيه لا يزال يتظاهر بالنوم عندما سألنى أرمان فجأة عن رأيى فى دوفيه ، وكنت جالساً على مقعد منخفض أشعر بالانفعال والتلهى والضيق معا بسبب سكرهم ، وعدم كلفتهم ، ولكن سرنى مع ذلك أنهم طلبوا منى الانضمام إليهم بينما كان يبدو فى الحقيقة أن مكانى ليس بينهم .

وأردف « أرمان » — لما وجد أنى لا أجد ما أجيب به وأنى أكتفى بالابتسام لأجاملهم فى مجلسهم وأسايرهم — إن هاتين الآنستين الموجودتين هنا ... وفى هذه اللحظة أرادت الفتاة الإنجليزية أن تمنعه من الاسترسال فى الكلام ، وطاردته لكى تضع يدها على فمه ، فقاوم وصاح ...

— هاتان الآنستان مستاءتان من مجرد التفكير فى أن « لورا » سوف تضاجع « دوفيه » ، وتركته الفتاة الإنجليزية وقالت وهى تفتعل الغضب — : أوه ! يجب ألا تصدق ما يقوله . إنه كاذب .

وأضاف « أرمان » — : لقد حاولت أن أفهمهما أنه فى مقابل العشرين ألف فرنك التى دفعت كبائنة لم يكن ثمت أمل فى الحصول على رجل أحسن منه ، وأن « لورا » بصفتها مسيحية حقيقية يجب أن تراعى بخاصة الصفات الروحية ، — على حد تعبير والدنا القس — نعم يا أولادى ، ثم ماذا كانت تؤول إليه مشكلة تعمير العالم إذا حكمنا بالعزوبة على من لم يوهب جمال أدونيس (١) قديما ، أو جمال « أوليفيه » حديثاً .

---

(١) إله فينيق شاب امتاز بجماله (المخنث) :

وتمتمت « سارة » — : ياله من أبله ! لا تصغ إليه ، فلم يعد يعى ما يقول .

— إننى أقول الحقيقة .

ولم أكن سمعت « أرمان » قط يتكلم بهذه الطريقة ، فقد كان اعتقادى — ومازال — أنه رقيق الطبع حساس ، وكانت وقاحته تبدو متكلفة ، ولعل مرجعها هو سكره ، وكذلك رغبته فى أن يسلى الفتاة الإنجليزية ، ولا بد أن هذه الأخيرة — برغم جمالها الذى لا ينكر — بلهاء حتى تتلهى بمثل هذه البذاءات ، وكنت أتساءل : أية تسلية يمكن أن يجدها « أوليفييه » فى مثل هذه الأقوال ؟ ... وآليت على نفسى ألا أخفى عنه اشمئزازى بمجرد أن أنفرد به .

وأضاف أرمان وهو يلتفت نحوى فجأة — : ولكن أنت ، أنت الذى لا تأبه للمال ، وتملك مالاً يتيح لك أن تتمتع بالنبيل من المشاعر ، أيمكنك أن تخبرنا لماذا لم تتزوج لورا وأنت تحبها — كما يبدو — وهى — والكل يعلم ذلك — مولعة بك كل الولع ؟

وهنا فتح أوليفييه عينيه — وكان حتى هذه اللحظة يتظاهر بالنوم — وتقابلت نظراتنا ، ولاشك أنى إذا كنت لم أشعر بالخجل ؛ فذلك لأن الآخرين لم تكن حالتهم تسمح لهم بأن يلاحظونى .

وقالت سارة : — أرمان ، إنك لا تطاق . وكأنها تريد بذلك أن تنقذنى من الحرج ؛ لأننى لم أجد ما أجيبه به ، ثم ألقت جسمها بطوله على السرير الذى كانت تجلس عليه ملاصقة لأوليفييه حتى تلامس رأساهما

وهنا وثب أرمان وأمسك بساتر كبير (برفان) — كان مطويا عند مقدمة السرير ومستنداً إلى الحائط — فنصبه بحيث جعله يحجب الإثنين ، ثم قال بصوت عال — وهو يسخر وينحنى فوقى — :

— لعلك لم تكن تعرف أن شقيقتى عاهر ؟

وكان هذا أكثر مما أحتمل ، فنهضت ورفعت الساتر ، ونهض من ورائه فى الحال

أوليفينيه وسارة واقفين ، وكان شعر سارة مشعثاً ، وتوجه أوليفيه إلى دورة المياه ، وغسل وجهه .

وقالت سارة ــ وهى تجذبنى من ذراعى ــ :

ــ تعال هنا ؛ أريد أن أريك شيئا .

وفتحت باب الغرفة ، وقادتنى إلى الردهة الخارجية ، وقالت لى :

ــ رأيت أن هذه المفكرة قد تثير اهتمام قصصى ، وإنها مفكرة وجدتها مصادفة ، وكان والدى يكتب فيها مذكراته ، ولست أدرى كيف تركها تضيع منه . كان فى مقدور أى إنسان أن يقرأ ما فيها . وقد أخذتها لكى لا يراها أرمان . لا تكلمه فى هذا الأمر ليس فيها الكثير ، ويمكنك أن تقرأ ما فيها فى عشر دقائق ، وأن ترجعها لى قبل أن ترحل .

وقلت لها ــ وأنا أحدق فيها ــ : ولكن يا سارة إن ما تفعلينه فضول فظيع .

فرفعت كتفيها ، وقالت :

ــ أوه ! إن كنت تعتقد ذلك فسيخيب ظنك ، إن ما فى هذه المفكرة لا يثير الاهتمام إلا للحظة فقط ... خذ ، سوف أريك هذا ، وأخرجت من طيات ثوبها مفكرة صغيرة جداً ــ مر عليها أربع سنوات ــ وتصفحتها لحظة ، ثم أعطتنى إياها مفتوحة وهى تشير إلى صفحة ، وقالت :

ــ اقرأ بسرعة .

ورأيت أولا ــ تحت تاريخ بين قوسين ــ هذه النبذة من الإنجيل .

(من كان أمينا فى صغائر الأمور ، كان أمينا فى كبائرها) ؛ ثم . لماذا أرجىء دائما إلى اليوم التالى القرار الذى أريد أن أتخذه لأمتنع عن التدخين ؛ حتى لا أحزن ميلانى (وهو اسم زوجته) على الأقل ! يا إلهى ــ هبنى القوة لأتخلص من هذه العبودية المخجلة . (وأعتقد إننى أسجل ما قرأته بالضبط) .

وتبع ذلك ذكر أنواع الصراع ، والجهود التي لا جدوى منها ؛ لأنه كان يكرر هذه الأقوال لنفسه كل يوم ، ثم قلبنا الصفحة ، وفجأة تغير الموضوع .

وقالت سارة — في لهجة فيها شيء من السخرية الخفيفة — بعد أن أكملت قراءتي :

— هذا أمر مؤثر ، أليس كذلك ؟

ولم أستطع أن أمتنع عن أن أقول لها وأنا ألوم نفسي :

هذا عجيب أكثر مما تتصورين . تخيلي أنني منذ عشرة أيام سألت والدك : هل حاول أن يكف عن التدخين ؟ وكنت أشعر بأنني أنقاد لعادة الإسراف في التدخين بدوري و ... بالاختصار ، أتعرفين بماذا أجابني ؟ قال لي : إنه يعتقد أن النـاس يبالغون في تصوير مضار التدخين ، وأنه من جانبه لم يشعر أبدا بتلك الأضرار ، ولما أصررت على سؤالي أجابني أخيراً قائلا :

— أف ! لقد قررت مرتين أو ثلاث مرات أن أكف عن ذلك بعض الوقت .

وسألته : وهل نجحت في ذلك ؟

فأجابني ، وكأنه أمر طبيعي : « طبعاً ما دمت قد قررت ذلك ! » .
« هذا أمر مدهش للغـاية . وأضفت أنه ربما لا يذكر ، ولم أرغب أن أظهر أمام سارة كل ما كنت أنهمه به من نفاق .

وأضافت سارة — أو ربما أثبت ذلك — : أن كلمة تدخين قد استعملها للدلالة على شيء آخر !

هل هذه سارة التي تقول ذلك ؟ كنت لا أصدق نفسي ، ونظرت إليها وأنا لا أجرؤ على فهم ما تعنيه ... ، وفي هذه اللحظة خرج أوليفييه من الغرفة ، وكان قد مشط شعره ، ونسق هندامه ، وبدأ أكثر هدوءا .

وقال لي أمام سارة : أترحل ؟ الوقت متأخر .

ونزلنا ، وقال لى بمجرد أن وصلنا إلى الشارع :

— أخشى أن تسىء فهم بعض الأشياء . وربما تصورت أنى أحب سارة . لا ، الأمر ليس كذلك ... أوه ! إنى لا أكرهها أيضاً ... ولكننى لا أحبها .

وأمسكت بذراعه ، وضغطته دون أن أقول شيئاً .

وأردف . وكذلك يجب أن لا تصدر حكمك على أرمان بناء على ما قاله اليوم . إنه يمثل دوراً ... بالرغم منه ، وهو فى حقيقة أمره مختلف تماما عن ذلك ... ولا أستطيع أن أشرح لك هذا الأمر . إنه يشعر برغبة خفية فى أن يهدم كل ما يعتز به ، ولم يصبح كذلك إلا أخيرا . إنى أعتقد أنه تعس جدا ، وهو لهذا السبب يسخر من كل شىء .

إنه معتز بنفسه جدا ، ووالداه لا يفهمانه على الإطلاق ، وكانا يريدان أن يصنعا منه قساً .

وهذه جملة سأضعها على رأس فصل من فصول قصة « المزيفون » وقد أخذتها عن (بول بورجيه) وهى :

« العائلة ... هذا السجن الاجتماعى »

أما عنوان الفصل فهو : « نظام السجون »

ليس هناك أى سجن (فكرى) إلا واستطاع العقل القوى أن يتحرر منه ، وليس فيما يدفعنا إلى التمرد خطر حقيقى ، ولو أن التمرد قد يفسد الشخصية ، فهو يطويها أو يغير من معالمها ، أو يجعلها تلجأ إلى الخديعة ، والطفل الذى لا يخضع لأثر الأسرة يبذل كل طاقته للتخلص منها ، والتربية التى تقاوم الطفل ، وتكبته إنما تعمل على تقوية شخصيته ، ضحايا التدليل . أية قوة يجب أن يتمتع بها المرء لكى يتمكن من أن يكره ما يرضى غروره ! كم رأيت من والدين (والأم بخاصة) يحلو لها أن يبعثا فى نفوس أبنائهما نفورهم السخيف من أشياء أو تحيرهم لأشياء لا معنى لها ، أو عدم فهمهم أو خوفهم ... كأن يقولا لهم على المائدة :

— أترك هذا ، ألا ترى أن به دهناً ؟ قشر هذا . إنه غير ناضج تماما... أو يقولون له — خارج المنزل فى المساء — : أوه ! هذا خفاش ... غط نفسك بسرعة ، سوف يهبط على شعرك ... الخ ... منهم من يقولون مثلا ، إن الخنافس تعض ، وأن الجراد يلدغ ، وإن دود الأرض يسبب البثور ، ويرددون هذه السخافات فى كل نواحى الحياة الفكرية والأخلاقية وغيرها .

سمعت فى القطار الذى حملنى من «أوتى» أول أمس — أماً شابة تتمتم فى أذن بنتها — وعمرها عشر سنوات وكانت تدللها :

— أنت وأنا ، أنا وأنت ، أما الآخرون فلا شأن لنا بهم .

(أوه ! إننى أعرف أنهما من عامة الناس ، ولكننا إذا كنا نمتعض من تصرفات كبار القوم فإن من حقنا أن نمتعض أيضا من تصرفات عامة الناس) .

وكان الزوج — فى ركن من العربة — يقرأ جريدته وهو هادئ ، مستسلم ، وقد لا يكون ممن تخونهم زوجاتهم .

هل يمكن أن نتصور سما أكثر فتكا مما تقوله هذه الأم لابنتها ؟

إن المستقبل للأولاد غير الشرعيين ؟ أى معنى يمكن أن يكون لهذه التسمية : ابن طبيعى ؟ هل للابن غير الشرعى وحدة الحق فى أن يكون طبيعيا ؟

« الأنانية العائلية أقل بشاعة ... من الأنانية الفردية » .

٦ نوفمبر — لم أستطع أبدا أن أخترع شيئا ، ولكنى أمام الحقيقة كالرسام أمام نموذجه ، يقول له : قم بهذه الحركة ، ارسم على وجهك هذا التعبير الذى يناسبنى . يمكننى أن أجعل نماذج الشخصيات التى يقدمها لى المجتمع تتحرك على هواى إذا عرفت سر حركتها ، أو على الأقل أستطيع أن أضع أمام هذه النماذج بعض المشكلات ، وأترك لهم حرية حلها كل بطريقته الخاصة ، وبهذا أستفيد من أثر هذه المشكلات على كل منهم . إن حاجتى الملحة إلى التدخل والتأثير على مصيرهم مبعثها أنى كاتب قصصى . لو كان خيالى أخصب مما هو ، لأمكننى أن أوجدهم فى مواقف أتخيلها أنا ، ولكننى بدلا من ذلك أتسبب فى خلق المواقف ، ثم ألاحظ مايعمله الممثلون فيها ، ثم أكتب ما يملون .

٧ نوفمبر — ليس هناك شيء حقيقي في كل ما كتبته بالأمس . ويبقى أن أقول هذا : يهمني الواقع كأنه مادة تشكيلية . وإني لأبذل من الانتباه لما قد يكون أضعاف ماأبذله لما كان ، وإني لأحنو على مقدرات كل فرد وأرثى لـكل عجز سببته التقاليد .

* * *

اضطر « برنارد » إلى قطع حبل قراءته لحظة - لقد تشوشت نظرته ، وتلاحقت أنفاسه ، وكأنه كان قد نسى أن يتنفس طوال الوقت الذى استغرقته قراءته، لأن اهتمامه كان بالغابكل مايقرأ . ففتح النافذة وملأ رئتيه بالهواء قبل أن يستغرق فى القراءة من جديد .

كانت صداقته لأوليفييه حميمة قوية ولم يكن له صديق خير منه ، ولم يكن يحب شخصا على هذه الأرض كما أحبه ، فهو لم يستطع أن يحب والديه . وكان قلبه معلقا بهذا الحب تعلقا زائدا ، ولـكن اختلف فهم كل منهما للصداقة . وزادت دهشته كلما استرسل فى قراءته ، وزاد إعجابه وإن خالط هذا الشعور بعض الألم إذ تبين له كيف انطوى هذا الصديق — الذى حسب أنه يفهمه كل الفهم — على تنوع كثير . لم يقل له (أوليفيه) قط شيئا مما قرأه فى هذه اليوميات . وهو لايكاد يشعر بوجود (أرمان) (وسارة) ولشد ما كان (أوليفييه) مختلفا معهم عما كان معه ! ... أكان يمكن لبرنارد أن يتعرف على صديقه فى غرفة (سارة) هذه وهو مستلق على السرير ؟ واختلط بفضوله البالغ الذى كان يدفعه إلى هذه السرعة فى القراءة بعض الضيق : أهو شعور بالاشمئزاز أو الغيظ ؟ غيظ كالذى شعر به عندما رأى (أوليفيه) متعلقا بذراع (ادوارد) حيث أنه ليس معهما . وهذا الغيظ قد يصل بالمرء إلى مدى بعيد جدا ، وقد يجعله يقترف حماقات كثيرة كما هو الحال فى كل ألوان الغيظ .

لنترك كل هذا . كل ماذكرته هنا ليس إلا لإيجاد متنفس بين صفحات اليوميات والآن وقد تنفس برنارد بما فيه الكفاية فلنعد إلى اليوميات . هاهو برنارد يستغرق مرة أخرى فى القراءة .

الفصل الثالث عشر

« قليل ما نكسبه من خدمات الكهول »
فوفنارج

٢ — يوميات « إدوارد »

٨ نوفمبر — غيّر الزوجان العجوزان (لابيروز) مسكنهما من جديد . لم أرحتى الآن شقتهما الجديدة ، التى تقع فى الطابق الأول بشارع (فوبورج سان هونوريه) قبل تقاطعه مع شارع (هوسمان) . ضغطت على زر الجرس ، وجاء (لابيروز) ففتح لى الباب ، وكان يرتدى قميصه بدون سترة ، كما كان يضع على رأسه قلنسوة بيضاء تخالطها صفرة . وقد استنتجت أن هذه القلنسوة جورب قديم للسيدة لابيروز ، وكانت قدم الجورب المعقودة تترجح فوق خده كشرابة قلنسوة القضاة ... وكان يحمل فى يده قضيبا منثنيا (كالذى يستخدم فى إشعال نيران المدفأة) ولا شك أنى فاجأته فى وقت كان يقوم فيه ببعض الأعمال الخاصة بتنظيف المدفأة ولما ظهر عليه الحرج سألته :

— هل تريد أن أحضر فى وقت آخر ؟

وأجابنى : لا ، لا ، ادخل هنا .

ودفعنى إلى غرفة ضيقة مستطيلة ، تطل نافذتاها على الشارع فى مستوى مصباح الطريق وقال :

— كنت أنتظر مجىء إحدى تلميذاتى فى هذه الساعة (وكانت السادسة حينذاك) ولكنها أبرقت لى معتذرة عن عدم المجىء . إنى سعيد جدا برؤياك .

ووضع القضيب على منضدة مستديرة وأضاف وكأنه يعتذر عن هيئته :

— تركت الخادمة المدفأة تخبو ، وهى لا تحضر إلا فى الصباح ، واضطررت إلى تنظيفها ...

ـ أتريد أن أساعدك فى إشعالها من جديد ؟

ـ لا ، لا ... هذا عمل يوسخ الملابس ... ولكن ، اسمح لى أن أتركك لأرتدى سترة .

وخرج وهو يزحف فى خطوات قصار ، ثم عاد فى الحال مرتديا سترة خفيفة من الصوف فقدت أزرارها ، وكانت ممزقة الأكمام بالية ، بحيث لا يجرؤ المرء أن يعطيها لمتسول . وجلسنا .

وقال : أتجدنى تغيرت ؟

وأردت أن أعترض على هذا ، ولكننى لم أجد ما أجيبه به ، وكنت متألما جدا لرؤية هذا الوجه المكدود الذى عرفته فيما مضى جميلا . وأضاف :

ـ نعم لقد تقدمت بى السن كثيرا فى الفترة الأخيرة . وضعفت ذاكرتى . وعندما أريد أن أعزف قطعة موسيقية لباخ أضطر إلى الالتجاء لكراستى الموسيقية ...

وأجبته : كثير من الشباب يقنعون لو كانت لهم ذاكرتك !

وأردف وهو يهز رأسه : أوه ! ليست الذاكرة فقط هى التى تخوننى ، عندما أسير يبدو لى إننى أسير بسرعة معقولة ولكن عندما أكون فى الشارع أجد المارة جميعا يسبقوننى .

وقلت : حقيقة الأمر أن الناس يسرعون فى السير فى هذه الأيام .

وأجاب : أليس كذلك ؟ .. الأمر كذلك بالنسبة للدروس التى أعطيها ، فتلميذاتى يرين أن دروسى تعطلهن ، وهن يردن أن يسرن بسرعة أكبر . ولهذا السبب ينفض الجميع عنى ... الناس فى عجلة فى هذه الأيام .

وأضاف بصوت خفيض جدا سمعته بصعوبة :

ـ لم يبق منهم أحد تقريبا .

وشعرت بأن يأسه كبير حتى أننى لم أجرؤ أن أسأله أى سؤال .

وأردف : مدام لابيروز لا تريد أن تفهم حقيقة هذا الأمر . وهى تلومنى

على أنى لا أدرّس كما يجب ، وتقول إنى لا أبذل أى مجهود لاستبقاء تلميذاتى، وإنى لا أحاول أن أحصل على دروس جديدة .

وسألته فى غير لباقة : وهذه الطالبة التى كنت تنتظرها ؟

وأجاب : أوه ! إنى أعدها لدخول معهد الموسيقى . وهى تحضر لتتمرن هنا كل يوم .

ـ ومعنى هذا أنها لا تدفع لك شيئا .

ـ مدام « لابيروز » تؤاخذنى على ذلك بما فيه الكفاية ! وهى لا تفهم أن الشىء الوحيد الذى ما زال يهمنى هو هذه الدروس نفسها . نعم تلك الدروس التى أجد متعة حقيقية فى إعطائها . إننى أفكر كثيرا منذ بعض الوقت . اسمع ... هناك شىء كنت أريد أن أسألك عنه : لماذا لا يذكرون شيئا تقريبا عن المسنين فى الكتب ؟ ... سبب ذلك ـ على ما أعتقد ـ هو أن المسنين لم تعد لهم القدرة على الكتابة ، وعندما يكون المرء شابا ، لا يهتم بالشيوخ . فالمسن لا يثير اهتمام أحد ... ومع ذلك فثمت أشياء ممتعة جدا يمكن أن تقال فى هذا المجال عنهم. لم أفهم معنى بعض ما قمت به من أعمال فى الماضى إلا الآن فقط . نعم بدأت أفهم الآن فقط أن ليس له إطلاقا المعنى الذى كنت أتصوره فيما مضى عندما قمت به ... والآن فهمت أنى كنت مخدوعا طيلة حياتى لقد خدعتنى مدام « لابيروز » ، وخدعنى الجميع ... وسخر الله منى ...

بدأ الليل يرخى سدوله ، ولم أعد أتبين ملامح أستاذى العجوز ، وفجأة انبثق ضوء مصباح الشارع المجاور ورأيت عبرات تلمع على خده . شعرت بقلق بادئ الأمر لرؤية بقعة غريبة على جانب صدغه كأنها تجويف أو حفرة ، ولكنى فهمت بعد أن حرك رأسه حركة خفيفة وبعد أن تغير مكان البقعة أن ذلك لم يكن إلا ظل حلية من المصباح انعكس على وجهه ، ووضعت يدى على ذراعه النحيل وكان يرتجف ، فقلت له :

ـــ ستصاب بالبرد . أحقا لا تريد أن أشعل نار مدفأتك ؟ . . هيا بنا .

— لا .. يجب أن نخشوشن .

— ماذا ؟ أهذا تقشف ؟

— إلى حد ما . إنني لم أرتد أبداً ملفحة لأن حجرتي ضعيفة . لقد قاومت دائماً رغباتي .

— كل ذلك حسن ما دمنا نستطيع الانتصار على أنفسنا ، ولكن إذا ما ضعف جسدنا ...

وأمسك يدي وقال بلهجة جدية وكأنه يسر إلى سراً :

— عندئذ يكون الانتصار الحقيقي .

وترك يدي وأضاف ،

— كنت أخشى أن ترحل دون أن تحضر لرؤيتي .

وسألته : أرحل إلى أين ؟

— لا أعرف . إنك تسافر كثيراً . هناك شيء كنت أريد أن أقوله لك . . إنني أنوي أن أرحل بدوري قريباً .

وسألته وأنا أتظاهر بعدم فهم ما يعنيه بالرغم مما لمسته في نبرة صوته من جد .

— ماذا ! أفي نيتك أن تسافر ؟

وهز رأسه وقال :

— إنك تفهم جيداً ما أعنيه نعم ، نعم ، سوف يحين الوقت قريباً . لقد بدأت مكاسبي تنقص عن تكاليف حياتي ، وهذا أمر لا أحتمله . إن هناك حداً معيناً في حياتي عاهدت نفسي ألا أتخطاه .

وكان يتكلم بلهجة منفعلة أقلقتني ، وأضاف : أنت أيضاً ترى أن ما أنوي فعله إثم ؟ لم أفهم أبداً لماذا حرم علينا الدين هذا الفعل . لقد فكرت في الأمر ملياً في الآونة الأخيرة . قضيت فترة شبابي متقشفا ، وكنت أهنئ نفسي في كل مرة أتغلب

فيها على رغبة من رغباتى . وكنت لا أفهم أنى بعملى هذا أصبح عبداً أكثر وأكثر لكبريائى، فى الوقت الذى كنت أتصور أنى أحرر نفسى . كان كل انتصار من هذه الانتصارات على نفسى بمثابة إدارة المفتاح لإغلاق باب سجنى . هذا ما كنت أعنيه منذ قليل عندما قلت لك إن الله سخر منى . لقد جعلنى أتصور أن كبريائى نوع من الفضيلة ...

وأمسك برأسه بين راحتيه وكأنه طفل غاضب ، وبقى ساكتا فترة طويلة حتى ارتبت أنه نسى وجودى . وبقيت بلا حراك خشية أن أزعجه فى تأملاته . ورغم ضوضاء الشارع المجاور ، كانت الغرفة الصغيرة تسبح فى هدوء غير عادى ، وكان مصباح الشارع يضىء لنا الغرفة من أسفل إلى أعلى بطريقة غريبة كما يحدث فى توزيع الضوء على خشبة المسرح لكن راحت مساحات الظل على جانبى النافذة تتسع ، وأخذت الظلمات من حولنا تتركز مثلما يتجمد الماء فى البرد الشديد . أخذت تتركز حتى بلغت قلبى ذاته . وأردت أخيراً أن أنفض عن نفس شعورى بالقلق وتنفست بصوت مسموع ، وسألته وأنا أفكر فى الرحيل وأتأهب له ، سألته مجاملة ولكى أقطع حبل السكوت :

— هل السيدة « لابيروز » على ما يرام ؟

وبدا على العجوز أنه استيقظ من سباته . وكرر قولى بلهجة استفهامية : السيدة « لابيروز » ؟ وكأن هذه الكلمة أصبحت لا تعنى بالنسبة له أى معنى . ثم قال لى فجأة وهو ينحنى نحوى :

— السيدة « دى لابيروز » تجتاز أزمة عنيفة ... وهذا أمر يؤلمنى كثيراً . فسألته :

— أيه أزمة ؟

فأجاب وهو يرفع كتفيه ، وكأن هذا شىء بديهى ،

— لقد جنّت تماما . وأصبحت لا تجد جديداً تهذى به .

وكنت أحس منذ زمن طويل بانفصام ما بين هذين الزوجين المرمين ولكنى كنت يائسا من أن أحصل منه على تفاصيل أكثر .

وقلت له فى لهجة مشفقة :

— يا صديقى المسكين ... منذ متى وهى على هذه الحال ؟

وأخذ يفكر هنيهة ، وكأنه لم يفهم معنى سؤالى ثم قال :

— إنها على هذه الحال منذ وقت طويل...منذ عرفتها ، ولكنه أردف فى الحال،

— لا ، إننى مخطىء . بدأ الوضع يسوء منذ اهتممنا بتربية ابنى .

وبدر منى ما يدل على دهشتى إذ كنت أعتقد أنهما لم ينجبا أطفالا . ورفع جبهته وكان يمسك بها بين راحتيه وقال بصوت أكثر هدوءاً

— ألم أكلك أبداً عن ابنى ؟ سوف أخبرك بكل شىء حتى تعرف اليوم الحقيقة كاملة . ليس فى مقدورى أن أحكى هذا لشخص غيرك ... نعم ، دب هذا الخلاف عندما بدأ اهتمامنا بتربية ابنى . وها أنت ترى أن هذا أمر مر عليه زمن طويل . كانت حياتنا معا لطيفة للغاية فى بدايتها . وعندما تزوجتها كنت طاهراً كل الطهارة . لقد أحببتها ببراءة ... ثم أردف :

— نعم هذا هو التعبير الصحيح . ولم يكن فى مقدورى أن أجد فيها أى عيب ، إلا أن نظرتنا فيما يختص بتربية الأطفال كانت مختلفة تماما . وفى كل مرة حاولت أن أؤنب فيها ابنى ، وقفت السيدة « دى لابيروز » موقفا مناوئا لموقفى ، وكان يبدو على حد قولها أن علىّ أن أغفل كل نزواته . وكانا يتفقان ضدى . وكانت تعلمه الكذب . وما إن بلغ العشرين حتى اتخذ لنفسه عشيقة ، وكانت تلميذة من تلميذاتى ، روسية شابة ، وعازفة قديرة ، وكنت قد تعلقت بها كثيرا . وكانت مدام « دى لابيروز » على علم بهذا الأمر ، إلا أنهما أخفيا عنى كل شىء . وبطبيعة الأمر لم ألحظ شيئا ، لم ألحظ أنها حملت منه لم ألحظ أى شىء كما قلت لك ، ولم أكن أرتاب فى شىء . وذات يوم أخبرونى أن تلميذتى متوعكة وأنها سوف تمتنع عن الحضور بعض الوقت . ولما فكرت فى زيارتها أخبرونى أنها غيرت مسكنها وأنها

على سفر ... ولم أعلم أنها ذهبت إلى بولاندا — إلا بعد فترة طويلة — لكى تضع طفلها هناك . وكان ابنى قد رحل ليلحق بها . وعاشا سويا عدة أعوام ، ولكنه توفى قبل أن يتزوجها .

وسألته : هل قابلتها بعد ذلك ؟

فرد وكأنه يجد عناء فيما يقول :

— لم يكن فى مقدورى أن أسامحها على خديعتها لى . ولكن السيدة « دى لابيروز » ما زالت تراسلها . ولما علمت أنها تقاسى من الفاقة أرسلت لها نقودا ... وكانت مساعدتى هذه من أجل الصغير . إلا أن السيدة « دى لابيروز » تجهل كل شىء عن ذلك . بل إن الفتاة نفسها لم تعلم أنى أرسلت إليها هذه النقود .

وسألته : وماذا عن حفيدك ؟

وهنا ارتسمت ابتسامة غريبة على محياه . ونهض وهو يقول :

— انتظر لحظة . سوف أريك صورته .

وخرج مرة أخرى ، وهو يجرى فى خطوات قصيرة ورأسه تميل إلى الأمام . وعند عودته ، كانت أنامله ترتعش وهى تبحث عن الصورة فى حافظة كبيرة . ومد يده بها إلى وهو ينحنى وقال بصوت خافت :

— لقد أخذتها من مدام (دى لابيروز) دون أن تشعر بذلك . وهى تعتقد أنها فقدتها .

وسألته: وكم يبلغ من العمر ؟

فأجاب : ثلاثة عشر عاما . إنه يبدو أكبر سنا فى الصورة . أليس كذلك ؟ إنه ولد رقيق .

واغرورقت عيناه بالدموع مرة أخرى ، ومد يده إلى الصورة وكأنه يريد أن يستردها بسرعة . وتقدمت نحو ضوء مصباح الشارع ولم يكن كافيا ، وبدا لى أن الطفل يشبهه ووجدت أن له نفس جبهة لابيروز العجوز البارزة ونفس العيون الحالمة.

واعتقدت أنني أسعده إذا قلت له ذلك ولـكنه قال :

— لا ، لا ، بل إنه يشبه أخا لي فقدته ...

وكان الطفل يرتدي قميصا روسيا مطرزاً ذا شكل غريب .

وسألته : وأين يعيش ؟

وصاح لابيروز فيما يشبه اليأس :

— وكيف يتسنى لي أن أعرف ؟ لقد أخبرتك بأنهم يخفون عني كل شيء .

وكان قد استرد الصورة ، وأعادها إلى حافظته بعد أن فحصها لحظة ثم وضع الحافظة في جيبه وقال :

— عندما تحضر أمه إلى باريس لاترى إلا السيدة دي لابيروز ، وعندما أسألها عن أي شيء يخص الطفل تجيبني :

— عليك أن تسأل أمه — تقول ذلك ، ولـكنها تتمنى أن لاأراها . لقد كانت دائما غيورة بطبعها . وكل شيء تعلقت به حاولت هي دائما أن تأخذه مني ... وبوريس الصغير تلميذ بمدرسة ببولاندا في فارسوفيا على ماأعتقد . ولـكنه كثيرا مايصحب والدته في أسفارها .

ثم سألني في انفعال شديد : قل لي ! هل كنت تتصور أن من الممكن أن يحب المرء طفلا لم يره أبدا ؟ ... أتتصور أن هذا الصغير يعتبر بالنسبة لي اليوم أعز ما أملك في الدنيا ؟ .. ولـكنه لايعرف عن شعوري هذا شيئا !

وكانت العبرات تخنق صوته وتقطع عباراته . ونهض من مقعده وارتمى ـ أي وقع تقريبا — بين ذراعيّ . وودت أن أفعل أي شيء لأخفف من شعوره باليأس، ولـكن ماذا كان في مقدوري أن أفعل ؟ ونهضت ، إذ شعرت بأن جسمه النحيل ينزلق من فوق جسمي وأنه سيقع على ركبتيه . فسندته وضممته إلى صدري ، ودللته كطفل فتماسك . وسمعنا السيدة دي لابيروز تناديه من الغرفة المجاورة .

وقال : ستحضر ... إني أعرف أنك لاتهتم كثيرا برؤيتها ، أليس كذلك ... ؟ ومع كل لقد أصبحت صماء تماماً . اذهب سريعا ... وأردف وهو يصحبني إلى السلم

ـ لاتغب عنى كثيرا (وكانت فى صوته نبرة التوسل) ، وداعا ، وداعا .

٩ نوفمبر ـ يبدو لى أن هناك مأساة أهملها الأدب . اهتمت القصة بغدر القدر وبالحظ ـ حسنا كان ام سيئا ـ وبالعلاقات بين الناس فى المجتمع ، وبالصراع بين ألوان الحب المختلف ، وبأخلاق الناس ، ولكنها لم تبال بشئ من كوامن النفس فى حد ذاتها . ومع كل حاولت المسيحية أن توجه القصة إلى الأمور الأخلاقية ، ولكن لاتوجد قصة مسيحية بمعنى الكلمة . هناك قصص هدفها أخلاق . إن ماأعنيه هو المأساة الأخلاقية التى تعبر عنها أصدق تعبير كلة الإنجيل المشهورة :

(إذا فقد الملح طعمه فأى شىء يمكن أن يرجعه إليه) . تلك هى المأساة التى تهمنى .

١٠ نوفمبر ـ أوشك أوليفييه أن يتقدم للامتحان . وبولين تود أن يلتحق بعد ذلك بمدرسة المعلمين . قد أعدوا له مستقبله من قبل ... ياليته كان بلا أهل ، بلا سند ، إذن لجعلته سكرتيرى الخاص ولكنه لايبالى بى ، ولا يلحظ اهتمامى به وقد أضايقه إذا استرعيت نظره إلى ذلك . ولكى لاأضايقه أتعمد أن أظهر أمامه بعدم المبالاة ، ولا أجرؤ على النظر إليه بحرية إلا عندما أشعر بأنه لايرانى . إنى أتبعه أحيانا فى الشوارع دون أن يلحظ ذلك . وبالأمس كنت أسير خلفه ولكنه عاد أدراجه فجأة ولم أجد الوقت الكافى لأختبئ ولذا سألته :

إلى اين تسرع هكذا ؟ وأجابنى : ليس لى هدف معين . لايبدو علىّ أبدا أننى متعجل إلا عندما أسير على غير هدى .

وسرنا معا بضع خطوات ، ولكننا لم نجد مانقوله . لاشك أنه تضايق لأننى قابلته

١٣ نوفمبر ـ ... له والدان وأخوه الأكبر . وله رفاق ... ولا مكان لى بينهم . كررت هذا القول لنفسى طوال النهار . كان فى إمكانى أن أعوضه عن كل مايفتقر إليه ولكنه لايفتقر إلى شىء . وهو ليس فى حاجة إلى شىء ، إن كانت رقته معى تسعدنى فليس فيها مايسمح لى بأن أفسرها ... آه ! إنها عبارة سخيفة ، أكتبها بالرغم منى ، وهى تظهر الإزدواج الذى يعتمل فى قلبى ... سأبحر غدا إلى لندن . لقد صممت فجأة على أن أسافر .

حان الوقت للرحيل على الرغم من الشعور برغبة شديدة فى البقاء ... إنه نوع من الحب لكل ماهو عسير ، واشمئزاز من كل ماهو سهل يسير (وأعنى بذلك مايريح النفس) ولعل هذا أثر من آثار نشأتى الدينية التى علمتنى قهر نفسى ... وإنى لأجد صعوبة فى التحرر من هذا الأثر .

اشتريت أمس من مكتبة سميث كراسة جديدة سوف أكتب فيها مذكراتى بانجلترا ، وسوف تكون مكملة لكراستى هذه التى ليس فى نيتى أن أكتب فيها شيئا بعد الآن — كراسة جديدة ...

آه ! لو كنت أستطيع أن أمنع نفسى من الرحيل ! ...

الفصل الرابع عشر

« قد تصادف الناس أحداث لا ينجو
منها إلا من كان على شيء من الجنون »
لاروشفوكوه

أنهى « برنارد » قراءته لمذكرات ادوارد برسالة لورا المخبأة بين طياتها ، وقد بهرته هذه الرسالة ؛ لم يكن فى مقدوره أن يشك فى أن تلك التى كانت تشكو من يأسها فى هذه الرسالة هى نفس العاشقة اليائسة التى كان يكلمه أوليفييه عنها مساء اليوم السابق ، العشيقة التى هجرها فنسان مولينييه . وبدا لبرنارد فجأة أنه مازال الوحيد الذى يعلم حقيقة هذا الأمر من ناحيتيه وذلك لما سمعه من أوليفييه ولما قرأه فى مذكرات ادوارد . وانفراده بمعرفة هذه الحقيقة أمر لن يستمر طويلا ، وعليه الآن أن يقوم بلعبته بسرعة وبدقة . ولذا حزم أمره فى الحال . ورغم أنه لم ينس شيئاً مما قرأ فى مذكرات ادوارد فإنه لم يعد يهتم إلا بلورا .

وقال لنفسه وهو ينطلق خارج غرفته : حتى هذا الصباح ، كان ما يجب علىّ عمله غير واضح المعالم ، أما الآن فلم يعد عندى شك أن الأمر الملح هو إنقاذ لورا . ولعله ليس من واجبى أن أستحوذ على الحقيبة ، ولكنى مادمت قد استحوذت عليها فلا شك أننى وجدت فيها ما يوحى إلىّ الشعور بالواجب . المهم الآن هو أن أفاجىء لورا قبل أن يتمكن ادوارد من رؤيتها ، وأن أقدم نفسى لها بطريقة لا تسمح لها بأن تتصور أن من الممكن أن أكون لصاً . أما ما يجب أن أعمله بعد ذلك فيأتى من تلقاء نفسه . إننى أملك فى حافظة نقودى الآن ما يسمح لى بأن أواسيها فى محنتها بالبذخ الذى يمكن أن يسمح به كرم رجل كادوارد وحنانه والشىء الوحيد الذى يحيرنى هو الطريقة التى يجب أن أتبعها . فهى ولو أنها حامل حملا غير مشروع إلا أنها لابد محتفظة بكبريائها . إننى أتخيلها من هؤلاء النساء اللواتى يثرن

ويظهرن احتقارهن ويمزقن الأوراق المالية التى تقدمها لهن إحساناً إذا قدمتها فى ظروف غير لائق . كيف أقدم لها هذه الأوراق المالية ؟ كيف أقدم نفسى لها ؟ هذه هى الصعوبة . كم يصادف المرء من تعقيدات بمجرد أن يخرج من الطريق المطروق ومن الطريق المستقيم ! لا شك أن حداثة سنى لا تسمح لى بأن أقحم نفسى فى مشكلة معقدة كهذه ، ولكن هذه الحداثة هى التى ستساعدنى . فلأخترع لها قصة أعترف فيها فى براءة بما يجعلها تشفق على وتهتم بأمرى . إن الذى يضايقنى هو أن هذه القصة يجب أن تصلح لكى أسردها لادوارد .

لا بأس . سوف أهتدى إلى هذه القصة . يجب أن أعتمد على إيحاء اللحظة . .

وبلغ برنارد شارع بون وهو العنوان الذى ذكرته لورا . وكان الفندق الذى تنزل به متواضعاً جداً إلا أنه كان نظيفاً وحسن المظهر . وبعد أن أرشده البواب ، صعد إلى الطابق الثالث ووقف أمام الباب الذى يحمل رقم ١٦ . وأراد أن يعد نفسه للدخول وأخذ يبحث عن العبارات المناسبة ولكنه لم يجد شيئاً . وعندئذ استجمع أطراف شجاعته ودق الباب .

وسمع صوتاً رقيقاً كأنه صوت راهبة ، صوتاً خائفاً يقول له :

— ادخل .

كانت لورا ترتدى ملابس بسيطة للغاية ، كانت تتشح بالسواد ، وتبدو وكأنها فى حداد . ومنذ أن وصلت إلى باريس من أيام ـ كانت كمن ينتظر حدوث شيء أو مجيء شخص ينقذها . لقد سلكت طريقا غير سوية ، لا شك فى ذلك . وكان من عادتها للأسف أن تعتمد على الظروف أكثر من اعتمادها على نفسها .

ولم تكن امرأة دون فضيلة . إلا أنها كانت تشعر أن لا قوة لها ولا سند . وعند ما رأت برنارد رفعت يدها لتخفى وجهها كمن يحبس صيحة ، أو كمن يحمى عينيه من وهج ضوء قوى . وكانت واقفة فتقهقرت خطوة وأمسكت بالستار لما وجدت نفسها على مقربة من النافذة .

وانتظر برنارد حتى تسأله إيضاحا . ولكنها صمتت وانتظرت منه أن يبدأ الكلام . وكان برنارد ينظر إليها محاولا أن يبتسم ، بينما كان قلبه يخفق . وقال أخيرا : معذرة يا سيدتي أن أزعجك هكذا . ادوارد ... وأعلم أنك تعرفينه وصل إلى باريس هذا الصباح . ولدى أمر مهم جدا أريد أن أخطره به وقد ظننت أن في إمكانك أن تدليني على عنوانه و ... وأنا آسف جداً لحضوري هكذا بغير كلفة لأسألك عن هذا العنوان ؟

ولو لم يكن برنارد حديث السن لانزعجت لورا أيما انزعاج دون شك ، ولكنه كان لا يزال يافعا . وكانت عيناه تنطقان بالصدق ، كما كانت جبهته تدل على البراءة وتنم حركاته عن الخوف ويفتقر صوته إلى الثقة بالنفس . وأمام هذا زايل لورا الخوف ، وحل محله التطلع والاهتمام والود الذي يثيره مخلوق ساذج جميل . وبدأت الثقة تعود إلى صوت برنارد .

وأجابته لورا : ولكنني لا أعرف عنوانه . لو كان إدوارد بباريس لجاء ليراني دون تأخير . إنني آمل ذلك . قل لي من أنت . سوف أخبره بذلك .

وقال برنارد لنفسه : حان الوقت لأجازف بكل شيء . ومر بقلبه ما يشبه الجنون وأخذ ينظر إلى لورا بثبات وقال :

— من أنا ؟ أنا صديق أوليفيه موليتيه ... ثم تردد قليلا . ولكنه لما رأى شحوب وجهها بعد سماعها هذا الاسم جرؤ على أن يقول لها :

— إنني صديق أوليفيه شقيق فنسان عشيقك الذي هجرك بنذالة ... واضطر أن يقطع حديثه فقد كانت لورا تترنح ، كما راحت يداها القلقتان تبحثان خلفها عن سند ولكن الأنين الذي سمعه برنارد أزعجه أيما إزعاج . كان هذا الأنين كصوت صادر عن فريسة جريحة .

وفجأة شعر الصائد بالخجل إذ رأى أنه جلاد . وكانت هذه الصرخة غريبة ، ومختلفة تماما عن كل ما كان يتوقعه ، حتى أنه ارتجف وفهم فجأة أن الأمر يتعلق

بحياة حقيقية ، بألم حقيقى . وبدا له أن كل ما شعر به قبل الآن لم يكن إلا تظاهرا ولهوا . واعتراه انفعال شديد ؛ كان شعورا جديدا لم يتمكن من السيطرة عليه ، وكاد هذا الإحساس يخنقه ...

ماذا ! أهو يجهش بالبكاء ؟ هـــو « برنارد » ؟ ... ويندفع ليسندها ويركع أمامها ، ويتمتم بين عبراته :

ـ آه ! أطلب عفوك ، لقــد جرحت شعورك ... عرفت أنك لا مورد لك ... كنت أريد أن أساعدك .

ولــكن لورا كانت تتنفس بعناء ، وشعرت بانهيار . وها هى تبحث بعينها عن مقعد تجلس عليه . وفهم برنارد معنى نظرتها وكانت عيناه تنظران إليها . فوثب نحو مقعد صغير عند مقدمة السرير وأحضره بحركة عنيفة بالقرب منها . وتركت هى نفسها تقع عليه بكل ثقلها .

وهنا وقع حادث مضحك أتردد فى أن أذكره ، إلا أنه كان له الفضل فى تقرير نوع الصلات بين برنارد ولورا ، لأنه أنقذها من الحرج الذى وجدا نفسيهما فيه ولن أحاول أن أفتعل مايسمو بهذا المشهد . إن الثمن الذى كانت تدفعه لورا عن إقامتها (وأعنى بهذا المبلغ الذى كان يطالبها به صاحب الفندق) لم يكن يسمح بأن يكون أثاث الغرفة أنيقاً . ولــكن من حق النزيل بها أن يأمل فى أن يكون متيناً . إلا أن المقعد الصغير المنخفض الذى دفعه برنارد نحو لورا كان يعرج قليلا ، أى أنه كان يشبه الطائر الذى ثنى إحدى قدميه تحت جناحه ، وهذا شىء طبيعى بالنسبة للطائر ، ولــكنه شىء يؤسف له بالنسبة لمقعد ؛ ولذا كان هذا الأخير يحاول أن يخفى عاهته هذه تحت غطاء سميك ، وكانت لورا تعرف هذه الحقيقة ، كما كانت تعلم أن استعماله يجب أن يكون بمنتهى الرفق ؛ ولــكنها لم تستطع التفــكير فى هذا الأمر أثناء انفعالها الشديد ، ولم تذكره إلا عندما شعرت بالمقعد يتأرجح تحتها . وأطلقت فجأة صيحة ، مختلفة تماما عن الأنين الطويل الذى صدر عنها منذ هنيهة ؛ وانزلقت على جنبها ووجدت نفسها بعد لحظة جالسة على السجاد بين ذراعى

برنارد الذى أسرع فى احتضانها . وشعر برنارد بالحرج وإن كان هذا الحادث قد سره ، ولا بد أنه كان قد وضع ركبته على الأرض . ووجدت لورا وجهها ملتصقا بوجهه ونظر إليها وكانت الحمرة قد كست وجهها ، واجتهدت فى أن تنهض فساعدهاوسألها:

— أتشعرين بألم ؟

— لا ، شكرا، وهذا بفضلك . إن هذا المقعدمضحكوقد أصلحوه مرة... وأعتقد أنه يمكن أن يصلح للجلوس إذا وضعت ساقه فى وضع مستقيم .

وقال برنارد : سوف أصلح من أمره ... ها هو قد أصلح ! . . . هل تريدين تجربته ؟ ثم أسرع يقول .

— أو إسمحى لى . . — يجب على سبيل الحذر أن أجربه أولا ؛ أترين ؟ إنه متماسك الآن . إننى أستطيع تحريك ساقى (وحركهما فعلا وهو يضحك) ثم قال وهو ينهض :

— اجلسى عليه من جديد وإذا ما سمحت لى بذلك فسوف أجلس على مقعد آخر سوف أجلس بجانبك وأمنعك من السقوط ، لا تخافى . إننى أريد أن أساعدك فى أى شىء آخر .

وكانت فى كلماته حرارة شديدة ، وفى تصرفاته احترام ، وفى حركاته رشاقة ، ولذا لم تستطع لورا أن تمنع نفسها من الابتسام وسألته :

— لم تقل لى اسمك ؟

— برنارد

— نعم . ولكن اسم عائلتك ؟

— ليس لى عائلة .

— أى اسم والديك .

— ليس لى والدان ومعنى ذلك أننى مثل ما سيكونه هذا الطفل الذى تنتظرينه، ابن غير شرعى .

وزايلت الابتسامة فجأة وجه لورا ، وشعرت بالمهانة من هذا الإصرار على التدخل فى أمور حياتها الخاصة واغتصاب سرها وسألته : ولكن كيف عرفت ؟ من قال لك ؟ ليس من حقك أن تعرف !

ولكن برنارد كان قد انطلق ، وراح يتكلم بصوت مرتفع وبجرأة :

— أعرف ما يعرفه صديقى أوليفييه وكذلك ما يعرفه صديقك إدوارد . إلا أن كلا منهما لا يعرف إلا نصف سرك ، ولا شك أننى الوحيد الذى يعرف سرك كله ، وأنت ترين إذن أنه يجب أن أصبح صديقك ، وأضاف هذا بلهجة رقيقة .

وتمتمت لورا بحزن : يعجز الرجال عن كتم السر ؟ ... ولكنك ، إن كنت لم تر ادوارد فهو لم يستطع أن يكلمك — هل كتب لك ؟ هل هو الذى أرسل لك ؟...

وكان برنارد قد أوجد نفسه فى مأزق ، لقد تسرع فى الكلام لرغبته فى الظهور بمظهر الشخص المهم ، وهز رأسه دلالة على النفى وأخذ الحزن يزداد ارتساما على وجه لورا . وفى هذه اللحظة سمعا دقا على الباب .

يخلق الانفعال المشترك بين أى شخصين صلة ما ، سواء أرادا ذلك أم لا ، وشعر برنارد بأنه وقع فى الفخ ، وانتاب الحنق لورا لأنها فوجئت هكذا فى صحبة غريب . ونظرا الاثنان كل منهما إلى الآخر وكأنهما متآمرين ، وسمع الدق على الباب من جديد وقال الاثنان معا :

— ادخل

منذ لحظات كان ادوارد ينصت من وراء الباب إذ أدهشه سماع أصوات فى غرفة لورا ، وكانت الجمل الأخيرة التى نطق بها برنارد قد أوضحت له الموقف ، ولم يكن من الممكن أن يشك فى أن الذى نطق بهذه الكلمات هو نفسه سارق حقيبته ، وحزم أمره فى الحال ، وكانت سرعته فى البت فى الأمور يعتريها الوهن فى الظروف

العادية . ولـكنه كان من الأشخاص الذين يهرعون إلى العمل وتعلأهم اليقظة أمام مفاجآت الحياة ، ولذا فتح الباب فى الحال ولـكنه بقى على عتبته. وكانت الابتسامة ترتسم على شفتيه . وأخذ ينظر تارة إلى برنارد وتارة إلى لورا ، وكان الاثنان قد انتصبا واقفين ؛ وقال للورا :

— اسمحى لى بالدخول ياعزيزتى — وأرفق ذلك بحركة معناها أن تؤجل الـكلام إلى حين — يجب أولا أن أقول بضع كلمات للسيد اذا سمح بالمجىء لحظة الى الممر .

وما إن لحق به « برنارد » حتى صارت ابتسامته أكثر تهكما :

— كنت أتوقع أن أجدك هنا .

وفهم « برنارد » أن « إدوارد » كان حانقاً أشد الحنق ، ولذا رأى أن الوسيلة الوحيدة أمامه هى أن يتسلح بالجرأة ، وهـذا ما عمله . قال هو يشعر بأنه يلعب لعبته الأخيرة :

— وكنت أرجو أن أجدك هنا .

وأجابه « إدوارد » : إن لم تكن قد سددت ما على مدام « دوفيه » (لأننى أود أن أعتقد أنك جئت من أجل ذلك) فعليك أن تنزل إلى مـكتب الفندق وأن ندفع ما عليها من النقود التى وجدتها بحقيبق والتى لا بد أنها معك الآن ، ولا تعد إلا بعد عشر دقائق .

قال له كل ذلك باهجة جادة ، وإن كانت مجردة من التهديد وأثناء هذا كان « برنارد » قد استرد هدوءه وقال ؟

— جئت فعلا من أجل ذلك، ولم تخطىء فى ظنك، وبدأت أصدق أننى بدورى لم أخطىء .

— ماذا تعنى بذلك ؟

— أعنى أنك كما كنت أرجو .

وكان « إدوارد » يحاول دون جدوى أن يتخذ مظهراً جادا إلا أنه وجد فى هذا الموقف نوعا من التسلية . وحيا « برنارد » تحية ساخرة ، وقال :

— أشكرك . بقى أن أرى بدورى إن كنت كما تخيلتك . أعتقد ـ ما دمت هنا ـ أنك قرأت أوراقى .

وابتسم « برنارد » بجرأة لا تخلو من الوقاحة ، وكان بدوره يجد تسلية فى الموقف كما جابه نظرة « ادوارد » بثبات ، ثم قال وهو ينحنى :

— لا تشك فى ذلك . إننى هنا فى خدمتك .

— وانطلق على السلم كالسهم .

وعندما دخل « ادوارد » الغرفة كانت « لورا » تنشج بالبكاء . واقترب منها فوضعت جبهتها على كتفه . ولكن إظهار الانفعال أمر كان يضايقه ولا يحتمله ، وألفى نفسه يربت على ظهرها كما يفعل المرء مع طفل يسعل ، وقال لها :

— ياصديقتى المسكينة ، كفى ، كفى ... كونى عاقلة .

وأجابته : أوه ! دعنى أبك قليلا ، فذلك يريحنى .

وقال : المهم هو أن نعرف ما تنوين عمله الآن .

— ما ذا تريد منى أن أفعل ؟ إلى أين تريدنى أن أذهب ؟ لمن تريدنى أن أبث همى .

— وأبويك ...

— إنك تعرفهما جيداً .. معنى ذلك أن ألقى بهما فى اليأس . لقد صنعا كل شىء من أجل إسعادى .

— و « دوفيه » ؟

— لن أجرؤ أبداً على مقابلته . إنه طيب القلب للغاية . لا تتصور إنى لا أحبه إذا عرفت الحقيقة ... إذا عرفت ... ! قل إنك لا تحتقرنى .

— على العكس من ذلك يا عزيزتى ، الأمر على العكس تماما . كيف يمكنك أن تتصورى ذلك ؟ وراح يربت على ظهرها من جديد .

— الحقيقة إنى وأنا بجانبك يزول خجلى .

— كم من الأيام قضيتها هنا ؟

— لم أعد أعرف . عشرة فقط لأنتظرك ، وكنت أحيانا أشعر بأنى لم أعد أحتمل البقاء ، وأعتقد الآن إنى لن أستطيع البقاء هنا يوما آخر .

وعادت تجهش بالبكاء ولكن بصوت مكتوم ، وقالت .

— خذنى من هنا . خذنى من هنا .

كان ادوارد يشعر بالحرج أكثر وأكثر . وقال لها :

— استمعى إلىّ يا لورا ... اهدئى . اا ... الآخر ... إنى لا أعرفه حتى اسمه ...

وقالت لورا : أين برنارد ؟

— برنارد سيصعد بعد لحظة . هيا ! انهضى . يجب ألا يراك على هذه الحال . شيئا من الشجاعة ، سنخترع شيئا ما ، أعدك بذلك . جففى عينيك فلا جدوى من البكاء . انظرى إلى نفسك فى المرآة . وجهك محتقن . ألقى بعض الماء على وجهك . عندما أراك تبكين أعجز عن التفكير ... ها هو ذا ، إنى أسمع وقع قدميه .

وذهب ادوارد إلى الباب وفتحه ليدخل برنارد وسأله بينما كانت لورا تدير ظهرها لهذا المشهد لتصلح زينتها وتعيد مظهر الهدوء إلى ملامحها .

— والآن يا سيدى هل يمكننى أن أسألك متى أستطيع استرداد أشيائى ؟

قال ذلك وهو يحدق فى « برنارد » بينما ارتسمت ابتسامة ساخرة على شفتيه :

وأجابه « برنارد » : حالما تطلب منى ذلك ياسيدى ، ولـكن يجب أن أعترف أنك لست فى حاجة إلى هذه الأشياء مثل حاجتى أنا إليها . وأنا متأكد أنك ستفهم معنى كلامى هذا عندما تعلم قصتى . اعلم ياسيدى أننى منذ هذا الصباح وأنا بلا مأوى ، بلا بيت ، بلا عائلة . وأنى كنت موشكا أن ألقى بنفسى فى الماء إن لم أصادفك . لقد تبعتك طويلا هذا الصباح وأنت تتحدث مع صديق « أوليفييه » ، وكان قد كلمنى عنك كثيراً ، وودت أن أحدثك وكنت أبحث عن عذر ، عن وسيلة... وعندما رأيتك ترمى إيصال الأمانات حمدت الأقدار . أوه ! لا تحسبنى لصا . إن كنت قد استحوذت على حقيبتك فذلك لأنى كنت أود أن أوجد نوعا من الصلة بيننا .

قال « برنارد » كل ذلك مرة واحدة وكان يظهر فى سياق حديثه وعلى ملامحه انفعال غير عادى يشبه الطيبة ، وبدا من ابتسامة « ادوارد » أنه يجده جذابا وقال له :

— والآن ؟

وفهم « برنارد » أنه بدأ يكسب قلب « ادوارد » ، وقال :

— والآن ، ألم تكن فى حاجة إلى سكرتير ؟ لا يمكن أن أتصور أن أفشل فى عمل كهذا ما دمت أقوم به وأنا مغتبط .

وهنا بدأ « ادوارد » يضحك : ونظرت « لورا » إليهما وقد وجدت تسلية فى هذا الموقف .

وأجاب « ادوارد » : سأبحث الأمر . عد غداً لمقابلتى فى هذه الساعة ، فى هذا المكان بالذات ، إذا سمحت مدام « دوفيه » بذلك ... لأنه يجب أن أقرر أشياء كثيرة معها هى الأخرى . إنك فى فندق على ما أتصور ؟ لا يهمنى أن أعرف فى أى مكان . هذا لا يهمنى فى شىء ، إلى اللقاء غدا .

ومد له يده .

قال برنارد :

— أتسمح لى ياسيدى أن أذكرك قبل أن أتركك بأن مدرس بيانو عجوز يقطن فى شارع (فوبورج سانت هونوريه) ، واسمه على ما «أعتقد لابيروز» يسعده كثيرا أن تزوره .

— حسنا ، هذا حسن بالنسبة لبدايتك فى وظيفتك ، وأرى أنك تفهم طبيعة عملك كما يجب .

— إذن ... أحقا توافق ؟

— سنتكلم فى ذلك غدا ... وداعا .

وبعد أن قضى ادوارد وقتاً عند لورا ذهب لزيارة عائلة مولينيه ، وكان يرجو أن يقابل أوليفييه إذ كان يرغب فى أن يحدثه عن برنارد ولكنه لم يجد إلا بولين بالرغم من إطالته زيارته .

وكان أوليفييه فى نفس هذه الساعة ، فى آخر النهار ، قد استجاب لدعوة ملحة سلمها له أخوه . فذهب لمقابلة مؤلف (القضيب الثابت) أى الكونت دى باسافان .

الفصل الخامس عشر

قال « روبير دى باسافان » لأوليفييه عندما رآه يدخل غرفته :

— خشيت ألا يكون أخوك قد نقل إليك رسالتى .

وأجابه « أوليفييه » وهو يتقدم نحوه بخجل سائرا تقريبا على أطراف قدميه :

— هل تأخرت ؟

وكان « أوليفييه » ممسكا بقبعته فى يده فأخذها منه (روبير) وقال له :

— أترك قبعتك هذه . كن على حريتك . ستجد راحتك على هذا المقعد . لست متأخرا ، والساعة تشهد بذلك . إلا أن رغبتى فى أن أراك سبقت الساعة . هل تدخن ؟

قال أوليفييه وهو يبعد علبة اللفائف التى مدها له الكونت دى باسافان :

— شكراً .

رفض خجلا لأنه كان فى الواقع يشعر بحاجة ملحة إلى تدخين هذه اللفائف العنبرية الرفيعة ، وهى روسية ولاشك ، وكان يراها مصفوفة فى العلبة فى نظام جميل :

— نعم إننى سعيد لأنك استطعت الحضور . كنت أخشى أن تعوقك مذاكرتك استعداداً للامتحان . متى ستؤدى امتحانك ؟

— بعد عشرة أيام سأؤدى الامتحان التحريرى . ولكنى لم أعد أذاكر كثيرا . وأعتقد أننى مستعد للامتحان وإن كنت أخشى أن أتقدم له وأنا متعب .

— هل ترفض أن تشغل نفسك منذ الآن بشىء آخر ؟

— لا ... إن لم يكن هذا العمل يقتضى جهداً كبيراً .

— سأشرح لك لماذا طلبت منك الحضور ، أولا لأنه يسرنى أن أراك ، كنا قد بدأنا حديثا ـ ذلك المساء ـ فى ردهة المسرح أثناء الاستراحة . لقد اهتممت جدا بما قلته لى ذلك اليوم . إنك لا تذكر هذا الحديث دون شك ؟

وقال أوليفيه : — بلى ، بلى ... (وكان يعتقد أنه لم يقل إلا سخافات فى ذلك اليوم) .

— ولكنى اليوم أريد أن أطلب منك شيئا محددا ... إنك ولاشك تعرف يهوديا إسمه دورمير . أليس من زملائك ؟

— لقد تركته منذ لحظة .

— آه ! أتتقابلان كثيرا ؟

— نعم . كنا متفقين على أن نتقابل فى اللوفر لنتناقش فى شأن مجلة سيرأس تحريرها .

وأطلق روبير ضحكة عالية ومتكلفة وقال :

— آه ! آه ! آه ! رئيس التحرير ... إنه يبالغ ! إنه يتسرع ... أحقا قال لك ذلك ؟

— كلمنى عن هذا الأمر منذ وقت طويل .

— نعم فكرت فى هذا الأمر منذ وقت طويل . لقد صادف أن سألته ذات يوم إذا كان يوافق على قراءة بعض أصول المقالات معى ، وهذا ما أسماه فى الحال : عمل رئيس التحرير . وقد تركته يتكلم ... هذا من طبيعته ، أليس هذا رأيك ؟ ياله من شخص ! إنه يحتاج إلى أن يفهمه المرء على حقيقته ... أحقا لا تدخن !

رد أوليفيه وهو يتقبل اللفافة هذه المرة شاكرا : بلى ، ما دمت تصر .

— اسمح لى أن أقول لك يا أوليفيه ... أحب أن أناديك بأوليفيه ! على أية حال لا أستطيع أن أناديك يا سيد إذ أنك حديث السن جدا ثم أن صلتى بأخيك قوية جدا بحيث أستطيع معها أن لا أناديك (مولينيه[1]) . حسنا . اسمح لى يا أوليفيه أن أقول لك إن ثقتى فى ذوقك أكبر بكثير من ثقتى فى ذوق سيدى

---

(١) جرى العرف فى فرنسا بأن يخاطب المرء أترابه بالاسم الصغير ، أى أول اسم ، وأن يستعمل اسم الأسرة مع من بينه وبينهم فارق فى السن أو فى المركز الاجتماعى ، أى من بينه وبينهم كلفة .

دورمير . أتقبل أن تشرف على تحرير هذه المجلة ! سوف يكون ذلك الإشراف بإرشادى إلى حد ما بطبيعة الحال ، على الأقل فى الفترة الأولى . وأنا أفضل ألا يذكر إسمى على غلاف المجلة ، وسوف أشرح لك الأسباب فيما بعد ... هل لك فى كأس من نبيذ البورتو ! عندى نوع فاخر منه .

والتقط من فوق صوان صغير بجانبه ، على مسافة تدركها يده ، زجاجة وكأسين ثم ملأهما .

— حسنا ما رأيك !

— إنه ممتاز فعلا .

قال روبير محتجا وضاحكا :

— لا أسألك عن البورتو ، ولكنى أسألك عما كنت أحدثك فيه منذ برهة .

وتظاهر أولفييه بعدم الفهم . كان يخشى أن يتسرع فى القبول وأن يظهر فرحته ، واحمر وجهه قليلا ، وقال متلعثما :

— إن امتحانى لا ...

وقاطعه روبير قائلا : لقد ذكرت لى منذ قليل أنه لا يشغلك كثيرا . ثم إن المجلة لن تظهر فى الحال . وإنى لأسأل نفسى : أليس من الأفضل تأجيل ظهورها حتى دخول المدارس ؟ — إلا أننى كنت مهتما على أية حال — بأن آخذ رأيك فى الأمر . يجب أن نعد بضعة أعدا قبل شهر اكتوبر ، ومن الضرورى أن نتقابل كثيرا فى هذا الصيف لنتكلم فى الأمر . ماذا تنوى عمله أثناء هذه الأجازة ؟

— أوه ! لا أعرف على وجه التحديد . من المحتمل أن يذهب والداى إلى مقاطعة نورماندى كما يفعلان كل صيف .

— وهل لابد أن تصحبهما ! ... أتقبل أن تنفصل عنهما قليلا ! ...

— لن توافق والدتى على ذلك .

— سوف أتناول العشاء هذا المساء مع أخيك ، فهل تسمح لى أن أحدثه فى الأمر ؟

— أوه ! لن يصحبنا « فنسان » — ثم أردف لما تبين أن هذه الجملة لاتتناسب مع السؤال :

— ثم إن هذا لن يجدى فى شىء .

— وإذا ما وجدنا أعذارا مقبولة تقنع بها الوالدة .

ولم يجب أوليفييه بشىء . كان يحب أمـه بحنان . ثم أن اللهجة الساخرة التى تحدث بها روبير عن أمه لم تعجبه . وأدرك روبير أنه تسرع أكثر مما يجب ، فقال ليغير مجرى الحديث :

— أيعجبك مشروب البورتو ، أتريد كأساً أخرى .

— لا ، لا شكرا ... وإن كان ممتازا .

— نعم لقد أدهشنى صحة حكمك على الأشياء عندما تقابلنا فى ذلك المساء . أليس فى نيتك أن تهتم بالنقد الأدبى .

— لا .

— والشعر ، عرفت أنك تنظم أشعارا .

— واحمرّ وجه أوليفييه من جديد .

— نعم لقـد باح أخوك بسرك . ولا شك أنك تعرف شباناً آخرين يمكنهم أن يساهموا ... يجب أن تصبح هذه المجلة مكانا تلتقى فيه آراء الشباب ، هذا هو الهدف من وجودها . كنت أريد أن تساعدنى فى تحرير تقرير أو بيان يوضح — دون مبالغة فى التحديد — الاتجاهات الحديثة ، وسنتكلم مرة أخرى فى هذا الأمر . يجب أن نختار فى الكلام صفتين أوثلاث صفات ، ولا نختار كلمات حديثة وإنما كلمات قديمة الاستعمال نحملها معانى جديدة جدا ونفرض استعمالها . لقد ظهرت بعد فلوبير كلمتا : عديد و موزون وظهرت بعد الـكونت دى ليل كلمتا : مراسم و نهائى .

مارأيك فى كلمة حيوى ... ، لاشعورى وحيوى ... لا...بدائى ، قوى وحيوى!

وتحمس أوليفييه وأجاب : فى رأيى أنه يمـكننا أن نجـد أحسن من ذلك وكان أوليفييه يبتسم دون أن تبدو عليه الموافقة التامة على مايسمعه .

— هيا . ألك فى كأس أخرى من البورتو .

— أرجوك ألا تملأها .

— فى رأيى أن ضعف المدرسة الرمزية ناتج عن أنها لم تبتكر إلا (استطيقا) جديدة . لقد أتت كل المدارس الأدبية الكبرى بأسلوب جديد ، ومفهوم جديد للأخلاق ومواصفات جديدة ووجهة نظر جديدة فى فهم الحب وفى السلوك . أما الأديب الرمزى فقد تصرف بطريقة أخرى بسيطة : لم يسلك أى مسلك فى الحياة لم يحاول أن يفهمها بل أنكرها وأدار ظهره لها . وهذا تصرف سخيف ، أليس كذلك ، كانوا أناسا بلا شهية ، بلا نهم ، لم يكونوا مثلنا ... أليس هذا رأيك .

وكان أوليفييه قد شرب كأسه الثانية من البورتو ودخن لفافته الثانية ، وأغمض عينيه نصف إغماضه وهو شبه مضطجع فى مقعدة الوثير ، لايقول شيئا وإنما يعبر عن موافقته بإيماءات خفيفة من رأسه . وفى هذه اللحظة سمعا صوت الجرس ، ودخل خادم قدم بطاقة لروبير . وتناول روبير البطاقة وألقى عليها نظرة ثم وضعها قريبا منه على مكتبه وقال :

— حسنا . ارجوه أن ينتظر لحظة — وخرج الخادم . وقال روبير :

— اصغ إلىّ ياعزيزى أوليفييه . إنى أحبك كثيرا ، وأعتقد أننا سوف نتفاهم ، ولكن هذا شخص لابد أن أستقبله ، وهو يصر على أن يقابلنى بمفردى .

وكان أوليفييه قد نهض واقفا .

— سأطلب منك الخروج عن طريق الحديقة إذا سمحت ... آه ! قبل أن أنسى ! أيسرك أن تحصل على نسخة من كتابى الجديد ؟ عندى الآن نسخة طبعت فى هولاندا ...

وأجابه أوليفييه : لقد قرأته ولم أنتظر حتى تهديه إلىّ . ولم يكن الكتاب قد راق أوليفييه كثيرا ، وحاول أن يتصرف بطريقة لطيفة وليس فيها تملق رخيص .

ترى هل أحس روبير فى عبارته شيئا من الاستخفاف ؟ وأضاف بسرعة :

— أوه ! لا تحاول أن تكلمني في هذا الأمر . لو قلت لي أن الكتاب يعجبك ، لارتبت في ذوقك أو في صدقك . لا ، إنني أعرف أكثر من أي شخص آخر مايعوز هذا الكتاب . لقد كتبته بسرعة فائقة . والحقيقة أنني كنت أفكر — طوال الوقت الذي استغرقته كتابته — في مؤلفي التالي . آه ! أما عن هذا الكتاب الجديد فإنني مهتم به ، مهتم به جدا . سوف ترى ، سوف ترى ... إنني آسف ولكن يجب أن تتركني الآن ... اللهم إلا ... ولكن لا ، لا ، لم يعرف كل منا الآخر معرفة كافية بعد ، ثم أن والديك ينتظرانك على العشاء . إلى اللقاء إلى اللقاء . إلى لقاء قريب .. سوف أكتب إسمك على الكتاب ، إسمح لي بذلك .

وكان قد نهض واقترب من مكتبه ، وبينما كان ينحني ليكتب ، تقدم أوليفييه خطوة إلى الأمام ونظر بطرف عينه إلى البطاقة التي أحضرها الخادم منذ قليل وكان عليها هذا الاسم « فكتور سترو فيلهو »

ولم يكن يعرف هذا الإسم .

ومد روبير يده إلى أوليفييه بكتاب القضيب الثابت وبينما كان أوليفييه يتأهب لقراءة الإهداء ، قال له باسافان وهو يدفع بالكتاب تحت إبطه :

— سوف تقرأ ذلك فيما بعد .

ولم يقرأ أوليفييه العبارة إلا وهو في الشارع ، وهي مأخوذة من الكتاب نفسه ومكتوبة على شكل إهداء .

(تكرم يا أورلاندو واخط بضع خطوات ، لست بعد متأكداً من أن أجرؤ تماما على فهمك .)

وأضاف تحت هذه العبارة .

إلى أوليفييه مولينييه .

من صديقه

الكونت روبيردي باسافان

وهي عبارة مبهمة جعلت أوليفييه يفكر في مراميها ، إلا أنه كان له على أي حال مطلق الحرية في أن يؤولها بالمعنى الذي يحلو له .

وعاد أوليفييه إلى بيته لحظة خروج ادوارد منه . كان قد يئس من لقائه .

الفصل السادس عشر

كانت ثقافة فنسان المادية تحول بينه وبين الإيمان بما فوق الطبيعة مما أتاح للشيطان فرصا كثيرة معه . ولم يكن الشيطان يهاجم فنسان رأسا وإنما اتخذ لذلك سبلا ملتوية . ومن براعة الشيطان أنه يصور لنا فشلنا على أنه إنتصار .

لقد اعتبر فنسان مسلكه مع لورا نصرا لإرادته على غرائزه لأنه ــ وهو الطيب بطبعه ــ اضطر أن يتصنع ويتشدد ليبدو قاسيا معها .

وعندما أحاول أن أمعن النظر فى تطور سلوك فنسان فى هذه المغامرة أتبين فيها مراحل مختلفة وأحب أن أذكرها لأوضح الأمر للقارئ :

أولا : فترة الدوافع النبيلة وتمتاز بالتمسك بالشرف والأمانة ، والحرص على التكفير عن خطيئة ارتكبت . وفى موضوع فنسان يظهر ذلك فى شعوره بالتزام أدبى ، هو أن يخصص للورا المبلغ الذى ادخره أبواه بعناء ليعاوناه على مواجهة الفترة الأولى من حياته العملية . أليس فى هذا معنى التضحية ؟ أليس هذا الدافع نبيلا كريما خيرا ؟

ثانياً : فترة القلق والوساوس والشك فى ألا يكون المبلغ كافيا ومعنى هذا التأهب للاستسلام للشيطان عندما يلوّح له بإمكان مضاعفة المبلغ .

ثالثا : فترة الثبات وقوة الروح والحاجة إلى الشعور بالجلد أمام الملمات بعد خسارة المبلغ . وقوة الروح هذه هى التى جعلته يعترف للورا بخسارة المبلغ فى اليسر ، وهى التى سوف تجعله يقطع علاقته بها فى هذا الظرف .

رابعاً : التخلى عن الدافع النبيل واعتباره نوعا من المغالطة وذلك على ضوء الخلق الجديد الذى كان على فنسان أن يبتكره ليبرر مسلكه لأنه سيبقى كائنا خلقيا ولن يغلبه الشيطان إلا حين يزوّده بأسباب تبرئه أمام نفسه: نظرية الوجود والكل فى اللحظة ، والبهجة المباشرة بلا باعث .

خامسا : نشوة الرابح . الاحتقار للاعتدال . شعوره بالسيطرة وعند هذا يكون الشيطان قد انتصر وعند هذا الحد أيضا يصبح الشخص ــ الذى يتصور أنه حر ــ

لعبة فى يد الشيطان . ولذا لن يقف الشيطان حتى يسلم فنسان أخاه إلى ذلك اللعين باسافان

ومع هذا فليس فنسان شريراً ، كل ما يعمله مهما يكن ـ يدعه ساخطا متبرما

ولنضف إلى ماقلنا بضع كلمات .

أعتقد أننا ندعو غربة كل ثنية من ثنايا السعادة الموهومة التى تحس النفس إزاءها بأنها غريبة . فالسعادة الموهومة تحرم النفس من كل عماد وقد تكون إحدى الفضائل خليقة بالقدرة على الصمود ، ولـكن الشيطان ـ قبل أن يوجه هجومه ـ يبعد هذه الفضيلة . ولا شك أنه لولا وجود لورا وفنسان تحت سماوات جديدة ، بعيدين عن ذويهما وعن ذكريات ماضيهما وعن كل مايربطهما بنفسيهما ، لولا هذا لما استسلمت لورا لفنسان ، ولما حاول فنسان إغراءها. ولا شك أنه قد خيل لهما أن ما ارتكباه ـ هناك ـ لايدخل فى نطاق مايحسب حسابه . وتبقى أشياء كثيرة يمكن قولها ، ولـكن ماسبق قوله فى هذا الصدد يكفى ليوضح لنا أمر فنسان .

وكان فنسان أيضا يشعر وهو مع ليليان بأنه فى غربة ، قال لها فى ذلك المساء :

ـــ لاتسخرى منى . إنى أعرف أنك لن تفهمينى، ومع ذلك أشعر بحاجة شديدة إلى أن أحدثك وكأنك تفهمينى ، لأننى منذ الآن لن أستطيع أن أقصيك من فـكرى .

ووضع رأسه فى حب على ركبتى عشيقته وهو راقد عند قدميها ، واضطجعت هى على أريكة منخفضة وراحت تداعب رأسه بحنان .

وأردف فنسان : ما كان يحزننى هذا الصباح ... نعم ، ربما كان شعورى بالخوف. أتستطعين أن تبقى جادة لحظة ! أيمكنك أن تنسى لحظة لـكى تفهمينى ، ليس معتقداتك لأنه لامعتقدات لك ـ ولـكن أن تنسى أنك لاتؤمنين بشىء ! أنا أيضا لم أكن أعتقد فى شىء كما تعرفين ، كنت أتصور أنى لن أعتقد فى شىء... لن أفـكر فى شىء إلا فيك وفى نفسى ، وفيما يمكن أن أكونه معك ، فيما سأكونه بفضلك ...

وقاطعته بقولها : سيحضر روبير فى السابعة ، لا أقول ذلك لـكى تسرع ، ولـكن خوفا من أن يفاجئنا فى اللحظة التى يصبح فيها حديثك ممتعا. لأنى أعتقد أنك

تؤثر ألا تستمر في الحديث أمامه . عجيب أن تتصور اليوم أن عليك اتخاذ كل هذه الاحتياطات . إنك كالأعمى الذى يتحسس بعصاه كل مكان قبل أن يضع قدمه فيه ، وأنت ترى مع ذلك أنى أحتفظ بمظهرى الجاد . لماذا لاتثق فى نفسك ؟

وأجاب فنسان إننى منذ عرفتك أشعر بثقة غير عادية ، أشعر بأنى أستطيع عمل الكثير . وأنت ترين أنى أوفق فى كل شيء غير أن هذا هو بالذات مايخيفنى . لا - صه ... لقد فكرت طوال النهار فيما حدثتنى فيه عن غرق الباخرة (لابورجونى) وعن قطع أيدى من كانوا يحاولون الصعود إلى زورق الإنقاذ ، يبدو لى أن شيئا مايريد الصعود إلى زورق — لقد استعملت تشبيهك لكى تفهمينى - شيء ماأريد أن أمنعه من الصعود إلى زورقى ...

— وهل تريد منى أن أساعدك على إغراقه أيها الجبان ... ! وواصل كلامه دون أن ينظر إليها

- شيئا أبعده ، ولكنى أسمع صوته ... صوتا لم تسمعيه أبدا ، صوتا كنت أسمعه فى طفولتى ...

— وماذا يقول ذلك الصوت ! إنك لاتجرؤ على تكراره ، هذا لايدهشنى . إنى أراهن أن هناك مواعظ دينية فيما تتحدث به . أليس كذلك !

- ولكن ، حاولى أن تفهمينى يا ليليان الوسيلة الوحيدة أمامى لأتخلص من هذه الأفكار هى أن أقولها لك ، أما إذا سخرت منها فسوف أحتفظ بها لنفسى وسوف تسممنى .

فأجابته بلهجة المستسلمة : تكلم إذن ، ثم أردفت لما رأته يسكت ويخفى جبهته فى طيات ثوبها وكأنه طفل - هيا ! ماذا تنتظر !

وأمسكت به من شعره وأجبرته على أن يرفع رأسه ، وقالت :

- إنه يحمل هذا محمل الجد حقا ! لقد شحب لونه ، اسمع ياصغيرى ، إن شئت أن تكون كالأطفال ، فهذا لايناسبنى على الإطلاق . على المرء أن يعرف مايريد ، ثم إنى لاأحب الغشاشين ، إذا أنت حاولت - فى مداراة - أن تصعد إلى زورقك من لامكان له فيه فإنك تغش . إنى أريد أن ألعب معك ولكن لعبا نزيها ، وإنى أصنع

هذا لأساعدك على النجاح . أعتقد أن فى إمكانك أن تصبح شخصا مهما جدا ، عظيم القدر . وأشعر أنك تمتاز بذكاء كبير وبقوة هائلة ، وأريد أن أساعدك . هناك كثيرات من النساء يتسببن فى إضاعة مستقبل من يحببنه ، أما أنا فأريد أن يكون الأمر على عكس ذلك تماما . سبق أن أخبرتنى برغبتك فى أن تترك الطب لتتفرغ لأبحاثك فى علم الأحياء ، وكنت تأسف لعدم وجود مال كاف لذلك معك ... لقد كسبت لتوك فى اللعب خمسين ألف فرنك ، وهذا مبلغ له قيمة . ولكن عدنى بأنك لن تلعب بعد الآن . وسوف أضع تحت تصرفك كل المال الذى ستحتاجه بشرط أن تكون لك الشجاعة الكافية فى أن تسخر ولا تبالى إذا ماقال لك قائل : إن امرأة تعولك !

ونهض فنسان واقترب من النافذة . واستطردت ليليان :

ـ أولا ، ولكى ننتهى من موضوع لورا أعتقد أن فى الإمكان أن ترسل لها مبلغ الخمسة آلاف فرنك الذى وعدتها به ، إنك تملك الآن مالا ، فلماذا لاتفى بوعدك؟ أهى الرغبة فى أن تستمر فى شعورك بالإثم حيالها ! هذا لايعجبنى ، فأنا أنفر من هذه التصرفات الخشنة ، إنك لم تتصرف فى هذا بأمانة ، وبعد أن تسدد المبلغ سوف نذهب لقضاء الصيف فى مكان ملائم لأبحاثك ، لقد حدثتنى عن بلدة روسكوف ولكننى أفضل موناكو لأننى أعرف أميرها حق المعرفة ، وسوف يصحبنا فى يخته خلال رحلاته ، كما يمكن أن يجعلك تعمل فى معهد الأحياء الذى يملكه .

وسمع فنسان هذا الكلام ساكتا ، وكان يؤسفه أن يعترف لليليان ـ ولم يرو لها ذلك إلا فيما بعد — أنه مرقبيل حضوره بالفندق الذى تنزل فيه لورا ـ حيث انتظرته يائسة ـ وإذ كان يشعر بالحاجة إلى تبرئة ذمته فقد وضع ذلك المبلغ فى مظروف ـ ذلك الذى لم تعدلورا تعتمد عليه ـ وعهد به إلى صبى ليوصله إليها ، ثم انتظر فى مدخل الفندق ليتأكد من أن الصبى أسلمه لصاحبته ، وعاد الصبى بعد لحظات وفى يده المظروف وكانت لورا قد كتبت عليه :

« لقد فات الأوان » .

دقت « ليليان » الجرس وأمرت بأن يحضروا لها معطفها . ولما خرجت الخادمة قالت :

— نسيت أن أقول لك قبل أن يحضر « روبير » بأن تكون على حذر منه إذا ما اقترح عليك طريقة لاستثمار مبلغ الخمسين ألف فرنك ـ إنه على ثراء كبير ولكنه دائماً فى حاجة إلى المال . صه ، أعتقد أننى أسمع صوت نفير سيارته . لقد حضر قبل ميعاده بنصف ساعة ، ولكن لا بأس ... أما عن الموضوع الذى كنا نتكلم فيه ...

وظهر « روبير » وكان يقول أثناء دخوله ، حضرت مبكراً لأننى اعتقدت أننا سنجد متعة إذا تناولنا العشاء فى ضاحية « فرساى » . أيناسبكما هذا ؟ وأجابته « ليدى جريفيث » بقولها : لا ، لأن هذه المنطقة لا تروقنى . لنذهب بدلا من ذلك إلى ضاحية « رامبوييه » . وأمامنا وقت كاف لذلك . سنتناول هناك طعاماً أقل جودة ولكننا سنتحدث حديثاً أشهى . أريد أن يروى فنسان حكاياته عن الأسماك فهو يعرف عنها قصصاً مدهشة ، ولا أدرى إذا كان ما يقصه واقعى أم لا ، ولكنه مع ذلك يسلى أكثر مما تسلى أروع قصص العالم .

قال فنسان : ربما لا يشاطرك القصصيون رأيك هذا ...

وقال روبير ـ وكان يمسك فى يده بجريدة مسائية : أتعرفان أن برونيار قد عين مدير إدارة بوزارة العدل ؟ وأردف وهو يلتفت نحو فنسان : حان الوقت ليحصل والدك على وسام .

ورفع فنسان كتفيه . وأردف روبير ناسافان : يا عزيزى فنسان أتسمح لى أن أخبرك بأنك ستؤلمه إن لم تطلب منه هذه الخدمة الصغيرة ، هذه الخدمة التى سيسعده جداً أن يرفض أداءها .

ورد فنسان : ولماذا لا تبدأ بطلب ذلك الوسام لنفسك ؟

وتصنع روبير الامتعاض وقال :

— لا . إننى أحاول ألا تعلونى الحمرة ، وحتى ولو كانت حمرة وسام فى عروة سترتى . ثم أردف وهو يلتفت نحو ليليان ، أتعرفين أنهم نادرون من يبلغون الأربعين فى أيامنا دون أن يصابوا بالجدرى أو دون أن يحصلوا على وسام !

وابتسمت ليليان وهى ترفع كتفيها وقالت :

— روبير يوافق على أن يعترف بكبر سنه فى نظير أن يقول دعابة ... قل لى : هل هذه العبارة فقرة من فقرات كتابك ، سوف تكون فكرة جديدة .. انزلا ، سأرتدى معطفى وألحق بكما .

وقال فنسان لروبير وهما يهبطان السلم :

— كنت أعتقد أنك لم تعد ترغب فى أن تراه .

— من ؟ برونيار ؟

— أترى أنه سخيف إلى هذا الحد ...

وأجاب روبير باسافان وهو يتأخر فى الرد ، إذ رأى ليدى جريفيث آتية ، وكان يأمل أن تسمع ما يقوله فأوقف فنسان على درجة السلم :

— أحب أن تعرف .. لقد ثبت لى أن جميع أصدقائى — بعد معاشرة طويلة لهم — على قدر من البلاهة . وأؤكد لك أن برونيار قد صمد فى هذا الامتحان أكثر من غيره .

وأجابه فنسان : ربما أكثر منى ؟

— وهذا لم يمنعنى من أن أبقى أوفى صديق لك . وأنت ترى ذلك .

وقالت ليليان وكانت قد لحقت بهما : أهذا ما يسمونه فى باريس فن الدعابة ؟ كن على حذر يا روبير فإن التظرف سريع الذبول .

وأجابها روبير بقوله : اطمئنى يا عزيزتى ، الـكلمات لا تذبل إلا بعد طبعها فى الـكتب .

واتخذوا أماكنهم فى السيارة واستمر حديثهم ظريفا بحيث لاأرى داعيا لترديده هنا . وجلسوا حول مائدة فى شرفة فندق أمام حديقة لفها الليل بظلاله . وبدأ حديثهم يتثاقل . ودفعت ليليان وروبير صاحبنا فنسان إلى الـكلام فلم يعد يتحدث أحد سواه .

الفصل السابع عشر

كان روبير قد قال : كنت خليقا بأن أزيد اهتمامى بالحيوان لو قللت اهتمامى بالناس .

وأجابه « فنسان » : ربما اعتقدت أن الإنسان يختلف كثيراً عن الحيوان . ولـكن لم يظهر اكتشاف فى علم الحيوان إلا وكان له صدى فى معرفة حقيقة البشر . كل هذه الأمور تتقارب وتتماسك ، وفى رأيى أنه لا يجوز للروائى المهتم بعلم النفس أن يتغاضى عما يحدث فى الطبيعة وأن يتجاهل نواميسها . وقد قرأت فى مذكرات الأخين « جونـكور » التى أعطيتها لى وصفا لزيارة قاما بها للقسم الخاص بالتاريخ الطبيعى بحديقة الحيوانات ، وهما يأسفان فيها على افتقار الطبيعة إلى الخيال . وهما بهذا التطاول يظهران حماقتهما وعدم قدرتهما على الفهم . فما أعظم تنوع الطبيعة على عكس ما يقولان ! يبدو أن الطبيعة سلـكت كل السبل لتـكون حية ولتستطيع الحركة وأنها استنفدت كل ما تسمح به المادة وقوانينها . وما أعظم الدرس الذى يمكن أن نتعلمه من الحفريات . وما أعظم الاقتصاد الذى أبقى بعض صور الكائنات وأتى على البعض الآخر . وعندما أتأمل الصور الباقية أفهم لماذا اندثرت الصور الأخرى !

وعلم النبات بدوره يعلمنا الـكثير ، فعندما أفحص عود نبات أجد تحت كل ورقة من أوراقه برعما يمكن أن يثمر بدوره فى العام التالى ، وعندما ألاحظ أن اثنين فقط من هذه البراعم الـكثيرة سينموان ، وأنه بنموهما هذا سيقضيان على البراعم الأخرى بالموت ، فإننى لا أستطيع إلا أن أومن بأن الأمر على هذا المنوال أيضا فى عالم الإنسان ، فالبراعم التى تنمو هى التى توجد عادة فى أبعد مكان عن أرومة الساق وتقليم الساق ــ أو ثنيها ــ كفيل بإجبارها على تغذية البراعم المجاورة لها والتى كانت تبقى خامدة لولا ذلك الإجراء الذى يدفع العصارة إليها لتغذيتها. وبهذه الوسيلة تثمر أكثر النباتات تخلفا عن الإثمار ، ولولا ذلك ، ولو تركت وشأنها لما أعطت غير الأوراق.

آه ! إن البستان حقا لمدرسة عظيمة ! وإن البستانى لخليق بأن يكون مربيا عظيما .

وإننا لنتعلم أشياء كثيرة إذا ما عرفنا كيف نلاحظ ما يجرى حولنا فى حظائر الدواجن أو الكلاب أو فى جحور الأرانب أو فى معرض الأحياء المائية ، أو فى حظيرة الماشية . إننا لنتعلم منها أكثر مما نتعلمه من الكتب أو من مجتمع الناس حيث يشوب الزيف كل شىء .

ثم تكلم « فنسان » عن نظرية « الانتقاء » ، وعرض الطريقة المألوفة عند النباتيين الذين ينتقون أكثر الأنواع احتمالا ليحصلوا على أجود البذور . وتحدث عن نزوة ذلك البستانى الجرىء الذى تعمد — وكأنه أراد ذلك على سبيل التحدى — أن يختار أضعف الأصناف فإذا به يحصل على نتائج باهرة .

ولم يكن « روبير » يصغى إليه إلا بأذن واحدة ، كأنه لا ينتظر من حديث كهذا إلا الملل . ولكنه لم يعد يحاول مقاطعته . وكان اهتمامه الزائف هذا يسعد « ليليان » وحسبته تكريما لعشيقها .

وقالت له ليليان : هل لك أن تحدثنا عما قصصته علىّ منذ أيام عن الأسماك وعن مدى تجاوبها مع درجة ملوحة مياه البحر ... ألم يكن الحديث فى ذلك ؟

وأردف فنسان : إن درجة الملوحة هذه ثابتة بشكل عام، باستثناء مناطق قليلة . والأحياء المائية لا تحتمل عادة إلا تغييرات طفيفة فى هذه الكثافة . ولكن المناطق التى أتكلم عنها ليست مهجورة على أى حال ، وهى معرضة لعمليات تبخير كبيرة تزيد درجة الملوحة . وثمة مناطق أخرى تصل إليها باستمرار كميات من المياه العذبة تخفف من كثافة الملح أو بمعنى أصح تجرد مياه البحر من ملوحتها ، وهى مناطق قريبة من مصاب الأنهار الكبيرة ، أو مناطق تصلها تيارات قوية كالمنطقة التى تسمى «بجولف ستريم». وفى هذه المناطق تضعف الحيوانات المسماة بـ « ستنيوهالان » (Sténohalins) وقد تنفق لأنها تكون عندئذ عاجزة عن الدفاع عن نفسها ضد الحيوانات المسماة « أوريهالان » (Euryhalins) ، فلا مفر من أن تصبح فريسة لهذه الأخيرة التى تفضل أن تعيش عند مصاب التيارات الكبيرة ، حيث تتغير نسبة

كثافة الماء . وتحتضر الحيوانات المسماة بالـ (ستينوهالان : Sténohalins) . ولقد فهمتما دون شك أن حيوانات الستينوهالان هذه هى التى لا تحتمل إلا درجة ملوحة ثابتة بينما الـ (أوريهالان) …

وقاطعه روبير قائلا : هى التى جردت من ملحها — وكانت عادته أن ينسب لنفسه كل فكرة — ولم يكن يهمه فى أية نظرية إلا ما يمكن أن يستخدمه .

وأضاف فلسان بلهجة جادة : وأغلب هذه الحيوانات مفترسة .

وصاحت ليليان بحماسة : ألم أقل لك أن ما يرويه أفضل من جميع القصص ؟ وبدا فلسان وكأن سحنته قد تبدلت ، وكأن هذا الفوز لم يؤثر فيه ، فبدا مظهره جاداً للغاية ، وأردف بصوت خفيض وكأنه يحدث نفسه :

— إن أعظم الاكتشافات فى الآونة الأخيرة ، أو على الأقل تلك التى علمتنى أشياء كثيرة ، هى الاكتشافات الخاصة بآلات تصوير الحيوانات التى تعيش فى أعماق البحار .

وقالت ليليان ، أوه ! إحك لنا هذا ، وكانت قد تركت سيجارتها تنطفئ ، كما تركت الحلوى المثلجة تذوب .

— إنكما تعرفان ولا شك أن ضوء النهار لا يتغلغل كثيراً فى مياه البحر ، وأعماق البحار تسودها ظلمة حالكة . وهى مساحات شاسعة ، اعتقد الناس لمدة طويلة أنها غير مأهولة بالكائنات ، ثم تبين من عمليات التنقيب التى حاولها الإنسان فى هذه المناطق أن بها كثيراً من الحيوانات العجيبة . وكان الاعتقاد السائد أن هذه الحيوانات عمياء وأنها ليست فى حاجة إلى حاسة البصر فى هذا الظلام الدامس ، وكان من الطبيعى ألا يكون لها عيون . ومع ذلك فحصت هذه الحيوانات ولوحظ — وهذا أمر يدهش للغاية — أن أغلبها له عيون ، وإن كان لبعضها أحيانا ، زيادة على ذلك زوائد حساسة للغاية تكشف لها كل ما يدور حولها كما يفعل الرادار[1] .

---

(١) استعمل المؤلف هنا كلمة (Antennes) أى إريال والذى يعنيه هو ما نسميه اليوم «الرادار» .

وكان لا يزال الشك يراود العلماء ، ودهشوا إذتساءلوا ، لماذا يكون لها عيون وهى لا ترى بها شيئا ؟ إنها عيون حساسة ، ولكن أى شىء تحس به ؟ ، وأخيرا اكتشفوا أن كلا من هذه الحيوانات يصدر ضوءاً يلقيه أمامه ومن حوله . كل منها يضىء ويسطع ضوءه وينتشر حوله ، فإذا ألقيت هذه الحيوانات على ظهر الباخرة بعد إخراجها من الأعماق ، كانت الأضواء الصادرة عنها تسطع فى الليل . وهى أضواء تشبه النيران المتحركة ، أضواء ترتجف ، لها ألوان متعددة ، تشبه المنارات الدائرة ، ولها بريق النجوم ، أو بريق الأحجار الكريمة الخاطف ، ولا شىء يمكن أن يعادلها فى جمالها على حد قول من رأوها .

وسكت فنسان وبقوا طويلا صامتين .

وقالت ليليان فجأة : فلنعد . إننى أشعر بالبرد .

وجلست ليليان بجانب السائق ، وكان الحاجز الزجاجى للسيارة يحميها شيئا ما ، أما الرجلان فقد قبعا خلفها واستمرا فى الحديث ، وكان روبير قد سكت طوال الوقت الذى استغرقه تناول الطعام ، وكان يصغى إلى فنسان وهو يحاضر ، أما الآن فقد جاء دوره ليتكلم :

— إن أسماكا مثلنا ياعزيزى فنسان تحتضر فى المياه الساكنة . قالها وهو يربت بيده على كتف صديقه . وكان يسمح لنفسه مع فنسان ببعض حركات تدله على عدم الكلفة ، ولكنه لم يكن ليسمح بأن يعامله هذا الأخير بالمثل ، ولم يكن فنسان على أى حال يميل إلى مثل ذلك التصرف ، وأردف :

— أتعرف أنى أجد حديثك جذابا جدا ! إنك تصلح أن تكون محاضرا ممتازا ! يجب أن تترك مهنة الطب . ولا يمكن أن أتصورك وأنت تصف اللبنات أو تعالج المرضى . ما يناسبك هو كرسى الأستاذية فى علم البيولوجيا المقارنة أو شىء من هذا القبيل .

وقال فنسان : سبق أن فكرت فى هذا الأمر .

— لعل ليليان تستطيع أن تحقق لك ذلك بأن تجعل صديقها أمير موناكو يهتم بأبحاثك ، وهو على ما أعتقد ممن يهتمون بهذه الأمور — يجب أن أحدثها فى هذا الأمر .

— سبق أن كلمتنى فيه .

— إذن لا فائدة فى أن أؤدى لك أى خدمة (وتظاهر بأنه تضايق من ذلك). على حين أنى كنت أود أن أطلب منك خدمة .

— هل جاء دورك لتطلب منى خدمة ؟ أتعتقد أن ذاكرتى ضعيفة ؟
— ماذا ؟ ألا زلت تفكر فى الخمسة آلاف فرنك ! ولكنك أعدتها لى ياصديقى ! لم تعد مديناً لى بشىء ... اللهم إلا ببعض الصداقة . وأضاف ذلك بلهجة فيها ما يشبه الحنان وهو يضع يده على ذراع فنسان : إننى ألجأ إلى صداقتك هذه .

وقال فنسان عندئذ : إننى مصغ إليك .

ولكن «روبير باسافان» صاح فى الحال ، وهو يرى فنسان بما فيه من لهفة : كم أنت متسرع ! أمامنا وقت طويل حتى تصل إلى باريس لتتكلم فى هذا الأمر .

وكان باسافان ماهراً فى أن يخلع على غيره صفاته هو ، وكل ما يؤثر إنكاره . ثم قال وهو يتصنع تغيير الحديث — وكان فى ذلك كصيادى الأسماك الذين يخشون أن تنزعج فريستهم ، فيلقوا بالطعم بعيداً جداً ثم يقربونه بطريقة غير محسوسة :

— بهذه المناسبة ، أشكرك على أنك أرسلت لى أخاك . وكنت أخشى أن تكون قد نسيت .

وبدرت من فنسان حركة فأردف روبير .

— ألم تره منذ ذلك الحين ! ... ألم يكن لديك الوقت ! عجيب أنك لم تسألنى شيئاً عن تلك المقابلة ، ولكن ذلك لا يهمك . إنك لا تبالى بأخيك على الإطلاق ، لا بما يفكر فيه أوليفييه ولا بما يشعر به ولا بما هو عليه ولا بما يريد أن يصير إليه ، إنك لاتقلق نفسك بكل هذه الأشياء ..

ـ أهذا عتاب !

ـ نعم ، إننى لا أفهم ولا يمكن أن أوافق على إهمالك هذا . وكان من الممكن أن تفكر فى نفسك فقط عندما كنت مريضاً فى مدينة بو . لقد كانت الأنانية جزءاً من العلاج ولكن الآن ... ماذا ! أتكون إلى جانبك هذه النفس الشابة التى تنبض بالحياة وذلك الذكاء المتيقظ الذى يبشر بالكثير ، والذى لا ينتظر منك إلا نصيحة وسنداً ... ونسى روبير فى هذه اللحظة أن له هو أيضاً ـ شقيقاً مثله ، ولم يكن فنسان أبله ، لقد نبهته هذه المبالغة فى إظهار العواطف بأن شعور باسافان ليس مخلصاً ، وإن وراء استيائه الظاهر شيئاً آخر .

وسكت فنسان وأخذ ينتظر البقية ، ولكن روبير وقف فجأة ، لقد تبين منذ لحظة ضوء السيجارة التى كان يدخنها فنسان زمة ترتسم على شفته ، وتصور أنها زمة السخرية ، وكان أخشى ما يخشاه هو السخرية ، أكان هذا الشعور هو الذى جعله يغير لهجته ؟ الأرجح أنه أدرك فجأة أن ثمت شيئاً من التشابه بينه وبين فنسان...ولذا أردف وهو يبدو طبيعياً جداً ـ وكأن لسان حاله يقول : لست فى حاجة إلى أن أتظاهر أمامك بشىء .

— حسناً ! لقد كان لى مع أوليفيه حديث ممتع جداً ، إن هذا الصبى ليعجبنى أيما إعجاب .

وكان روبير يحاول أن يلتقط نظرة فنسان ليفهم ما فيها (ولم يكن الليل حالك السواد) ولكن هذا الأخير كان ينظر بثبات أمامه ، ثم قال :

ـ هاهى الخدمة الصغيرة يا عزيزتى التى أريد أن أطلبها منك .

لكن هنا أيضاً شعر بالحاجة إلى أن ينتظر لحظة ، وكأنه ممثل يريد أن يتجرد قليلا من دوره ، وهو متأكد تماما من سيطرته على جمهوره ، وراغب فى أن يثبت لنفسه ولجمهوره أنه يسيطر عليه . وانحنى إلى الأمام نحو ليليان وقال لها بصوت عال جداً ـ وكأنه يريد أن يشعر محدثه بالفرق بين لهجة بث الأسرار التى كان يكلمه بها واللهجة التى سيتكلم بها الآن .

— ياصديقى العزيزة ، أمتأكدة أنت تماما أنك لن تصابى بالبرد ؟ عندنا غطاء للسفر لسنا فى حاجة إليه ...

ثم أردف بصوت خفيض دون أن ينتظر إجابة على سؤاله ، وهو قابع فى السيارة قريباً من فنسان .

— هاهى الخدمة : أريد أن أصطحب أخاك هذا الصيف ، نعم أقول لك ذلك بكل بساطة ، ولماذا ألجأ معك إلى اللف والدوران؟... لم أحظ بشرف معرفة والديك لى ، وهما بالطبع لن يتركا أوليفييه يسافر معى إذا لم تتدخل فى الأمر بطريقة فعالة . لا شك أنك ستجد طريقة تجعلهما يرضيان عنى . إنك تعرفهما جيداً على ما أعتقد وتعرف كيف تقنعهما . هل تتكرم بإن تفعل ذلك من أجلى ؟

وانتظر لحظة ثم أردف لما رأى فنسان صامتاً .

ـ أصغ إلى يا فنسان ... سوف أترك باريس عما قليل ... ولا أعرف إلى أين أنا ذاهب ، وأنا فى حاجة ملحة إلى سكرتير ... وأنت تعرف أنى أنشىء مجلة ، وقد كلمت أوليفيه فى هذا الأمر ، ويبدو لى أنه يتمتع بكل الصفات المطلوبة ... ولكننى لا أريد أن أفكر فى الأمر من وجهة نظرى الخاصة . إنى أعتقد أن كل صفاته ستجد مجالها هنا . لقد اقترحت عليه أن يصبح رئيساً للتحرير ... رئيس تحرير مجلة فى مثل سنه ... ! أعترف بأن هذا أمر غير عادى .

وقال فنسان وقد أدار عينيه نحوه أخيراً ونظر إليه بثبات .

ـ هذا أمر غير عادى لدرجة أننى أخشى أن ينزعج والدىّ .

ـ نعم لعلك على حق . ربما كان من الأفضل ألا تكلمهما فى هذا الأمر . ولكنك تستطيع ببساطة أن تفهمهما مدى النفع الذى يمكن أن يعود عليه من السفر الذى سأمكنه من القيام به ، أليس كذلك ؟ يجب أن يفهم والداك أن من فى سنه يحتاجون إلى رؤية بلاد جديدة . سوف تدبر الأمر ، أليس كذلك ؟

واسترد فنسان أنفاسه ، وأشعل سيجارة وأضاف بنفس اللهجة :

ـ ثم هل ترغب فى أن تسمح لى بشىء ؟ سأحاول أن أؤدى لك خدمة . أعتقد أن فى استطاعتى أن أجعلك تتمتع بميزات عرضوها علىّ فى صفقة نادرة ... عرضها علىّ صديق يعمل فى شئون المصارف ، وهو يؤثر بها بعض معارفه الأخصاء . ولكننى أرجوك أن تبقى ذلك الأمر سراً بيننا ، ولا تقل كلمة عن ذلك لليليان ، لأنه لا يمكن لى أن أتصرف إلا فى عدد قليل جداً من الأنصبة ، ولا يمكننى أن أشركها وأشركك فى ذلك فى وقت واحد ... مبلغ الخمسين ألف فرنك الذى الذى ربحته أمس مساء .

ـ لقد تصرفت فيه فعلا (قالها فنسان بلهجة جافة بعض الشىء ، لأنه تذكر تحذير ليليان) .

وأجابه روبير وكأنه تضايق من ذلك : هذا حسن ، هذا حسن ... لن ألح عليك . ثم أردف ـ وكأنه يريد أن يقول : لا أحقد عليك إذا ما رجعت فى رأيك ؛ أسرع فى إخبارى بذلك لأن غداً بعد الساعة الخامسة سوف تفوت عليك الفرصة .

وازداد إعجاب فنسان بالكونت دى باسافان منذ أن كف عن أخذ كلامه مأخذ الجد . .

الفصل الثامن عشر

يوميات إدوارد

الساعة الثانية : ـ فقدت حقيبتى . إنى أستحق ذلك . ولم أكن أعتز بشيء مما تحتويه ، إلا بيومياتى . وكان اعتزازى بها كبيرا وإنى لأجد فى قرارة نفسى تسلية كبرى فى هذه المغامرة وفى انتظار ما سيحدث . أرجو أن أسترد أوراقى ؟ ترى من سيقرأها ؟ لعلنى منذ فقدتها أبالغ فى قيمتها . وقفت هذه المذكرات عند رحيلى إلى انجلترا . وهناك دونت كل ما راود أفكارى فى كراسة أخرى ، وأنا أتركها الآن وقد عدت إلى فرنسا . والكراسة الجديدة التى أكتب فيها يومياتى هذه لن تترك جيبى إلا بعد وقت طويل . إنها المرآة التى أحملها أينما حللت ولست أشعر بوجود شيء مما يقع لى إن لم أره منعكساً على هذه الكراسة . ولكن يخيل إلى منذ عودتى أننى أضطرب فى حلم — كم كانت مؤلمة محادثتى مع « أوليفييه » ! وكنت أمنى النفس ببهجة كبيرة منها ... هل تركته هذه المحادثة قليل الرضا مثلى ، قليل الرضا عن ذاته وعن ذاتى ؟ إننى لم أوفق للأسف سواء فى التحدث إليه أو فى حمله على التحدث إلى ! ما أعسر الاهتداء إلى أبسط كلمة تؤدى إلى رضا النفس الكامل ! وما إن يتدخل القلب فى ذلك حتى يخمد التفكير ويشله .

الساعة السابعة : ـ وجدت حقيبتى ، أو على الأقل وجدت من استحوذ عليها . وكونه أعز صديق (لأوليفييه) يوجد بيننا نوعاً من الروابط ، علىّ أنا وحدى أن أشد أواصرها . والخطر الذى يهددنى هو أننى أجد فى كل حدث يفاجئنى متعة تنسينى الهدف الذى أريد إدراكه .

لقد قابلت (لورا) . رغبتى فى أن أؤدى خدمة تتضاعف بمجرد أن تصادفنى عقبات ، وبمجرد أن أضطر فى سبيل ذلك إلى أن أحطم التقاليد والعرف وما ألفه الناس.

ذهبت لزيارة العجوز (لابيروز) ومدام (لابيروز) نفسها هي التي جاءت لتفتح لي الباب . لقد مر أكثر من سنتين لم أرها خلالها ، ومع ذلك تعرفت عليّ في الحال (ولا أعتقد أنهما يستقبلان الكثير من الناس) . وجدتها لم تتغير ولكن ملامحها (ولعلني أقول ذلك لأنني قد تحيزت ضدها)بدت لي أكثر قسوة، ونظرتها أكثر مرارة ، وابتساماتها أكثر زيفا مما كانت في أي وقت مضى .

وما إن رأتني حتى قالت . أخشى ألا يكون السيد (لابيروز) في حالة تسمح له باستقبالك . وكانت تظهر عليها الرغبة في أن تنفرد بي. ثم قالت وهي تستغل صممها لكي تجيب قبل أن أسألها :

ـ ولكنك ياصديقي لاتزعجني على الإطلاق . أرجوك أن تدخل . وأدخلتني في الحجرة التي اعتاد (لابيروز) أن يعطي دروسا فيها ، وبها نافذتان تطلان على الفناء ، وقالت لي بمجرد أن دلفت إلى الغرفة :

ـ انني سعيدة لأني أستطيع أن أكلمك لحظة ونحن بمفردنا . إن حالة السيد « لابيروز » ـ وأنا أعرف مدى صداقتك الطويلة وإخلاصك له ـ تزعجني كثيرا . ألا تستطيع ـ وأنت صاحب الكلمة المسموعة لديه ـ إقناعه بمعالجة نفسه ؟ أما عني، فكل ما أكرره له في هذا الصدد لاجدوى له .

ثم أخذت شكاياتهامنه تنهال : (لابيروز) العجوز يرفض أن يعالج نفسه لالسبب إلا لرغبته في أن يعذبها . وهو يعمل مالايجوز أن يعمل ، ولايعمل أي شيء ممايجب أن يعمل ، وهو يخرج أيا كان الجو ولايوافق على وضع ملفحة حول رقبته . وهو يرفض أن يأكل في ساعات الوجبات لأنه لايشعر بالجوع . وإنها لعاجزة عن إيجاد أية وسيلة لكي تفتح شهيته ، ولكنه ينهض أثناء الليل ويقلب نظام المطبخ كله لكي يأكل أي شيء .

ولم تكن المرأة العجوز تخترع أي شيء فيما تقول ، وفهمت من حديثها أن مجرد تأويل بعض التصرفات البريئة يضفي عليها معنى مهينا ، وأن الحقيقة تلقي على جدران

مخيلتها الضيقة ظلا مرعبا . ولكن ، ألم يكن العجوز بدوره يسيء تأويل كل عنايتها به وكل اهتمامها بأمره ، وهي التي كانت تشعر بأنها شهيدة وبأنه جلادها ؟

إنني أدع الحكم عليهما وأنزل عن فهمهما . أو بمعنى أصح – كما يحدث دائما – كلما زاد فهمي لهما زدت اعتدالاً في الحكم عليهما . وملخص القول هو أننا حيال شخصين ارتبطا لمدى الحياة وراح كل منهما يعذب الآخر عذابا غليظا . وكثيرا ما لاحظت عند المتزوجين مدى ما يسببه أي نتوء في طباع أي منهما من مضايقات لا يحتملها الآخر، لأن والحياة المشتركة تجعل الاحتكاك بهذا النتوء مستمراً . وإذا كان الاحتكاك متبادلا أصبحت الحياة الزوجية جحيما .

بدت مدام (دي لابيروز) – من تحت شعرها المستعار الأسود الذي يجعل ملامح وجهها الشاحب جامدة ، و بقفازها المثقوب الأسود الذي يبين عن أصابعها القصيرة الشبيهة بالمخالب – وكأنها من الجان .

وأضافت : إنه يلومني على أنني أتجسس عليه . وهو دائما في حاجة إلى أن ينام كثيرا ، وفي الليل يتظاهر بالرقاد ، وعندما يتصور أنني نائمة ينهض من فراشه ، ويقلب في أوراق قديمة ، ويظل أحيانا حتى الصباح يقرأ بعض الرسائل القديمة التي أرسلها له أخوه المتوفى ، وهو لا ينفك عن البكاء ، ويريد مني أن أحتمل كل هذا دون أن أقول شيئاً .

ثم شكت من أن العجوز أراد أن يدخلها في ملجأ للعجائز. وأضافت أن ما يزعجها أكثر وأكثر في هذا الأمر أنه عاجز تماما عن أن يعيش بمفرده ، وأن يستغني عن خدماتها. وعبرت عن كل هذا بكلمات تدل على الشفقة ولكن تشتم منها رائحة النفاق.

وبينما كانت تسرد شكاياتها فتح باب غرفة الاستقبال برفق من خلفها ودخل (لابيروز) دون أن تسمعه . وابتسم لي بسخرية عند سماعه العبارات الأخيرة التي قالتها زوجته ، ووضع يده على جبهته بحركة يعني بها أنها معتوهة . ثم قال بطريقة تدل على نفاد صبره ، وبقسوة لم أكن أتصوره قادرا عليها – قسوة بدت أنها تبرر

اتهامات المرأة العجوز - (ولعل من أسبابها أيضا اضطراره إلى رفع صوته لـكى تتمكن من أن تسمع ما يقوله) :

- هيا ياسيدتى ! كان يجب عليك أن تفهمى أنك ترهقين السيد بأحاديثك . لم يأت صديقى ليراك أنت اتركينا .

وهنا احتجت المرأة العجوز بأن المقعد الذى تجلس عليه ملك لها وأنها لن تتركه ،

وأجاب (لا بيروز) ساخراً :

- فى هذه الحال سنخرج نحن إذا سمحت ، ثم قال ، وهو يلتفت نحوى ، وبلهجة أرق :

- تعال ! فلنتركها

وحاولت أن أحييها وأنا محرج ، وتبعته إلى الغرفة المجاورة ، التى استقبلنى فيها فى المرة السابقة وقال لى :

- إننى سعيد لأنك استطعت أن تسمع ماتقوله . هى كذلك طوال اليوم .

وذهب ليغلق النوافذ وقال :

- لا يمكن أن يسمع أحدنا الآخر مع ضوضاء الشارع ، إننى أقضى وقتى فى إغلاق هذه النوافذ التى تقضى مدام (دى لا بيروز) وقتها فى فتحها ، وهى تدعى أنها تختنق وتبالغ دائما ، وترفض الاعتراف بأن الجو فى الخارج أحر منه فى الداخل . ومع ذلك عندى مقياس للحرارة ، وعندما أريها أياه تقول لى إن الأرقام لا تثبت شيئاً . إنها تريد أن تبدو على حق حتى ولو كانت تعرف أنها على خطأ . وشاغلها الأكبر هو أن تعارضنى .

وبدا لى وهو يتكلم أنه ليس هو الآخر ، متزنا تماما . وأضاف وهو فى انفعال يزداد شيئا فشيئا :

ـ إنها تتهمنى بأننى السبب فى كل ما تخطىء فيه ، وكل أحكامها خاطئة. سأحاول أن أجعلك تفهم ما أعنيه . أنت تعرف أن الصور تصل إلى المخ مقلوبة ثم يرجعها إلى وضعها الطبيعى جهاز عصبى ، أما مدام (دى لابيروز) فليس عندها هـذا الجهاز الضابط ، فكل شىء يبقى مقلوبا فى مخيلتها ، وأنت ترى كم يكون هذا مؤلما !

وكان يشعر ولاشك براحة وهو يشرح ما فى نفسه ، وأمسكت عن مقاطعته ، وأردف : كانت مدام « دى لابيروز » دائما شرهة فى الأكل ، ومع ذلك تدعى أننى أنا الذى آكل كثيراً ، فإذا رأتنى الآن وفى يدى قطعة من الشيكولاتة (وهى غذائى الرئيسى) تمتم : إنك دائما تقرض شيئا ! ... ـ إنها تتجسس علىّ ، وهى تتهمنى بأننى أنهض من فراشى أثناء الليل لـكى آكل فى الخفاء ، لأنها فاجأتنى مرة وأنا أعد لنفسى قدحا من الشيكولاته فى المطبخ ... لاحول لى فى ذلك ، عندما أراها على المائدة أمامى تلتهم ما فى الأطباق تزايلنى شهيتى نهائيا . وعندئذ تدعى أننى أتمنع رغبة فى إزعاجها .

وسكت مدة ثم أردف فى انفعال :

ــ إننى أعجب مما تعاتبنى به ! ... فعندما تشعر بآلام عرق النساء أشفق عليها ، وعندئذ توقفنى وترفع كتفيها قائلة : لا تتظاهر بأنك رقيق القلب . وهى تتصور أن كل ما أعمله وكل ما أقوله إنما دافعه رغبتى فى إيلامها .

وكنا جالسين إلا أنه كان ينهض ثم يجلس مباشرة وهو فريسة لقلق كالداء العضال ثم قال :

ــ أتتصور أن فى كل غرفة من هذه الغرف قطع أثاث لها ، وقطع أثاث لى ؟ لقد رأيتها منذ لحظة وهى تتـكلم عن مقعدها . إنها تقول للخادمة التى تحضر إلينا أحيانا لتقوم بأعمال المنزل : لا ، هذا ملك السيد ، لا تلمسيه ! وذات يوم نسيت كراسة موسيقية مجلدة على منضدة لها ، فألقت بها على الأرض . وتحطمت أركان الـكراسة ... أوه ! هذا لا يمكن أن يستمر أكثر من ذلك ... ولـكن اصغ إلى ...

وأمسك بذراعى وقال وهو يخفض صوته :

— لقد دبرت أمرى ... إنها تهددنى دائما إذا ما استمرت هذه الحال بأن تبحث عن مأوى لها فى ملجأ للعجائز . وقد ادخرت مبلغا من المال يكفى لإقامتها فى ملجأ سانت بيرين ، ويقال إنه أفضل ما يوجد من الملاجىء . إن الدروس التى ما زلت أعطيها لم تعد تدر علىّ شيئا ، وستنفد مواردى عما قريب وأضطر حينئذ إلى أن أنفق من هذا المبلغ ، ولست أريد أن يحدث هذا ، ولذا اتخذت قرارا ... وسوف أنفذه بعد ثلاثة أشهر تقريبا . نعم لقد حددت التاريخ ، ولا تتصور مدى ما أشعر به من راحة لمعرفتى أن كل ساعة تمر تقربنى من هذا التاريخ .

وكان قد انحنى فوقى ، ولـكن انحناءه ازداد وقال :

— إنى أحتفظ كذلك بسند من السندات كنت قد ادخرت قيمته ، أوه ! ليست قيمته كبيرة ، ولـكننى لم أستطع أكثر من هـذا ، إن مدام دى لابيروز تجهل هذا الأمر وأنا أحفظ السند فى مكتب صغير فى مظروف يحمل اسمك ، وبه كل ما أطلب منك عمله ، هل أستطيع أن أعتمد عليك لـكى تساعدنى فى هـذا الصدد ؟ إننى أجهل تماما عالم الأعمال ، ولـكن أحد مسجلى العقود أخبرنى أن أرباح السند يمـكن أن تدفع مباشرة لحفيدى حتى بلوغه سن الرشد ، وعندئذ يحصل على السند . وأعتقد أن صداقتنا القديمة تتيح لى أن أطلب منك السهر على تنفيذ رغبتى هذه ، وأنا لا أثق أبدا فى المسجلين ! ... وإذا كنت ترغب فى أن تطمئننى فأرجوك أن تقبل الاحتفاظ بهذا المظروف معك منذ الآن ... نعم ، أليس كذلك ؟ ... سوف أحضره لك .

وخرج وهو يقفز قفزات قصيرة كعادته ، وعاد وهو يحمل مظروفا كبيرا ، وقال لى : لا تؤاخذنى لأننى أغلقت المظروف ، ذلك إجراء شكلى ، خذه .

وألقيت نظرة على المظروف وقرأت تحت اسمى بحروف منمقة : يفتح بعد موتى

وأضاف : ضعه بسرعة فى جيبك لـكى أطمئن على أنه فى أمان ، شكرا ... آه ! كنت أنتظرك بفارغ الصبر ! ...

أحسست كثيرا فى مثل هذه المناسبات بأن ثمت لونا من الرهبة الروحية الصوفية يحل فى نفسى محل الشاعر الإنسانية ، فأستشعر لونا من الحماس ، وأشعر بأن كيانى كله قد تسامى ، أو بمعنى أصح أنه تجرد من قيود الأنانية ، فكأننى خلعت شخصيتى ، وكأن نفسى انتزعت منى . ولا يمكن لأى شخص لم يشعر بذلك الشعور أن يفهم ما أعنيه بهذا القول . وكنت أشعر أن لابيروز يفهم ما أشعر به ، كان كل اعتراض من قبلى فى هذه اللحظة يعتبر شيئا لا قيمة له ، وكان الاعتراض فى لحظة كهذه عملا غير مناسب . ولذا اكتفيت بأن أشد بقوه على يده التى تركها فى يدى ، وكانت عيناه تلمعان ببريق عجيب ورأيت فى يده الأخرى ـ التى كانت تمسك بالظروف ـ ورقة ثانية ، وقال :

ـ سجلت هنا عنوانه لأننى أعرف مكانه الآن : فى مدينة «ساس فيه» هل تعرف هذا المكان ؟ إنه فى سويسرا ، لقد بحثت عنه على الخريطة ولكننى لم أجده .

وقلت : نعم إنها قرية صغيرة بالقرب من جبل سرفان على قمة الألب ، وسألنى : أهو مكان بعيد جدا ؟

وأجبته : ليس بعيدا إلى الحد الذى يمنعنى من الذهاب إليه .

وقال : ماذا ؟ .. أتفعل ذلك ؟ ... أوه ! كم أنت طيب القلب ! أما عنّى فإن سنّى لم تعد تسمح لى بهذا ، ثم إنه ليس فى مقدورى بسبب أمه ... ومع ذلك يبدو لى أنى ... وتردد وهو يبحث عن الكلمة ثم أردف :

ـ آه لو استطعت رؤيته ، إذن لرحلت عن هذا العالم قرير العين .

وأجبته :

ـ سأعمل كل ما يستطيع البشر عمله لأحضره لك ، وسوف ترى بوريس الصغير . أعدك بذلك .

ـ شكرا ... شكرا .

وضمنى بين ذراعيه وهو يرتجف ، وقلت :

ـ لكن عدنى بألا تفكر بعد فى ...

وأجابنى وهو يقاطعنى بقوه ، أوه ؛ هذا أمر مختلف ـ ثم قال فى الحال وكأنه يمنعنى من الإلحاح ، وليغير مجرى أفكارى :

ـ تصور أن والدة إحدى تلميذاتى أرادت منذ أيام أن تصطحبنى إلى المسرح ! لقد مضى على ذلك شهر تقريباً . كانت الحفلة نهارية فى مسرح الكوميدى فرانسيز ، وكان قد مضى على أكثر من عشرين عاما لم تطأ فيها قدمى قاعة عرض ، وكانوا يمثلون فيها رواية « إرنانى » لفكتور هوجو ، أتعرفها ؟ كان يبدو أنها مثلت بإتقان لأن الجميع كانوا متحمسين ، أما أنا فقد تألمت بطريقة أعجز عن وصفها . ولولا الحياء لما استطعت البقاء . . . لقد كنا فى مقصورة ، وكان أصدقائى يحاولون تهدئتى ، ولولا ذلك لوجهت حديثى إلى النظارة ، آوه ؛ كيف يسمحون لأنفسهم ! كيف يسمحون لأنفسهم !

ولما لم أفهم فى بادئ الأمر سبب مؤاخذته سألته .

ـ ألم يعجبك الممثلون ؟

وأجابنى : بالطبع ، كيف يجرؤون على مثل هذه الأشياء المخجلة على المسرح ؟ وكان الجمهور بالرغم من ذلك يصفق لهم ! وكان يوجد بين الحضور أطفال ، أطفال اصطحبهم ذووهم وهم يعرفون الرواية . . . هذا أمر مخيف ، ويجرى هذا على مسرح تمده الدولة بإعانتها .

وكان استياء هذا الرجل الممتاز يسلينى وكدت أضحك ، وأجبته بأن الفن المسرحى لا يمكن أن يقوم إلا على تصوير العواطف .

ورد بدوره قائلا إن تصوير المشاعر سيء الأثر لا محالة ، واستمر الحديث بيننا على هذا المنوال وقتا ما ، وبدأت أشبه هذا العامل الانفعالى بارتفاع الأصوات الصادرة عن الآلات النحاسية فى فرقة موسيقية بقولى :

ـ مثل البداية الموسيقية على الآلات النحاسية التى تعجب بها فى سيمفونية (بيتهوفن) .

ولكنه قاطعني وهو يصيح : ولكن هذه البداية لاتعجبني على الإطلاق .

لماذا تريد مني أن أعجب بما يثير القلق في نفسي ؟

وراح جسمه كله يرتجف ، وفوجئت بما بدا في نبرة صوته من استياء وعداء ، ويظهر أنه فوجيء هو أيضا بذلك لأنه أضاف بصوت أكثر هدوءا :

ــ هل لاحظت أن كل مجهودات الموسيقى الحديثة تنصب على أن تجعلنا نحتمل وتتذوق أيضا بعض الألحان التي كنا نعتبرها في بادئ الأمر نشازا ؟

وأجبته : هذا ما يحدث فعلا ؛ لأن كل شيء يجب أن ينتهي به الأمر إلى الخضوع لأوامر التناسق والانسجام .

ــ الانسجام ! (كررها وهو يرفع كتفيه) إنني لا أرى في ذلك إلا استسلاما للرذيلة ، للخطيئة ، ضعفت حساسية الناس واعترى الشحوب النفوس ، ووهنت الانفعالات ، وأصبح الناس يتساهلون ، ويتقبلون .

ــ عند ما يسمعك الإنسان يتصور أن الناس أصبحوا لا يجرءون على فطام الأطفال ، ولكنه استرسل دون أن يصغى إليّ :

ــ لو عاودنا حماس الشباب وتطرفه لكان أول ما يسخطنا هو ما صارت إليه حال الناس .

وكان الوقت متأخرا لايسمح لنا بالاسترسال في مناقشةحول أهدافنا في الحياة ، وحاولت أن أعود به إلى عالمه هو ولذا قلت :

ــ إنك لاتريد على ما أظن أن تجعل من الموسيقى شيئا يعبر عن النقاء فحسب ، ففي هذه الحال يكفي نغم واحد ، نغم كامل مستمر !

وأخذيدي بين يديه ، وكرر ــ وكأنه في حالة وجد ، وقد تاهت نظراته في العبادة ــ كرر عدة مرات ...

ــ نغم كامل مستمر ، نعم ، هو ذلك ، نغم كامل مستمر .

ولكنه أضاف بحزن : ولكن عالمنا كله فريسة للنشاز .

واستأذنته في الانصراف ، واصطحبني حتى الباب وتمتم وهو يعانقني : آه ! كم سيطول انتظارنا لنحقق هذا الانسجام!

الجزء الثاني

« ساس فيـــه »

الفصل الأول

من برنارد إلى « أوليفييه »

يوم الإثنين .

صديقى العزيز :

على أولا أن أخبرك بأنى رسبت فى امتحان إتمام الدراسة الثانوية ، ولا شك أنك أدركت هذا عند ما لم تجدنى فى لجنة الشفهى . سأتقدم لهذا الامتحان فى شهر أكتوبر ، لقد سنحت لى فرصة نادرة لأسافر ، واغتنمتها فى الحال ولست آسفا على ذلك . كان علىّ أن أحزم رأيى فى الحال ولم يكن أمامى وقت للتفكير ولا حتى لتوديعك . وبهذه المناسبة ، كلفنى رفيقى فى السفر أن أبلغك أسفه على أنه رحل قبل أن يراك . هل تعرف من صحبنى ؟ لعلك عرفت أنه « ادوارد » . إنه خالك العظيم . وقد صادفته ليلة وصوله إلى باريس فى ظروف غير عادية ومثيرة سوف أشرحها لك فيما بعد . لقد كان كل شىء فى هذه المغامرة خارجاً عن المألوف ، وإن رأسى لتدور عندما أفكر فى كل ما حدث ، ومازلت حتى اليوم أتردد فى تصديق كل ما جرى ، وفى أنى أنا الذى أكتب لك ذلك . أنا الآن فى سويسرا مع ادوارد ... ولكن لا بأس ، لابد من أن أعترف لك بكل شىء ، غير أنى أرجو أن تمزق هذه الرسالة وأن تحتفظ بما فيها سرا لنفسك .

هل تتصور أن هذه المرأة التي هجرها أخوك ، تلك التى سمعت نحيبها ذات ليلة بالقرب من باب غرفتك (اسمح لى أن أقول لك أنك كنت مغفلا لأنك لم تفتح لها بابك) هذه السيدة صديقة حميمة لادوارد ، وهى ابنة « فيدل » نفسه وشقيقة صديقك « ارمان » كان يجب ألا أذكر لك كل هذه الحقائق لأنها تتعلق بشرف امرأة ، ولكننى أعتقد أنى سأموت إن لم أسردها على أحد ... وأطلب منك ثانية أن تحتفظ بهذا السر لنفسك . أنت تعرف أنها تزوجت منذ قليل ، ولعلك تعرف

أيضاً أنها لم تلبث أن مرضت وأنها ذهبت إلى الجنوب لتعالج . وهناك تعرفت بإنسان بمدينة « پو » . لعلك تعرف ذلك أيضا ، ولكن ما تجهله هو أن هذه المقابلة كان لها نتائج . نعم ، يا صديقى !

إن أخاك الأحمق قد أنجب منها طفلا ، وعادت إلى باريس وهى حامل ، ولم تجرؤ على الظهور أمام ذويها وهى على هذه الحال ، ولم تجرؤ كذلك طبعا على العودة إلى منزل الزوجية . ومع ذلك هجرها أخوك على الصورة التى تعرفها . ولن أعلّق أنا على هذا الموقف ولكننى أؤكد لك أن « لورا دوفيه » لم تنطق بكلمة عتاب واحدة ، أو بكلمة تدل على احتقارها له ، بل على العكس من ذلك تحاول أن تجد كل الأعذار لتبرّر فعلته . إنها بالاختصار امرأة ممتازة تنطوى نفسها على الطيبة . وهناك شخص لا شك أنه ممتاز أيضا ، وأعنى به « ادوارد » . ونظراً لأنها لم تعرف ماذا تفعل ، أو أين تذهب ، فقد اقترح عليها أن يصطحبها إلى سويسرا ، واقترح علىّ فى الوقت عينه أن أصحبهما بدورى ، لأن سفره معها بمفرده يحرجه . إن شعوره نحوها لايعدو الصداقة البريئة .

وها نحن قد رحلنا ثلاثتنا ، وقد تقرر هذا الأمر فى خمس دقائق فقط ، لم يستغرق كل هذا إلا المدة التى استلزمها إعداد الحقائب ، وشراء مايلزمنى من ملابس (وأنت تعرف أننى تركت البيت دون أن أحمل معى أى شىء) ... ولا يمكننى أن أصف لك ماكانت عليه رقة ادوارد فى هـذه المناسبة ، وزيادة على ذلك كان يكرر قوله بأننى أنا الذى أؤدى له خدمة . نعم يا صديقى إنك لم تبالغ حينما قلت إن خالك إنسان مدهش .

كانت الرحلة شاقة لأن لورا كانت متعبة جدا وتطلبت حالتها كثيرا من الاحتياطات ، فهى تبدأ شهرها الثالث فى الحمل ، ثم إن المكان الذى قررنا الذهاب إليه (وقد اخترناه لأسباب لايسمح المجال بذكرها الآن) ليس من السهل الوصول إليه . وكانت لورا تعقد الأمور برفضها أن تحتاط ، وكان يجب علينا أن نجبرها على

ذلك . وكانت طوال الوقت تكرر قولها بأن أى حادث يقع لها يعتبر حلا سعيدا بالنسبة لها . ولعلك تدرك مدى اهتمامنا بأمرها .

آه ! ياصديقى . إنها امرأة تستحق الإعجاب . إننى أشعر بأننى لست نفس الإنسان الذى كنته قبل أن أعرفها ، وثمت أفكار تراودنى لا أجرؤ على تبيان حقيقتها . كما أن هناك رغبات تعتمل فى قلبى ولكنى أخنقها ، لأننى أخجل عندما أتصور أن من الممكن ألا أكون جديرا بثقتها . نعم وإن المرء عندما يكون إلى جوارها ليضطر إلى أن يسموه بتفكيره ، وهذا لايمنع من أن تكون المحادثات بين ثلاثتنا محادثات مجردة من القيود ، لأن لورا ليست ممن يتظاهرون بالتمسك بأهداب التقاليدوالعرف ، ونحن نتكلم فى أى شىء ، ولكنى أؤكد لك أننى فى حضرتها أشعر بجدّية أمور كنت أسخر منها من قبل .

سوف تتصور أننى أهيم بها . حسنا ! يا صديقى أنت تخطىء فى ذلك . إن هذا ضرب من الجنون ، أليس كذلك ؟ هل تتصور أننى أهيم بامرأة حامل ، وأننى أشعر نحوها باحترام شديد ، وأننى لاأجرؤ على أن ألمسها بأطراف أصابعى ؟ ألا ترى أننى لم أعد الشخص الذى ياهو ؟ !

ولما وصلنا إلى (ساس فيه) بعد أن صادفتنا صعاب لاحصر لها (وكنا قد استأجرنا للورا مقعدا يحمله رجلان لأن العربات لاتستطيع الوصول إلى هذا المكان) لم يستطع الفندق أن يقدم لنا إلا غرفتين إحداها كبيرة وبها سريران والأخرى صغيرة — وقد اتفقنا على أن أتظاهر أمام مدير الفندق بأنها ستكون لى لأن لورا اضطرت — لكى تخفى شخصيتها — إلى التظاهر بأنها زوجة ادوارد . ولكنها تشغل الغرفة الصغيرة عندما يأتى الليل وأتوجه أنا إلى غرفة إدوارد . وفى كل صباح تضطر إلى القيام بنقل أشياء كثيرة من هذه الغرفة إلى تلك لكى لايشعر الخدم بشىء . ومن حسن الحظ أن هناك بابا يوصل بين الغرفتين وهذا يبسط الأمور .

ها قد مرت علينا ستة أيام فى هذا المكان ولم أكتب لك إلا الآن لأن أفكارى كانت مبلبلة ، ولأنه كان لزاما على أن أتبين حقيقة نفسى ، وقد بدأت الآن فقط أتبين حقيقتها .

لقد قمت مع ادوارد برحلات قصيرة فوق الجبال ، وكانت مسلية للغاية . ولكن الحقيقة أن هذا المكان لا يعجبنى كثيرا ، وهو لا يعجب ادوارد كذلك ، لأنه يرى أن جمال المناظر الطبيعية هنا جمال صارخ لا ترتاح إليه نفسه . وهذا صحيح ؟

إن أحسن ما نجده هنا هو الهواء الذى نستنشقه ، إنه هواء بكر ، يطهر الرئتين . ولكننا لا نحب أن نترك لورا بمفردها وقتا طويلا ، لأنها لا تستطيع المجىء معنا . المجتمع فى هذا الفندق مسل جداً ، وبه نزلاء من جميع الجنسيات ، ونصادق بصفة خاصة طبيبة بولونية تقضى أجازتها هنا برفقة ابنتها وصبى صغير عهدوا به إليها . وقد جئنا إلى هذا الفندق بالذات لنقابل هذا الصغير ، وهو مصاب بنوع من الأمراض العصبية تعالجه الطبيبة بطريقة حديثة جدا . ولكن الشىء الذى يستفيد منه هذا الصغير بوجه خاص — وهو صبى ظريف جدا — هو أنه أحب ابنة الطبيبة حبا جنونيا ، وهى تكبره ببضع سنوات . إنها أجمل مخلوقة رأيتها فى حياتى ، وهما لا يفترقان لحظة من الصباح إلى المساء ، وكلاهما على درجة كبيرة من الرقة ، حتى أن أحداً لم يفكر فى السخرية منهما.

لم أعمل كثيرا ، ولم أفتح كتابا منذ رحيلى ، ولكنى فكرت كثيرا . إن حديث (ادوراد) يستهوى النفس بشكل مذهل ، وهو لا يكلمنى فى العادة مباشرة ، رغم أنه يتظاهر بأنى سكرتيره . ولكنى أصغى إليه وهو يتحدث مع الآخرين ، ولا سيما مع (لورا) . إنه يحب أن يكلمها فى مشروعاته ، ولا يمكنك أن تتصور مدى استفادتى من هذه الأحاديث ، بل إننى أقول لنفسى أحيانا إنه يجب على أن أدونها ، ولكن أعتقد أنى أحفظها كلها عن ظهر قلب . وفى بعض الأيام أشتاق إليك شوقا لا حد له وأقول إنك أنت الخليق أن تكون هنا ! ولكننى لا أستطيع أن آسف على ما يحدث لى ولا أن أتمنى أى تغير فى ذلك ، وتأكد أنى لن أنسى أن لك الفضل فى أنى عرفت (ادوارد) وأنى مدين لك بسعادتى . أعتقد أنك سوف تجدنى قد تغيرت كثيراً عندما نلتقى ، ولكن تأكد أن صداقتى لك لم تفتر ، وأنها أعمق مما كانت فى أى وقت مضى !

يوم الأربعاء :

ملحوظة — عدنا لتونا من رحلة طويلة ، لقد صعدنا جبل الآلالان ، وكان بصحبتنا مرشدون تربطنا بهم حبال . صعدنا على الجليد ورأينا الهاوية ، كما رأينا كتلا ضخمة من الجليد تتساقط .. الخ . ، ورقدنا بين الثلوج في مخبأ ، وكنا مكدسين في هذا المكان مع سياح آخرين . ولست في حاجة إلى أن أقول لك إننا لم نغمض عينا طوال الليل ، وفي اليوم التالي رحلنا قبل الفجر ، والآن ياصديقي وبعد هذه الرحلة لن أذم سويسرا مرة أخرى ؛ عندما يجد المرء نفسه على هذا الارتفاع ويجد أن كل زراعة ، وكل نبات قد اختفى عن ناظريه ، وأنه نسى كل مايذكره بشحّ البشر وبحماقتهم ، يشعر عندئذ بالرغبة في الغناء ، في الضحك ، في البكاء ، في أن يطير ، في أن يحلق في الجو حتى تمس رأسه السماء . أو أن يرتمى راكعا على ركبتيه .

صديقك : برنارد

* * *

كان (برنارد) في رسالته هذه صريحا أكثر من اللازم في تصوير مشاعره أو طبيعياً جدا ، أو بريئا جدا . ولكنه لم يكن يعرف أوليفييه على حقيقته ، ولم يكن من الممكن أن يتصور مدى ما ستثيره هذه الرسالة في نفسه من مشاعر فظيعة ، لقد تسببت في ان غمر قلب أوليفييه طوفان من الاحتقار واليأس والغضب . وشعر بأنه فقد مكانه في قلب كل من برنارد وادوارد . لقد هددت الروابط التي جمعت بين صديقيه صداقته لهما ! وتضمنت هذه الرسالة عبارة بالذات عذبته كثيرا ـ عبارة لم يكن برنارد ليكتبها لو تصور مدى تاويل أوليفييه لها : « في غرفة واحدة » . كان أوليفييه يردد هذه العبارة وثعبان الغيرة يتلوى في قلبه . إنهما يرقدان في غرفة واحدة ! وكم تخيل من أمور عندما قرأ هذه الجملة ! امتلأت مخيلته برؤى مدنسة لم يحاول إبعادها ، ولم يشعر بالغيرة لا من ادوارد وحده ولا من برنارد وحده ولكن من الاثنين معا . كان يتخيل كلا بدوره ثم كان يحسدهما معا . لقد تسلم الرسالة في الظهر وأخذ يردد هذه العبارة : آه ! هذا ما كان ! . واستمر كذلك طوال اليوم ، وفي هذه الليلة استوطنت نفسه شياطين الجحيم ، وفي صباح اليوم التالي أسرع إلى منزل روبير وكانت الكونت دي باسافان في انتظاره .

الفصل الثانى

يوميات « ادوارد »

لم أجد صعوبة فى الاهتداء إلى (بوريس) الصغير . فى اليوم التالى لوصولنا جاء إلى الشرفة وبدأ يرنو إلى الجبال خلال منظار طويل للرؤية البعيدة مثبت على مدار وقد وضع فى هذا المكان ليكون تحت تصرف السائحين . وقد تعرفت عليه فى الحال ولحقت به بعد قليل صبية تكبره قليلا . وكنت جالسا بالقرب منهما فى قاعة الاستقبال ، وكان بابها مفتوحا ولم تفتنى كلمة واحدة من حديثهما . كنت أشعر برغبة كبيرة فى أن أكلمه ، ولكننى رأيت من الحكمة أن أتعرف أولا بأم الصبية الصغيرة ، وهى طبيبة بولونية عهد إليها ببوريس وهى تلاحظه عن كثب . إن « برونجا » لطيفة جدا ، فهى تبلغ حوالى الخامسة عشرة من عمرها ، وشعرها الأشقر ينسدل حتى وسطها فى ضفائر سميكة . وهى ، فى نظرتها ونبرة صوتها ، تشبه الملائكة أكثر مما تشبه بنى الانسان. وأنا أدون هنا كلمات الطفلين :

ــ بوريس ، والدتى تفضل ألا تمس المنظار . ألا تريد أن نتنزه قليلا !

ــ نعم أريد ذلك . لا ، لا أريد .

وقال الجملتين المتناقضتين فى وقت واحد . ولم تلتفت « برونجا » إلا إلى الجملة الأخيرة وسألته : لماذا ؟

ــ الجو حار جدا ، الجو بارد جدا (وكان قد ترك المنظار) .

هيا يا . بوريس « كن لطيفا » أنت تعرف أن والدتى يسرها أن نخرج للنزهة معاً . أين وضعت قبعتك . ؟

ــ فيروسكو مينو باتوف . بلاف بلاف .

— وما معنى هذه الكلمات ؟

— ليس لها معنى .

— إذن لماذا تقولها ؟

— لكى لاتفهمينى .

— إن لم يكن لها معنى فلا يهم ألا أفهمها .

— ولكن إن كان لها معنى فلن تستطيعى فهمها على كل حال .

— الناس يتكلمون ليتفاهموا .

— هل تريدين أن نلهو باختراع كلمات لايستطيع غيرنا فهم معناها ؟

— حاول أولا أن تحسن الكلام باللغة الفرنسية .

— والدتى تتكلم الفرنسية والإنجليزية والرومانية والروسية والتركية والبولونية والإيطالية والأسبانية والبيروكية والجزيجزيتو(١) .

ونطق بهذه الكلمات بسرعة فائقة ، فيما يشبه حماسة الشعراء ، فانفجرت برونجا ضاحكة وسألته :

— لماذا يا « بوريس » تقول دائما أشياء لامعنى لها ؟

وسألها بدوره : ولماذا لاتصدقين أبداً ما أقوله لك ؟

— إننى أصدق ماتقوله عندما يكون لذلك أساس من الحقيقة !

— وكيف يمكنك أن تعرفى إن كان ذلك صدقا أو كذبا ؟ لقد صدقتك عندما كنت تكلمينى ذلك اليوم عن الملائكة . أخبرينى يا « برونجا » : أتعتقدين أننى إذا صليت بحرارة استطعت أن أرى هذه الملائكة بدورى ؟

---

(١) هاتان الكلمتان لامعنى لهما .

ربما استطعت رؤيتها إذا ماتخلصت من عادة الكذب هذه . وإذا أراد الله أن يريك إياها ، ولكن الله لن يريها لك إن أنت صليت فقط بغية رؤيتها . هناك أشياء كثيرة جميلة جداً يمكن أن نراها لو كنا أقل شراً .

ـ أنت يا برونجا لست شريرة ، ولذا تستطيعين رؤية الملائكة . أما أنا فسأبقى دائما شريراً .

ـ لماذا لا تحاول أن تكون طيبا ؟ هل لك فى الذهاب معى إلى (وهنا ذكرت اسم مكان لم أكن أعرفه) . وهناك سوف نتوجه بصلواتنا لله وللعذراء لكى يساعداك على التخلص من الشر ؟ !

ـ نعم . لا أصغى إلى ، سوف نأخذ عصا ، وسوف تمسكين بطرف منها وأمسك أنا بالطرف الآخر وسوف أغمض عينى وأعدك بألا أفتحهما إلا عندما نصل إلى هناك .

وابتعد قليلا ، وبينما كانا ينزلان درجات سلم الشرفة سمعت (بوريس) يقول : نعم ، لا ، لا تمسكى بهذا الطرف : انتظرى حتى أنظفه .

ـ لماذا ؟

ـ لأننى قد لمسته .

اقتربت مدام (سوفرونيسكا) منى ، وكنت على وشك أن أفرغ من تناول إفطارى ، وكنت أبحث عن وسيلة لأكلمها ، وفوجئت بأنها كانت تمسك بنسخة من كتابى الأخير بيدها . وسألتنى وهى تبتسم بلطف إن كان من تكلمه هو مؤلف الكتاب . ثم اندفعت فى الحال فى حديث طويل عن الكتاب وحكمها عليه . ولمست فى حكمها ـ بما فيه من مديح ونقد ـ ذكاء لم أجده عند الكثيرين ممن حكموا على وإن كانت وجهة نظرها لا تمت إلى الأدب بشىء ، وقالت لى إنها تهتم فقط بمسائل علم النفس ، وبما يمكن أن يلقى ضوءا جديدا على النفس البشرية . ولكنها أضافت : إن عددا قليلا جداً من الشعراء وكتاب المسرح أو القصة يستطيعون ألا يكتفوا بما سبق أن

عالجه علم النفس من مشاكل . وأجبتها أن هذه المشاكل المطروقة هي وحدها التي يمكن أن ترضى القراء .

عهدت أم « بوريس » بطفلها إلى هذه السيدة ليقضى معها الأجازات . وأخفيت عليها الأسباب التي تجعلني أهتم بأمره قالت : بوريس رقيق جدا ، ولكن صحبته لأمه لا تفيده في شيء . لقد كان في نيتها أن تصحبنا إلى « ساس فيه » ولكني لم أقبل الإشراف على الطفل إلا بشرط أن تتركه كلية لعنايتي ، وإلا فليس في استطاعتي أن أضمن نجاحا لعلاجي . وأضافت :

ـ تصور ياسيدي أن وجوده مع أمه يجعله في حالة انفعال دائم ، وهذه الحالة تساعد على نمو أسوأ الاضطرابات النفسية فيه . اضطرت هذه المرأة إلى أن تكسب عيشها بعد وفاة زوجها ولم تكن عند ذاك إلا عازفة على البيانو ، ويجب أن أعترف بأنها عازفة لا يضارعها أحد . إلا أن عزفها كان أرقى مما يستطيع عامة النـاس تذوقه ، ولذا قررت الغناء مع الفرق الموسيقية في الملاهي ، والصعود على خشبة المسرح ، وكانت تصطحب « بوريس » معها إلى مقصورتها . وأعتقد أن جو المسارح ـ وهو غير طبيعي ـ قد ساهم في التأثير على أعصاب الطفل . إن أمه تحبه حبا جما ، ولـكن الحقيقة أن مصلحته أن لا يعيش معها.

وسألتها : وماذا به على وجه التحديد ؟

وهنا انفجرت ضاحكة وسألتني :

ـ أهو اسم المرض الذي يهمك أن تعرفه ؟ لن تستفيد كثيراً إذا ما ذكرت لك اسما علميا .

وقلت لهـا : اذكرى فقط ما يشكو منه .

وأجابت : إنه يشكو من عدد من الاضطرابات ، من عادات ونزوات تجعلنا نقول إنه طفل عصبي . والمـألوف أن يعالج بالراحة والبقـاء في الهواء الطلق وفي جو صحي . ولاشك أن البنية القوية لا يمكن أن تسمح لمثل هذه الاضطرابات بالظهور

ولـكن إذا كان الضعف يساعد على ظهورها فلا يمكن القول بأنه يتسبب فيها . وفى اعتقادى أننا نستطيع الاهتداء إلى أصلها فى هزة أصابت الإنسان بسبب حادث معين يجب اكتشافه ، وبمجرد أن يدرك المريض هذا السبب فإنه يكون قد حصل على نصف الشفاء . ولـكن هذا السبب كثيرا ما ينفلت من ذاكرة المريض ، ويبدو وكأنه مختبىء فى ظلام المرض . وإننى لأبحث عن السبب فى ذلك المخبأ لـكى أخرجه إلى وضح النهار ، أى إلى مجال الرؤية فى اعتقادى أن النظرة الصافية تستطيع أن تطهر الضمير كما ينقى شعاع الضوء ماء ملوثا .

وسردت على « سوفرونيسكا » المحادثة التى سمعتها فى اليوم السابق ، والتى شعرت منها بأن « بوريس » بعيد كل البعد عن الشفاء .

ــ إننى فى الحقيقة بعيدة كل البعد عن معرفة كل ما أحتاج إلى معرفته عن ماضى « بوريس » ولم أبدأ هذا العلاج إلا أخيراً .

ــ علام ينصب علاجك ؟

ــ أوه ! إنه لا يعـدو وأن أتركه يتكلم . أقضى بجانبه كل يوم ساعة أو ساعتين وأوجه إليه بعض الأسئلة ، ولـكنها أسئلة قليلة جدا . وقد عرفت فعلا أشياء كثيرة ، وأتصور أشـياء أخرى كثيرة . ولـكن الصغير لا يزال يقاوم لأنه يشعر بالخجل ، ولو ألححت عليه بسرعة وبقوة ، ولو حاولت انتزاع اعتراف لوقعت فى عكس ما أرغب الحصول عليه ، أى الاستسلام التام .

ومادمت لم أتمكن من التغلب على تحفظه وحيائه فسيقاوم .

ورأيت فى هذا التنقيب والتفتيش فى نفس الطفل نوعا من الاعتداء ، ولذا وجدت وأنا أستمع إلى حديثها صعوبة فى إخفاء حركة تدل على الاحتجاج . ولـكن فضولى انتصر فى النهاية وسألتها :

ــ هل أفهم من هذا أنك تحاولين أن يعترف لك الصغير ببعض أمور فاجرة ؟

وهنا احتجت بدورها على ما أقول فردت :

ـ أمور فاجرة ! أليس فى هذا ما يخجل أكثر من سماحك للطبيب بفحصك! إننى أحتاج إلى معرفة كل شىء ولاسيما كل ما يصر المريض على إخفائه . يجب أن أصل ببوريس إلى الاعتراف الكامل ، وقبل أن أتوصل إلى ذلك لن أؤمل له شفاء .

ـ أتعتقدين أن ثمت ما يمكن أن يعترف به لك ؟ أأنت متأكدة — ولا تؤاخذينى فى ذلك ـ من أنك لاتوحين إليه ماتريدين أن يبوح به لك ؟

ـ إننى أخشى ذلك ، ولا أنساه طوال الوقت . وهـذا الخوف هو الذى يجعلنى لاأتسرع . لقد رأيت قضاة غير مهرة يوحون ـ عن غير قصد ـ لطفل أن يشهد بما لا أساس له من الصحة ورأيت الطفل حينئذ ـ تحت وطأة استجوابهم ـ يكذب بحسن نية ويشهد بأمور خيالية . إن دورى أن أنتظر مايجىء عفواً دون أن أوحى إليه شيئاً . ونحن نحتاج إلى صبر غير عادى .

ـ فى رأيى أن الوسيلة تتوقف على مقدرة المعالج ،

ـ لم أجرؤ أن أقول ذلك ، وأؤكد لك أننا نصل بعد مدة كافية من التمرين إلى درجة غير عادية من المهارة ، إلى مايشبه العلم بالغيب ، أو إذا أردت إلى نوع من قوة البداهة . ومع ذلك يحدث أن نتبع أثراً كاذباً . المهم هو ألا نتعصب لفكرة . هاك مثلا : أتعرف كيف تجرى محادثاتنا ؟ يبدأ « بوريس » حديثه بسرد ماحلم به أثناء الليل .

ـ وما أدراك أنه لايخترع أحلاما ؟

ـ حتى ولو حدث هذا ! كل اختراع يوحيه خيال مريض يظهر حقائق ،

وسكتت لحظات ثم أردفت :

ـ « اختراع ، خيال مريض » ... لا ! ليس هذا . الكلمات تخدعنا . إن « بوريس » يحلم أمامى بصوت عال . وهو يقبل كل صباح أن يبقى ساعة فى حالة نصف نوم ، وهى تلك الحالة التى لاتخضع خلالها الصور التى تمثلها لسيطرة عقلنا ، وإنما تتجمع هذه الصور وتترابط ، لا تبعا للمنطق العادى ، ولكن وفقاً لروابط غير متوقعة ،

وتستجيب هذه الصورة لإلحاح باطنى غامض ، وهذا الإلحاح هو الذى يهمنى اكتشافه . وهذيان الطفل هذا يعلمنى أكثر من أذكى تحليل يقوم به شخص من أكثر الناس وعيا . ثمت أشياء كثيرة لا يهتدى العقل إليها ، ومن يعتمد على عقله فقط لتفهم أمور الحياة ، مثله كمثل من يدعى القدرة على أن يمسك شعلة بملقاط . فهو لن يجد أمامه حينئذ إلا قطعة من الخشب المحروق لا تلبث أن تنطفىء .

وتوقفت قليلا ثم بدأت تتصفح كتابى وصاحت :

ــ أرى أنكم لا تتعمقون كثيرا فى معرفة النفس البشرية . ثم أضافت فجأة وهى تضحك : عندما أقول أنتم أعنى كتاب القصة لا أنت بالذات . إن غالبية شخصيات قصصكم تبدو وكأنها بنيت على قوائم ، فليس لها لا أساس ولا أدوار سفلى . وفى رأيى أن الشعراء أقرب إلى الحقيقة من القصصيين . كل إنتاج تخيله العقل وحده مزيف . ولكننى أتكلم هنا عن أشياء لا شأن لى بها ... أتعرف ماذا يحيرنى فى « بوريس » ؟ إنه اعتقادى أنه على درجة عالية من النقاء .

وسألتها : ولماذا تقولين إن ذلك يحيرك ؟

فأجابت : إننى فى هذه الحال لا أعرف أين أبحث عن مصدر العلة . فى تسع حالات من عشر نجد أن مصدر اضطراب كهذا سر كبير مخجل .

وقلت : ربما وجدنا هذا السر المخجل عند كل منا إلا أنه لحسن الحظ لا يجعل منا جميعا مرضى .

وفى هذه اللحظة نهضت مدام « سوفرونيسكا » إذ رأت « برونجا » تمر أمام النافذة .

قالت وهى تشير :

ــ انظر إليها ، إنها الطبيب ، الطبيب الحقيقى الذى يعالج « بوريس » . إنها تبحث عنى ، إننى مضطرة أن أتركك . ولكننى سوف أراك ثانية ، أليس كذلك ؟

إنى أفهم ما تأخذه « سوفرونيسكا » على القصص من نقد، ولكن ثمت أسباباً فنية — أسبابا عليا لاتفهمها — تدفعنى إلى الاعتقاد بأنه لايمكن أن نجعل من عالم فى العلوم الطبيعية كاتبا قصصيا ممتازا ،

لقد قدمت « لورا » لمدام « سوفرونيسكا » ويبدو أنهما متفاهمتان وهذا أمر يسعدنى . لم أعد أخشى التماس العزلة عندما أراهما تثرثران معا. إننى آسف أن لايجد « برنارد » فى هذا المكان رفيقا له فى مثل سنه ، ولكن الامتحان الذى يستعد له يشغله بضع ساعات فى اليوم . وهكذا تمكنت أنا من العودة إلى العمل فى قصتى !

الفصل الثالث

رغم ما يبدو لأول وهلة ، لم تكن الأمور على غاية ما يرام بين « ادوارد » و « برنارد » مع أن كلا منهما اجتهد من ناحيته أن تسير سيرا حسنا . و لورا بدورها لم تكن تشعر بالرضا ، وكيف يتسنى لها ذلك؟ لقد اضطرتها الظروف إلى القيام بدور لم تخلق له. كانت طبيعتها الأمينة تثور لهذا الوضع ، كانت كواحدة من هؤلاء النساء المحبات الطيعات الخليقات بأن يكن زوجات متفانيات ـ تشعر أنها ، حتى لكي تقيم أودها ، في حاجة إلى رعاية إلى التقاليد ، ولهذا أحست بالوهن منذ أوجدتها الظروف في إطار غير إطارها. وبدا لها موقفها إزاء ادوارد ، وقفا زائفا يزداد زيفه يوما بعد يوم . أما ما كان يعذبها بنوع خاص فهو أنها تعيش في كنف هذا الرجل الذى يحميها دون أن تعطيه هى مقابل ذلك شيئا ، أو بمعنى أدق : أن « ادوارد » لم يسألها شيئا مقابل ذلك ، بينما كانت تشعر هى بأنها على استعداد لأن تمنحه كل شىء . إن الحسنة ، كما قال تاسيت على لسان مرنتيني ، لا تستعذ بها النفس إلا إذا كان في مقدور المرء ردها . وهذا الإحساس ولا شك لا يمكن أن تشعر به إلا النفوس النبيلة . وكانت لورا من هذا النوع بالتأكيد ، فبينما كانت على استعداد لأن تعطى ، وجدت نفسها تأخذ باستمرار ، وكان هذا الأمر يجعلها تثور ضد ادوارد . أضف إلى ذلك أنها كلما استعادت ذكرى الماضى ، ازدادت إحساسا بأن ادوارد . خدعها حين أيقظ في نفسها حبا تحس أنه كان ومازال حيا شديد الحيوية ثم خدعها بعد ذلك بتهربه من هذا الحب وتركه عاطلا . ألم يكن ذلك هو السبب الخفى لأخطائها ، لزواجها من (دوفيه) الذى استسلمت له بعد أن قادها ادوارد إليه ، ولتقبلها بعد ذلك مباشرة لإغراءات الربيع ودعواته ؟ نعم ، لقد كان عليها أن تعترف لنفسها وهى في أحضان فنسان بأن ادوارد هو الشخص الذى ما برحت تنشده وترغبه . وإذ عجزت عن تفسير برود من عشقته راحت تلقى المسئولية على نفسها ، قائلة: إنها كانت خليقة أن تستحوذ عليه لو كانت أكثر جمالا أو أكثر إقداما . وحين عجزت عن

كراهيتــه راحت تتهم نفسها وتمتهنها وتحط من قدرها ولا ترى سببا لحياتها ، ولا فضيلة لذاتها .

وفضلا عن ذلك فإن هذه الحياة التى تشبه حياة المعسكرات ، والتى فرضها وضع الغرف ـ هذه الحياة التى بدت وكأنها تطيب لرفيقها ـ كانت تخدش فى نفسها جوانب كثيرة من الحياة ، ولم تــكن ترى مخرجا من هذا الوضع وإن كان الاستمرار فيه عسيرا .

ولم تجد لورا شيئاً من العزاء ، وشيئا من البهجة ، إلا فى أن تفرض على نفسها ألوانا من الواجبات تجاه برنارد ، واجبات كواجبات (الشبين) أو الأخت الـكبرى . وكانت فخورة بما يكنه لهــا هذا الفتى المراهق الفائض رقة ، من تقديس . كما أن عبادته لها كانت تمنعها من الاسترسال فيما تشعر به من الازدراء لنفسها ، ذلك الاشمئزاز الذى يمكن أن يدفع من يشعرون به ، وإن كانوا أكثر الناس ترددا ، إلى اتخاذ قرارات متطرفة .

وإذا لم تــكن هناك رحلة تجتذب برنارد قبل الفجر (وكان يؤثر النهوض مبكرا) فإنه يقضى معها كل صباح ساعتين كاملتين يقرأ فيهما الإنجليزية . وكان الامتحان الذى سيدخله فى أكتوبر ذريعة وجيهة لذلك .

لا يمكن أن نقول إن أعماله بصفته سكرتيرا كانت تستغرق منــه وقتا كبيرا ، ولم تــكن هذه الأعمال محددة المعالم . وعندما تعهد برنارد بالقيام بها فى بادىء الأمر تخيل نفسه جالسا أمام مكتب يسجل ما يمليه ادوارد ، كما تخيل نفسه يعد بعض الأوراق . ولــكن ادوارد لم يمله أى شىء . أما عن الأوراق — إن كانت ثمت أوراق بالمعنى المفهوم — فقد بقيت فى حقيبة مغلقة . وكان برنارد يتمتع بحريته كل ساعة من ساعات النهار . كان على اداورد نفسه أن يحاول استغلال رغبة برنارد فى العمل ، ولهذا لم يؤسف برنارد أن يكون دون عمل، وأن يتمتع بهذه الحياة الرغدة التى وفرها له كرم ادوارد . لقد عاهد برنارد نفسه على أن لا يترك لوساوس الضمير سبيلا لتقض مضجعه . لم يكن يؤمن إيمانا راسخا بالعناية الإلهية ، ولــكنه كان يعتقد أن نجمه سعيد وأن من حقه أن يحصل على بعض

الهناء ، كما تحصل رئتاه على الهواء . وكان ادوارد فى نظره هو الشخص الذى عهد القدر إليه بمنحه هذه السعادة . ثم إنه كان يعتقد أن الوضع الراهن وضع مؤقت ويؤمن أنه سيوفى يوما ما عليه من دين ، حالما تسمح له الظروف بتحويل ما يزخر به قلبه من كنوز إلى مال . وكان يعتقد أن قلبه ملىء بالكنوز . أما ما ضايقه فهو عدم التجاء « ادوارد » إلى بعض المواهب التى كان يؤمن أنه يتمتع هو بها على حين يفتقر ادوارد إليها . وكان يقول لنفسه إنه لا يعرف كيف يستفيد منى . وكان هذا يرضى كبرياءه فيحدث نفسه قائلا : «إن ادوارد هو الخاسر» .

ولكننا نتساءل : من أين جاء إذن ما كان بين ادوارد وبرنارد من ضيق وحرج ؟ يلوح لى أن برنارد كان من هؤلاء الأشخاص الذين لا يشعرون بالثقة بأنفسهم إلا عندما يعارضون الغير . لم يكن يحتمل أن يرى « ادوارد » متسلطا عليه ، ولذا أخذ على نفسه ألا يخضع وفرض عليها المقاومة . ولم يفكر ادوارد قط فى السيطرة عليه ، ولذا غضب وحزن إذ رآه حرونا دائم التأهب لصد خطر أو على الأقل لحماية نفسه . ولذا راح يسائل نفسه : هل أخطأت باصطحاب هذين الشخصين اللذين جمعت بينهما فاتحدا ضدى على ما يبدو ؟ وإذ عجز عن فهم ما يعتمل فى نفس «لورا» ، تصور فى انطوائها وفى تحفظها عدم مبالاة بأمره . ولو قد استشف ما فى قلبها لحنق وضاق . وأدركت « لورا » ذلك جيدا فراح حبها المهمَل يستخدم كل ما فيه من قوة ليخفى نفسه وينسج الصمت حوله .

وكانت ساعة تناول الشاى تجمعهم عادة فى الغرفة الكبيرة . وكثيرا ما أتت مدام « سوفرونيسكا » بناء على دعوة منهم وكان ذلك يحدث عادة فى الأيام التى يخرج فيها « بوريس » و « برونجا » معا للنزهة . وكانت تتركهما معا يتمتعان بكامل حريتهما بالرغم من حداثة سنهما . فهى تثق فى «برونجا» ثقة مطلقة ، وتعرف مدى حرصها ولا سيما عندما تكون مع « بوريس » . وكان هذا الأخير يبدو مطيعا معها . كما أن المنطقة آمنة ، وبالطبع لم تكن تسمح لهما بأن يتعمقا داخل الجبل ، ولا أن يتسلقا الصخور القريبة من الفندق . وذات يوم حصل الصبيان على إذن بالذهاب إلى أسفل الجبل المغطى بالجليد ، بعد أن اشترطت عليهما أن لا يبتعدا عن الطريق ، وجاءت

مدام « سوفرونيسكا » لتناول الشاى معهم . وتجرأت فى ذلك اليوم بتشجيع برنارد ولورا فطلبت من ادوارد أن يحدثهم عن قصته المقبلة إن لم يكن فى ذلك ما يضايقه .

وأجاب « ادوارد » : إطلاقا ، وإن كنت لا أستطيع أن أسرد لكم ما فيها ، ومع ذلك يبدو أنه غضب عندما سألته «لورا» (ولا شك أن سؤالها لم يكن لبقا) : أى شيء يشبه هذا الكتاب ، فصاح :

— إنه لا يشبه شيئاً على الإطلاق — ثم أضاف وكأنه لم يكن ينتظر إلا هذا التحدى .

— لماذا أعيد ما سبق أن عمله غيرى ، أو ما سبق أن عملته أنا نفسى ، أو ما يمكن أن يعمله سواى ؟

وبمجرد أن نطق «ادوارد» بهذه الكلمات ، شعر بما فيها من عدم لياقة ومبالغة وخطل . أو بمعنى أصح بدا له أن كلماته هذه غير مناسبة وسخيفة ، أو لعله خشى أن تبدو كذلك فى عينى برنارد .

كان « ادوارد » مرهف الحساسية يغضبه أبسط شيء . وكان يبدو وكأنه قد فقد صوابه بمجرد أن يتحدث إليه أحد عن عمله أو يجعله هو يتحدث عنه .

كان يشعر باحتقار شديد لغرور المؤلفين المعهود ، وكان يحاول جاهداً أن يهذب من غروره هو . ولكنه كان يجد فى تقدير الغير له سنداً لتواضعه ، فإذا لم يجد هذا التقدير ، زايله تواضعه فى الحال . وكان رضاء « برنارد » شيئاً هاما جداً بالقياس إليه . فهل كان يطلق العنان لنفسه فى حضرة « برنارد » ليحصل على رضائه ؟ لقد كانت تلك خير وسيلة ليفقد رضاءه . وأدرك ادوارد ذلك تماما ، وكان يكرر هذا القول لنفسه ، إلا أنه بالرغم مما عاهد نفسه عليه لايكاد يوجد مع برنارد حتى يتصرف بطريقة مخالفة تماما لما كان قد اعتزمه ، ويتكلم كلاما يشعر بسخفه . هل يمكن أن يدل ذلك على أنه يحبه ؟.. لا ، لا أظن ، فلو كان يحبه حقا لما احتاج إلى كل هذا التصنع ، ولكفاه قليل من الغرور .

وقال ادوارد ، وهو يحاور : إن القصة مازالت أكثر فروع الأدب تحرراً وخروجا على قوانينه ، لكن هل لهذا السبب، وخوفا من هذه الحرية ذاتها (ذلك لأن الفنانين الذين يهفون إلى الحرية أكثر من غيرهم هم أشد الفنانين جنونا بمجرد حصولهم عليها) تمسكت القصة بأهداب الواقع ؟ ولست أتكلم عن القصة الفرنسية فحسب ، فالقصة الروسية — وشأنها فى ذلك شأن القصة الإنجليزية — مهما تحررت من القيود ، فإنها تخضع لتلك الرغبة فى تصوير الواقع . والتقدم الوحيد الذى تسعى القصة إليه هو أن تقترب من الواقع أكثر ، وأكثر !

ولم تعرف القصة أبداً ما ذكره «نيتشه» عن طمس الحدود . ولم تعرف هذا التباعد الإرادى عن الحياة الذى أتاح الفرصة لظهور الأسلوب العظيم الذى امتازت به مؤلفات المسرحيين اليونانيين والمأساة الفرنسية فى القرن السابع عشر . وهل هناك شىء أقرب إلى الكمال وأكثر عمقاً فى إنسانيته من هذه المؤلفات ؟! إن هذه المؤلفات ليست إنسانية فى الحقيقة إلا لما فيها من عمق ، وإلا لأنها لم تهتم بإظهار ما فيها من عمق إنسانى أو هى لم تهتم بأن تبدو واقعية . ومع ذلك فهى آية فى الفن .

وكان ادوارد قد نهض من مقعده وأخذ يصب الشاى وهو يتكلم ، لأنه خشى أن يبدو عليه أنه يحاضر . وكان يغدو ويروح ثم يعصر ليمونة فى فنجانه ومع هذا استمر فى حديثه .

لأن بلزاك كان عبقريا، ولأن كل عبقرى يبدو وكأنه قد أتى لفنه بشكل نهائى — حكم الناس بأن ما يميز القصة هو أن تنافس حقائق الحياة الاجتماعية ؟ لقد أقام بلزاك صرح مؤلفاته ، ولكنه لم يدّع أبداً أنه وضع للقصة دستورا ، ومقاله عن «ستندال» يثبت ذلك .

(منافسة حقائق الحياة الاجتماعية !) لكأننا لا يكفينا ما نجده فى عالمنا من قرود ومن إمعات ! ما شأنى أنا والحقائق الاجتماعية ! الحقيقة هى أنا ، أنا الفنان ! ومؤلفاتى لا تدّعى أنها تنافس شيئاً ، كان ادوارد قد تحمس ، أو لعله تظاهر بالحماس، ثم جلس وتصنع عدم النظر إلى برنارد ، مع أنه كان فى الواقع يوجه حديثه

إليه . ولو كان معه بمفرده لما استطاع أن يقول شيئاً . وأنه ليحمد لهاتين المرأتين أنهما دفعتاه إلى الحديث .

وأردف : يبدو لى أحيانا أن لا شىء أعجب به فى الأدب كما أعجب بالمناقشة التى دارت بين «ميتريدات» وأبنائه فى مأساة «راسين» فالكل يعرف أنه لم يحدث قط أن كلم أب أولاده بهذه الطريقة . ومع ذلك يمكننى أن أقول إن كل الآباء وكل الأبناء يستطيعون أن يجدوا أنفسهم فى هذا الحديث. إننا بالتحديد وبالتخصيص نضيق النطاق ، نعم ، ليست هناك حقيقة سيكولوجية ، إلاوهى تـكوّن شيئاً خاصا ، ولـكن ليس هناك فن إن لم يكن عاما . وكل المشكلة فى هذه النقطة بالذات هى التعبير عن العام بالخاص ، أو أن تجعل الخاص يعبر عن العام .

أتسمحون لى أن أشعل غليونى ؟

وأجابته سوفرونيسكا : تفضل ، تفضل .

واسترسل ادوارد قائلا : إننى أريد قصة تعبر عن الحقيقة مع بعدها كل البعد عن الحقيقة . قصة خاصة وعامة فى وقت واحد ، تعبر عن الحقيقةالإنسانية مع بعدها كل البعد عن الواقع كما هو الحال فى آتالى و طرطوف و سينا و...[١] .

— وماذا يكون موضوع القصة ؟

وأجاب ادوارد دون تردد : لا موضوع لها . ولعل ذلك هو المدهش فيها ، ليس لقصتى موضوع . نعم إننى أدرك أن ما أقوله هنا قد يبدو سخيفا لا معنى له ، ولنقل — إذا فضلتم هذا التعبير — إن قصتى لن يكون لها موضوع معين ... ستكون قطعة مشطورة من الحياة كما كانت تقول المدرسة الطبيعية . ولـكن الخطأ الذى وقعت فيه هذه المدرسة هو أنها أرادت أن تقطع هذه الشطرة دائما فى اتجاه واحد ، هو الاتجاه السطحى للزمن ، فلماذا لا يكون القطع فى اتجـاه أعمق ؟ أما عنى فإننى

---

(١) الأولى مأساة لراسين والثانية ملهاة لموليير والثالثة ماساة لـكورنييل .

لا أريد أن أقطع إطلاقا . أرجو أن تفهموا ما أعنيه : إننى أريد أن أدخل كل شىء فى هذ القصة . لا أريد أن أحدد مادتها فى مكان أو آخر منها بضربات من مقصّ ، ومنذ سنة وأنا أعدّ لهذه القصة ، فلا يصادفنى شىء إلا أفرغته فيها ، إننى أريد أن أفرغ فيها كل شىء ، كل ما أراه ، كل ما تعلمنى إياه حياة الآخرين وحياتى أنا ...

وسألت سوفرونيسكا وهى تتظاهر بالاهتمام البالغ ، وإن كان فى لهجتها ولا شك نبرة سخرية : وكل ذلك سوف تضعه فى أسلوب رائع ؟ ولم تستطع لورا إخفاء ابتسامة ، ورفع ادوارد كتفيه وأردف :

— ولا حتى هذا . إنما أريده هو أن أعرض الحقيقة من ناحية ، وأن أعرض من ناحية أخرى الجهد لإعطائها أسلوبا ؛ وهذا ما كنت أحدثكم عنه منذ قليل .

وقالت لورا : ياصديقى المسكين ، سوف تقتل قراءك مللا .

وحين عجزت عن إخفاء بسمتها قررت أن تضحك بحق .

وأجابها : لن يحدث ذلك على الإطلاق ، ولكى أحقق هذا الهدف أرجو أن تتابعونى . سأبتكر شخصية قصصىّ ، وسوف أقدمه على أنه وجه تدور حوله القصة ، وسوف يكون موضوع الكتاب ـ إذا أردتم ـ هو الصراع بين ما يقدمه له الواقع وما ينوى أن يصنعه هو من هذا الواقع .

وقالت «سوفرونيسكا» بلهجة مؤدبة : نعم ، نعم (وكانت قد أوشكت أن تنفجر من الضحك مثل لورا) سيكون هذا أمراً غريباً بعض الغرابة ، ولكن من الخطر عرض شخصيات المفكرين فى القصص لأنهم يقتلون القراء سأماً ، ولا يستطيع المؤلف أن ينطقهم إلا بحماقات ، وهم يضفون على كل ما يتعلق بهم لونا من التجرد .

وصاحت لورا ، ثم إننى أتخيل ما سيحدث ، لن تستطيع عند تقديم هذا القصصى أن تعمل شيئاً آخر سوى أن تصور نفسك .

وكانت قد اتخذت منذ وقت ما مع ادوارد لهجة ساخرة ، وقد عجبت لذلك ،

ولكن هذه اللهجة أثارت ادوارد، لا سيما وأنه لمح فى عينى برنارد الجبينين انعكاسا لسخريتها هذه، ولذا قال محتجا .

— لا ، سوف أضطر إلى أن أجعل من بطل القصة شخصاً منفراً جدا . وكانت لورا قد انطلقت على سجيتها فقالت ،

— الناس جميعاً سوف يتعرفون عليك حينئذ فى هذه الشخصية . قالتها وهى تضحك بملء فيها ، حتى أن ضحكتها دفعت الثلاثة الباقين إلى الضحك .

وسألت سوفرونيسكا ، وهى تحاول أن تبدو جادة : وهل قمت بوضع خطة لما سيكون عليه هذا المؤلف ؟

— لا ، بالطبع .

— كيف ذلك ؟

— يجب أن تفهمى أن مؤلفا كهذا لا يمكن أن يكون له تصميم . فإذا أنا حددت له معالم مقدماً فسيبدو كل ما أقوله مزيفا . إنى أنتظر أن يمليه على الواقع ذاته .

— ولكننى كنت أعتقد أنك تريد أن تبتعد عن الواقع .

— شخصية القصصى فى هذا الكتاب ستحاول ذلك . ولكننى سوف أرجعه دائما إلى الواقع سيكون ذلك هو الموضوع : الصراع بين الحقائق التى يقدمها الواقع وبين الحقيقة المثالية .

وكان افتقار مايقوله إلى المنطق واضحا جداً وبشكل مؤلم . وظهر جليا أن فى رأس « ادوارد » رغبتين لا يمكن التوفيق بينهما ، وأنه كان يبذل جهدا كبيراً للتوفيق بينهما .

وسألته « سوفرنيسكا » بلهجة مؤدبة : وهل قطعت مرحلة كبيرة ؟

وأجابها : هذا يتوقف على ماتعنينه بقولك هذا . أما عن الكتاب نفسه فلم أكتب بعد فيه سطرا واحدا . ولكننى عملت كثيراً لإعداده . إنى أفكر فيه دائماً ودون انقطاع . إنى أعمل بطريقة غريبة سوف أشرحها لكم : أدون فى كراسة كل

يوم ما وصلت إليه حال هذه القصة فى ذهنى . إنه شىء يشبه اليوميات ، يوميات تقص تطور طفل ... أعنى بهذا إننى بدلا من الاكتفاء بإيجاد حل لكل مشكلة تصادفنى (وليس العمل الفنى إلا مجموعة حلول اصعاب كثيرة معقدة متتالية) أعرض كلا من هذه المشكلات وأدرسها . فهذه الكراسة عبارة عن نقد مستمر لقصتى أو بمعنى أصح نقد للقصة عامة . تصوروا مدى ما كنا نفيده من كراسة كهذه لو كتبها ديكنز أو بلزاك . لو كانت لنا يوميات كهذه للتربية العاطفية [1] أو للأخوة كارامازوف [2] ! أى قصة العمل الفنى ، قصة « مخاضه » ، لو وجدت مثل هذه اليوميات لكانت مثيرة ... ولأثارت الاهتمام أكثر من القصة ذاتها .. !

كان ادوارد يأمل أن يطلبوا منه قراءة هذه اليوميات . ولكن أحداً من الثلاثة لم يبد أى اهتمام بذلك . وبدلا من هذا قالت له لورا بنبرة حزينة —

— ياصديقى المسكين . أعتقد أنك لن تكتب هذه القصة أبداً .

وهنا صاح ادوارد بحماس : حسنا سوف أقول لكم شيئاً . الأمر سواء لدىّ . إن لم أستطع كتابة هذا المؤلف فسيكون تاريخ الكتاب قد شغفنى أكثر من الكتاب ذاته . وفى هذه الحالة يحل هذا التاريخ محل الكتاب نفسه . وسيكون هذا أفضل .

وسألته سوفروفيسكا فى تردد : ألا تخشى بابتعادك عن الواقع أن تضل فى آفاق مجردة ، وأن تؤلف قصة لا تمثل أحياء ولكن أفكارا ؟

وصاح ادوارد فى قوة : وماذا فى ذلك؟ الأنّ بعض الحمقى فشلوا فى هذا يجب أن نقضى على القصة التى تصور الأفكار؛ لقد قدموا لنا بدلا من قصص الآراء قصصا ذا رسالة ، قصصا كريهاً ، ولكن ليس هذا هو المطلوب . إن الأفكار ، الأفكار — وأنا أعترف لكم بذلك — تهمنى أكثر مما يهمنى الناس . إنها أكثر شىء يهمنى . الأفكار تعيش ، وهى تجاهد وتحتضر كالناس تماما ، ويمكن طبعا أن نقول إننا

---

(١) قصة لفلوبير (٢) قصة لدوستويفسكى .

لانعرفها إلا عن طريق الناس ، كما لا تعرف الرياح إلا عن طريق الأغصان التى تثنيها . ولكن الرياح — على كل حال — تهمنا أكثر من الأغصان .

وجازف برنارد بكلمة فقال : الرياح موجودة ومستقلة عن الأغصان .

ودفع تدخله هذا ادوارد إلى التحمس من جديد وكان ينتظر تعليق برنارد منذ وقت طويل فقال :

— نعم ، أعرف ذلك . الأفكار لا وجود لها إلا عن طريق الناس . ولكنها — وهذا هو الأمر الذى يثير الشفقة — تعيش على حسابهم .

كان برنارد قد أصغى إلى كل ذلك باهتمام ، وبدأ الشك يملأ نفسه . وكان على وشك أن يحكم على ادوارد بأنه رجل تملأ ذهنه الأوهام . ومع ذلك فإن فصاحة ادوارد فى اللحظات الأخيرة أثرت فيه ، وتحت تأثير هذه الفصاحة شعر بأن أفكاره تنثنى . ولكنه كان يحدث نفسه قائلا : إن أفكارى كالغصن الذى يميل ولكنها تنتصب بعد أن تذهب العاصفة . وتذكر ما سبق أن لقنوه إياه فى المدرسة من أن العواطف هى التى تقود الإنسان وليست الأفكار . ومع ذلك استمر ادوارد فى حديثه قائلا :

ما أريد أن أعمله — حاولوا أن تفهموا ما أعنيه - شىء يشبه القطعة الموسيقية التى تتكرر فيها نفس المقاطع مع تتابعها . ولست أرى سببا لاستحالة شىء فى الأدب أمكن تحقيقه فى فن الموسيقى ...

وردت سوفرونيسكا على دعواه هذه بقولها : إن الموسيقى فن قائم على الرياضيات . — وإنه زيادة على ذلك — لو لم نهتم فيه إلا بالأرقام . ولو جردناه من التأثير ومن الإنسانية لأمكننا أن نقول إن « باخ » نجح فى وضع آية من آيات الملل ، شىء يشبه معبداً لا يستطيع بلوغه إلا قلة من أهل العلم .

واحتج ادوارد على ذلك قائلا : إن هذا المعبد فى رأيه يثير الإعجاب وأنه يرى فيه الخلاصة ، وقمة ما وصل إليه فن « باخ » .

وأضافت لورا : وبعد هذه الآية ابتعد الناس عن هذا النوع من الموسيقى لمدة طويلة. لقد تطلعت الانفعالات الانسانية إلى ملاذ آخر بعدأن وجدت أنها عاجزة عن أن تلوذ بهذا اللون من الموسيقى .

راحت المناقشة تضيع فى بلاغة كلامية . ولم يطق (برنارد) صبراً ، وكان قد سكت حتى الآن ، ولكنه بدأ يتململ على مقعده وتكلم بلهجة فيها احترام كبير مبالغ فيه ــ كما كان يفعل دائما إذا ماتوجه بالحديث إلى (ادوارد) ــ وكان فى لهجته هذه ما يوحى بأن هذا الاحترام ليس إلا تمثيلا ، فقال : عفوا ، سيدى ، إذا كنت قد عرفت عنوان كتابك ــ وقد عرفته بتطفلى ــ ولكنك تفضلت فنسيت هذا التطفل . ومع كل يبدو أن هذا العنوان يبشر بقصة .

وقالت « لورا » : أوه ! اذكر لنا هذا العنوان .

وأجابها : إذا أردت ياصديقتى العزيزة ولكنى أحذركم ، إذ قد أغيره بآخر وأخشى أن يكون عنوانا خداعا .. اذكره لهم يا (برنارد) .

— أتسمح لى بذلك ؟ ... (المزيفون) . ولكن الآن قل لنا بدورك من هم هؤلاء (المزيفون) ؟

— حسنا إننى لا أعرف شيئاً عنهم .

ونظر كل من (برنارد) و (لورا) إلى الآخر، ثم نظرا إلى (سوفرونيسكا) وسمع ادوارد صوت تنهيدة طويلة ، واعتقد أن (لورا) هى التى أطلقتها .

الحقيقة أن (ادوارد) عندما اختار هذا الاسم كان يفكر فى بعض زملائه فى بادىء الأمر ، ولا سيما فى الكونت (دى باسافان) . ولكن هذه التسمية أخذت تتسع بعد قليل وتشمل أناساً كثيرين ، يكونون طورا قسسا ، وطوراً (ماسونيين) تبعاً للمكان الذى تهب الريح منه سواء من روما أو من غيرها . وكان ذهن (ادوارد) — إذا ما ترك له العنان ــ يجنح دائماً نحو عالم غامض يحلو له أن يتمرغ فيه . وكان يريد أن يشبه الأفكار بالعملات المتداولة بين الناس ، ترتفع

قيمتها أو تنخفض فى سوق المبادلات . وكانت هذه النظرية تغزو كتابه بالتدريج كما غزت نظريات الملابس كتاب (سارتوس ريزارتوس) لكارليل ، حيث احتلت مكان الشخصيات . وإذ لم يستطع أن يكلمهم فى هذا الشأن فقد سكت . ولم يكن موفقا فى ذلك لأن سكوته بدا وكأنه اعتراف بالعجز . وبدأ الثلاثة الآخرون يشعرون بحرج شديد .

وسأل أخيراً : هل تصادف أن أمسكتم بين أيديكم قطعة نقود مزيفة ؟ وأجاب (برنارد) نعم . ولكن كلمة (لا) التى نطقت بها المرأتان غطت على صوته .

— حسنا ، تخيلوا قطعة مزيفة من فئة العشرة الفرنكات . إن قيمتها الحقيقية لاتتعدى عشر فرنك ، ولكنها تساوى عشرة فرنكات مادام الناس يجهلون أنها مزيفة وإذا ما تدرجت بهذه الفكرة إلى ...

فقاطعه « برنارد » نافذ الصبر : ولكن لماذا تتدرج بفكرة ؟ إذا ما اعتمدت على حقيقة وأحسنت عرضها فإن الفكرة سوف تأتى من تلقاء نفسها . لو كان على أن أكتب قصة « المزيفين » لبدأت باستعراض القطعة المزيفة ، هذه القطعة التى كنت تتكلم عنها ... وها هى هذه القطعة .

وأخرج من جيب صديريته ، وهو ينطق بهذه الكلمات ، قطعة صغيرة من ذات الفرنكات العشرة وألقى بها على المنضدة ثم أردف :

— أصغوا إلى رنينها كم هو حسن ! إن لها رنيناً كرنين القطع الحقيقية . ويمكن أن يقسم المرء أنها حقيقية . ولقد خدعتنى فى هذا الصباح ، كما وقع فى نفس الخطأ البدال الذى أعطاها لى — على حد قوله . وليس وزنها مطابقاً تماماً لوزن القطع الحقيقية ، إلا أن لها نفس البريق ونفس الرنين تقريباً . وهى مكسوة بقشرة من الذهب وهى لذلك تساوى أكثر من عشر فرنك ، ولكنها من البللور وسوف تصبح شفافة من كثرة الاستعمال . لا ، لا تفركوها فإنكم بذلك تفسدونها ، وقد بدأت تشف فعلا .

وكان ادوارد قد أمسك بها وأخذ يشاهدها بتطلع بالغ ، وسأل :

— ولـكن ممن أخذها البدال ؟

— لقد نسى . إنه يعتقد أنها فى درجه منذ أيام ، وكان يلهو بأن يعطيها لى ليرى هل سأقع فى الخطأ مثله . أقسم أنى كنت على وشك أن أقبلها ! ولـكنه نبهنى إلى حقيقة هذه القطعة لأنه رجل أمين . ثم باعها لى نظير فرنـكات خمسة وكان فى نيته أن يحتفظ بها ليريها لمن أسماهم (الهواة) ودار بخلدى أن أحسن من يمكن أن أريه هذه القطعة هو مؤلف قصة (المزيفون) ، وقد اشتريتها لأريها لك . والآن وقد فحصتها ردها لى ! إنى أرى للأسف أن الواقع لا يهمك .

وقال ادوارد : كلا ، إنه يهمنى ولـكنه يضايقنى .

وأجاب برنارد : هذا شىء مؤسف .

٣ — يوميات ادوارد

(نفس هذا المساء) — سألتنى (سوفرونيسكا) و (برنارد) و (لورا) عن قصتى . لماذا انسقت للحديث عن ذلك ؟ لم أقل إلا سخافات ، ومن حسن الحظ أن عودة الطفلين قطعت حديثى هذا . كان وجهاهما أحمران ، وأنفاسهما متلاحقة كأنهما جريا كثيراً ، وبمجرد أن عادت (برونجا) اندفعت نحو أمها ، واعتقدت أنها موشكة على البكاء ، وصاحت :

— يا والدتى ، أنبى (بوريس) . لقد أراد أن يستلقى على الثلج وهو عار تماماً . ونظرت سوفرونيسكا إلى بوريس وكان واقفاً على عتبة الباب مطأطىء الرأس ، وكانت نظرته ثابتة تبدو وكأن فيها ما يشبه الشعور بالـكراهية ، وتظاهرت بأنها لم تتبين ما فى هذا التعبير من شىء غير عادى ، وقالت بهدوء يستحق الإعجاب :

— أصغ إلى يا بوريس . يجب أن لا تفعل ذلك فى المساء ، إن شئت فسوف نذهب إلى هناك غداً صباحاً ، وسوف تحاول أولا أن تذهب عارى القدمين ...

وربتت يدها على جبين ابنتها برفق ، ولـكن وقعت الصبية فجأة على الأرض

وأخذت تتدحرج فى تشنج ، فقلقنا لذلك ولكن سوفرونيسكا حملتها وأرقدتها على أريكة . أما بوريس فلم يتحرك ،وكان ينظر إلى هذا المشهد نظرة بلهاء . فى اعتقادى أن الوسائل التى تستعملها سوفرونيسكا فى التربية وسائل ممتازة من الناحية النظرية ، ولكنها ربما اعتمدت أكثر مما يجب على قوة التحمل لدى الأطفال .

وقلت لها فيما بعد ، لما وجدت نفسى منفرداً بها : إنك تتصرفين وكأنك متيقنة أن الخير لا بد أن ينتصر على الشر (وكنت قد توجهت إليها بعد العشاء مستفسراً عن « برونجا » ، إذ لم تنزل لتناول الطعام)

وأجابتنى : هذا صحيح ، إنى موقنة أن الخير ينتصر وكلى ثقة بذلك .

وقلت : ومع ذلك ربما أخطأت إذا أنت بالغت فى الثقة ... !

— كل مرة أخطأت فيها كان سببها أن ثقتى لم تكن كافية . اليوم عندما سمحت لهذين الطفلين بالخروج ، لم أستطع إخفاء القلق الطفيف الذى ساورنى ، وقد شعرا بهذا القلق ، وما حدث كان نتيجة لذلك .

وأمسكت بيدى وقالت :

— لا يبدو أنك تصدق بدور الإيمان ... أو بقوة تأثيره .

وأجبتها ضاحكا ، هذا صحيح إذ لست من أنصار الصوفية .

وهنا صاحت فى حماسة تستحق الإعجاب : أما أنا فأعتقد من أعماق قلبى أننا بدون هذه الصوفية لا يمكن أن نصل فى عالمنا هذا إلى أى شىء عظيم ، إلى أى شىء جميل .

اكتشفت فى سجل أسماء المسافرين اسم « فكتور ستروفيلهو » ، وعرفت من البيانات التى أعطاها لى صاحب الفندق أنه ترك (ساس فيه) عشية وصولنا بعد أن مكث هنا أكثر من شهر . كم كنت أود أن أراه ! لا شك أن سوفرونيسكا قد خالطته ، يجب أن أسألها فى هذا .

الفصل الرابع

قال « برنارد » للورا : ـ كنت أريد أن أسألك : هل تعتقدين أن ثم ـ شيئا على هذه الأرض لا يمكن التشكك فيه ؟ ... لقد وصل بي الأمر أن أسأل : أمن الممكن أن نتخذ الشك نقطة ارتكاز ، لأنه على الأقل لن يعوزنا أبدا ؟ فمن الممكن أن أشك فى حقيقة أى شيء ولكنى لا أستطيع أن أشك فى أنى أشك ! كنت أريد ... ـ واغفرى لى هذه الطريقة الادعائية فى الحديث ، لست مدعيا بطبعى ، ولكنى تخرجت فى قسم الفلسفة ولا يمكن أن تتخيلى ما يطبعه النقاش الفلسفى من أثر فى النفس ، وأقسم لك أنى سوف أمحو هذا الأثر من نفسى ...

قاطعته : ولماذا هذه الجملة الاعتراضية الطويلة ، كنت تريد ... ؟

ـ أريد أن أكتب قصة رجل اعتاد أن يصغى بادىء الأمر إلى كل شخص ، ويستشير الكل قبل أن يتخذ أى قرار ، كما كان يفعل « بانورج »[1] . ثم اتضح له أن آراء الناس تتعارض فى كل موضوع تعارضا تاما فآلى على نفسه ألا يصغى إلا لما تمليه عليه نفسه وأصبح بهذا قويا جدا .

وقالت له لورا : هذا مشروع خليق بعجوز !

وأجابها : إننى أكثر نضوجا مما تتصورين . منذ بضعة أيام وأنا أدون يومياتى ، مثلما يفعل « ادوارد » ، وعلى الصفحات اليمنى أسجل رأيا بمجرد أن أستطيع أن أسجل فى مواجهته على الصفحة اليسرى رأيا مناقضا . ومثالا لذلك : قالت لنا « سوفرونيسكا » منذ أيام أنها تنيم كلا من بوريس و برونجا والنافذة مفتوحة على مصراعيها . وبدا لنا كل ما قالته لتبرير هـذا الأسلوب فى التربية شيئا معقولا ومقنعا . ولكن سمعت فى حجرة الاستقبال بالفندق من أستاذ ألمانى وصل أخيرا ، عن نظرية مخالفة تماما ، وتبدو لى هذه النظرية معقولة أكثر ، وتقوم على

---

(١) شخصية رئيسية فى كتاب « بانتا جرويل » للكاتب الكبير رابليه أحد رواد النهضة فى القرن السادس عشر .

أسس أقوى . وقد قال أن المهم هو أن ننام فى وضع يحول بقدر الإمكان دون أن نبذل أى مجهود فى نومنا ، إذ أن هذا المجهود ـ على حد قوله ـ يكون بمثابة استنفاد الوقود ، فإذا تحقق ذلك يمكن أن يعتبر النوم يحق شيئا يعوضنا عما فقدناه . وذكر على سبيل المثال هـذه الطيور التى تضع رأسها تحت جناحيها وكل الحيوانات التى تنـكمش لتنام لدرجة أنها لاتـكاد تتنفس . وهكذا فإن أقرب الناس إلى الطبيعة ـ كما قال ـ الفلاحون ، الذين هم على قدر قليل من الثقافة ،والذين يحبسون أنفسهم فى غرفة ضيقة ، والعرب الذين يضطرون إلى النوم فى الهواء الطلق فيغطون وجوههم بغطاء الرأس الملتصق بردائهم . ولـكننى عندما أفـكر فى « سوفرونيسكا » وفى الطفلين اللذين تربيهما، أرى أنها ليست مخطئة، وأن ما يمكن أن يفيد أطفالا آخرين يمكن أن يضر هذين الصغيرين، لأنهما على مافهمت يحملان ميكروب السل . وباختصار أقول لنفسى ... ولـكنى أضايقك .

ـــ لا تبال بذلك ، كنت تقول لنفسك ...

ـــ لم أعد أذكر .

ـــ هيا ، هيا . ها أنت تغضب . لا تشعر بخجل مما تفـكر فيه .

ـــ كنت أقول لنفسى بانه لا شىء يمـكن أن يكون مفيدا للجميع ، ولـكن هناك ما يفيد بعض الناس فحسب . ولا شىء يمكن أن يكون حقيقة مطلقة بالنسبة لجميع الناس ، ولـكن هناك حقيقة بالنسبة لمن يؤمن بها . وليست هناك طريقة أو نظرية يمكن أن تطبق بحذافيرها على الجميع ، إذا كان علينا لـكى نتصرف ، أن نختار، فإن لنا على الأقل حرية الاختيار ، أما إذا لم تكن لنا حرية الاختيار فإن الأمر يصبح أكثر يسرا لأنه لامجال إذن للتردد ، ولـكن الحقيقة بالقياس إلىّ، هى ما يتيح لى خير استخدام لقواى وخير استثمار لمواهبى ، ولا يمـكننى أن أقضى على شكى ، ولـكنى فى نفس الوقت أمقت التردد ، إن وسادة الشك اللينة التى تحدث عنها الفيلسوف «مونتنى» لا تصلح لرأسى ، لأننى لا أشعر بالرغبة فى النوم ، ولست أريد

الراحة ، فالطريق طويلة ، الطريق التي توصل بين ما كنت أعتقده عن نفسي وبين وجودي ذاته . إنني أخشى أحيانا أن أكون قد استيقظت مبكرا قبل الأوان .

— أأنت خائف ؟

— لا ، لست أخشى شيئا ، ولكن أتعرفين أنني تغيرت كثيرا — أو على الأقل لم تعد معالم نفسي الداخلية مطابقة لما كنت عليه يوم تركت المنزل ؟ وقابلتك في هذه الأثناء ، وفي الحال كففت عن الجري وراء حريق ، لعلك لم تفهمي جيدا أنني رهن تصرفك .

— ماذا يجب أن أفهمه من قولك هذا ؟

— أوه ! إنك تفهمين ما أعنيه ! لماذا تدفعينني إلى الكلام في ذلك ؟ أتنتظرين مني اعترافا ؟ ... لا ، لا ، أرجوك ، لا تقنعي ابتسامتك وإلا شعر قلبي بالقشعريرة .

— يا صديقي الصغير لعلك لن تدعي أنك بدأت تهيم بي ؟

— أواه ! إنني لم أبدأ ! إنك أنت التي بدأت تشعرين بذلك ، ولكنك لا تستطيعين أن تمنعيني منه !

— كنت سعيدة لأني لا أشعر بحاجة إلى التحفظ معك ، ولكن علىّ الآن أن لا أقترب منك إلا في حذر وكأنني أقترب من مادة قابلة للاشتعال ... ولكن فكر فيما سأكونه بعد قليل ، سأكون مخلوقة لا تناسق فيها ، سأكون شيئا منتفخا ومنظري وحده كفيل بان يبرئك من دائك .

— نعم هذا إن كنت لا أحب فيك إلا الشكل ! ثم إنني لست مريضا ، أو إذا أعتبرت إنني مريض بحبك فإنني أفضل ألا أبرأ أبدا .

وكان يقول كل هذا بلهجة جادة حزينة تقريبا ، وينظر إليها بحنان أكثر مما فعل كل من « ادوارد » أو دوفيه . ولكن كانت نظرة ملؤها الاحترام ، بحيث لم تترك في نفسها شكا . وكان فوق ركبتها كتاب إنجليزي ، وكانا قد كفا عن القراءة فيه ، فراحت في هذه اللحظة تتصفحه وهي شاردة وكأنها لا تصغي . ولذا استمر برنارد في حديثه دون حرج . قال :

— كنت أتخيل الحب كالبركان أو على الأقل الحب الذى خلقت له . نعم كنت أعتقد أننى عاجز عن أن أحب إلا بطريقة وحشية مدمرة على نسق « بيرون » . كم كنت أجهل حقيقة نفسى ! الفضل لك يا « لورا » فى أنى عرفت نفسى . كنت أتقمص شخصية بشعة، وكنت أحاول أن أشبهها كل الشبه . وعندما أفكر فى الرسالة التى كتبتها لوالدى « المزيف » قبل أن أترك المنزل ، أؤكد لك أننى أشعر بالخجل . كنت أحسب نفسى شخصاً ثائراً ، خارجاً على القانون ، شخصاً يركل بقدمه كل عقبة فى طريق رغباته وها أنذا بجانبك أشعر بأنه لا رغبات لى على الإطلاق . كنت أهفو إلى الحرية على أنها الخير الأعظم ، ولكننى ما أن شعرت بتلك الحرية حتى خضعت لـ ... ! آه لو تخيلت مدى الضيق الذى يستشعره الإنسان لأن فى رأسه كومة من تعبيرات لمؤلفين مشهورين ، تعبيرات لا تقاوم ، وتأتى على الشفتين من تلقائها حين نريد أن نعبر عن شعور صادق! إن هذه العاطفة جديدة على ، حتى أنى لم أستطع بعد أن أبتكر لها لغة أعبر بها. لنفرض أن هذه العاطفة ليست حبا — ما دام هذا اللفظ لا يعجبك — ولنقل إنها الإخلاص . يخيل إلى أنك رسمت حدوداً لهذه الحرية التى كنت أتصور أن لا نهاية لها . لكأن كل ما كنت أشعر به فى نفسى من ثورة ، وكل ما لا شكل له فى ذاتى ، قد راح يرقص من حولك رقصة كلها انسجام . وإذا صادف وابتعدت فكرة من أفكارى عنك ، فإنى ألفظها . إنى لا أطلب منك يا «لورا» أن تحبينى ، فلست إلا تلميذا ، ولا أستحق منك الالتفات . ولكن كل ما أريد القيام به الآن سأقوم به لأستحق .. (آه ! ما أبشع هذه الكلمة) .. لأستحق تقديرك .

وفى هذه الأثناء ركع على ركبتيه أمامها ، ورغم أنها كانت قد أبعدت مقعدها فإن جبهته مست ثوبها . وكانت ذراعاه مطروحتين إلى الوراء كأنه يتعبد ! فلما أحس بلورا تضع يدها على جبهته أمسك بها وضغط عليها شفتيه . وقالت له :

— يالك من طفل يا « برنارد » ! إننى بدورى لست حرة . خذ . إقرأ هذا :
وأخرجت من طيات ثوبها ورقة أعطتها لبرنارد :

ورأى « برنارد » أول ما رأى الإمضاء . وكان — كما خشى — إمضاء «فيلكس دوفييه» . واحتفظ لحظة بالخطاب فى يده دون أن يقرأه، وكان يرفع عينيه نحو (لورا) . كانت تبكى ، فشعر عندئذ بأن شيئاً فى قلبه تمزق ، لعله أحد هذه الروابط الخفية التى تربط كلا منا بنفسه وبما فى ماضيه من أنانية . ثم قرأ :

— حبيبتى لورا .

باسم هذا الطفل الذى أوشك أن يولد ، والذى عاهدت نفسى على أن أحبه كما لو كنت أباه ، أتوسل إليك أن تعودى . لا تتصورى أن من الممكن أن أستقبلك هنا عند عودتك بأى عتاب . ولا تبالغى فى اتهام نفسك ، لأن هذا أكثر ما يؤلمنى فى الموضوع . لا تتأخرى فى العودة . أنتظرك بكل نفسى التى تعبدك وتخشع راكعة أمامك .

وكان برنارد جالسا على الأرض أمام لورا ، ولم يرفع نظره إليها عندما سألها :

— متى تسلمت هذه الرسالة ؟

— هذا الصباح .

— كنت أعتقد أنه يجهل كل شىء . هل كتبت له ؟

— نعم اعترفت له بكل شىء .

— وهل يعلم ادوارد بذلك ؟

— لا ، لا يعرف عنه شيئاً .

ومكث برنارد بعض الوقت مطأطىء الرأس ، ثم التفت نحوها من جديد وسألها .

— وماذا تنوين عمله الآن ؟

— أتريد حقا أن تعرف ماما أنويه ؟ .. أنوى العودة إليه . مكانى بجانبه . يجب أن أعيش معه . إنك تعرف ذلك .

وقال برنارد : نعم .

وأعقب ذلك سكون طويل ثم أردف (برنارد) :

— أتعتقدين أن من الممكن أن يحب المرء ابنا أنجبه آخر كولده هو ؟

— لست أدرى هل أعتقد ذلك أم لا . ولكننى آمل أن يكون ذلك ممكناً .

— أماعني فإنني أعتقد ذلك : ولست أصدق مايسمونه بسخف : «صوت الدم».
نعم ، أعتقد أن هذا الصوت ليس إلا أسطورة من الأساطير . قرأت أن بعض الشعوب في جزر المحيط الهادى تتبنى أطفال الغير ، وأن هؤلاء الأطفال المتبنين كثيرا مايفضلون على الآخرين . وكان الاصطلاح الذى استعمله الكتاب : « إنهم أكثر تدليلا » — أتعرفين ماذا أعتقد الآن ؟ إن الرجل الذى قام برعايتى ، وكأنه والدى ، لم يقل أبدا شيئا ، ولم يفعل قط شيئا ، يمكن أن يشتم منه أننى لست ابنه حقيقة . وعندما كتبت له ما كتبت من أنى كنت أشعر بفرق فى المعاملة كنت كاذبا فى قولى . لقد كان على العكس يشعرنى بنوع من الإيثار ، وكنت أحس بذلك . ومعنى هذا أن جحودى له يعتبر أفظع ، لأننى أسأت التصرف معه . «لورا» ياصديقتى كنت أود أن أسألك ... أتظنين أنه يجدر بى أن أسأله العفو وأن أعود إليه ؟
وقالت «لورا» : لا .

— لماذا ؟ مادمت أنت تعودين إلى « دوفيه » ...

— كنت تقول لى منذ لحظات إن ما هو حق بالنسبة لشخص ليس كذلك بالنسبة لآخر . إننى أشعر بضعفى بينما أنت قوى . ربما كان السيد « بروفيتانديو » يحبك ، ولكنك إن كنت صادقا فيما قلته لى عنه فإننى أرى أنكما لم تخلقا لتتفاهما ! على الأقل انتظر بعض الوقت . لاتعد إليه وإنت مغلوب على أمرك . هل تريد منى أن أقول رأيى كاملا ؟ إنك تقترح هذا من أجلى لا من أجله ، لتنال ماتسميه « تقديرى » . لن تنال هذا التقدير يابرنارد إلا عندما أشعر بأنك لاتجرى وراءه . لايمكن أن أحبك إلا وأنت على سجيتك . أترك لى التوبة ، لم تخلق التوبة لك يابرنارد .

— إننى أكاد أحب حتى اسمى عندما أسمعه من شفتيك . أتعرفين ما كان يفزعنى هناك ؟ إنها الرفاهية . كل وسائل الراحة ، وطيبات الحياة الرغدة . لقد شعرت بأنى أحن إلى الفوضى . أما الآن فعلى العكس أعتقد أنى فى سبيل أن أصبح محافظا ! لقد فهمت ذلك فجأة منذ أيام عندما شعرت بالاستياء حين سمعت سائحا على الحدود يتكلم عما يشعر به من متعة فى التهرب من الجمارك . كان يقول « إذا سرقت الدولة

فإنك لم تسرق أحدا » وحين عارضت هذا القول كان السبب انى فهمت لجاة ماهى الدولة ، وأحببتها لا لسبب إلا لأن البعض يحاول أن يسيء إليها . ولم أفكر فى هذا الأمر من قبل . وكان السائح يقول « ليست الدول إلا اصطلاحا » . ما أجمل هذا الاصطلاح لو قام على حسن نية كل واحد ... ! لو كان الجميع أمناء ! . لو سألنى سائل اليوم عن أجمل الفضائل فى نظرى لأجبته دون تردد : الأمانة . آه يا «لورا» ، أتمنى أن أعبر طوال حياتى وفى أبسط الأمور — عما يعتمل فى نفسى بصوت يكون رنينه نقياً أمينا لا زيف فيه . كان لغالبية من عرفت من الناس رنين مزيف . يجب أن يعبر مظهرنا عن حقيقتنا . وألا نحاول أن نظهر باكثر مما نحن حقيقة . وكثيرا ما نريد أن نخدع ، وكثيرا ما نهتم بالظروف فيصل بنا الحال إلى حد أن نجهل حقيقة أنفسنا ... اغفرى لى أن أكلمك هكذا . إنى أبثك أفكارى التى تراودنى أثناء الليل .

— كنت تفكر فى القطة الصغيرة التى أريتنا إياها أمس . عندما أرحل ... (ولم تستطع أن تكمل جملتها واغرورقت عيناها بالدموع . ورأى « برنارد » شفتيها ترتعشان وهى تجاهد لتحبس دموعها) .

وأردف بحزن : إذن فسوف ترحلين يا « لورا » ... ! أخشى ألا أساوى شيئا عندما أشعر بانك لست بجانبى ... ولكن كنت أريد أن اسالك شيئا ... هل كنت تفكرين فى الرحيل ، وهل كنت تكتبين هذه الاعترافات ، لو كان « ادوارد » ... لا اعرف كيف أعبر عن ذلك ... (واحمرّ وجه لورا) لو كان أفضل مما هو ؟ أوه ! لا تحتجى ، إنى اعرف جيدا رأيك فيه .

— تقول ذلك لأنك لمحت ابتسامتى أمس عندما كان يتحدث . ولقد اقتنعت فى الحال بانى أحكم عليه كما تحكم أنت عليه ، ولكن لا . دع هذا الخطأ . إننى فى الحقيقة لا أعرف ماهو رأيى فيه ... إنه لا يستمر مدة طويلة على حال واحدة ، وهو لا يعلق بشيء ، ولكن ليس ثمت شيء يجعل الناس يعلقون به مثل هروبه هذا . إنك تعرفه منذ فترة قصيرة ولذا لا يمكنك ان تحكم عليه . إن معالم كيانه دائمة التغير ، يتخيل المرء أحيانا أنه أمسك به ... إنه مثل بروتيه[1] ياخذ شكل الأشياء التى يحبها وهو أيضا — يجب أن تحبه لتفهمه .

---

(١) بروتيه إله بحرى فى الأساطير اليونانية يغير شكله حسبما يتراءى له لكى يتهرب من الناس.

— إنك تحبينه ! أواه يالورا لست أشعر بغيرة من دوفييه أو من فنسان وإنما من ادوارد .

— لماذا تشعر بالغيرة ؟ إنى أحب دوفييه، وأحب ادوارد ولكن كل منها بطريقه مختلفة . وإن ، أحببتك فسوف يكون هذا الحب مختلفا ايضا ؟

— لورا ، لورا ، إنك لا تحبين دوفييه ! إنك تشعرين نحوه بعزة ، بشفقة ، بتقدير ، ولكن ذلك ليس حبا . وأعتقد أن سبب حزنك (لأنك حزينة يا « نورا ») هو أن الحياة قد جزأتك . إنك لم تعرفى الحب إلا وأنت مشتته ، إنك توزعين على كثيرين ما كنت خليقة بأن تمنحيه لشخص واحد . أما أنا فأشعر أنى لا أتجزأ . لا يمكن أن أمنح نفسى إلا كاملا .

— إنك صغير السن على هذا الكلام . ولا يمكن أن تعرف منذ الآن إن كانت الحياة «ستجزئك» على حد تعبيرك . إنى لا أستطيع أن أتقبل منك إلاهذا... الإخلاص الذى تقدمه لى ، أما الباقى فله مطالبه ، وهذه المطالب سوف تحققها مع إنسان آخر !

— أهذا صحيح ؟ سوف تجعليننى أشمئز من نفسى ومن الحياة .

— إنك لا تعرف شيئا عن الحياة ، ويمكنك أن تنتظر منها كل شىء . هل تعرف فيما كان خطئى ؟ أخطأت فى أننى لم أعد أنتظر شيئا من الحياة . فعندما اعتقدت —للأسف— أنى لا يمكن أن أنتظر شيئا منها اتانى الاستسلام . وقد قضيت هذا الربيع فى مدينة « پو » وكأنه آخر ربيع أعيشه ، وكأن شيئا لم يعد يعنينى فى هذه الدنيا ! ويمكننى أن أقول لك الآن يا « برنارد » إننى عوقبت على ذلك : لا تيأس أبدا من الحياة .

ما جدوى حديث كهذا يوجه لشاب تملؤه الحرارة ؟ ولهذا لم يكن ما قالته لورا موجها لبرنارد ، فاستجابة لنداء وده ، راحت — رغما عنها — تفكر أمامه بصوت عال، لم تكن تحسن التحكم فى عواطفها ، وكما استبسلت أولا لعاطفتها بمجرد تفكيرها

فى ادوارد فكشفت عن حبها كذلك استسلمت لرغبة فى الوعظ ورثتها ولا شك عن والدها ، ولكن برنارد كان يبغض المواعظ والنصائح حتى ولو كانت من « لورا » . وقد حذرت ابتسامته لورا ، ولذا أردفت بصوت أكثر هدوءاً :

— هل فى نيتك أن تظل سكرتيرا لادوارد عند عودتك إلى باريس ؟

— نعم ، إذا وافق على الاحتفاظ بى . ولكنه لا يعطينى عملا ! أتعلمين ما الذى يحلو لى أن أعمله معه ؟ أن أكتب هذا الكتاب معه ، وأنا أعرف أنه لن يكتبه أبداً إذا ظل وحيداً ، وقد قلت له ذلك أمس . ورأيى أن الطريقة التى عرضها علينا أمس طريقة غير معقولة ؛ فالقصة الناجحة تكتب بطريقة أبسط وأكثر سذاجة . ثم إنه يجب على كاتب القصة أن يؤمن بما يكتبه ، أليس هذا هو رأيك أيضاً ؟ كما يجب أن يسرد كل الأمور ببساطة . لقد تصورت فى بادىء الأمر أن فى إمكانى مساعدته ، ولو قد احتاج إلى بوليس سرى لاستطعت أن أقوم بما تتطلبه طبيعة عملى ولأمكنه فى هذه الحال أن يكتب عن الوقائع التى اكتشفتها أثناء أبحاثى ... ولكن قصته تقوم على الآراء ، ولذا لا يمكن أن أفيده بشىء ، وأشعر عندما أكون بجانبه إننى أصبحت كمخبرى الصحف ! وإذا ما أصرّ على عناده واسترسل فى خطّته هذا فسوف أقوم بعمل آخر ؛ إذ أننى مضطر إلى أن أكتسب عيشى وسوف أعرض خدماتى على إحدى الصحف ، وحتى أجد هذا العمل سوف أنظم شعراً .

— لأنك سوف تشعر من غير شك بأنك أصبحت شاعراً عندما تجد نفسك بجانب مخبرى الصحف .

— أوه ! لاتسخرى منى ، إنى أعلم أننى أثير الهزء فيما أقول ، ولكن لا تبالغى فى إشعارى بذلك .

— ابق مع « إدوارد » ، فسوف تساعده فى عمله . واتركه يساعدك ، إنه رجل طيب .

وسمعا دقات الناقوس مؤذنة بساعة الغداء ونهض « برنارد » وأمسكت « لورا » بيده قائلة :

— اصغ إلى ! هذه القطعة المزيفة التى أريتها لنا بالأمس ... هل تسمح أن تعطينى إياها كتذكار منك عندما يحين موعد رحيلى ؟ (واضطرت أن تبذل مجهوداً لتتم هذه الجملة) .

وأجابها « برنارد » ، خذيها — ها هى — خذيها !

الفصل الخامس

يوميات ادوارد

ذلك هو ما يحدث فى أغلب الأمراض العقلية إذ نتباهى بأننا شفيناها والواقع — كما يقال فى لغة الطب — إننا حولنا مجراها وأحللنا مكانها أمراضاً أخرى .

سانت بيف (أحاديث الاثنين جزء « ١ » صفحة « ١٩ »)

بدأت أتبين معالم ما سأسميه « الموضوع العميق » لقصتى ، سيقوم الموضوع على المنافسة بين عالم الواقع وبين تصورنا لهذا العالم .

يفرض عالم المظاهر ذاته علينا بطريقة نحاول نحن أن نفرضها على العالم الخارجى وتلك هى مأساة حياتنا . إن مقاومة الواقع لنا واستعصاؤه علينا يدعونا إلى أن ننقل أمانينا إلى عالم الأحلام ، وعالم الآمال ، وعالم الحياة المقبلة التى ينمو إيماننا بها من التغذّى بمرارة إخفاقنا .

يبنى الواقعيون على الوقائع ويعدّلون آراءهم وفقاً للوقائع ، وبرنارد واقعى وأخشى ألا أستطيع التفاهم معه .

كيف أمكننى أن أقرّ ما قالته لى « سوفرونيسكا » ؟ إنه ليس لدى أى تصوف ؛ إننى أعترف معها بأن الإنسان إذا ما تجرد من « التصوف » لم يستطع أن يحقق أى عمل عظيم . ولكن لورا تؤاخذنى بالذات على نزعتى التصوفية كلما حدثتها عن كتابى . لأترك لهما النقاش فى هذا الأمر .

حدثتنى « سوفرونيسكا » مرة أخرى عن « بوريس » ، وهى تعتقد أنها نجحت فى أن تحصل منه على اعتراف كامل . لم يعد الطفل المسكين يجد فى ذاته أى ملاذ يحتمى فيه من نظرات الطبيبة .

لقد تعرّى تماماً ! إن « سوفرونيسكا » لتعرض فى وضح النهار كل « تروس »

عقله الباطنية ، بعد أن فككنها كما يفعل « الساعاتى » بأجزاء الساعة التى ينظفها . وإذا صادف ولم تدق أجهزة الطفل فى ميعادها فإن هذا يكون غريباً للغاية . وهذا ما قالته لى « سوفرونيسكا » .

أرسل بوريس وهو فى التاسعة من عمره إلى إحدى مدارس «وارسو»، وصادق زميلا له فى الدراسة يدعى باتستين كرافت ، يكبره بعام أو بعامين ، وقد علمه بعض العادات السرية، وكان الطفلان لبراءتهما مبهورين بها وتصورا أنها ضرب من السحر . وكان هذا هو الاسم الذى أطلقاه على رذيلتهما هذه، والسبب فى ذلك أنهما سمعا أو قرآ أن السحر يتيح لمن يزاوله بأن يحصل بطريقة غامضة على ما يريد . وأنه يهب من يزاوله قوة لاحد لها ... الخ ... وكانا يتصوران عن حسن نية أنهما اكتشفا سرا يمكن أن يعوضهما عن الوجود الحقيقى «بالخيالى». وكانت النشوة تملأ خيالها، وكانا يجهدان نفسيهما بلذة تفوق طاقتهما . ومن الطبيعى أن « سوفرونيسكا » لم تستعمل هـذه العبارات . وكنت أرجو أن تسرد علىّ ما قاله « بوريس » بالضبط إلا أنها ادعت أنها لم تتوصل إلى معرفة هذه الخبايا. تلك الخبايا التى أكدت لى صحتها مع ذلك إلا خلال خليط معقد من التظاهر والتردد والغموض . وأضافت تقول :

ـ لقد اكتشفت فيما اكتشفته السر الذى كنت أبحث عنه منذ وقت طويل وذلك عن طريق قطعة من الورق كان يحملها «بوريس» كحجاب ويخبئها فى كيس صغير يعلقه على صدره بجانب التمائم الدينية التى ترغمه أمه على حملها ـ وكانت هذه الورقة تشمل خمس كلمات مكتوبة بحروف كبيرة بخط صبيانى ولكنه منمق ، خمس كلمات سألته دون جدوى عن معانيها .

« غاز . تليفون . مائة ألف روبل . »

وعندما كنت ألح عليه فى السؤال كان يجيبنى بقوله . «ليس لها أى معنى . إنه سحر » . وهذا كل ما أمكننى التوصل اليه . وأنا أعرف الآن أن هذه الكلمات كتبت بخط « باتيستان » الصغير والأستاذ الأكبر ومدرس العلوم السحرية ، وأنها كانت بالنسبة لهذين الطفلين بمثابة عبارة سحرية مثل « إفتح ياسمسم ». يفتحان بها

الفردوس المخجل الذى كانت اللذة تلقى بهما فيه . وكان « بوريس » يسمى هـذا الحجاب « تعويذته ». وقد صادفتنى فى بادىء الأمر عقبات كثيرة حتى قبل أن يرينى إياها ، كما صادفتنى صعاب أكبر لكى يقبل أن يعطيه لى . وكنت أريد أن يتخلص من هذا الحجاب كما تخلص من قبل من تلك العادات السيئة . وكان يحدونى الأمل فى أن تزول بزوال هذه « التعويذة » التصرفات الشاذة التى كان مريضا بها ، ولكنه كان متعلقا بتعويذته ، وكان المرض متعلقا بها أيضا وكأنها آخر ملاذ له .

ـ ولكنك قلت إنه كان قد تخلص من عاداته …

ـ لم يبدأ المرض العصبى إلا بعد تخلصه منها ونتج المرض عن الحرمان الذى فرضه على نفسه لكى يتخلص منها . عرفت منه أن أمه فاجأته ذات يوم « بأعماله السحرية » كما يسميها . ولكن لماذا لم تذكر هى لى أبدا أى شىء عن ذلك ؟ … هل أخفت ذلك عنى خجلا ؟

ـ لقد أخفته لعلمها بأنه كفّ عن مزاولة هذا .

ـ إن هذا التصرف لسخيف … وذلك هو السبب فى أنى بحثت طويلا على غير هدى . لقد ذكرت لك من قبل أننى كنت أتصور أن « بوريس » كان نقيا تماما.

ـ ولقد ذكرت لى أن ذلك هو ما كان يضايقك .

ـ وها أنت ترى أننى كنت على حق ! … كان لزاما على الأم أن تنبهنى إلى ذلك ، فلو أننى تبينت تلك الأمور فى حينها لكان « بوريس » قد شفى الآن .

ـ ذكرت أن هذه الأمراض لم تظهر إلا فيما بعد …

ـ ذكرت أنها نتجت عن ردالفعل . إننى أتصور أن أمه أنبته ، أو أنها توسلت إليه أو أنها وعظته . ثم جاء موت الأب وأقنع « بوريس » نفسه بانه استحق هـذا العقاب بسبب عاداته السرية التى صوروها له على أنها جرائم . ولذا اعتبر نفسه مسئولا عن موت أبيه واعتبر نفسه كذلك مجرماً أو شخصا ملعونا . وأدركه الخوف إذ راح كيانه الضعيف ـ كالحيوان المطارد ـ يبتكر سلسلة من المخارج يكفر بها عن شعوره الداخلى بالإثم .

— يبدو لى مما تقولينه أنك تعتبرين أنه كان من الأفضل لبوريس أن يستمر فى مزاولة أعماله السحرية هذه ؟

— اعتقادى أنه لم يكن لزاما أن يفزعوه ليخلصوه منها . إن تغيير نمط الحياة الذى نتج عن موت أبيه كان خليقا دون شك ان يشغله عنها ، كما أن رحيله عن وارسو كان كفيلا بإنقاذه من سيطرة صديقه . لا يمكن أن يؤدى الخوف إلى أية نتيجة طيبة ، ولما تبينت حقيقة أمره ، وكلته فى هذه الشئون وفى ماضيه ، حاولت أن أشعره بالخجل من أنه آثر التنعم بمتع خيالية على الحصول على متع حقيقية تعد مكافأة للمجهود الذى نبذله من أجلها . وبدلا من أن أصور له ما رتكبه فى صورة الرذيلة ، صورته ببساطة على أنه لون من ألوان الكسل . وفى رأيى أنه كذلك فعلا ، وهذا النوع أكثر الأنواع ختلا وخداعا لنا ...

وتذكرت عند عبارتها هذه بعض سطور كتبها « لاروشفوكوه » أردت أن أريها إياها . وبالرغم من أنه كان فى مقدورى أن أذكرها لها من الذاكرة فإننى ذهبت لإحضار الكتيب الصغير وعنوانه « الحكم »(١) وأنا أحمله معى دائما فى أسفارى . وقرأت لها هذه السطور .

« الكسل أجهل ما نجهل من شهواتنا ، وهو أفتكها وأختلها رغم أن عنفه لا يحس ومضاره خفية جداً ... والراحة التى تستشعرها من جرائه تهبنا متعة خفية تشل فجأة أمضى العزائم وأحسم القرارات ، ولكى نعطى فكرة حقيقية عن هذه الشهوة يجدر بنا أن نقول أنها سكينة للنفس تعزيها عن كل خسائرها وتعوضها عن طيباتها » .

وسألتنى عندئذ « سوفرونيسكا » : هل تريد القول أن لاروشفوكوه عندما كتب هذه العبارات أراد أن يشير إلى ما كنا نتكلم فيه ؟

وأجبتها : ربما ، وإن كنت لا أعتقد ذلك ، وكتابنا الكلاسيكيون أغنياء بكل التأويلات ودقتهم فى التعبير تستحق الإعجاب وبخاصة لأنها لا تدعى أنها جامعة مانعة .

---

(١) « Les Maximes »

وطلبت منها أن ترينى تعويذة « بوريس » العجيبة ، ولكنها قالت لى إنها ليست معها ، وإنها أعطتها لشخص يهتم ببوريس كان قد سألها أن تعطيها له على سبيل التذكار — وقالت إنه يدعى « سترو فيلهو » وقد صادفته هنا قبل مجيئكم بقليل .

وقلت لسوفرونيسكا : إنى رأيت هذا الاسم فى سجل الفندق وإنى عرفت فى وقت ما شخصا يدعى « سترو فيلهو » ويهمنى أن أعرف إن كان هو من عرفت . وعلى ضوء وصفها له لم يكن ثمت مجال للشك ولكنها لم تستطع أن تذكر لى بشأنه أى شىء يرضى فضولى . وعرفت فقط أنه شخص لطيف جدا ، خدوم جدا وأنه كان يبدو ذكيا جدا ولكنه كان كسولا هو أيضاً إلى حد ما ، وأضافت وهى تضحك: إن كنت أجرأ على استعمال هذا اللفظ ! . وقد سردت عليها بدورى ما أعرفه عن « سترو فيلهو » ودفعنى هذا الحديث إلى الكلام عن المدرسة الداخلية التى تقابلنا فيها وعن والد « لورا » (وكانت بدورها قد باحت لها باسرارها) وأخيراً عن « لابيروز » العجوز وعلاقة القرابة التى تربطه ببوريس ، وعما وعدته بهعندما تركته فى آخر لقاء من إحضاره له . ولما كانت « سوفرونيسكا » قد أخبرتنى بأنه ليس من مصلحة الصبى أن يستمر فى الحياة مع أمه سألتها :

ولماذا لا تلحقينه بمدرسة « آ زاتيس » الداخلية ؟ . وحين اقترحت عليها ذلك ، كنت أفكر أولا فى سعادة الجد عندما يجد « بوريس » على مقربة منه لدى أصدقاء له وفى استطاعته رؤيته كلما شاء ، ولكن ما كنت أعتقد أن الصبى من ناحيته سيرتاح إلى هذا الوضع .

وأجابتنى سوفرونيسكا بانها ستفكر فى هذا الحل ، وكانت فى أثناء حديثى هذا مهتمة جداً بكل ما أخبرتها به .

وراحت سوفرونيسكا تكرر قولها بان بوريس قد شفى ، وهذا العلاج سيقوى الاعتقاد فى صحة نظريتها . ولكنى أخشى أن تكون قد تسرعت فى الحكم. وكنت بطبيعة الحال لا أريد أن أعارضها فى ، ولكنى رأيها وأعترف بان الحركات العصبية وإشارات التفكير والتعبير الناقص وكل ذلك قد اختفى تقريباً ولكن يبدو لى أن المرض اختبأ

فقط فى منطقة أعمق فى نفسه، وكأنه يريد أن يهرب من نظرة الطبيب الفاحصة. لعل النفس هى ذاتها التى أصيبت الآن . وكما أن الحركات العصبية تبعث الشعور بالنقص كذلك أخذت تزول هذه الحركات أمام داء خفى. و «سوفرونيسكا» قلقة حقاً لرؤيتها « بوريس » وهو يلاحق « برونجا » مندفعاً فيما يشبه « التصوف » الصبيانى ، ولكنها وهى على هذا الذكاء تدرك ولاشك أن هذه السعادة الروحية التى ينشدها «بوريس» لاتختلف كثيرا عن تلك التى كان يحصل عليها بالافتعال . وإذا كانت هذه اللذة الجديدة تكلفه مجهودا أقل من المتعة الأخرى ولا ترهق كيانه مثلها ، فهى لا تصرفه مع ذلك عن بذل الجهد وعن تحقيق المتعة . ولكننى عندما أكلمها فى هذا الأمر تجيبنى بأن نفسا كنفس بوريس أو « برونجا » لاغنى لها عن غذاء وهمى ، وأن حرمانها من هذا الغذاء سيودى بهما ، فتتردى « برونجا » فى اليأس، ويندفع «بوريس» إلى مادية وضيعة . وهى تعتقد فوق ذلك أنه ليس من حقها أن تقضى على ثقة هذين الصغيرين ورغم أنها تعتبر أن إيمانهما كاذب ، إلا أنها ترى فى ذلك لونا من تسامى الغرائز الدنيئة والإصرار على العلو ، لونا من حفظ النفس أو حمايتها ... وبالرغم من أنها لاتؤمن بمعتقدات الكنيسة إلا أنها تؤمن بفاعلية الإيمان . وهى تتكلم بحرارة عن تقوى هذين الطفلين اللذين يقرآن معا تعاليم الإنجيل ويتحمسان ويلبسان روحهما أكفانا بيضاء و «سوفرونيسكا» كباقى النساء ملأى بالمتناقضات . ولكنها كانت على حق: فإننى فعلاً لست «متصوفا» ولست كذلك كسولا . إننى أعتمد كثيرا على أن الجو السائد بمدرسة « آزائيس » وجو باريس سيجعلان من« بوريس» شخصا مجدا ، وسيشفيانه من نشدان « اللذات الخيالية » وفى هذا خلاصه . ويبدو أن «سوفرونيسكا» بدأت توافق على فكرة أن تعهد به إلىّ ، ولكنها ستصحبه ولاشك إلى باريس لرغبتها فى الإشراف على ترتيبات دخوله مدرسة « آزايس » ، ولتطمئن أمه كذلك لأنها مهتمة جدا بالحصول على موافقتها » .

الفصل السادس

(هنا نقائص إذا أحسن استخدامها لمعت أكثر من الفضيلة ذاتها)

« لا روشفوكو »

من أوليفييه إلى برنارد

ياصديقى العزيز :

يجب أن أخبرك أولا بأنى نجحت فى امتحان إتمام الدراسة الثانوية ، ولكن هذا أمر لا قيمة له. لقد سنحت لى فرصة نادرة لأسافر ، وكنت متردداً ، ولكنى بعد أن قرأت رسالتك ، اغتنمت الفرصة وسافرت . وقد لقيت فى بادىء الأمر معارضة خفيفة من أمى ، ولكن سرعان ما تغلب (فنسان) عليها ، وقد أظهر لطفاً لم أكن أنتظره منه . ويصعب على أن أصدق أنه — فى المناسبة التى ذكرتها فى رسالتك — تصرف بتلك الحماقة . ويبدو أننا فى سننا نجنح إلى الحكم على الناس بقسوة ، وأن حكمنا عليهم لا يحتمل النقض . إن كثيراً من التصرفات تبدو لنا وكأنها مذمومة بل بغيضة ، وذلك لسبب بسيط ، هو أننا لا نعرف أسبابها الحقيقية . إن (فنسان) لم ... ولكن ذلك سوف يبعدنى كثيراً عن موضوع رسالتى كما أن لدى أشياء كثيرة أريد أن أخبرك بها . اعلم أن مدير تحرير المجلة الجديدة المسماة (الطليعة) هو الذى يكتب لك الآن . وقد قبلت القيام بهذه الأعباء بعد مداولات ، وقد رأى (الكونت روبيردى باسافان) أنى أهل للقيام بها . إنه هو الذى يصدر المجلة ، ولكنه لا يعبأ كثيراً بأن يعرف الناس ذلك ، ولذا فإن اسمى وحده هو الذى سيظهر على الغلاف . وسوف تظهر المجلة فى شهر أكتوبر ، فحاول أن ترسل لى شيئا ليظهر فى العدد الأول . سوف يخيب أملى إن لم يلمع اسمك بجانب إسمى فى هذا العدد . و (باسافان) يريد أن تظهر فى العدد الأول بعض الآراء المتحررة (اللاذعة)

لأن رأيه أن أقسى نقد يمكن أن يقضى على مجلة ناشئة هو أن تتهم (بالحياء) ، أنا أشاركه إلى حد ما هذا الرأى . وقد تكلمنا فى هذا الأمر كثيراً . وطلب منى أن أكتب ذلك وقدم لى موضوعاً جريئاً لخبر قصير ، ويزعجنى ذلك قليلا إذ أنه ربما أغضب أمى ، ولكن ليكن ما يكون ، وعلى حد قول « باسافان » : كلما كنت حديث السن كانت الفضيحة أقل إساءة لسمعتك .

أكتب لك من مدينة « فيزافون » . وفيزافون قرية صغيرة على سفح جبل من أعلى الجبال بكورسيكا ، والقرية فى قلب غابة كثيفة ، والفندق الذى نحن فيه يبعد قليلا عنها . وهو يستعمل كنقطة بداية تتفرع منها رحلات السياحة . ونحن هنا منذ أيام فقط ، وقد بدأنا جولتنا بأن سكنا نزلا يبعد كثيرا عن خليج « بورتو » الجميل ، وهو مكان خاو من الناس ، وكنا ننزل للسباحة فى كل صباح . ويمكنك أن تحيا فى هذا المكان طوال اليوم وأنت عار ، هذا شىء رائع . لكن الجو كان حارا جدا هناك واضطررنا أن نصعد إلى الجبل .

« باسافان » رفيق جذاب ، وهو لا يتباهى أبدا بلقبه ، ويطلب منى أن أناديه بـ « روبير » .

وقد ابتكر لى اسم «أوليف»[1] ، أليس هذا لطيفا ؟ وهو يحاول بكل الوسائل أن ينسينى سنه ، وأؤكد لك أنه نجح فى ذلك . لقد كانت أمى منزعجة إذ رأتنى أرحل معه وهى لا تعرف عنه إلا القليل ، وكنت مترددا خشية أن أغضبها . وقبل وصول رسالتك كنت على وشك أن أرفض . ولكن « فنسان » أقنعها ، كما أن رسالتك وهبتنى الشجاعة والعزم ، وقد قضينا الأيام الأخيره قبيل سفرنا فى ارتياد المحلات التجارية . وكان « باسافان » سخيا جدا ، وكان يريد أن يقدم لى كل شىء ، وكان على أن أمنعه من ذلك باستمرار . ولكنه كان يرى أن ملابسى لا تليق ، من القمصان إلى أربطة العنق إلى الجوارب . كل ما كنت أرتديه لم يعجبه ، وكان يكرر قوله بأنى إن كنت سأعيش معه بعض الوقت فسيتألم إن رآنى لا أظهر بالظهر اللائق — أى المظهر الذى

---

(١) ومعناها . « الزيتونة » .

يحبه — وبطبيعة الحال أرسلت كل المشتريات إلى منزله خشية أن تنزعج والدتى . وهو نفسه على قدر فائق من الأناقة ، وله ذوق ممتاز ، وكثير من الأشياء التى كانت تبدو لى مقبولة أصبحت لا أطيقها الآن . ولا يمكن أن تتصور كم كان « باسافان » مسليا ونحن نزور المحلات . وهو ظريف حاضر البديهة . وأحب أن أعطيك فكرة عن ذلك : كنا عند « برنتانو » وكان قد أعطاه قلمه الحبر ليصلحه . وكان وراءه انجليزى ضخم أراد أن يمر قبل دوره وإذ أبعده « روبير » عن الطريق بشىء من الغلظة ، بدأ الرجل يتمتم بألفاظ لا أفهمها موجهة إلى « روبير » .

وهنا التفت « روبير » وقال بلهجة هادئة جداً :

— لا داعى لذلك لأننى لا أفهم الانجليزية .

وأجاب الآخر ثائرا بلغة فرنسية سليمة : وكان يجب عليك أن تفهمها يا سيدى .

وهنا رد « روبير » مبتسما وبأسلوبه مهذب :

— ولكنك ترى ما قلته بها لم يكن له أية قيمة ... !!

وكانت دماء الرجل الإنجليزى تغلى ، ولكنه لم يجد ما يمكن أن يقوله . وكان المنظر مضحكا للغاية .

وكنا فى يوم آخر فى مسرح « الأولمبيا » وأثناء الاستراحة تجولنا فى القاعة ، وكان عدد كبير من « الغانيات » يرحن ويجئن فيها . واقتربت اثنتان منهن من « روبير » وقالت إحداهما :

— أتدفع لنا ثمن كوب من الجعة يا حبيبى ؟

وجلسنا معهما حول مائدة ، وقال « روبير » للساقى :

— كوبا من الجعة لكل من هاتين السيدتين .

وسأله الخادم . ولهذين السيدين ؟

— آه . نحن إننا سوف نطلب شمبانيا ... (قالها بإهمال) ثم طلب زجاجة من « المولات » الفاخر شربناها أنا وهو . لا يمكن أن تتصور ما ارتسم حينئذ على وجهى الغانيتين ! ... وأنا أعتقد أنه يشمئز من الغانيات . وقد اعترف لى بانه

لم يدخل قط بيتا من بيوت الغانيات . وقدلمح لى بأنه سيغضب إذا ماعرف أنى توجهت إلى تلك الأماكن . وها أنت ترى أنه شخص نظيف جدا بالرغم مما يبدو عليه ، وبالرغم من أحاديثه الساخرة ـ كأن يقول مثلا : إنه عندما يسافر يعتبر اليوم « يوما كئيبا » إذا لم يقابل قبل الغداء خمس نساء يشعر بالرغبة فيهن . وأرى لزاما على أن أخبرك أنى لم أعاود الكرة ... أفهمت ما أعنيه ؟

وله أسلوب وعظ ظريف ينفرد به . قال لى منذ أيام :

— المهم يا صغيرى فى هذه الحياة ألا نترك لنفسنا العنان لننساق : فهذا الشيء يجلب شيئا آخر ثم لا يدرى المرء أين يسير . لقد عرفت شابا مهذبا أراد أن يتزوج ابنة طاهيتى . ودخل ذات ليلة عند بائع للجواهر فبدأ بالقتل ثم تدرج إلى السرقة . وبعد ذلك أخذ يخفى نزعته الشريرة . ها أنت ترى إلى أين يؤدى بنا الاستسلام لنفسنا . وفى آخر مرة قابلته فيها كان قد وصل به الحال إلى أن أصبح رجلا كذوبا « حذار » .

وهو دائماً هكذا . ومعنى هذا أنى لا أشعر بالملل . كنا قد رحلنا وفى نيتنا أن نعمل كثيرا ولكننا حتى الآن لم نقم بشيء إلا السباحة والاستلقاء فى الشمس والثرثرة . وله آراء وأفكار فريدة فى كل شيء . وأنا أدفعه بقدر استطاعتى إلى أن يكتب بعض نظرياته الخاصة بالحيوانات التى تعيش فى أعماق البحار ، وما يسميه « الأضواء الشخصية » وهى أضواء تسمح لهذه الحيوانات بالاستغناء عن أشعة الشمس ، وهو يقارن بين هذه الأضواء وما يغمرنا به الإيمان والوحى من نور .

ولا معنى لما أقوله بالطريقة التى أعرض بها هذه الأفكار ، ولكنى أؤكد لك أنه عندما يتحدث فى هذه الأمور فإنها تبدو مسلية كقصة بديعة . وليس من المعروف عنه أنه ضليع فى التاريخ الطبيعى . ولكن يحلو له أن يخفى معلوماته التى يسميها « بجواهره الخفية » . وهو يقول إن المدعين فقط يتباهون بعرض جواهرهم على الملأ ولا سيما عندما تكون هذه الجواهر مزيفة .

وهو قدير على استغلال الآراء ، واستعمال الصور والمجازات ، والانتفاع بالناس

وبالأشياء فهو يعرف كيف يستفيد من كل شيء . ويقول إن الفن الأكبر فى هذه الحياة ليس فى التمتع بها ولكن فى معرفة استغلال الفرص .

لقد نظمت بعض أبيات من الشعر ، ولكنى لست راضيا عنها ولذا لن أرسلها لك

«إلى اللقاء ياعزيزى» . سوف نلتقى فى شهر أكتوبر ، وستجدنى تغيرت بدورى ، وفى كل يوم أزداد ثقة فى نفسى . إنى سعيد بأن أعرف أنك فى سويسرا ، ولكن كما ترى لا أحسدك على شيء .

«أوليفييه»

سلم « برنارد » هذه الرسالة لادوارد الذى قرأها دون أن يظهر شيئا مما اعتمل فى نفسه من اضطراب . كل ما كان يحكيه « أوليفييه » عن «روبير» ، واستلطافه له يشعره بالاشمئزاز ، ويدفع إلى نفسه الشعور نحوه بالكراهية . وكان الشيء الذى يؤلمه على وجه خاص هو عدم ذكر اسمه فى هذه الرسالة وما بدا خلالها من أن « أوليفييه » قد نسيه تماما . وحاول — دون أن يوفق — تفسير ثلاثة أسطر مكتوبة كملحوظة فى أسفل الخطاب ، ولكن طمسها شطب كثيف وكانت تحتوى على الكلمات الآتية :

« قل للخال « ادوارد » إننى أفكر فيه دون انقطاع وأنه يصعب على أن أغفر له إغفاله لى وانى أشعر فى قلبى من جراء ذلك بجرح قاتل » .

وكانت هذه الأسطر هى الكلمات الصادقة الوحيدة فى هذه الرسالة التى كتبت للتظاهر والتى أملى الحنق كلماتها ولكن « أوليفييه » شطبها .

وأعاد ادوارد الرسالة لبرنارد دون أن ينبس بكلمة واحدة فأخذها « برنارد » دون أن يقول شيئا . وسبق أن ذكرت أن « برنارد » و « ادوارد » لم يكن من عادتهما أن يتكلما كثيراً وكان يخيم عليهما نوع غريب من الضغط لا يمكن تفسيره بمجرد أن يكونا بمفردهما . (وأنا لا أحب هذا التعبير «لا يمكن تفسيره» ولا أستعمله هنا إلا مؤقتا إذا لم أجد غيره) . ولكن « برنارد » سأل « ادوارد » فى المساء بعد

أن عادا إلى غرفتهما ، وبينما كانا يتأهبان للنوم ، سأله وهو يبذل مجهودا كبيرا وكأن غصة في حلقه :

— هل أرتك « لورا » الرسالة التي استلمتها من « دوفيه » ؟

وأجابه « ادوارد » وهو يستلقي في فراشه : لم أكن لأشك في أن يتصرف « دوفيه » على هذا النحو في هذا الموقف . إنه شخص ممتاز . ربما كان ضعيفا ولكنه مع ذلك رجل ممتاز . سوف يحب هذا الطفل إلى درجة العبادة . إنني متأكد من ذلك . ولاشك أن الطفل سيكون أقوى بنية مما لو كان قد أنجبه هو . لأنه لا يبدو لي أن بنيته قوية .

وكان « برنارد » يحب « لورا » حبا جما ، ولذا أحنقته لهجة « ادوارد » وعدم مبالاته وهو يتحدث عنها ، إلا أنه لم يظهر ما بنفسه .

وأردف « ادوارد » وهو يطفيء شمعته : إنني سعيد بأن أرى هذه القصة تنتهي على هذا الوجه إذ كان يبدو أنها لن تؤدي إلا إلى اليأس . قد يحدث لأي شخص أن يخطيء في بداية الطريق ، ولكن المهم أن لا يستمر في الخطأ ...

وأجاب « برنارد » ليضع حدا للحديث : « لاشك في ذلك » ؟

وقال « ادوارد » : يجب أن أعترف لك يا « برنارد » إنني أخشى أن أكون قد أخطأت أنا أيضا معك ...

— في بداية الطريق ؟

— يبدو لي ذلك . وبالرغم من المودة التي أشعر بها نحوك فإنني ألاحظ منذ أيام أن من العسير أن يتفاهم شخصان مثلنا ... (وهنا تردد قليلا ليبحث عن الكلمات المناسبة) ... ويلوح لي أن مصاحبتك لي لمدة أطول من هذه ربما أضلتك عن سواء السبيل .

وكان هذا هو رأي « برنارد » أيضا ، طالما لم يتكلم ادوارد . ولكن ما قاله

« ادوارد » كان من شأنه أن يجعل « برنارد » يلمس الحقيقة بشكل أوضح . ثم دفعته غريزة المعارضة إلى أن يقول :

— إنك لاتفهمني جيدا ، كما أنني لا أفهم نفسي جيدا ، إنك لم تخبرني . وإذا لم يكن لديك ماتأخذه علي ، فهل أستطيع أن أطلب منك أن تنتظر قليلا ؟ أنا أوافقك على أننا مختلفان شيئا ما ، ولكنني كنت أعتقد أن من الأفضل لنا ألا نتشابه كثيرا . وفي اعتقادي أنني إن استطعت أن أؤدي لك خدمة فسيكون ذلك لما بيننا من اختلاف ، وسوف يمكنني لهذا السبب أن آتيك بشيء جديد . وإذا أخطأت فستكون أمامك فرصة لتنبهني إلى ذلك ، فإنني لست من الأشخاص الذين يشكون أو يلومون ولكن ها أنا أقترح عليك شيئا ـ وربما كان هذا الاعتراض سخيفا ...: سيلتحق « بوريس » الصغير على مافهمت بالقسم الداخلي بمدرسة « فيدل آزائيس » . أو لم تقل لك سوفرونيسكا ، إنها تخشى أن يشعر الصبي هناك بالوحشة ؟ إذا فرض وتقدمت أنا نفسي بتوصية من «لورا » ، فهل أستطيع أن آمل في الحصول على وظيفة مشرف أو ملاحظ أو شيء من هذا القبيل ؟ إنني في حاجة إلى أن أكسب عيشي . ولن أطلب شيئا كثيرا نظير قيامي بالعمل هناك ، أن الإقامة والطعام يمكن أن يكفياني ... (وسوفرونيسكا) تشعرني بثقتها في كما أن (بوريس) يرتاح إلي . سوف أحميه وأساعده ، سوف أكون رائده وصديقه . وسوف أكون مع ذلك تحت تصرفك ، سوف أعمل ماتطلبه مني في هذه الأثناء ، وسوف أكون رهن إشارتك ، مارأيك في ذلك ؟ ولكي يعطي لذلك اهمية اضاف :

— إنني أفكر في هذا الأمر منذ يومين .

ولم يكن صادقا ، لأنه لو سبق أن فكر في هذا المشروع لأخبر به (لورا) من قبل . ولكن ما كان صادقا فيه — وما لم يذكره — هو أنه منذ دفعه فضوله إلى قراءة مذكرات (ادوارد) ، ومنذ لقائه مع (لورا) أخذ يفكر في مدرسة « فيدل » ـ كان بوده أن يتعرف على « أرمان » صديق « أوليفييه » الذي لم يحدثه « أوليفييه » عنه . وكان يتمنى كذلك أن يتعرف على « ساره » شقيقة «لورا»

الصغرى . ولـكنه حبس فضوله فى صدره ولم يبح بهذا لنفسه ، لما كان يشعر به نحو « لورا » من تقدير .

ولم يقل « ادوارد » شيئاً ، وإن كان اقتراح « برنارد » قد راقه ، مادام هذا الحل يوفر له ماوى ، وكان يهمه ذلك شيئا ما .

وأضاف « برنارد » وهو يطفىء شمعته :

ـ لاتتصور أننى لم أفهم ما كنت تتكلم فيه عن كتابك ، وعن الصراع الذى تتخيل وجوده بين الحقيقة المجردة و...

وقاطعه « ادوارد » بقوله :

ـ إننى لا أتخيله بل هو قائم فعلا .

ـ حسنا . ألا يكون مستحبا أن أعرض أمامك بعض الحقائق المجردة لـكى أوجد لك الفرصة لمحاربتها ؟ سوف أرقب الحقائق من أجلك .

وكان « ادوارد » يشك فى أن يكون « برنارد » يسخر منه . ولـكن ما لاشك فيه أنه كان يشعر أن « برنارد » يهينه . وكان هذا الأخير يعبر عن أفـكاره ببراعة...

وقال « ادوارد » : سوف نفـكر فى هذا الأمر .

ومضى وقت طويل وكان « برنارد » يحاول النوم ولـكن عبثا . كانت رسالة « اوليفييه » تقض مضجعه . وتمتم أخيرا إذ لم يطق وإذ سمع أيضا (ادوارد) وهو يتململ فى فراشه :

ـ هل يمكننى أن أسالك سؤالا إن لم تـكن نائما ؟ ... مارأيك فى الـكونت (دى باسافان) ؟

وأجاب (ادوارد) : لاشك أنك تعرف رأيى فيه . ثم قال بعد لحظة :

ـ ومارأيك أنت ؟

وهنا قال (برنارد) بلهجة وحشية : أنا ... أشعر بالرغبة فى قتله .

الفصل السابع

عندما يبلغ الراحل أعلى الجبل يجلس ويمعن النظر قبل أن يستأنف السير في الطريق الذى صار الآن هابطاً، ويحاول أن يتبين أين سيؤدى به هذا الطريق الملتوى الذى يسلكه والذى يبدو تائها فى الظلام ، لأن الليل يرخى سدوله .

وهكذا يكون أمر المؤلف غيرالمتبصر . إنه ينتظر لحظة ليسترد أنفاسه ثم يتساءل فى قلق إلى : أين ستؤدى به قصته ؟

أخشى أن يرتكب « ادوارد » خطأ إذا ماعهد بوريس الصغير لعائلة آزائيس ، ولكن كيف نمنعه من ذلك ؟ كل شخص يتصرف وفقاً لقانونه ، وقانون « ادوارد » يدفع به دائماً إلى التجربة . إنه طيب القلب ولا شك ، ولكننى كنت أوثر أن أراه يتصرف طبقاً لما تمليه المصلحة، وذلك من أجل راحة الآخرين؛لأن الكرم الذى يسوقه ليس فى غالب الأمر إلا رفيق الفضول الذى قد يصير قاسياً . إنه يعرف القسم الداخلى بمدرسة « آزائيس » حق المعرفة ، ويعرف ما يستنشقه المرء فى هذا المكان من هواء فاسد تحت الغطاء الخانق ، غطاء الأخلاق والدين . وهو يعرف « بوريس » ونعومته ورقته . وجدير به أن يتنبأ بلون الجراح النفسية التى يعرضه لها . ولكنه لم يعد يفكر إلا فى الحماية والمساندة التى يمكن أن يلقاها نقاء هذا الطفل فى ظل تحشن « آزائيس » العجوز . ومن يدرى إلى أى نوع من السفسطة تصغى أذناه ؟ لا شك أن الشيطان يلقنها له ، لأنه لم يكن ليصغى إليها إن جاءته من مصدر آخر .

ولقد ضايقنى « ادوارد » أكثر من مرة (عندما كان يتكلم عن « دوفيه » مثلا)، بل جعلنى أشعر بالسخط ، وآمل ألا يكون شعورى قد ظهر بالرغم منى ، ولكننى أستطيع أن أفصح عنه الآن . والطريقة التى يتصرف بها مع « لورا » ـ رغم ماتتسم به من معانى الكرم ـ تبدو لى مثيرة أحياناً .

والشىء الذى لا يعجبنى فى « ادوارد » هو ما يجده من أسباب ليبرر بها أعماله . لماذا يحاول أن يقنع نفسه الآن بأنه يعمل لصالح « بوريس » ؟ يمكننا أن نتغاضى إذا ما كذب المرء على الغير ، أما أن يكذب الإنسان على نفسه فهذا عجيب . هل يتصور أن السيل الذى سيغرق هذا الطفل يمكن أن يروى ظمأه ؟ ... إننى لا أنكر وجود

بعض الأعمال النبيلة فى عالمنا هذا ، أعمال يعلها علينا الكرم ، أعمال منزهة عن الغرض . إلا أننى أعتقد أن وراء أى عمل نبيل ، كثيراً ما يختبىء شيطان ماهر بارع فى الاستفادة من أشياء كنا نتصور أننا سلبناه إياها .

ولنحاول الاستفادة من تباشير الصيف، التى هلت علينا والتى تفرق شخصيات هذه القصة ، لكى ندرس كلا منها على حدة . ها نحن الآن فى فترة من القصة تباطأ فيها سير الحوادث ، وبدا أن مجراها راح يتحفز لاندفاعة أخرى . « برنارد » حديث السن ، وهو فى حداثته هذه أصغر من أن يمسك بعنان مؤامرة . إنه يتعهد بحماية « بوريس »، والحق إنه لن يستطيع سوى ملاحظته على الأكثر . وقدسبق أن رأينا شخصية « برنارد » تتغير ، وهناك عواطف يمكن أن تغير من شخصيته مرة أخرى . ها أنا أجد على صفحات كراسة بعض جمل سجلت فيها ما كنت أعتقده فيه من قبل .

« كان خليقاً بى أن أحترس من عمل جرىء كالذى قام به « برنارد » فى بداية قصته ـ وحكمى هذا مبنى على تصرفاته اللاحقة . لقد استنفد كل نزعات الفوضى الكامنة فى نفسه ، ولا شك أن هذه النزعات كانت ستقوى لو استمر يعيش تحت ضغط عائلته . ومنذ قام بفعلته تلك عاش وكأنه يحتج على ما أقدم عليه . والعادة التى اكتسبها فى أن يثور ويعارض تدفعه إلى الثورة على ثورته ذاتها ، ولا أجد بين شخصيات قصصى شخصية خيبت ظنى مثلما فعل « برنارد » ، لأننى لا أجد بين هذه الشخصيات من كنت أعقد الأمل عليه كما عقدته على « برنارد » . لعله انساق مع نفسه قبل الأوان .

ولكنى أرى أن حكمى عليه لم يعد الآن دقيقاً . وأعتقد أنه يجب أن نستمر فى الثقة به . فثمت كرم وافر فى نفسه . وأحس برجولة وقوة فيه ، وهو قادر على السخط . ولعله يبالغ فى الإعجاب بحديثه ، ولكن يجب أن نعترف أيضاً بأنه يحسن الحديث .

وأنا لا أثق كثيراً فى المشاعر التى تجد السبيل إلى التعبير السريع . إنه تلميذ مجد ، غير أن المشاعر الجديدة لا تنصب بسهولة فى القوالب المحفوظة . والقليل

من الابتكار يجعله يتلعثم . لقد قرأ كثيراً وحفظ كثيراً وتعلم من الكتب أكثر مما تعلم من الحياة .

لا أجد عزاء كافياً فى أن الظروف وضعته بجانب «ادوارد» فى مكان «أوليفييه» . لم تسر الظروف فى مجراها الطبيعى . «أوليفييه» هو الشخص الذى كان يحبه «ادوارد» ، ولو أوجدته الظروف بجانبه لتفانى فى مساعدته على النضوج ، ولوجهه فى الحياة ؛ وذلك لما يكنه له من حب واحترام ، ولسانده ورفعه إلى مستواه . أما باسافان فلاشك أنه سيقضى عليه . لا شىء يمكن أن يفسده أكثر من إحاطته بهذا الجو الذى لاوازع فيه . كان « أوليفييه » خليقاً أن يصون نفسه فى هذا الجو ، ولكن طبيعته لينة تغتر بالمديح ، وقد فهمت من لهجته فى بعض فترات رسالته لبرنارد أن عنده بعض الغرور . لا أدرى أى شىء يسيطر عليه : حب اللذة ، أو الحنق ، أو الغرور؟ وأخشى أن يكون الأوان قد فات عندما يلتقى به « ادوارد » مرة أخرى . ولكنه ما زال صغيرا ويحق لنا أن نؤمل فيه خيراً .

أما عن « باسافان » ... فأجدر بنا أن نتكلم عنه . أليس كذلك ؟ لا يوجد رجال أكثر إفساداً ولا أكثر نجاحاً فى نظر الناس ممن هم على شاكلته ، اللهم إلا نساء على شاكلة « الليدى جريفيث » . وأنا أعترف بأن هذه المرأة كانت فى بداية الأمر تعجبنى إلى حد ما ، ولكن سرعان ما تبينت خطئى . مثل هذه الشخصيات قد صنعت من نسيج ضعيف لا يحتمل . وأمريكا تصدر الكثير منهن ، وإن لم تكن تنفرد بإنتاج هذا الصنف . يبدو أن هذه الشخصيات تتمتع بكل شىء : المال والذكاء والجمال ، ولكن ليست لديهن الروح . ولا شك أن « فنسان » سوف يقتنع بذلك بعد قليل . ويبدو كذلك أن هذه الشخصيات لا يثقلها ، لا ماضيها ولا أى وازع لديها . إنها لا تخضع لقوانين ولا لمثل عليا ، ولا لهواتف الضمير . إنها متحررة وتلقائية ، ولهذا تصيب الروائى باليأس فهو لا يستخلص منها إلا أفعالا لا قيمة لها . أرجو ألا أرى « ليدى جريفيث » إلا بعد فترة طويلة . وآسف لأنها سلبتنا « فنسان » الذى كان يهمنى شأنه أكثر مما كان يهمنى شأنها ، ولكنه يصير تافها بمعاشرته إياها ، وتفقد شخصيته

معالمها من جراء احتكاكه بها . وهذا أمر يؤسف له إذ أن شخصيته كانت ذات معالم جميلة .

وإذا ما حدث واخترعت قصة أخرى فلن أضع فيها إلا شخصيات قوية ، شخصيات تشحذها الحياة بدلا أن تثلمها . . . أما « لورا » و « دوفيه » و « لابيروز » و « آزائيس » . . . ماذا يمكن أن أعمل بهؤلاء الناس ؟ لم أكن أفتش عنهم ، ولكنني التقيت بهم فى طريق وأنا أتبع «برنارد» و «أوليفييه». تبا لى ، لقد أصبحت مدينا لهم .

الجزء الثالث

باريس

« عندما تتوفر لدينا بعض الدراسات الوافية الحديثة عن تاريخ وجغرافيا المناطق المختلفة ، سوف نستطيع عند ذاك (وعند ذاك فقط) بعد جمع هذه المعلومات ومقارنتها ومجابهتها بعضها ببعض – أن ننظر نظرة شاملة ، وأن نخطو خطوة جديدة حاسمة . أما إذا سرنا بطريقة أخرى فكأننا نقوم برحلة سريعة ، ولا زاد لنا غير فكرتين أو ثلاث من الأفكار الساذجة البدائية . وسنمر حينئذ مرّ الكرام بما هو فردى ، وخاص ، وخارج عن المألوف . ومعنى هذا أننا سنمر مرّ الكرام بأكثر المسائل إمتاعا وإثارة للاهتمام »

لوسيان فيفر : (الأرض والتطور البشرى)

الفصل الأول

يوميات « ادوارد »

« لم تسبب له عودته إلى باريس أية متعة »

فلوبير — « التربية العاطفية »

٢٢ سبتمبر — حرارة شديدة ، ملل . عدت إلى باريس قبل الميعاد الذى حددته بثمانية أيام — ستجعلنى هذه العجلة أسبق النداء . إنه حب استطلاع أكثر مما هو نشاط . رغبه فى سبق الأحداث . لم أستطع قط أن أتهاون مع ظمئى .

اصطحبت « بوريس » لزيارة جده . ذهبت « سوفرونيسكا » إلى الجد فى اليوم السابق لتخطره بهذه الزيارة ، فعلمت أن مدام « لابيروز » دخلت الملجأ ، وأخبرتنى بذلك .

تركت الصغير على عتبة الباب بمفرده بعد أن دققت الجرس ، ورأيت من الأفضل ألا أحضر لقاءهما الأول ، وكنت أخشى عبارات الشكر من الشيخ ، واستفهمت من الصغير فيما بعد عن هذه الزيارة ولكنه لم يرض فضولى . ورأيت « سوفرونيسكا » بعد ذلك ، فقالت لى إن الصغير لم يقل شيئاً . ولما ذهبت لأخذه — كما هو الاتفاق — فتحت لها خادم الباب فرأت « سوفرونيسكا » الشيخ جالساً أمام لعبة الشطرنج ، والصبى فى الجانب الآخر من الغرفة ، وكان ساخطاً .

وقال لها « لابيروز » وهو يتعجب مما حدث : .. « هذا أمر عجيب ! لقد بدا فى أول الأمر مسروراً ، ولكنه تغير فجأة وأخشى أن لا يكون صبوراً .

وكان من الخطأ أن يتركا وحيدين مدة طويلة .

٢٧ سبتمبر — قابلت (مولينيه) — هذا الصباح بالقرب من مسرح (الأوديون) . لن تعود بولين وجورج إلى المنزل إلا بعد غد . إن مولينيه وحيد بباريس وقد اعتراه

الملل مثلى ، فليس ثمت مايدهش إذا كان قد سر كثيرا لرؤيتى . وذهبنا لنجلس بحديقة (اللوكسمبورج) — فى انتظار أن يحين موعد الغداء ، وكنا قد اتفقنا على أن نتناوله معا.

يتكلف (موليليه) معى لهجة مرحة فيها بعض التفكه ، وهو يتصور ولا شك أنها طريقة تحلو للفنانين ، وتحدوه إلى ذلك أيضاً رغبة فى المرح والشباب .

وقال لى : أنا فى حقيقة الأمر رجل متقد العاطفة وفهمت أنه يعنى بذلك أنه يميل إلى المتع الحسية ،فابتسمت كما يبتسم المرء عندما تقول له امرأة بأن لها ساقين جميلتين . وكان معنى ابتسامتى : ثق أننى لم أشك أبدا فى هذا الأمر . لم أكن حتى هذا اليوم قد تبينت فيه إلا رجل القانون ، ولكن هاهو قد أزاح عنه أخيراً رداء القضاء .

وانتظرت حتى نجلس إلى المائدة بمطعم (فويوه) لأحدثه عن أوليفييه . وقلت له إن أخباره بلغتنى حديثا عن طريق صـديق له ، وأننى علمت أنه فى رحلة بجزيرة قورسيقة فى صحبة الكونت دى باسافان .

وأجابنى : نعم إنه صديق لفنسان ، وقد اقترح عليه أن يصطحب أوليفييه ، ولما كان هذا الأخير قد فاز فى امتحانه فإن أمه رأت ألا تحرمه هذه المتعة ... وأردف :

— الكونت دى باسافان من المهتمين بالأدب ، ولا بد أنك تعرفه . ولم أخف عنه أننى لا أحب لا مؤلفاته ولا شخصيته .

ورد قائلا : الزملاء فى المهنة الواحدة يقسون أحياناً فى الحكم بعضهم على بعض ، وقد حاولت أن أقرأ قصته الأخيرة التى اهتم بها بعض النقاد ، ولكننى لم أجد فيها مايستحق هذا الاهتمام . ولكنك تعرف أنه ليس لى باع طويل فى هذا المجال ... ثم أجابنى وهو يتاءب — عندما أبديت له مخاوفى من التأثير الذى يمكن أن يحدثه باسافان فى أوليفييه : الواقع أننى لم أكن موافقاً على سفره ، ولكن يجب أن نتبين هذه الحقيقة ، وهى أن الأبناء بعد سن معينة يخرجون علينا . هذا أمر معروف ولا نملك له تغييراً .

وتود « بولين » أن تظل مرفرفة عليهم بأجنحتها ، ومثلها فى هذا كمثل جميع الأمهات . وأنا أقول لها أحياناً : إنك تضايقين أبناءك ، اتركيهم وشأنهم . إنك توحين إليهم بآراء معينة لفرط ما توجهين إليهم من أسئلة ... وفى رأيى أن لاجدوى من مراقبتهم لمدة أطول من اللازم . المهم هو أن يلقنوا فى بداية تربيتهم بعض المبادىء السليمة ، أو أن يجدوا من يأخذون عنه فضائلهم . والوراثة ياعزيزى تنتصر على كل شيء . وثمت أفراد لايمكن إصلاحهم وهؤلاء نطلق عليهم اسم (المنحرفين) ، هؤلاء يجب أن نراقبهم بدقة . ولكن عندما تكون طبيعة الأطفال طيبة فإننا نستطيع أن نرخى لهم الزمام قليلا .

وقلت له : غير أنك أخبرتنى مع ذلك بأن خطف « أوليفيه » بهذه الطريقة لم يحظ بموافقتك .

فأجابنى ـ وهو يضع أنفه فى الطبق الذى أمامه : أوه ! موافقتى ... موافقتى ، إنهم لايبالون بموافقتى هذه أحياناً . يجب أن تعرف أنه فى الحياة الزوجية ـ وأعنى تلك التى يرتبط فيها الزوجان كل الارتباط ـ ليس الزوج دائماً هو الذى يقرر ! ولكنك لست متزوجاً ، وهذا الأمر لا يعنيك ...

وأجبته ضاحكاً : اعذرنى ، لست إلا قصصياً .

ـــ لعلك لاحظت إذن أن الزوج إذا ماسمح لزوجته أن تسيطر عليه ، فلايكون ذلك دائماً لضعف شخصيته .

ولكى أرضيه أجبته : هناك فى الواقع رجال حازمون ، بل ولهم شخصية متسلطة ، ومع ذلك فإنهم فى داخل بيوتهم كالحملان وداعة .

وأضاف : أتعرف السبب فى ذلك ؟.. فى تسع حالات من عشر يكون الزوج الذى يتنازل عن سيطرته لزوجته ، قد ارتكب شيئا يشعر معه بأنه فى حاجة إلى صفحها عنه . المرأة العفيفة ياعزيزى تستفيد من كل الأوضاع ، وإذا ماأحنى الرجل ظهره لحظة فهى تغتنم الفرصـــة وتقفز فوق كتفيه . آه ياصديقى إن الأزواج

يستحقون أحياناً العطف كل العطف ! عندما نكون فى ريعان الشباب نتمنى لأنفسنا زوجات عفيفات دون أن ندرى كل ماستكلفه إيانا فضيلتهن .

وكنت أرقب « مولينبيه » ، مستنداً بمرفقى إلى المنضدة ، ممسكا ذقنى بين يدى .

لم يكن المسكين يتصور أن الوضع المنحنى الذى كان يشكو منه يتلاءم مع طبيعة ظهره ! وكان يتكلم ويجفف عرق جبينه باستمرار . كما كان يأكل كثيراً ، لايتذوق ولكن يأكل بنهم ، كما كان يبدو أنه يقدر بنوع خاص نبيذ « البورجونى » وحيث كان سعيدا لشعوره بأنى أصغى إليه ، وأنى أفهمه ـ ولا شك أنه كان يعتقد كذلك أنى أوافقه علىمايقول ـ راح يفيض فى الاعتراف بمكنونات نفسه ، وأضاف : بصفتى قاضياً عرفت منهن من لا يستسلمن لأزواجهن إلا على مضض ثم يثرن إذا ماذهب المسكين ـ وقد عافت نفسه هذا الغذاء ـ لينشد غذاء آخر .

وكان القاضى قد بدأ جملته مستخدماً صيغة الماضى ، إلا أن الزوج أكمل الجملة بصيغة الحاضر فى شكل يوحى بأن المقصود هو شخصه بالذات . وأضاف بلهجة جادة ـ وهو مستمر فى تناول طعامه : إننا نحكم بأن شهوات الآخرين مفرطة إن كنا لا نشاطرها . ثم احتسى جرعة كبيرة من النبيذ ، وأضاف : وهذا يوضح لك ياصديقى العزيز كيف يفقد الزوج السيطرة على بيته .

وأدركت تماماً من أحاديثه غير المتماسكة رغبته فى أن يلقى على فضيلة زوجته مسئولية أخطائه . وقلت لنفسى إن أفراداً مهلهلى الشخصية مثل هذه « الدمية » لا يوفقون ـ لفرط أنانيتهم ـ إلى ربط العناصر المتفككة لشخصيتهم ، فإذا مانسوا أنفسهم قليلا فسوف ينهارون قطعاً . وواصل صمته وهنا ـ شعرت بالحاجة إلى أن أبدى بعض الملاحظات ، وكان مثلى كمن يسكب زيتاً على آلة قطعت مرحلة طويلة . ولكى أدعوه لاستئناف الكلام قلت :

ـ من حسن الحظ أن « بولين » ذكية .

ونطق « نعم » .. طويلة تؤدى معنى الشك ، ثم قال :

ـ ومع ذلك فهناك أشياء لاتفهمها . ومهما تكن المرأة ذكية فأنت تعرف ...

على أنى أعترف بأنى فى هذا الصدد لم أتصرف بلباقة ، بدأت أول الأمر أحدثها عن مغامرة صغيرة ، وكنت مقتنعاً حينذاك بأن المسألة لن تتطور . ولكن الموضوع تطور ، وزادت شكوك « بولين » بدورها . لقد أخطأت فأثرت شكوكها . ولذا عمدت إلى الإخفاء ، بل إلى الكذب . وهذه نتيجة الإسراف فى الكلام . وما باليد حيلة ! إذ أنى بطبعى رجل أثق فى الغير ... ولكن « بولين » غيورة جداً ولا يمكن أن تتصور إلى أى حد اضطررت إلى أن أمكر عليها .

وسألته : هل مضى وقت طويل على ذلك ؟

وأجاب : ذلك أمر مر عليه حوالى خمس سنوات ، وكنت أتصور أنى قد طمأنتها تماماً . ولكنى سوف أضطر إلى أن أعاود الكرة من جديد . هل تتصور أنى أول أمس عند عودتى إلى المنزل ... هيه! مارأيك فى أن تطلب زجاجة ثانية ؟ -

— لا تطلب لى أرجوك .

— ربما كان عندهم هنا زجاجات صغيرة . وسوف أعود إلى منزلى بعد ذلك لأنام قليلا ... الحرارة تضايقنى ...

كنت أحكى لك أنى أول أمس ، عند عودتى إلى المنزل ،فتحت درج مكتبى لأرتب بعض الأوراق . وفتحت الدرج الذى أخفيت فيه رسائل... رسائل الشخص الذى أحدثك عنه . تصور مدى دهشتى ياعزيزى . كان الدرج خاوياً ! وأنا أتصور حينئذ ماحدث: لقد ذهبت « بولين » إلى باريس بصحبة « جورج » منذ خمسة عشرة يوماً لحضور حفل زفاف ابنة أحد زملائى . ولم يكن فى استطاعتى حضور الحفل ، وأنت تعرف أنى كنت فى هذا الوقت بهولندا ... ثم إن حضور مثل هذه الاحتفالات من اختصاص النساء . ولما شعرت « بولين » بالفراغ فى هذه الشقة الخاوية ، فلابد أنها رغبت فى تنسيق مافى البيت . أنت تعرف إلى أى حد يمكن أن يصل فضول النساء ولاشك أنها بدأت تنقب هنا وهناك... أوه ! لاشك أن نيتها لم تكن سيئة . إننى لاأتهمها أبداً! ولكن « بولين » أحبت التنسيق دائما . والآن ماذا أقول لها وهى قد حصلت على الدليل القاطع : لقد كان الأمر يهون لو كانت صديقتى لا تدعونى باسمى ؟ فإن ذلك يحدث بين شخصين مرتبطين كل الارتباط . إننى عندما أفكر فيما سوف يحدث لى ...

كان الرجل المسكين يتخبط فى اعترافاته ، وهو يجفف العرق على جبينه. ثم أخذ يروح وجهه بمنديله . كنت قد شربت أقل منــه بكثير . إن القلب لا يمكن أن يسعفنا بالشفقة متى شئنا . لم أشعر نحوه عند ذلك إلا بالاشمئزاز . كان يمكن أن أتصوره رب أسرة (وإن كان يضيرنى أن أتصور فيه أبا لأوليفييه) ، وكنت أقبل أن أتخيله رجلا من وسط طيب مستقراً أمينا ، مطمئناً إلى مستقبله . أما أن أتخيله عاشقاً ، فإنى لا يمكن أن أراه فى هذه الحالة إلا مضحكا .

وتضايقت بخاصة من عدم لباقته ، وسخف حديثه وحركاته ، والمشاعر التى كان يريد التعبير عنها . ولم يكن وجهه ولا صوته صالحين للتعبير عنها ، كان يشبه طبلة غليظة تريد أن تخرج أنغاما رقيقة ، ولذا لم تــكن آلته الموسيقية تخرج إلا أصوات نشاذ .

وسألته : كنت تقول لى إن جورج كان بصحبتها .

— نعم ، لم ترد أن تتركه وحيداً . ولــكنه بالطبع لم يكن معها طوال الوقت فى باريس... إذا ما قلت لك ياعزيزى إنى خلال ست وعشرون سنة قضيتها معها لم يحدث بيننا أى خلاف ولا أبسط مشادة ... ثم عند ما أ فــكر فيما سيحدث لأن « بولين » سوف تعود بعد يومين... هيه ! دعنا من هذافلنتكلم فى شىء آخر . حسناً مارأيك فى «فنسان»وأمير موناكو ، والرحلة البحرية ..! كيف...؟ لم تــكن تعرف ذلك؟... نعم إنه قد رحل ليشرف على تنقيبات ومناطق صيد بالقرب من جزر « الاسور » آه أؤكد لك أن ليس هناك ما يشعرنى بالقلق من ناحية فنسان . ســوف يشق طريقه بمفرده .

— وماذا عن صحته ؟

— لقد شفى تماما . ولما كان على هذا القسط من الذكاء فإنى أعتقد أنه سيسير فى طريقه إلى المجد . ولم يخف عنى الــكونت دى باسافان رأيه ، فيه إذ أنه يعتبره من ألمع الرجال الذين صادفهم . وكان يقول عنــه : ألمع الرجال ... ولــكن يجب أن نحسب حساب ما فى هذا القول من مبالغة .

وانتهينا من تناول الغداء وأشعل سيجاراً وأردف :

— هل أستطيع أن أسألك عن هذا الصديق الذى أعطاك أخبارا عنه ؟ لن أخفى عنك أننى أهتم اهتماما بالغاً بمعرفة أصدقاء أولادى . وفى رأيى أننا ،مهما بذلنا فى هـذا السبيل فلن نكون مبالغين . من حسن الحظ أن لدى أبنائى استعدادا طبيعياً للارتباط بخيار الناس . ها أنت ترى فنسان مع أميره ، وأوليفيه مع الـكونت دى باسافان . أما عن جورج فقد التقى بزميل صغير له فى الدراسة بمدينة هولجات يدعى آداماتى وسوف يعود قريباً إلى مدرسة فيدال آزائيس مع ابنى . وهذا الصبى مرح جداً . ووالده عضو الشيوخ عن جزيرة قورسيقة . ولـكن يجب أن نحتاط . فإن أوليفيه كان يصادق ولدا من عائلة طيبة جداً ، ويدعى برنارد بروفيتا نديو ، ويجب أن أخبرك بان الأب بروفيتا نديو زميل لى ، وهو رجل ممتاز وأنا أوده كل المودة . ولـكن ... (وأرجو أن يظل هذا الأمر بيننا) ... علمت أنه ليس أبا لهذا الصبى الذى يحمل اسمه ! ما رأيك فى ذلك ؟

وقلت : برنارد بروفيتا نديو بالذات هو الذى كلمنى عن اوليفيه . وهنا جذب فولينيه أنفاساً عميقة من سيجارة ، وقال وهو يرفع حاجبيه مما ملأ جبهته بالتجاعيد :

— كنت أوثر ألا يعاشر أوليفيه هذا الصبى . لقد بلغتنى عنه أخبار مزعجة ، ولـكنها على العموم لم تدهشنى كثيراً . ومن الطبيعى ألا ينتظر خير من طفل ولد فى هذه الظروف التعيسة ، وليس معنى هذا أن الابن غير الشرعى لا يمكن أن يتحلى بالصفات الـكريمة بل وبالفضائل ، ولـكن ثمرة التمرد لابد أن تحمل عناصر الفوضى ... ! نعم يا عزيزى ، لقد حدث ما كان سيحدث لا محالة . وترك برنارد الصغير منزل عائلته فجأة . وهو منزل لم يكن له أن يدخله أبداً . وذهب ليحيا حياته ـ على حد تعبير إميل اوجييه[1] : ليحيا بأى شكل وفى أى مكان ! وكان يبدو على بروفيتا نديو ـ المسكين

(١) مؤلف مسرحى فرنسى (١٨٢٠ — ١٨٨٩)

الذى أخبرنى بنفسه بتصرف « برنارد » الشاذ ـ أنه متاثر جداً مما حدث . ولـكنى أفهمته أن عليه ألا يتأثر من هذا الموضوع ، لأن رحيل هذا الصبي سوف يعيد كل شيء إلى النظام الطبيعي .

وأجبتـه محتجا بأنى أعرف « برنارد » إلى حد يسمح لى أن أؤكد أنه لطيف وأمين (وبالطبع تجنبت الإشارة إلى موضوع الحقيبة) . ولـكن موليـنيه أجابنى فى الحال بانفعال :

ــ « أرى أنه لابد لى من أن أروى لك أكثر مما رويت » . ثم أردف بصوت خفيض وهو ينحنى نحوى :

ــ لقد كلف زميلى « بروفيتانديو » بالتحقيق فى قضية معقدة ومحرجة إلى أقصى حد ، لا لما تنطوى عليه فحسب ، بل لما يمكن أن ينتج عنها من تشهير . إنه موضوع يبدو عجيباً ، وحبذا لو أمكننا عدم تصديقه . الأمر يتعلق ياعزيزى بعمل منظم يقوم على الدعارة ، بعمل ... ولـكننى لا أريد أن أستعمل الفاظاً نابية ، لنقل إن الأمر يتعلق بقاعة من القاعات المخصصة لتناول الشاى . مكان له طابع خاص ومريب ، إذ أن معظم رواده من تلاميذ المدارس حديثى السن . لقد ذكرت لك أن الموضوع يصعب على المرء تصديقه . ولا شك أن هؤلاء الصبية لا يتبينون خطورة ما يرتكبونه لأنهم لا يهتمون كثيراً بإخفاء ما يقومون به . ويحدث هذا بعد خروجهم من المدرسة . وهم يأكلون فى هذا المـكان ويتحادثون ويلهون مع أولئك النسوة . ويمتد لهوهم هذا إلى غرف ملحقة بهذه القاعات . ومن الطبيعي أنه لايمكن لأى شخص أن يتردد على هذا المـكان ، وأن يلتحق بعضويته ، إلا إذا قدمه أحد من رواده . والسؤال هو: من يمول حفلات الفساد هذه ؟ من يدفع أجرة الشقة ؟ ولم يكن البحث فى هذا الأمر عسيراً ، ولـكن كان لزاما علينا أن نحتاط جداً فى ذلك ، إذ كنا نخشى إذا ما استرسلنا فى البحث أن نعرف أشياء كثيرة ، ونضطر فى هذه الحال إلى مراقبة بعض التلاميذ وإلى تناول سمعة بعض العائلات المحترمة لأن بعض أبنائهم ممن يترددون على هـذا المـكان تحوم حولهم الشبهات . ولذا حاولت جاهدا أن أحد من نشاط « بروفيتانديو » إذ

كان مندفعا كالثور فى تحقيق هذه القضية ، دون أن يتبين أنه عندما سينطح أول نطحة بقرنه ... (آه ! إننى آسف على ما قلت إذ لم أتعمده . آه ! آه ! آه ، هذا عجيب استعملت هذا التشبيه ... دون إدراك . .) كان يجازف بإدخال ابنه نفسه فى الموضوع ! ولكن من حسن الحظ أن الأجازات فرقت الجميع وآمل أن تنتهى المسالة ، وتضيع معالمها ، وأن يوضع لها حد بعد أن نحذر الأولاد ، ونعاقب البعض دون إثارة فضيحة .

وسألته : أمتأكد أنت تماما أن « برنارد بروفيتا نديو » اشترك فى هذه العملية ؟

— لا لست متأكدا تماما ، ولكن...

— وما الذى حدا بك إلى هذا الاعتقاد ؟

— أولا كونه ابنا غير شرعى . لعلك تدرك أن صبيا فى مثل سنه لا يمكن أن يرحل هكذا من بيته إلا إن كان قد أتى منكراً . ثم إننى أعتقد أن « بروفيتا نديو » بدأ يشك فى الأمر لأن اندفاعه وهن فجأة ؟ وكان يبدو عليه وكأنه يتقهقر . وعندما سألته فى آخر مرة قابلته فيها عن هذا الموضوع ، ظهر عليه الإحراج ، وأجابنى بقوله : — أعتقد أن الموضوع لن يسفر عن شىء . قال ذلك ووجه الحديث وجهة أخرى . يا لبروفيتا نديو المسكين ! لم يكن يستحق أن يحدث له ما حدث . إنه رجل أمين وهو فوق ذلك — وهذا شىء نادر — رجل طيب . وقد زوج ابنته أخيرا ووفق فى هذا كل التوفيق . ولكنى لم أستطع حضور هذا الحفل إذ كنت فى هولندا . غير أن بولين و جورج عادا إلى باريس لهذا السبب . هل سبق أن أخبرتك بذلك ؟ لقد حان الوقت لأعود إلى بيتى لأنام... ماذا ، أحقا تريد أن تدفع الحساب كله ؟ لا تفعل ذلك ! بين الشبان ، بين الرفاق ، يقسم الحساب ... لا فائدة من محاولتى الدفع ؟ حسنا ، وداعا . لا تنس أن بولين ستعود بعد يومين . احضر لزيارتنا . ثم أرجوك ألا تنادينى بعد الآن باسم موليفييه . قل لى أوسكار فقط ! ... ... كنت أود أن أطلب منك ذلك منذ زمن طويل .

وفى هذا المساء تسلمت ورقة من « راشيل » شقيقة « لورا » وعليها هذه الـكلمات :

عندى أخبار خطيرة أريد أن أرويها لك . لعلك تستطيع — إن لم يكن يزعجك هذا — أن تمر علينا بالمدرسة غداً بعد الظهر ، سوف تؤدى خدمة كبيرة إن فعلت .

لو كانت تطلبنى لتكلمنى فى شأن لورا لما انتظرت كل هذا الوقت . هذه أول مرة تـكتب لى فيها .

الفصل الثانى

يوميات ادوارد (تابع)

٢٨ سبتمبر : وجدت راشيل على عتبة حجرة الاستذكار فى الطابق الأرضى من المدرسة . وكان هناك خادمان ينظفان خشب الأرض ، وكانت هى نفسها ترتدى ميدعة خادمة وتمسك بيدها خرقة من القماش . قالت لى وهى تمد يدها إلى ، وعلى وجهها أمارات حزن واستسلام وحنان : كنت أعرف أن فى إمكانى أن أعتمد عليك . ولكنها كانت فى عين الوقت باسمة تؤثر فى النفس أكثر مما يؤثر الجمال . وأردفت : إن لم تكن على عجلة من أمرك فمن الأفضل أن تصعد إلى غرفة جدى لزيارته ، ثم لزيارة والدتى فسيغضبان إن عرفا أنك حضرت إلىهنا دون أن تراهما ولكن عليك أن تحتفظ لى ببعض اللحظات لأنى فى حاجة ملحة إلى أن أتكلم معك . سوف تلحق بى هنا ، وها أنت ترانى أباشر العمل . وهى لاتقول أبدا إنى أعمل ـ وهذا عن حياء . لقد توارت راشيل طول حياتها ، وإنها لتخفى فضائلها وتواضعها . ونكرانها لذاتها أمر طبيعى لديها ، حتى أن أهلها لايقدرون مدى تضحيتها المستمرة . إنها أجمل روح عرفتها فى امرأة !

وصعدت إلى الطابق الثانى حيث (آزائيس) . لم يعد الشيخ يترك مقعده وأجلسنى بجانبه ، ثم كلمنى مباشرة عن (لابيروز) قال :

يقلقنى أنه يعيش بمفرده ، وكان بودى أن أقنعه بأن يأتى ليعيش هنا فى المدرسة . أنت تعرف أننا صديقان منذ أمد طويل ، وقد ذهبت أخيرا لزيارته وأخشى أن يكون رحيل زوجته العزيزة إلى ملجأ (سانت بيرين) قد أثر فيه كثيرا . وقد أخبرتنى خادمته أنه لم يعد يتناول شيئاً من الطعام ، وفى رأيى أننا نأكل كثيرا عادة ، ولكن يجب أن نراعى الاعتدال فى كل شىء ، كما أنه يمكن أن نبالغ

فى الاتجاهين وهو لايجد جدوى فى أن تطهى له طعاما بمفرده . ولـكنه لو جاء إلى هنا وتناول وجباته معنا ، فربما شجعته رؤية الآخرين على أن يأ كل ، وسوف يكون هنا بجانب صغيره اللطيف ، ولن تسنح له فرص كثيرة لرؤيته إلا بهذه الوسيلة ، لأن الشقة بعيدة بين شارع (فافين) وحى (فوبورج سانت هونوريه) . ثم إنه لايعجبنى أن أسمح للطفل بالخروج بمفرده فى باريس . ومعرفتى بـ (أتول دى لابيروز) معرفة قديمة ـ لقد كان دائما رجلا فريدا ، ولست آخذ عليه ذلك ، ولـكنه بطبعه معتز بنفسه ، ولن يقبل الضيافة التى أعرضها عليه دون مقابل . وقد فـكرت فى أن أقترح عليه أن يشرف على الحصص المخصصة لاستذكار التلاميذ ، ولن يرهقه ذلك ، وربما ساعده على إيجاد نوع من التسلية وعلى أن يخرجه مما هو عليه من انطواء ، إنه بارع فى العلوم الرياضية وربما استطاع أحيانا أن يعطى دروسا فى الهندسة والجبر . ولما كان لايتردد عليه أحد من تلاميذه فإن أثاث بيته ومعزفه (بيانه) لم يعد لهما أى نفع بالنسبة له ، ولذا أرى أن يتخلى عن كل ذلك . ولـما كان مجيئه هنا يوفر له قيمة إيجار المسكن ، ففى استطاعتنا أن نتفق على قيمة بسيطة نظير إقامته لـكى لا يشعر بأنه مدين لى بشىء ، ولـكى يكون على راحته . عليك أن تحاول إقناعه دون إبطاء لأننى أخشى أن يضعف بسرعة بسبب نظامه الغذائى السيىء .

ثم إن دخول المدارس سوف يكون بعد يومين ومن الأفضل أن نتبين الأمر . أنعتمد عليه ... وهل يعتمد هو علينا ؟ ووعدته بالذهاب إلى (لابيروز) فى اليوم التالى ، وأضاف ، وكأن كلامى طمأنه : هو لطيف ربيبك (برنارد) ، لقد تقدم ليؤدى بعض الخدمات هنا ، وكان يقترح أن يشرف على دراسة التلاميذ الصغار ، ولـكننى أخشى ان تـكون سنه سببا فى أن لايحترمه التلاميذ . لقد تحادثت معه طويلا ، ووجدته شخصا لطيفا جدا ، وبمثل هذه الخصال نستطيع أن نخلق خير المسيحيين . ممـا يؤسف له حقا أن يكون توجيهه قد فسد بفعل التربية التى صادفها

فى بادىء حياته . فلقد اعترف لى بأنه غير مؤمن ، ولـكنه قال ذلك فى لهجة جعلتنى أؤمل فى إصلاحه ، وأجبته بأنى أرجو أن أجد فيه الصفات اللازمة لأجعل منه جنديا من جنود المسيح ، وأن عليـه بدوره أن يستثمر المواهب التى منحه إياها الله . وقد قرأنا معا صفحات « العهد الجديد » . وفى رأيى أن البذور الطيبـة لم تصب تربة عقيمة . لقد بدا عليه أن كلامى أثرت فيه . ووعدنى بالتفـكير فى هذ الأمر .

وكان « برنارد » قد أخبرنى بالحديث الذى جرى بينـه وبين الشيخ . وكنت أعرف رأيه فى هـذا الحديث ، ولذا أصبح حديث « آزائيس » مؤلمـا لى ونهضت للرحيل ، ولـكنه قال، وهو يحتفظ بيدى بين يديه :

— لقد قابلت « لورا » ! وعلمت أن هذه الابنة العزيز قد أمضت شهرا كاملا معك على سفح الجبل الجميل ، ويبدو أنها استفادت كثيرا من هـذه الرحلة . أنا سعيد أن أعلم أنها عادت إلى زوجها الذى كان قد بدأ يتألم لغيابها الطويل ، ومما يؤسف له أن يكون عمله قد منعه من أن يلحق بكما هناك .

وحاولت أن أتخلص منه ، وأن أرحل ؛ إذ كنت أشعر بحرج متزايد لأنى أجهل مايمكن أن تـكون (لورا) قد قالت له . ولـكنه جذبنى نحوه بقوة وبحركة مفاجأة وآمرة وقال لى وهو ينحنى فوق أذنى : قالت لى ، لورا ، إنها تنتظر حادثا سعيدا ، ولـكن صه ... ! إنها تفضل أن لايعلم أحد بهـذا الآن . إنى أقول لك ذلك لأنى أعرف أنك تعلمه ولأن كلا منا يستطيع أن يكتم السر . لقد كانت الصبية مرتبـكة للغاية وهى تخبرنى بهذا كما أنها كانت خجولة فهى شديدة الوقار . وركعت أمامى وشكرنا الله سويا على أنه بارك هذا الزواج .

وفى رأيى أن (لورا) تسرعت فى الإفضاء بهـذا السر ؛ لاسيما وإن حالتهـا لم تـكن تضطرها إلى هذا التصريح . ولو سألتنى رأيى لنصحتها أن ترجىء الـكلام فى هذا الموضوع حتى تقابل (دوفيـه) . إن (آزائيس) لم يلحظ شيئا فى هذا الموضوع ولـكن ذويه لن يكونوا بهذه البساطة .

واستمر الشيخ بعد ذلك يكرر بأشكال مختلفة ما اعتاد أن يقوله من عبارات دينية ، ثم أخبرنى أن ابنته سوف تكون سعيدة بأن تلقانى . ونزلت إلى الطابق الذى تسكنه عائلة (فيدل) .

ها أنذا أعيد قراءة ما كتبته عن (آزائيس) . إننى عندما أتكلم عنه بهذه اللهجة أشعر بأنى أجعل من نفسى شخصا بغيضا . وهذا رأيى فيما كتبته . وإن كنت أضيف هذه السطور فإننى أخطها ليقرأها (برنارد) إذا ما دفعه فضوله من جديد إلى أن يدس أنفه فى هذه الكراسة . وهو إذا ما استمر فى معاشرة هذا الشيخ سوف يفهم ما أعنيه بقولى هذا . إننى أحب هذا الشيخ حبا جما ، وأحترمه ، ولكننى بمجرد أن أجدنى بالقرب منه لا أستطيع أن أطيق نفسى ! . وهذا يجعل بقائى معه مؤلماً لى .

وأنا أحب كثيرا ابنته زوجة القس . والسيدة (فيدل) تشبه كثيرا شخصية (ألفير) فى ديوان (لامارتين) ولكنها (ألفير) عندما تتقدم بها السن وحديثها لا يخلو من الطلاوة . وكثيرا ما يحدث أن تبدأ جملها ولا تكملها ، ولذا نرى فكرتها وقد غمرها نوع من الإبهام الشاعرى . وتحمل كل عبارة غير محددة أو غير مكتملة معنى لانهائياً ، وهى تنتظر من الحياة الأخرى أن تعوضها عما ينقصها فى عالمنا هذا ، وهذا يسمح لآمالها بأن تتسع إلى ما لانهاية وتحلق خيالها فوق آفاق حياتها المحدودة . ولأنها لا ترى زوجها إلا فيما ندر ، تتصور أنها تحبه ـ والرجل الموقر على سفر دائم إذ عليه واجبات الرعاية للغير ، ومشاغله ومواعظة واجتماعاته وزياراته للفقراء وللمرضى ، وهو لا يضغط على يدك إلا بطريقة عابره ولكنه يفعل هذا بود ، وقد قال لى : « إننى على عجلة من أمرى اليوم وليس أمامنا وقت للحديث » .

وأجبته : لا بأس ، سوف نلتقى فى المساء . ولكن لم يكن عنده الوقت ليسمع إجابتى . وتقول مدام « فيدل » متنهدة إنه : لم يعد أمامه وقت ليفكر فى نفسه . إذا ما عرفت كل ما يقع على كاهله منذ ... ولما كان الناس يعرفون أنه لا يرفض أبدا ، فإن الجميع ... وعندما يعود فى المساء يكون أحيانا مرهقاً لدرجة أننى لا اجرؤ على التحدث معه خشية أن ... وهو يمنح حياته للآخرين ولم يتبق له شىء ليعطيه لذويه

وبينما كانت تكلمنى عدت بذاكرتى إلى ما كان يفعله « فيدل » عند عودته أيام كنت أعيش فى القسم الداخلى . كنت أراه يسند رأسه بين راحتيه ، ثم يطلق صوتا مكتوماً بعد أن يستريح قليلا . ولكنى أعتقد أنه كان يخشى هذه الراحة أكثر مما كان يتمناها وكان يبدو لى أن لا شىء يمكن أن يزعجه أكثر من الوقت الذى يتيح له بعض التفكير .

وسألتنى السيدة « فيدل » : هل لك فى فنجان من الشاى ؟ وكانت خادمة صغيرة قد أحضرت صينية محملة بأدوات الشاى .

وقالت لها الخادمة : ياسيدتى لم يعد عندنا ما يكفى من السكر .

وأجابتها : سبق أن قلت لك إن عليك أن تطلبي هذه الأشياء من الآنسة «راشيل» هيا أسرعى ... هل نبهت على السادة بالحضور لتناول الشاى ؟

ـ خرج السيد « برنارد » وكذلك السيد « بوريس » .

ـ حسنا ! والسيد « أرمان » ؟ هيا أسرعى .

ثم أردفت دون أن تنتظر خروج الخادمة :

ـ هذه الصغيرة المسكينة قد جاءت من « ستراسبورج » . وليس عندها أى ... ونحن مضطرون إلى أن نفهمها كل شىء ... حسنا ! ماذا تنتظرين ؟

واستدارت الخادمة ، كما تفعل الأفعى عندما يطأ أحد الناس ذيلها وقالت :

ـ المدرس المراجع موجود فى الطابق الأرضى ، وكان يريد أن يصعد إلى هنا ، وهو يقول إنه لن يرحل قبل أن يقبض حسابه .

ونمت ملامح السيدة « فيدل » عن ضيق أليم وقالت :

ـ كم من مرة يجب أن أكرر أنى لا شأن لى بهذه المسائل ـ اطلبى منه أن يتوجه إلى الآنسة هيا .. لا يمكن أن نستريح ساعة ! لست أدرى فيم تفكر « راشيل » .

وسألتها : ألن ننتظرها لتناول الشاى ؟

وأجابتنى : إنها لاتتناوله أبدا ... آه ! إن دخول المدرسة يسبب لنا متاعب جمة. المدرسون للراجعون الذين يتقدمون يطلبون أجورا باهظة ، وعندما تكون اجورهم معقولة لا يكونون هم كذلك ـ ولقد شكا والدى من المدرس الذى عيناه أخيرا ـ وقد كان ضعيفا معه ـ وهو الذى يهددنا الآن . هل سمعت ما قالته الخادمة الصغيرة وكل هؤلاء القوم لا يفكرون إلا فى النقود ... وكأن ليس هناك ماهو أهم من ذلك على هذه الأرض ... وفى الوقت الحاضر لانجد وسيلة لنحل محله آخر ، وفى رأى « بروسبير » أن لا سبيل إلا أن نسال الله أن يدبر كل شىء ...

وعادت الخادمة تحمل السكر .

وسألتها السيدة « فيدل » : هل أخطرتِ السيد « أرمان » ؟

ـ نعم يا سيدتى . سوف يحضر فى الحال .

ـ وسالت أنا : و « سارة » ؟

ـ لن تعود إلا بعد يومين . إنها عند بعض الأصدقاء بانجلترا ـ عند أهل هذه الشابة التى رأيتها عندنا ، وهم ظرفاء جدا وأنا سعيدة بأن تستطيع « سارة » أن ... كما حدث « للورا » . لقد وجدتها أحسن حالا . هذه الرحلة إلى سويسرا بعد رحلتها إلى الجنوب ، أفادتها كثيرا . وأنت لطيف جدا إذ أمكنك أن تقنعها بالقيام بهذه الرحلة. وليس هنا إلا « أرمان » المسكين الذى لم يترك باريس طوال فترة الأجازات . وسألتها : وراشيل ؟ .

ـ نعم حقا . وهى الأخرى لقد طلب منها الكثيرون أن ترحل ، ولكنها آثرت البقاء بباريس . ثم إن جدها كان فى حاجة إلى وجودها . ومع كل ففى هذه الحياة لا يمكن للمرء ان يعمل دائما كل مايشتهيه . وهذا ما أجد نفسى مضطرة إلى أن اعيده على مسامع أولادى من حين إلى حين ـ يجب أن نفكر أيضا فى الآخرين ـ هل تظن أننى بدورى لم يكن يحلو لى أن أذهب للنزهة فى مدينة ساس فيه ؟ و ... ؟ !

عندما يسافر بروسبير ، أتظن أنه يقوم بذلك للتسليه ؟ ثم أردفت وهى ترى ابنها يدخل الحجرة

ـ أرمان ، أنت تعرف أنى لا أحب أن تحضر إلى هنا بدون ياقة قميصك .

ـ وأجابها : ياأمى العزيزة لقد علمتنى فيما لقنتينى من مبادىء دينية أن لا أهتم كثيرا بمظهرى .

قال ذلك وهو يمد لى يده ، ثم أضاف : الغسالة لا تحضر إلا يوم الثلاثاء وياقات قمصانى التى عندى ممزقة كلها .

وتذكرت ما سبق أن قاله (أوليفييه) عن زميله ، وبدا لى فى الواقع أن شعورا عميقا بالألم يختبىء وراء هذه الابتسامة الساخرة . وكان وجه « أرمان » قد رق . واحدودب أنفه فوق شفتيه الرقيقتين ، اللتين شحب لونهما ، وأضاف :

ـ هل أخبرت زائرك الموقر أننا ألحقنا بمجموعتنا بمناسبة افتتاح موسمنا الشتوى ، بعض النجوم المعروفة : ابن عضو شيوخ محترم ، و (فيكونت دى باسافان) الشاب وهو شقيق مؤلف مشهور . ولا يفوتنى أن أذكر أيضا شخصيتين يعرفهما السيد ، وهما الأمير (بوريس) ، والماركيز (دى بروفيتا نديو) وآخرين لم تتضح بعد ألقابهم ولا فضائلهم .

وقالت الأم المسكينة ، وكانت تبتسم لهذه الدعايات : ها أنت ترى أنه لم يتغير .

وكان أخشى ما أخشاه أن يبدأ فى الكلام عن لورا ولذا لم أطل زيارتى وأسرعت بالنزول لأقابل راشيل .

وكانت راشيل قد رفعت أكمام ردائها لتساعد فى ترتيب حجرة الاستذكار ، ولكنها أنزلتها فى الحال عندما رأتنى أقترب منها . وقالت لى ، وهى تجذبنى إلى حجرة صغيرة مجاورة تستعمل فى الدروس الخاصة : يصعب على جدا أن ألجأ إليك . كنت أحب أن ألجأ إلى (دوفييه) وكان قد طلب منى ذلك ، ولكننى بعد أن رأيت لورا أدركت أننى لن أستطيع بعد ذلك الالتجاء إليه . ... كانت شاحبة للغاية ، وذقنها وشفتاها تهتزان ، وهى تنطق بهذه الكلمات فى اضطراب عصبى ، عاقها لحظات عن

الـكلام . وخوفا من أن أحرجها أشحت عنها ، واستندت هى على الباب الذى كانت قد أغلقته ـ وأردت أن أمسك يدها ولـكنها انتزعتها من بين يدى ـ وأردفت أخيرا ، وكان صوتها يخرج بعد جهد جهيد :

ـ هل يمكنك أن تقرضنى مبلغ عشرة آلاف فرنك ؟ دخول المدارس يبشر بدخل لا بأس به ، وآمل أن أعيده إليك قريبا .

ـ متى ستحتاجين إليه ؟

ولم تجب .

وأضفت : معى الآن ما يزيد قليلا عن الألف فرنك ، وغدا صباحا سوف أكمل المبلغ ، أو هذا المساء إذا لزم الأمر .

ـ لا غدا . ولـكنك إن استطعت ـ دون أن تحرم نفسك ـ أن تترك لى ألف فرنك الآن ... وأخرجت المبلغ من حافظتى وأعطيتها إياه ، ثم سألتها :

ـ هل تريدين ألفا وأربعمائة ؟

وأحنت رأسها : (نعم) . وكان صوتها ضعيفا لم أسمعه إلا بعناء ، ثم توجهت نحو مقعد من مقاعد التلاميذ وهى تترنح ، وسقطت فوقه ومكثت لحظات ممسكة بوجهها بين راحتيها ، بينما أسندت مرفقيها على القمطر أمامها . وكنت أتصور أنها تبكى ، ولـكننى عندما وضعت يدى على كتفها رفعت جبهتها ورأيت عينيها جافتين .

وقلت لها : راشيل لا تشعرى بحرج لأنك طلبت منى ذلك ، ويسعدنى أن أستطيع أن أقوم بأية خدمة .

ونظرت إلى بطريقة جادة وقالت :

ـ ما يزعجنى هو أن أرانى مضطرة إلى أن أطلب منك أن لا تخبر جدى ولا والدتى بهذا الأمر . فمنذ عهدا إلى بحسابات المدرسة أتركهما يتوهمان أن ... المهم إنهما لا يعرفان . لا تقل لهما شيئاً ، إننى أتوسل إليك ، جدى قد تقدمت به السن ووالدتى متعبة جدا .

وأجبتها : لست هى التى تتعب ... إنك أنت يا « راشيل » .

ـ لقد سبق أن أرهقت نفسها ، وهى الآن متعبة . وجاء دورى ، وليس أمامى شىء آخر أعمله . وكانت تنطق بهذه الكلمات ببساطة ، ولم أتبين فى استسلامها هذا أية مرارة ، على العكس لمحت فيه نوعاً من الرضا .

وأردفت : ولكن لاتتصور أن الأمور قد ساءت كثيرا . إنها فقط فترة صعبة لأن بعض الدائنين لايصبرون .

ـ سمعت الخادمة منذ قليل تتكلم عن مدرس كان يطالب بأجره .

ـ نعم لقد حضر ليقابل جدى ووقف منه موقفا مؤلماً ، ولسوء الحظ لم أستطع أن أمنع وقوع ذلك . إنه رجل فظ وغير مهذب . يجب أن أذهب إليه لأدفع له مايطلب .

ـ هل ترغبين فى أن أذهب إليه بدلا منك ؟

وترددت لحظة وهى تحاول الابتسام دون جدوى ، ثم قالت :

ـ لا . شكرا ، من الأفضل أن أذهب إليه بنفسى . ولكن هل تريد أن تخرج معى ؟ إننى أخشاه قليلا . إذا مارآك فلن يجرؤ دون شك على أن يقول شيئاً .

كان فناء المدرسة يعلو درجات عن الحديقة التى تمتد بعده والتى يفصل بينها وبينه سور منخفض . وكان المدرس يستند عليه وهو يرتكز بمرفقيه من الخلف . وكان يضع على رأسه قبعة ضخمة من الجوخ اللين وهو يدخن الغليون . وبينما كانت « راشيل » تتناقش معه لحق « ارمان » بى ، وقال بلهجة ساخرة .

ـ هل أمسكت بك « راشيل » ؟ لقد حضرت فى الوقت المناسب لتنقذها من يأس قاتل ، إن « اسكندر » أخى القذر استدان فى المستعمرات ـ وقد أرادت أن تخفى ذلك الأمر عن والدى . وكانت قد تنازلت عن نصف بائنتها لتضيفه إلى بائنة « لورا » ولكنها فى هذه المرة تنازلت عن البقية ــ أنا واثق أنها لم تقل شيئاً من هذا .

إن تواضعها يثير شعورى ! من أكثر السخريات كآبة فى عالمنا هذا أنه كلما ضحى شخص بنفسه من أجل الآخرين ، فلاشك أنه أفضل منهم ...! ويشهد بذلك ما فعلته « راشيل » من أجل « لورا » ! ولقد كافأتها هذا العاهر على صنيعها ... !

وصحت فيه قائلا : إنك يا « أرمان » لاتملك الحق فى أن تحكم على شقيقتك (ولكنه أردف فى صوت متهدج) :

ـ على العكس من ذلك إنى أحكم عليها لأنى لست أفضل منها ، إننى أعرف نفسى ! أما « راشيل » فهى لا تحكم أبدا على أحد ... ؟ آه العاهر ، العاهر... إننى لم أبعث إليها برأيى فيها ... وأنت الذى أخفيت كل ذلك وحميت كل ذلك ! أنت الذى كنت تعلم ... أما عن جدى فهو لم يلاحظ شيئا ، ووالدتى تحاول جاهدة أن لا تفهم شيئاً ، أما والدى فهو يضع أمره بين يدى الله . وهذا حل يريحه . وأمام كل صعاب تعترضنا يركع للصلاة ويترك « راشيل » وشأنها لتدبر الأمر . كل مايطلبه هو أن لا يرى الأشياء فى وضوح . وهو يجرى ويرهق نفسه ولا يكون أبدا بالمنزل وأنا أفهم أنه يختنق هنا . أما أنا فإنى أموت ـ وهو يحاول أن يدوخ نفسه ، وأثناء ذلك تنظم أمى أبياتا من الشعر . أوه ! إنى لاأسخر منها ، وأنا نفسى أنظم أشعارا ـ إلا أننى على الأقل أعرف أننى لست إلا شخصا حقيرا ، ولم أحاول أبدا أن أتظاهر بغير حقيقتى قل لى : أليس مما يثير الاشمئزاز أن نرى (جدى) يتظاهر بالإحسان على (لاپيروز) لأنه فى حاجة إلى مدرس ؟ ... وقال (ارمان) فجأة :

ـ هذا الخنزير الواقف هناك ، ماذا يجرؤ أن يحدث به أختى ؟ إذا لم يحيها عند رحيله فسوف أضربه ...

واندفع نحو الرجل ، واعتقدت أنه سيضربه ، ولكن الآخر عندما رآه يقترب منه رفع قبعته وهو ينحنى انحناءة ساخرة ، ثم مر من البوابة ، وفى هذه اللحظة فتح باب الفناء ليدخل منه القس . وكان يرتدى الردنجوت وقفازات سوداء ، وكان عائداً من حفل تنصير ، أو من جنازة ، وتبادل مع المدرس السابق تحية رسمية متكلفة

وكان ارمان و راشيل ، يقتربان . وقالت راشيل لأبيها عندما لحق بهما بجانبي :

— قد دبرت كل شيء

وقبلها القس فى جبينها وقال لها :

ـ ها أنت ترين ماقلته لك يا ابنتي ! إن الله لايترك أبدا من يلجأ إليه ثم قال لي وهو يمد يده :

ـ أترحل الآن ؟ إلى لقاء قريب... أليس كذلك ؟

الفصل الثالث

يوميات « ادوارد » (تابع)

٢٩ سبتمبر : — قمت بزيارة « لابيروز » ، وكانت الخادمة تتردد فى السماح لى بالدخول ، وقالت : « سيدى لايريد أن يقابل أحدا » . وقد أصررت فى إلحاح حتى أدخلتنى غرفة الاستقبال، وكان خشب النافذة مغلقا . ورأيت فى الظلام أستاذى الشيخ جالسا بين طيات مقعده الكبير المستقيم . ولم ينهض ، ومد لى يده الطرية دون أن يلتفت ، وتركها تقع بعد أن ضغطت عليها ... وجلست بجانبه ولم أكن أرى إلا جانب وجهه . كانت ملامحه جامدة ساكنة ، ومن حين لآخر كانت شفتاه ترتعشان ولكنه لا ينطق بشىء . وبدأت أشك فى أن يكون قد تعرف على ، ودقت الساعة مؤذنة الرابعة ، وعندئذ أدار رأسه ببطء وكأنه جهاز آلى ، وقال بصوت قوى ولكن لانبرة فيه ، صوت كأنه يأتى من عالم آخر :

— لماذا سمحوا لك بالدخول ؟ كنت قد طلبت من الخادمة أن تخبر كل من يحضر للسؤال عنى أن السيد « لابيروز » قد توفى .

تأثرت تأثراً مؤلماً ، لا من هذه الكلمات فحسب ، ولكن من اللهجة التى نطق بها ، لهجة خطابية متكلفة تكلفا لايمكن وصفه ، لهجة لم أعتدها من أستاذى الشيخ الذى ألفته طبيعيا معى واثقاً بى .

وأجبته أخيرا : لم تشأ هذه الفتاة أن تكذب . لا تؤنبها لأنها فتحت الباب لى . إننى سعيد بلقائك .

وكرر فى بلاهة : مات السيد لابيروز ... مات — ثم اعتصم بالصمت . وبدرت منى حركة غاضبة لأرحل وقد أجلت إلى يوم آخر البحث فى أسباب هذه اللهاة المؤسية،

ولكن دخلت الخادمة فى هذه اللحظة حاملة فنجاناً من « الشيكولاتة » ينبعث منه الدخان ، قالت :

ـ هل لسيدى أن يقوم بمجهود بسيط ، إنك لم تتناول شيئا ألبتة اليوم .

وبدرت من «لا بيروز» حركة تدل على نفاد الصبر وكأنه ممثل قطع الكومبارس عليه إحدى روائعه :

ـ فيما بعد ، بعد أن يرحل هذا السيد ، ولكنه أردف مباشرة بعد أن أغلقت الخادمة الباب :

ـ ياصديقى أرجو أن تحضر لى كوبا من الماء . أرجوك كوبا بسيطا من الماء فأنا أموت عطشا .

ووجدت فى حجرة الطعام إبريقا وكوبا فأحضرتهما ، وملأ الكوب وأفرغ مافيه فى جرعة واحدة ثم مسح شفتيه بكم سترته القديمة . وسألته .

ـ هل بك حمى ؟

وأعادته جملتى إلى الشعور بشخصيته فقال :

ـ ليس بالسيد « لا بيروز » حمى . لم يعد به أى شىء . منذ مساء الأربعاء كف السيد « لا بيروز » عن الحياة .

وترددت ، ولم أكن أدرى أمن الأفضل أن أشاركه فى مهزلته وسألته .

ـ ألم يكن يوم الأربعاء بالذات هو اليوم الذى جاء فيه (بوريس) الصغير ليراك ؟

وأدار رأسه نحوى ، وأضاءت ابتسامة ـ كأنها شبح من ابتساماته الخوالى ـ ملامح وجهه إذ سمع اسم (بوريس) وقال بعد أن ارتضى أخيرا أن يخلع(دوره):

ـ أى صديق ، أستطيع أن أقول لك أنت الحقيقة ! كان يوم الأربعاء آخر يوم

يبقى لى فى هذه الحياة . ثم أردف بصوت خفيض : « آخر يوم منحته لنفسى قبل أن أضع حداً لآلامى » .

وآلمنى كل الألم أن أرى « لابيروز » يسترجع هذا الحديث الكئيب . وأدركت أننى لم يخطر ببالى أبداً من قبل أنه كان يعنى ما قال فى هذا الموضوع . وكانت ذاكرتى قد طرحت هذا الأمر . والآن رحت أؤنب نفسى على هذا . الآن تذكرت كل شىء ، ولكنى دهشت لأنه كان قد حدد لى فى بادئ الأمر تاريخاً أبعد من هذا التاريخ . ولما نبهته إلى ذلك اعترف لى بلهجة عاودتها طبيعتها بل واعتراها شىء من السخرية . أعترف بأنه قد خدعنى عندما ذكر هذا التاريخ ، وإنه كان قد أخره خشية أن أحاول منعه ، أو أن أشرع فى العودة من أجل ذلك . وأخبرنى بأنه ركع مرات عديدة فى المساء أياما متتالية سـائلا الله أن يهبه رؤية « بوريس » قبل أن يموت .

وأضاف : بل وكنت قد عاهدت الله على أن أؤجل رحيلى أياما إذا اقتضى الأمر ... بسبب تأكيدك أنك ستحضره لى . أتذكر ؟

وأمسكت بيده وكانت باردة ، ورحت أعيد إليها حرارتها بين يدىّ . فأضاف بصوت رتيب :

— وعندما وجدت أنك لا تنتظر نهاية الإجازة لتعود ، وأن فى استطاعتى أن أرى الصغير دون أن أؤجل رحيلى ، اعتقدت أن ... تصورت أن الله استجاب إلى صلاتى، وأنه يوافق على مانويت . نعم تصورت ذلك ولم أفهم حينئذ أنه يسخر منى كما فعل معى دائما .

وجذب يده من بين يدى ، وقال فى صوت أكثر انفعالا :

— وكان يوم الأربعاء هو الميعاد الذى عاهدت نفسى على الخلاص فيه، وفى ذلك اليوم أحضرت لى « بوريس » أثناء النهار . ولم أشعر — ويجب أن أعترف بذلك — بكل السعادة التى كنت أنتظرها . وفكرت فى ذلك الأمر فيما بعد . وبالطبع لم يكن من

حتى أن آمل فى أن يسعد الصغير بلقائى ، فوالدته لم تكن تكلمه أبدا عنى .

وكف عن الكلام ، وارتعشت شفتاه ، واعتقدت أنه سينخرط فى البكاء .

وقلت له : كل ما يتمناه « بوريس » هو أن يحبك ، ولكن اترك له الوقت الكافى حتى يعرفك .

وأضاف «لابيروز» دون أن يسمعنى: بعد أن تركنى الصغير ، وبعد أن وجدت نفسى وحيداً فى المساء (فأنت تعرف أن السيدة لابيروز لم تعد هنا) قلت لنفسى : هيا! حان الوقت! ويجب أن أخبرك أن شقيقى الذى فقدته ترك لى زوجا من المسدسات أحتفظ بهما فى جراب بالقرب من سريرى . وأحضرت هذا الجراب ، وجلست فى مقعد هناك كما أجلس الآن وحشوت أحد المسدسين بالرصاص .

واستدار نحوى وكرر فجأة وفى لهجه حادة، وكأنه ظن أننى أشك فيما يقول: نعم حشوته . ويمكن أن تتحقق من ذلك ، فما زال محشوا . ماذا حدث ؟ لا أستطيع أن أفهم ما حدث . رفعت المسدس إلى جبهتى وأبقيته طويلا على صدغى ... ولكنى لم أضغط على الزناد . لم أستطع ... فى آخر لحظة ، هذا شىء مخجل ... لم تسعفنى شجاعتى لأطلق المسدس .

وكان قد انفعل أثناء حديثه ، وازدادت نظرته حياة وأخذ الدم يسرى ضعيفا فى خديه ، وكان ينظر إلى وهو يومىء برأسه .

ـــ كيف تعلل ذلك ، شىء كنت قد قررته . شىء لم أكف منذ شهور عن التفكير فيه ... ربما كان هذا هو السبب فيما حدث . لعلى استنفدت مقدما بتفكيرى كل شجاعتى ...

وقلت له : كما استنفدت قبل عودة بوريس كل السعادة بلقائه . ولكنه استمر فى حديثه قائلا :

ـــ لقد بقيت طويلا والمسدس على صدغى . وكان إصبعى على الزناد ، وكنت

اضغط قليلا ، ولـكنى لم أضغط ضغطا كافيا . وكنت أحدث نفسى : بعد لحظة سأضغط بقوة وسوف تنطلق الرصاصة وشعرت ببرودة المعدن ، وقلت لنفسى : بعد لحظة لن أشعر بشىء ، ولـكننى سوف اسمع قبل ذلك صوتا فظيعا ... تصور الأمر إذن ! صوتا قويا بالقرب من الأذن ! هذا هو الذى منعنى أكثر من أى شىء آخر : الخوف من الصوت ...! هذا سخف لأنه ما دام المرء سيموت ... نعم ! ولـكنى كنت آمل أن يكون الموت كالنوم ، غير أن الانفجار شىء لا يسمح بالنوم إنه شىء يوقظ ... نعم ، لا شك أن هذا هو ما كان يخيفنى . خشيت أن أستيقظ فجأة بدلا من أن أنام .

وبدا أنه سيطر على نفسه ، أو بالأحرى أنه جمع أشتات نفسه ، وأخذت شفتاه ترتعشان من جديد لبضع لحظات دون أن ينطق ، ثم أردف :

— لم أقل لنفسى كل هذه الأشياء إلا فيما بعد، والحق أنى إذا لم أكن قد قتلت نفسى فذلك لأننى لم أكن حرا . إنى أقول الآن : كنت خائفا . ولـكن لا . لم يكن الأمر كذلك . إن شيئا خارجا عن إرادتى بل أقوى من إرادتى قد أمسك بى ... وكأن الله لم يرد لى أن أرحل ! تخيل دمية تريد أن تغادر خشبة المسرح قبل أن تنتهى من دورها الذى تلعبه فى المسرحية ... قفى هنا ! ما زالوا فى حاجة إليك لتقومى بدورك فى الجزء الأخير . آه . أكنت تتصورين أيتها الدمية أن فى استطاعتك أن ترحلى عندما يتراءى لك ذلك ! لقد أدركت أن ما نسميه «إرادتنا» ليس إلا الخيوط التى تحرك الدمية ، وأن الله هو الذى يشدها . ألا تفهمنى ؟ سوف أشرح لك الأمر . أصغ إلىّ : إنى أقول لنفسى الآن : «سوف أرفع ذراعى الأيمن» ، ثم أرفعه (وهنا رفعه فعلا) ولـكن الحقيقة أن الخيط كان مشدوداً فعلا لـكى يجعلنى أفـكر وأقول لنفسى : « أريد أن أرفع ذراعى الأيمن » . والدليل على أنى لست حراً ، هو أنه لو كان على أن أرفع ذراعى الأيسر لقلت لك : « سوف أرفع ذراعى الأيسر » . لا . أرى أنك لا تفهم ما أعنيه ، لست حراً لتفهمنى ... أوه ! إننى أتبين بوضوح الآن أن الله يسخر منى ... أتعتقد أننى جننت ؟ بهذه المناسبة : تصور أن مدام دى لا بيروز . إنك تعرف أنها دخلت ملجأ . حسناً ، تصور أنها مقتنعة بأن هـذا

المكان مستشفى للمجانين . وأننى أدخلتها فيه لكى أتخلص منها ، وأننى فعلت ذلك وفى نيتى أن أجعلهم يعتبرونها مجنونة حقاً . اعترف معى بأن هذا الأمر عجيب ، أى شخص تصادفه فى الطريق يمكن أن يفهمك أكثر ممن منحتها حياتك . وكنت فى بداية الأمر أذهب لزيارتها كل يوم ولكنها كانت تقول بمجرد أن ترانى : آه ! ها أنت قد جئت . لقد جئت لتتجسس على . ثم اضطررت إلى أن أكف عن هذه الزيارات لأنه لا نتيجة لها إلا إثارتها . وكيف تريد منى أن أتشبث بعد ذلك بالحياة مادام وجودى لا يفيد أحداً ؟

وخنقت العبرات صوته ، وطأطأ رأسه ، وتصورت أنه سوف يعود إلى حالة الذهول الأولى ، ولكنه أردف فى حماسة مفاجئة :

— أتدرى ماذا فعلت قبل أن ترحل ؟ لقد فتحت درجى عنوة وأحرقت كل رسائل شقيقى المتوفى . لقد كانت دائماً تشعر بالغيرة من شقيقى ولا سيما بعد وفاته ، وكانت تغضب وتثور عندما كانت تفاجئنى أثناء الليل وأنا أعيد تلاوة رسائله ، وكانت تصيح قائلة : آه ! كنت تنتظر حتى أنام ! إنك تتوارى عنى . وكانت تقول : خير لك لو ذهبت لتنام ، إنك ترهق ناظريك . كان يمكن أن يؤول هذا على أنه شفقة بى ، ولكننى أعرفها حق المعرفة . لم يكن ذلك إلا الغيرة بعينها . لم تكن تريد أن تتركنى وحيداً .

وأجبته : السبب فى ذلك أنها كانت تحبك ، لا غيرة بلا حب .

وقال : حسنا ! اعترف معى إذن بأن الحب حين يكون سبباً فى إتعاسك، بدلا من أن يكون سبباً فى إسعاد حياتك ، فإنه يكون حقاً شيئاً مؤلماً .

وزاد حماسه ، وهو يتكلم ثم قال فجأة :

— أشعر بالجوع ، عندما أريد أن آكل شيئاً ، تحضر لى هذه الخادمة دائماً شيكولاته . لا شك أن مدام (لابيروز) قد أفهمتها أننى لا أتناول أى شىء آخر ! أكون شاكراً لك لو تكرمت بالذهاب إلى المطبخ — الباب الثانى على اليمين فى

المر – وانظر إذا كان هناك بيض ... أعتقد أنها قالت لى إن هناك بعضاً منه .

— أتريدها أن تعد لك بيضه ؟

— أعتقد أنه يمكننى أن آكل اثنتين . هل تتكرم فتفعل ذلك ؟ إننى لا أستطيع أن أجعلها تسمعنى .

وقلت له عند عودتى من المطبخ : ستكون البيضتان اللتان طلبتهما معدتين بعد لحظة ، وإذا سمحت لى سابق حتى أطمئن على أنك أكلتهما . نعم سوف يسعدنى ذلك . لقد آلمنى كثيراً منذ لحظة أن أسمعك تقول إنه لم يعد فى إمكانك أن تفيد أى إنسان ، ويبدو أنك نسيت حفيدك! يقترح صديقك السيد (آزائيس) عليك أن تذهب لتعيش مع حفيدك فى القسم الداخلى بالمدرسة ، وقد كلفنى أن أبلغك ذلك ، وفى اعتقادى أنه لم يعد الآن — وقد رحلت مدام دى لابيروز — لم يعد ثمت شىء يربطك بهذا المكان .

وكنت أتوقع منه بعض التمنع ، ولكنه لم يسألنى إلا قليلا عن الشروط التى تتطلبها الحياة الجديدة التى يقترحونها عليه ، وقال :

— إن كنت لم أقتل نفسى فلست حياً . هنا أو هناك ، الأمر سيان ، يمكنك أن تصطحبنى .

واتفقت معه على أن أحضر لاصطحابه فى اليوم التالى ، وأن أضع تحت تصرفه حقيبتين لكى يرتب فيهما الملابس التى قد يحتاج إليها وكل ما يهمه أن يحمله معه .

وأضفت : وعلى أى حال ما دمت ستحتفظ بهذه الشقة حتى نهاية المدة المنصوص عليها فى عقد الإيجار، فأمامك الوقت لترجع إلى هنا لإحضار ما ينقصك .

وكرر قوله : إننى أزعجك كثيراً ، يا لك من رجل طيب .

وكنت أود أن يعهد إلى بمسدسيه ، وقلت له إنه لم يعد فى حاجة إليهما ، ولكنه لم يوافق على أن يسلمهما لى .

وقال : لم يعد هناك ما تخشاه . إنى أعرف أن مالم اقم به فى هذا اليوم لن أستطيع القيام به أبداً ، ولكن هذين المسدسين هما التذكار الوحيد الذى تبقى لى من شقيقى، وأنا فى حاجة أيضاً إلى أن يذكرانى بأننى لست إلا لعبة بين يدى الله .

الفصل الرابع

اشتدت الحرارة فى ذلك اليوم ، وخلال النوافذ المفتوحة فى مدرسة (فيدل) ، بدت هامات الأشجار فى الحديقة ، وما زال الصيف يحلق فوقها .

وكان يوم استئناف الدراسة مناسبة يلقى فيها (آزائيس) الشيخ خطابا . ووقف على المنبر فى مواجهة التلاميذ كما هو المتبع ، وجلس (لابيروز) الشيخ على مقعد فوق المنبر ، ونهض الأخير عند دخول التلاميذ ، ولكن أومأ آزائيس بحركة ودية داعياً إياه للجلوس . واستقرت نظرة لابيروز القلقة على بوريس فضايقته ، لا سيما أن (آزائيس) أشار فى خطابه ـ وهو يقدم للتلاميذ مدرسهم الجديد ـ إلى القرابة التى بين هذا المدرس وبين أحدهم . وآلم (لابيروز) أن نظرته لم تلتق قط مع نظرة (بوريس) وتصور فى هذا عدم مبالاة أو برودا من جانبه .

وكان بوريس يقول لنفسه فليتركنى وشأنى . لا أحب أن يلفت إلى الأنظار . وإن زملاءه ليملأونه رعباً وكان قد انضم إليهم مكرهاً عند خروجه من المدرسة ، وسمع أحاديثهم عن المدرسة بالقسم الداخلى ، وتمنى أن يكون مثلهم لما يشعر به من حاجة شديدة إلى الانسجام معهم. إلا أن طبيعته الحساسة قدنفرت من ذلك ، وكانت الألفاظ تقف على شفتيه . وغاظه من نفسه هذا الضيق ، وحاول ألا يدعه يبدو عليه ، بل حاول أن يضحك ليتحاشى سخريتهم ، ولكن عبثاً . كان يبدو بين الآخرين كأنه فتاة صغيرة ، ويشقى بذلك ويتألم منه .

وفى الحال تجمع التلاميذ مجموعات ، ووقف أحدهم ويدعى (ليون جيريد ايزول) فى وسطهم وفرض نفسه عليهم . وكان أكبر منهم سناً . ومتقدماً عنهم فى الدراسة وكانت بشرته سمراء ، كما كان أسود الشعر والعينين، ولم يكن طويل القامة ولا يمتاز بمتانة البنية ، ولكنه يتميز بجرأته ، وهو على قسط وافر من الصفاقة، واعترف جورج مولينيه الصغير بأنه مذهول أمام صفاقة جيريد ايزول . وقال لأحد زملائه : ليس من السهل أن أذهل بهذه السهولة ألم يره بعينى رأسه هذا الصباح وهو يقترب

من سيدة شابة تحمل طفلا بين ذراعيها وسمعه يقول لها :

أهو ابنك يا سيدتى ؟ (قال ذلك وهو يحييها تحية متكلفة) ، إنه على قدر كبير من الدمامة ، ولكن اطمئنى . لن يعيش .

وأجابه صديقه فيليب آدمانتى الذى حكى له جورج هذه الحادثة : لا ! هل قال هذا ؟ ـ وكانت هذه العبارة الوقحة تملأ قلبهما بالغبطة ، فلم يكن من الممكن فى نظرهما تخيل شىء أظرف من هذا القول . وكانت هذه الدعابة دعابة قديمة أخذها (ليون) عن ابن عمه (ستروفيلهو) ، ولكن جورج لم يكن يعرف ذلك .

وفى المدرسة طلب كل من (مولينيه) و (آدمانتى) بأن يجلسا على نفس المقعدالذى يجلس عليه جيريد انيزول ، وأجيبا إلى طلبهما . يقع هذا المقعد فى الصف الخامس ، وقد أرادا ذلك حتى لا يتمكن ألفة الفصل من رؤيتهم بسهولة . وكان آدمانتى يجلس على يسار (مولينيه) أما عن يمينه فكان يجلس (جيريدا نيزول) ويسمى بـ (جيرى) . وفى نهاية المقعد يجلس (بوريس) وخلف هذا الأخير (باسافان)

قضى (جونتران دى باسافان) حياة تعسة منذ توفى والده ، ولم تكن حياته قبل ذلك بهيجة ، وفهم منذ أمد طويل أنه لا يمكن أن ينتظر من أخيه أى عطف أو أية مساعدة . وكان قد ذهب إلى مقاطعة (بريتانى) ليقضى بها أجازته بصحبة مربيته العجوز المخلصة (سيرافين) بين ذويها . لقد انطوت صفاته جميعاً . فهو غارق فى العمل ، وأخذت رغبة كامنة فى نفسه تحفزه إلى أن يثبت لأخيه أنه أفضل منه . لقد اختار بنفسه وبمحض إرادته القسم الداخلى بهذه المدرسة رغبة منه فى أن لا يعيش مع أخيه فى ذلك البيت بشارع (بابيلون)، لأنه لا يعيد إلى نفسه إلا ذكريات تعسة ، وأقامت (سيرافين) فى مسكن بباريس رغبة منها فى أن لا تتركه وحيداً . وكان المبلغ الذى يدفعه لها أبناء الكونت المتوفى وهى المنصوص عليه فى الوصية يسمح لها بهذا وكان لجونتران غرفته فى هذا المسكن وهو يشغلها فى الأيام التى يسمح له فيها بالخروج من المدرسة . وقد زينها بشكل يتلاءم وذوقه الخاص ، واعتاد ان يتناول

وجبتين فى الأسبوع مع سيرافين التى تعنى به وتحرص على أن لا ينقصه شىء . وإذا كان (جوانتران) معها راح يثرثر دون كلفة، وإن كان يخفى عنها كل ما يثقل فؤاده . أما فى المدرسة فلم يكن يتجاوب مع الآخرين ، وكان يستمع إلى دعايات زملائه بأذن شاردة كما لم يكن يشاركهم لعبهم . ذلك أيضاً أنه يؤثر القراءة على كل لعب لا يكون فى الهواء الطلق . وهو يحب الرياضة وكل الألعاب ، ولا سيما التى يمارسها الشخص بمفرده . وهو كذلك معتز بنفسه كل الاعتزاز ولا يختلط بالجميع . وفى أيام الآحاد ــ تبعاً للمواسم ــ يمارس رياضة الانزلاق أو يسبح أو يجدف أو يقوم برحلات طويلة فى الريف . وهو ينفر من بعض الأشياء ، ولا يسعى إلى أن يتغلب على ذلك ، ولا يكتفى أبداً بتوسيع إدراكه أو بالأحرى لا يكف عن تقويته . وهو ليس بالبساطة التى يعتقدها فى نفسه أو التى يحاول أن يبدو بها . لقد سبق أن رأيناه ساهراً على فراش الموت بجانب أبيه . وهو لا يحب الغوامض ، وحينما يشعر بأنه ليس على سجيته يلتابه الضيق وإذا كان أول فصله فإنه يصل إلى هذه المرتبة عن طريق الاجتهاد ، ولا يصل إليها بالطريق السهل . وإن بوريس لخليق أن يجد الحماية لدى (باسافان) إذا ما عرف كيف ينشدها . ولكن جاره (جورج) هو الذى يجذبه . أما (جورج) نفسه فهو لا يلتفت إلا إلى (جيرى) الذى لا يلتفت إلى أحد .

وكانت لدى (جورج) أخبار هامة يريد أن يوصلها إلى (فيليب آدمانتى) ، ولكنه رأى من الأحوط ألا يكتبها له .

كان جورج قد وصل هذا الصباح ، يوم العودة إلى الدراسة ، إلى باب المدرسة قبل موعد الدخول بربع ساعة . انتظر (فيليب) دون طائل ، وهو يغدو ويروح أمام الباب . وسمع دعابة (ليون جيريد انيزول) التى ألقاها على مسامع السيدة الشابة . وقد دار بعد ذلك حديث بين (جورج) و (ليون) واكتشفا ــ وقد سر جورج لهذا كل السرور ــ أنهما سيصبحان زميلين فى نفس القسم الداخلى ، واستطاع جورج وفيفى (اسم التدليل لفيليب) أن يلتقيا بعد خروج المدرسة، وسارا

سوياً متجهين إلى القسم الداخلى مع بقية التلاميذ . ولكن على مسافة تبعدها عنهم وتسمح لهما بالحديث بكل حرية ، وقال (جورج) :

— لعلك تحسن عملا لو أخفيت هذا أيضاً ــ قالها وهو يشير بأصبعه إلى الزهرة الصفراء الصغيرة التى كان لا يزال (فيفى) يثبتها فى عروة سترته .

وسأله (فيفى) بعد أن لاحظ أن (جورج) لم يعد يحمل زهرته : ولماذا ؟

— إنك تعرّض نفسك لأن يمسكوا بك . كنت أريد أن أنبهك إلى ذلك يا صغيرى قبل ابتداء الدراسة ، ولكنك لم تصل مبكراً . لقد انتظرتك أمام الباب لأنبهك . وقال فيفى : ولكنى لم أكن أعرف .

وأجابه (جورج) وهو يقلده : لم أكن أعرف ، لم أكن أعرف ! كان عليك أن تفكر أنه ربما يكون لدى ما أقوله لك، ما دمت لم أستطع أن ألقاك مرة أخرى بمدينة (هوجلات) .

إن شغل هذين الطفلين الشاغل هو أن يسيطر أحدهما على الآخر ! ولعل لفيفى بعض الميزات التى تعود إلى مركز أبيه وثروته ، ولكن (جورج) يفوقه بكثير بفضل إقدامه ووقاحته . وكان على (فيفى) ، أن يجتهد لكى لا يتخلف فى هذا المضمار . ولم يكن ولداً شريراً ولكنه رخو . وقال (جورج) : حسناً ، أخرجها ، أخرج أشياءك هذه .

وأصغى (ليون جيريد انيزول) إليهما ــ وكان قد اقترب منهما أثناء ذلك ــ وكان يحلو لجورج أن يسمع هذا الأخير ما يقوله لزميله ، وإذا كان (جيريد انيزول) قد بهره بعمله منذ وقت قليل ففى جعبة جورج أيضاً ما يمكن أن يبهر به ، ولذا قال لفيفى بلهجة بسيطة :

— قبض على (برالين الصغيرة) .

وصاح (فيفى) ــ وكان ثبات (جورج) قد راعه : (برالين) ! حين بدا الاهتمام على (ليون) قال (فيفى) لجورج : أيمكن أن تقول له ؟

وأجابه (جورج) وهو يرفع كتفيه : حسناً !

وهنا قال (فيفى) لجيرى ، وهو يشير إلى (جورج) : إنها عشيقته . ثم قال لجورج :

— وكيف عرفت ذلك ؟

فأجابه : قابلت (جرمين) فقالت لى ذلك .

وأخذ يقص على (فيفى) كيف أنه عند مروره بباريس منذ اثنى عشر يوماً أراد التوجه إلى الشقة — التى أسماها القاضى (مولينيه) كما سمعناه من قبل : (مسرح) هذه الحفلات الصاخبة — فوجد بابها مغلقاً ، وكيف صادف بعد قليل عند تجوله فى هذا الحى (جيرمين) ، وهى صديقة فيفى فأخبرته بما حدث ، وكيف قام رجال البوليس بحملة فى بدء الإجازة . وما كان يجهله هاتيك النسوة وهؤلاء الأطفال هو أن (بروفيتا نديو) أراد أن يرجىء القيام بهذه الحملة حتى يتفرق هؤلاء المنحرفون ، وكان هدفه من الانتظار أن لا تشملهم الحملة ، وأن يجنب ذويهم الفضيحة .

وأخذ (فيفى) يكرر دون تعليق : حسناً يا صديقى ، حسناً يا صديقى ! ... وأيقن أنه أفلت هو وجورج بمعجزة .

وسأله جورج ساخراً : أتشعر ببرودة فى ظهرك لهذا ؟

لقد ذعر هو نفسه ، وآثر ألا يعترف بذلك وبخاصة (جيريد انيزول) .

ربما تصورنا عند سماع هذا الحديث أن هؤلاء الأطفال أكثر فساداً مما هم عليه فعلا ، وأنا متأكد أنهم يتكلمون على هذا النحو على سبيل المفاخرة ليس إلا . وفيما يقولانه شىء من التباهى . ومهما يكن أمر فالمهم أن (جيريد انيزول) يصغى إليهما ويجعلهما يتكلمان ، وستعجب هذه الأحاديث ابن عمه (ستروفيلهو) عندما يعيدها على مسامعه هذا المساء .

فى هذا المساء عينه ذهب (برنارد) لمقابلة (ادوارد) الذى سأله :

- هل كان دخول المدرسة على ما يرام ؟

— لا بأس .

وأضاف (ادوارد) ، إذ وجده صامتاً لايتكلم : ياسيد (برنارد) إن كان يحلو لك اليوم أن تتكلم عن نفسك فلاتنتظر أن أدفعك إلى ذلك . إننى أمقت الاستجوابات ، ولـكن اسمح لى أن أذكرك بأنك عرضت علىّ خدماتك ، وأن من حق أن أنتظر منك بعض الأحاديث .

وسأله (برنارد) بلهجة جافة : ماذا تريد معرفته ؟ أتريد أن تعرف أن الأب (آزائيس) ألقى خطابا اقترح فيه على الأطفال أن يندفعوا فى حماس معاً وبهمة فتية ...؟ لقد حفظت هذه الـكلمات لأنه كررها ثلاث مرات . ويدّعى (أرمان) أن الشيخ يستعملها فى كل خطبة . وكنا جالسين هو وأنا على مقعد فى القاعة لنشهد دخول التلاميذ مثلما فعل (نوح) ليشهد دخول الحيوانات فى سفينته . وكان هناك من كل الفصائل ، حيوانات مجترة وغير مجترة ، وحيوانات رخوة ، ولا فقريات أخرى ، وعندما بدأوا يتكلمون فيما بينهم بعد انتهاء الموعظة لاحظنا ــ أنا وأرمان ــ أن كل أربعة من عشرة من الجمل التى يقولونها تبدأ بـ (أراهن على أنك لم ...)

— والست الأخرى ؟

— بـ (أنا ...)

— هذا يدل على أنك دقيق الملاحظة . وماذا أيضاً ؟

— يبدو لى أن بعضهم يتظاهر بشخصية ليست له .

وسأله (ادوارد) : ماذا تعنى بذلك ؟

— إننى أعنى بخاصة أحدهم ، وكان يجلس بجانب (باسافان) الصغير ، وأعتقد أن هذا الأخير طفل عاقل . أما جاره الذى راقبته طويلا فيبدو أنه قد اتخذ لنفسه شعار القدماء ، وهو العبارة اللاتينية (لا تبالغ فى شىء) . ألا ترى أن هذا الشعار وهو فى مثل سنه لا معنى له ؟ ملابسه ضيقة وربطة عنقه مستقيمة وحتى رباط حذائه ينتهى بالضبط مع العقدة ، وبالرغم من أننى لم أتحدث معه إلا قليلا فإنه وجد الوقت

السكافى ليقول لى إنه يرى فى كل شىء تبذيراً فى القوة ، وكان يكرر هذه الجملة ، وكأنها لازمة له : (لا تبذل جهداً لا جدوى منه) .

وقال (ادوارد) : لعن الله الشح ! الإسراف فى الفن يؤدى إلى الإطناب .

— وكيف هذا ؟

وأجابه (ادوارد) : لأن أولئك الفنانين يخشون أن يفقدوا أى شىء . وماذا رأيت أيضاً ؟ لم تقل لى شيئاً عن (أرمان) .

— أما عن هذا فهو شاذ . وهو فى الحقيقة لايعجبنى ، إننى لا أحب المتكلفين ، ولاشك أنه ذكى . إلا أنه لايستغل ذكاءه إلا فى الهدم . ومع كل فإن هجومه يزداد عنفاً عندما ينصب على شخصه . إنه يشعر بالخجل من كل شىء طيب فيه أو كريم أو نبيل أو رفيق . وكل ما عليه هو عليه أن يمارس بعض الألعاب الرياضية وأن يعيش فى الهواء الطلق . إنه يزداد مرارة ببقائه طوال اليوم رهين هذه الجدران ، ويبدو أنه يسعى إلى وأنا لا أتهرب منه وإن كان يصعب على أن أتعود على تفكيره .

وسأل (ادوارد) ألا تعتقد أن كلامه اللاذع وسخريته إنما يخفيان حساسية بالغة ، وربما أيضاً ألماً كبيراً ؟ هذا هو رأى (أوليفييه) .

— ربما كان هذا صحيحاً وقد قلته لنفسى ، ولكنى لم أعرفه بعد كل المعرفة ، وحكمى عليه ليس مبنياً على أساس . أنا فى حاجة إلى التفكير فى هذا الأمر ، وسوف أبلغك مايصل إليه حكمى ولكن فيما بعد . أما هذا المساء فإنى أعتذر إذ أننى مضطر إلى أن أتركك . سوف أؤدى امتحانى بعد يومين ثم لا بأس من أن أعترف لك ... أشعر إننى حزين .

الفصل الخامس

« علينا ألا نأخذ من أى شىء إلا زبدته »
فنيلون

نهض (أوليفييه) من فراشه – وكان قد عاد إلى باريس فى اليوم السابق – وأحس أنه مرتاح ، وكان الهواء ساخنا والسماء صافية . وخرج حليق الذقن بعد أن استحم ، وكان فى ملابس أنيقة يشعر بقوته وشبابه وجماله . أما (باسافان) فمازال نائما .

وأسرع (أوليفييه) نحو جامعة السوربون . فى ذاك الصباح كان على (برنارد) أن يؤدىء امتحانه التحريرى . ولكن كيف عرف (أوليفييه) هذا الأمر ؟ ربما لم يعرف أنه ذاهب إلى هناك ليستعلم . وأسرع الخطى ولم يكن قد رأى صديقه برنارد منذ الليلة التى جاءه فيها ينشد مأوى لديه . كم حدث من تغييرات منذ تلك الليله ! ومن يدرى ربما كانت لهفته على أن يريه نفسه أكثر من لهفته على رؤيته . ومما يؤسف له أن (برنارد) لم يكن ممن يهتمون بالأناقة ! ولكن هذا الاهتمام كثيرا مايأتى مع اليسر . ولقد عرف أوليفييه ذلك بفضل الكونت دى باسافان .

سيؤدى برنارد امتحانه التحريرى هذا الصباح . ولن يخرج إلا فى الظهر ، وقد وقف (أوليفييه) ينتظره فى الفناء . ورأى بعض الزملاء وشد على أيديهم ثم ابتعد . إنه ليشعر بالحرج بسبب أناقته . وازداد حرجا عندما اقترب منه (برنارد) بعد أن تحرر من الامتحان وصاح الأخير وهو يمد يده قائلا : ماأجمله ؟

واحمر وجه (أوليفييه) وكان يخال أنه لم يعد نهبا للخجل . وكيف لايرى فى هذه الكلمات تهكما رغم لهجتها الودية ؟ أما برنارد فكان يرتدى عين الحلة التى كان يرتديها من قبل ، والتى كان بها ليلة هروبه من البيت . ولم يكن يتوقع أن يرى (أوليفيه) فراح يوجه إليه الأسئلة ويدفعه إلى السير . كانت البهجة التى غمرته برؤيته بهجته مفاجئة . وإذا كان قد ابتسم قليلا عندما رأى أناقة ملبسه ، فقد فعل هذا دون أدنى خبث ، فقلبه طيب لاينطوى على حقد . وسأل صديقه :

ـ أتتناول الغداء معى ؟ علىّ أن أستأنف امتحانى بعد ساعة ونصف فى اللغة اللاتينية . أما هذا الصباح فكانت اللغة الفرنسية .

ـ أراض أنت عن إجابتك ؟

ـ نعم ، نعم . ولكن لاأدرى هل يعجب ما كتبته الممتحنين ! كان المطلوب أن نبدى رأينا فى أربعة أبيات للافونتين :

« إننى فراشة (البارناس) ، وأنا كالنحل

الذى شبهنا به أفلاطون العظيم .

وإنى كائن خفيف أحلق فوق كل شىء

أنتقل من زهرة إلى زهرة ومن موضوع إلى موضوع » .

قل لى ، ماذا كنت تقول فى هذا المقام ؟

ولم يستطع (أوليفييه) أن يقاوم الرغبة فى أن يبهر صديقه وقال : كنت أكتب : عندما وصف لافونتين نفسه فقد صور الفنان ، ذلك الفنان الذى لا يأخذ من الدنيا إلا خارجها وسطحها ، إلا زهرتها . وكنت أرسم فى مواجهته صورة للعالم ، للباحث ، للباحث الذى ينقب ، وكنت أثبت أخيرا أنه فى الوقت الذى يوالى فيه العالم بحثه فإن الفنان يجد بغيته ، أثبت أن من ينقب ينزل إلى الغياهب ، ومن ينزل إلى الغياهب يضيه العمى ، وأن الحقيقة ليست إلا المظهر . وأن السر ليس إلا فى الشكل ، وأن أعمق ما فى الإنسان هو أديمه . كان (أوليفييه) قد حفظ هذه الجملة الأخيرة عن (باسافان) الذى أخذها بدوره عن بول امبرواز يوم كان يتحدث فى مجموعة من الناس . كان كل مالم يطبع على الورق سهل الأخذ لباسافان ، وكان يسميه آراء فى الهواء ويعنى بها آراء الآخرين .

وكان فى لهجة (أوليفييه) شىء ما ، نبه برنارد إلى أن هذه العبارة ليست من بنات أفكاره . لقد بدا فى صوت أوليفييه شىء من الضيق عندما نطق بها . وأوشك برنارد أن يسأله : من قال هذه العبارة ؟ ولكنه لم يرغب فى أن يحرج صديقه ، ثم

إنه خشى أيضا أن يسمع اسم باسافان الذى حرص أوليفييه على أن لا ينطق به حتى هذه اللحظة ، واكتفى برنارد بأن نظر إلى صديقه بإلحاح غريب ، وللمرة الثانية احمر وجه (أوليفييه) وحل الاستياء العنيف محل الدهشة التى شعر بها برنارد عند سماعه أوليفييه العاطفى يعبر عن آراء جد مختلفة عن الآراء التى كان يعرفه بها . شعر بشىء مفاجىء لا يمكن مقاومته كالريح العاتية . لم تكن هذه الأفكار بالذات هى التى أوحت إليه الاستياء مع ما كانت تبدو عليه من سخف . ومع كل فإنها لم تكن على هذا القدر من السخف ، وإنه ليستطيع أن يسجلها فى كراسته التى يدون بها الآراء المتناقضة... يستطيع أن يضعها فى مواجهة آرائه هو ولو قد كانت هذه الآراء مطابقة لآراء أوليفييه لما استاء من أوليفييه ولا منها ، ولكنه أحس بشخص يختبىء وراءها ، وكان استياؤه من باسافان . وصاح محتداً ولكن فى صوت مكتوم : إن آراء كهذه كفيلة بأن تسمم فرنسا بأسرها ، وكان ينظر إلى الأمور من حالق رغبة منه فى أن يحلق فوق باسافان ، وقد فوجىء هو نفسه بما قاله وكأن عبارته سبقت فكرته ومع ذلك ، فإن هذا الرأى نفسه هو الذى شرحه هذا الصباح فى امتحانه التحريرى ، ولكنه كان ينفر — خجلا — من أن يعبر عن رأى كهذا فى حديثه العادى ولا سيما مع (أوليفييه) ، كان ينفر من إظهار مايسميه العواطف النبيلة فما إن نعبر عن هذه العواطف حتى تبدو أقل صدقا . ولم يكن أوليفييه قد سمع صديقه قط يتكلم عن مصالح فرنسا ، ودهش بدوره واتسعت عيناه ولم يغد يفكر حتى فى الابتسام ، ولم يعد يجد فى صاحبه شيئا مما عهده فى صديقه برنارد . وكرر بغباء : فرنسا ؟ ... ثم أردف ليتهرب من المسئولية — لأن برنارد لم يكن ولا شك يمزح : ولكن يا صديقى ليس هذا رأيى أنا ، بل هو رأى لافونتين .

وأجاب (برنارد) بلهجة فيها شبه تحد :

— أعلم تمام العلم أن ما قلته ليس من تفكيرك ، ولكن يا صديقى ليس هذا الرأى رأى (لافونتين) ، ولو لم يكن لديه إلا تلك الخفة التى اعترف بها واستغفر عنها فى أخريات أيامه ، ما كان الفنان الذى نعجب به . وهذا هو ما كتبته بالضبط فى امتحانى التحريري هذا الصباح والذى أثبته باستشهادات عدة من كتاباته وأنت

تعرف أن ذاكرتى قوية . ولكنى تركت بعد ذلك (لافونتين) وتكلمت وهاجمت روح اللامبالاة وروح الدعاية والسخرية التى اعتاد الناس أن يسموها (الروح الفرنسية) وهى تسمية كثيرا ما أكسبتنا فى أعين الأجانب صيتا يؤسف عليه . قلت إنه يجب ألا ترى فى هذه الأبيات بسمة فرنسا بل عبستها . وأن طريقة التفكير الفرنسية حقا قائمة على روح البحث والمنطق ، وعلى الحب ، وعلى الفهم العميق ، وأن (لافونتين) لو لم يكن مدفوعاً بهذه الروح لما كتب إلا قصصه ، ولما كتب أبداً أساطيره الخرافية ولا هذه الأسطورة بالذات ــ وأبديت أنى أعرفها ــ التى أخذت منها الأبيات المطلوب التعليق عليها . نعم يا صديقى لقد كان فيما قلته هجوم عنيف وربما تسبب فى رسوبى فى الامتحان ، ولكننى لا أبالى بذلك ، لقد كنت أشعر بحاجة شديدة إلى أن أقول ما قلته .

ولم يكن (أوليفييه) حريصا على الرأى الذى أبداه منذ قليل . لقد قاله مدفوعا برغبة فى الظهور وفى أن يتظاهر بارتجال عبارة رأى أنها ستبهر صديقه . وإذ كان (برنارد) قد استاء من هذا الرأى ، وحمله ذلك المحمل ، فلم يبق أمامه هو إلا التراجع . وكان سبب ضعف (أوليفييه) هو حاجته الشديدة إلى محبة (برنارد) أكثر من حاجة (برنارد) إلى مودته ، وما صرح به (برنارد) قد أذله وأوجعه . وأسف على تسرعه فى القول . أما الآن فقد فاتت فرصة التراجع ، ولو قد ترك (برنارد) يتكلم أولا لتراجع وتقهقر . ولكنه عهد (برنارد) نقادا ولم يتوقع منه أن ينبرى للدفاع عن مشاعر وآراء كان (باسافان) يدعوه ألا ينظر إليها إلا ببسمة ــ بسمة ... لم يعد يشعر برغبة فى الابتسام . إنه ليشعر بالخجل ، وإذ لم يكن فى استطاعته الآن لا التراجع ولا الاعتراض على (برنارد) ــ وكانت لهجته الصادقة قد أفحمته ــ فإنه لم يعد يحاول إلا أن يدافع عن نفسه ، وأن يتهرب ولذا قال :

— إن كان هــذا هو ما كتبته فى امتحانك فأنت إذن لم تقصدنى بهذا الهجوم بطبيعة الحال ...

وكان (أوليفييه) يتكلم بلهجة ملؤها الضيق ، بلهجة لم يكن يحب أن يتكلم بها .

غير أن (برنارد) أردف قائلا : (ولكننى الآن أقولها لك) . فأصابت هذه الجملة من (أوليفييه) مقتلا . لم يقلها (برنارد) دون شك بنية عدائية ، ولكن كيف يتسنى (لأوليفييه) أن يحملها محملا آخر ؟ وسكت (أوليفييه) وكانت هناك الآن هوة تفصل بينه وبين (برنارد) . ترى أية أسئلة يمكن أن يلقيها لتعيد الاتصال على حافتى الهوة ؟ وراح يبحث بلا أمل وقال لنفسه : (ألا يدرك مدى محنتى ؟) وأخذت محنته تتفاقم . ولم تكن هناك عبرات يحبسها ولكنه كان يشعر بأن فى الموقف ما يبكى . كان ذلك خطأ منه أيضا : فلو قد وعد نفسه فرحا أقل بهذا اللقاء لما وجد فيه كل هذا الحزن . وهذا ما حدث أيضا منذ شهرين عندما اندفع للقاء (ادوارد) وقال لنفسه : (سوف يكون الأمر دائما كذلك) . ولكم ود أن يترك (برنارد) وأن يذهب إلى أى مكان وينسى (باسافان) و (ادوارد) ... ولكن وقع لقاء مفاجىء قطع عليه حبل أفكاره الحزينة .

رأى (أوليفييه) على بعد خطوات أمامه فى شارع (سان ميشيل) ـ وكانا يسيران فيه ـ أخاه الصغير (جورج) فأمسك برنارد من ذراعه واستدار لجأة وجذبه فى سرعة .

— أتعتقد أنه رآنا ؟ ... عائلتى تجهل عودتى .

لم يكن (جورج) الصغير بمفرده . كان فى صحبة (ليون جيريدا نيزول) (وفيليب وآمانى) . ولم يكن الحديث بين هؤلاء الأطفال الثلاثة ليمنع جورج من أن تكون (عينه يقظة) ، على حد قوله . ولنترك قليلا (أوليفييه) و (برنارد) لنستطيع أن ننصت إلى ما يقوله الثلاثة ، أما الصديقان فقد دخلا مطعما ولا شك أنهما مشغولان الآن بتناول الطعام أكثر من انشغالهما بالحديث ، وكان فى هذا عزاء كبير لأوليفييه .

قال (فيليب) لجورج : حسنا اذهب أنت إذن .

ولكن هذا الأخير قال محتجا : (أوه ! إنه يشعر بالخوف ! إنه يشعر بالخوف) .

قالها بلهجة مشبعة بالسخرية والاحتقار ،وهي لهجة كفيلة بأن تحفز(فيليب) ، وقال (جيريدا نيزول) بتعال :

— إن كنتما لا تريدان فمن الأفضل أن تقولا ذلك الآن ، ولن أجد صعوبة فى الاهتداء إلى أشخاص آخرين أكثر جرأة منكما . هيا أعد لى هذا .

واستدار نحو (جورج) وكان ممسكا بقطعة صغيرة فى يده للعلقة وصاح (جورج) فى حماسة مفاجئة : (ها أنا ذاهب ، هيا ،مى) . (وكانوا يقفون بجانب حانوت يبيع السجائر) .

ولكن(ليون) قال : (لا ، سوف ننتظرك عند ناصية الشارع . تعال «يافيفى») .

وخرج (جورج) بعد لحظة من الحانوت وهو يمسك فى يده علبة من السجائر المسماة (سجائر فاخرة) ، وقدم منها لصديقيه وقال (فيفى) فى لهجة قلقة : حسناً ؟

وأجابه (جورج) : (حسنا ماذا) ؟ قالها بلهجة تكلف فيها عدم المبالاة وكأن ماقام به أصبح لجأة شيئا عادياً لايستحق أن يتكلم المرء عنه ، ولكن (فيليب) أصر على سؤاله وقال :

— هل وفقت فى صرفها ؟

— طبعا .

— ألم يقولوا لك أى شىء ؟

وهنا هز جورج كتفيه وسأل :

— وماذا كنت تريد منهم أن يقولوا ؟

— وهل أعادوا إليك الباقى ؟

وفى هذه المرة لم يشأ (جورج) أن يتنازل ويجيب على سؤاله . ولكنه وقد

رأى أن زميله مازال يشك فى الأمر ، ومازال الخوف يسيطر عليه ويلح فى السؤال ، ولذا أخرج النقود من جيبه وأخذ (فيليب) يعدها . إنها سبعة فرنكات فعلاً ، وكان يشعر بالرغبة فى أن يسأله : (هل أنت متأكد على الأقل أن هذه النقود ليست مزيفة ؟) ولكنه أمسك عن توجيه هذا السؤال .

كان (جورج) قد دفع فرنكا ثمنا للقطعة المزيفة . وكان الاتفاق هو أن يقتسموا الباقى بينهم . ولذا أعطى (جريدا نيزول) ثلاثة فرنكات . أما (فيفى) فلن يحصل على شىء . سينال سيجارة على أكثر تقدير ، وسوف يكون فى ذلك درس له ينفعه فيما بعد .

وشجع فيفى نجاح هذه العملية فطلب من (ليون) أن يبيعه قطعة ثانية . ولكن (ليون) يرى فى (فيفى) شخصا متخاذلا ، ويتظاهر بأنه يحتقره لما بدا عليه فى بادىء الأمر من جبن ، ويتظاهر بالغضب لكى يثير حماسة زميله ، وقال : (كان عليه أن يوافق فى الحال ، سوف نقوم بهذه اللعبة بدونه) . وفى الحقيقة كان (ليون) يرى من الحرص أن لا يقوموا بمحاولة أخرى فى مكان قريب من المكان الأول . ثم إن الوقت متأخرا وابن عمه (ستروفيلهو) ينتظره لتناول الغداء .

لم يكن (جيريدا ينزول) بالشخص الذى يعجز عن تصريف هذه القطع بمفرده ولكنه حاول ــ تبعا للتعليمات التى تلقاها من ابن عمه الذى يكبره ــ أن يكون له شركاء وسوف يقدم حساباً له عن مهمته التى تمت بنجاح .

وبينما كانا يتناولان غذاءهما قال له ابن عمه ، وكان يقوم مؤقتا بالإشراف عليه فى غيبة والديه : (نحن فى حاجة إلى أطفال ينتسبون إلى عائلات كبيرة لأنه إذا فرض واكتشف الأمر فإن ذويهم يعملون على ستره ــ ولكن طريقة بيع هذه القطع قطعة بعد قطعة طريقة بطيئة . وعندى اثنان وخمسون صندوقا يحتوى كل منها على عشرين قطعة يجب أن نصرفها . ويجب أن نبيع كل صندوق منها بعشرين فرنكا ، ولكن لا يمكن أن نبيعها لأى شخص طبعا . والأفضل أن نكون جمعية لا ينضم إليها إلا من قدم ضمانات . يجب أن يتورط هؤلاء الأطفال وأن يقدموا

لنا ما يمكن أن نمسك به ذويهم . وقبل أن تمهد إليهم بهذه القطع عليك أن تفهمهم هذا الأمر...أوه ! ولـكن دون أن تفزعهم . يجب ألا نفزع الأطفال أبدا . سبق أن قلت إن (مولينيه) الوالد من رجال القضاء ، هذا حسن ، والوالد (أداماتى) ؟

— إنه شيخ فى البرلمـان .

— هذا أحسن ، قد نضجت الآن وصرت تعرف أنه ليست هناك عائلات إلا ولها بعض الأسرار ، وأن من يهمهم الأمر فى هذه العائلات يرتجفون خوفاً من إذاعتها . علينا أن ندفع هؤلاء الصغار إلى اصطياد الأسرار ، وسوف يشغلهم هـذا البحث ويُباعد بينهم وبين الملل الذى يشعرون به وسط عائلاتهم ! ثم إن ذلك سوف يعلمهم قوة الملاحظة والبحث ، والأمر بسيط ، من لا يأتى بأسرار لن يحصل على شىء ، وعندما يدرك بعض الآباء أننا نعرف أسرارهم فسوف يدفعون غالياً ثمن السكوت ، والحقيقة أنه ليس فى نيتنا أن نشهر بهم مقابل سكوتنا فنحن قوم شرفاء ، إننا نريد ببساطة أن نمسكهم ، إننا نطلب سكوتهم مقابل سكوتنا ، ونريد منهم أن يسكتوا هم وأن يسكتوا غيرهم ، وعندئذ سوف نسكت بدورنا . لنشرب فى صحتهم .

وملأ (ستروفيلهو) كوبين وشربا الأنخاب .

وأردف (ستروفيلهو) قائلا ، من المستحسن ، بل مما لا غنى عنه أن نخلق علاقات متبادلة بين المواطنين وهكذا تتـكون المجتمعات الوطيدة . الـكل يتساند ! نحن نسيطر على الصغار وهم بدزوهم يسيطرون على ذويهم الذين يسيطرون علينا هذا بديع ، أتفهم ما أعنيه ؟

وكان (ليون) يفهم تمام الفهم معنى ما يقال له ، وكان يضحك فى خبث ، وبدأ يقول ،

— إن (جورج) الصغير .

— حسناً ماذا ؟ (جورج) الصغير .

— (جورج مولينيه) أعتقد أنه ناضج ، لقد سرق خطابات من أبيه أرسلتها له آنسة فى مسرح (الأوليمبيا) .

-- هل رأيت هذه الخطابات ،

-- لقد أرانى إياها ، وكنت أصغى إليه وهو يتحدث مع (آدمانتى) فى هذا الموضوع ، وأعتقد أنهما كانا سعيدين بسماعى ما يقولانه . وعلى العموم لم يبد عليهما أنهما يريدان إخفاء الأمر عنى . وكنت قد احتطت للأمر وتصرفت معهما بالطريقة التى تتبعها أنت لكى أشعرهما بالثقة فى . كان (جورج) يقول لفيفى (والغرض من ذلك أن يبهره) : « إن لوالدى عشيقة » ، وأجابه (فيفى) لكى يجاريه : « أما والدى أنا فله اثنتان » . وكان هذا أمراً سخيفاً إذ لم يكن هناك داع لأن يتشاجرا على أمر كهذا ولكننى اقتربت منهما وقلت لجورج (وما دليلك على ذلك) فأجابنى ، (رأيت خطابات) . وتظاهرت بالشك فيما يقول وقلت له ، إنك تهزل ، ودفعته إلى أن يبوح بكل شىء ، ولذا اعترف أخيراً بأن هذه الرسائل فى حوزته ، وأخرجها من حافظة كبيرة وأرانى إياها .

هل قرأتها ؟

— لم أجد الوقت الكافى لقراءتها . ولكنى لاحظت أنها مكتوبة كلها بخط واحد وكانت إحداها مرسلة باسم (قطى الحبيب) .

— وهل كان عليها توقيع ؟

— نعم (فأرتك البيضاء) . وسألت (جورج) : (كيف حصلت عليها) ؟ وأخرج وهو يضحك من جيب سرواله حلقة ضخمة من المفاتيح وقال ، بها ما يفتح كل الأدراج .

— وماذا كان يقول السيد (فيفى) ،

— لا شىء ، أعتقد أنه كان يشعر بالغيرة .

— هل يمكن أن يعطيك (جورج) هذه الرسائل ؟

— إذا لزم الأمر فسوف أعرف كيف أدفعه إلى ذلك ، لا أريد أن آخذها منه .

إنه سوف يعطيها إذا ما قام « فيفى » بشىء مماثل . كل واحد من الاثنين يدفع الآخر .

— هذا ما يسمونه المنافسة . وهل لاترى غيرهم بالمدرسة ؟

— سوف أبحث .

— كنت أريد أن أقول لك أيضا ... يوجد بين نزلاء هذه المدرسة بالقسم الداخلى صبى صغير يدعى « بوريس » فاتركه وشأنه . وسكت قليلا ثم أردف بصوت خفيض : —

— فى الوقت الحاضر .

يجلس أوليفييه و « برنارد » الآن حول مائدة فى مطعم بشارع (سان ميشيل) وبدأ شعور (أوليفييه) باليأس يذوب أمام ابتسامة صديقه كما يذوب الجليد فى الشمس ، ويتحاشى (برنارد) أن ينطق باسم (باسافان) و (أوليفييه) يشعر بذلك . وثمت شعور خفى يوحى إليه هذا ، إلا أنه يحس بهذا الاسم على شفتيه . لابد من أن يتكلم وليكن ما يكون . وقال : (نعم لقد عدنا مبكرين عن الميعاد الذى حددته لعائلتى ، وفى هذا المساء يقيم محررو (الأرجونوت)[١] حفل عشاء وباسافان مصر على حضور هذا الحفل وهو يريد أن تعيش مجلتنا الجديدة فى وئام مع أختها الكبرى وأن لاتنافسها ... عليك أن تحضر الحفلة ... لعلك تحضر معك ادوارد ... لا لتناول الطعام لأنه لابد من دعوة لذلك ، ولكن بعده مباشرة . وسوف يقام الحفل فى قاعة بالطابق الأول فى مقهى (البانتيون) وسوف يحضر أهم محررى مجلة (الأرجونت) وكثيرون ممن سيساهمون فى تحرير مجلة (الطليعة) . لقد أوشك أن يتم إعداد عددنا الأول ولكن قل لى . . . لماذا لم ترسل لى شيئا للمجلة .

وأجاب (برنارد) بلهجة فيها شىء من جفاء : لأنه لم يكن عندى

---

(١) Les Argonautes وهو اسم مجلة .

شيء معد) ، وأضاف (أوليفييه) وقد صار صوته أقرب إلى التوسل :

— كتبت اسمك بجانب اسمى فى الفهرست . . . ويمكن أن ننتظر قليلا إذا لزم الأمر . . . اكتب أى شيء ، ولكن شيئا يكون . . . لقد وعدتنا تقريبا . . .

إنه ليسيء برنارد ولا شك أن يؤلم (أوليفييه) ، ولكنه يتغلب على عواطفه ويقول :

— اسمع يا صديقى . من الأفضل أن أعترف لك بالحقيقة مباشرة : إننى أخشى أن لا أتفاهم مع (باسافان) .

ولكن ما دمت أنا الذى أدير التحرير ! إنه يترك لى مطلق الحرية .

— ثم إنه لايعجبنى أن أكتب أى شيء ، لا أريد أن أكتب (أى شيء) .

— كنت أقول (أى شيء) لأنى واثق من أن أى شيء منك سوف يكون ولا شك شيئا جميلا . وإنه لن يكون أبدا أى شيء .

ولايجد أوليفييه مايقوله . ويرتبك... إنه إذا لم يجد صديقه معه فى المجلة فإنها لن تهمه بعد الآن ، كم كان جميلا ذلك الحلم ، كم كان جميلا أن يبدآ معا .

وأضاف برنارد : ثم إنى ياصديقى إذا كنت قد بدأت أعرف تماما ما لا أريد عمله ، فإنى لا أدرى بعد تماما ما سأعمله . لا أدرى حتى إذا كنت سأكتب .

ويبهت أوليفييه لهذا التصريح ولكن برنارد يواصل حديثه قائلا :

— لايستهوينى أن أكتب شيئا دون عناء ، إننى أحسن صياغة عباراتى، ولهذا لا أطيق العبارات المنمقة . وليس معنى ذلك إننى أحب العسير لأنه عسير ، ولكنى ألاحظ أن المهتمين بالأدب فى أيامنا هذه لا يبالون كثيرا بما يكتبون ولست أفهم بعد حق الفهم حياة الآخرين حتى أتمكن من كتابة قصة . أما عنى أنا فإنى لم أعش بعد . والنظم لايعجبنى ؛ فالبيت ذو الاثنى عشر مقطعا قد بلى من كثرة الاستعمال

أما بيت الشعر الحر فأرى أنه عديم الشكل والشاعر الوحيد الذى يعجبنى اليوم هو (رامبو)[١].

— وهذا ما ذكرته فى منهج المجلة .

— إذن لا داعى لأن أكرر ما قلته أنت . لا ياصديقى ، لست أدرى هل سأكتب أم لا ويبدو لى أحيانا أن الكتابة تمنعنا من الحياة وأنه من الممكن أن نعبر عما فى نفوسنا بالأعمال خيرا مما نستطيعه بالأقوال .

وأجاب أولفيه بتردد : الآثار الفنية هى أعمال خالدة .

ولكن برنارد لم يكن يصغى إليه ، واستأنف الحديث :

— أعجب ما يعجبنى فى (رامبو) هو أنه آثر الحياة .

— لقد أفسد حياته !

وكيف يتسنى لك أن تعرف ذلك ؟

— أوه ! أما عن هذا يا صديقى …

— لا يتسنى لنا أن نحكم على حياة الآخرين بمظهرها ، ولكن لنفرض مع هذا أنه أفسد حياته فلقى الفاقة والمرض والشؤم … ولكنى أغبطه على هذه الحياة بما كانت عليه نعم، إنى أغبطه عليها رغم نهايتها القذرة …

ولم يكمل برنارد جملته ، وكان على وشك أن يذكر اسم كاتب معاصر شهير ولكنه تردد أمام أسماء كثيرة ورفع كتفيه وقال :

— إننى أشعر شعورا غامضاً أن فى أعماق ذاتى مطامح خارجة عن المألوف ، وأمواجا وحركات واضطرابات لا تفهم،ولا أريد محاولة فهمها، بل ولا أريد ملاحظتها خشية أن أمنعها من الحدوث وأن أقضى عليها . وحتى وقت قريب كنت لا أنى عن تحليل

---

(١) « أرتور رامبو » من أشهر شعراء فرنسا (١٨٥٤ — ١٨٩١) وقد تأثرت به المدرسة الرمزية تأثرا كبيرا وقد قضى حياته مغامرا .

ما يعتمل فى نفسى   وكان من عادتى أن أتحدث مع ذاتى حديثاً دائماً أما الآن فحتى لو أردت ذلك لما أنا بقادر عليه . زايلتنى هذه العادة الشاذة فجأة ودون أن أشعر . وفى رأيى أن هذا الحديث أو هذا « الحوار الداخلى » كما كان يسميه أستاذنا إنما هو عبارة عن لون من ألوان ازدواج الشخصية ، وقد أصبحت الآن عاجزاً عن ذلك منذ بدأت أحب شخصاً آخر أكثر مما أحب ذاتى .

قال « أوليفييه » : أتعنى بذلك « لورا » ألا زلت تحبها ذلك الحب ؟

قال برنارد : لا ، إن حبى لها يزداد ، واعتقادى أن خصائص الحب أن لا يبقى على حال واحدة ، وأن ينمو وإلا أصابه الوهن ، وهذا هو الفرق بينه وبين الصداقة .

وقال أوليفييه بحزن :

— والصداقة أيضاً يمكن أن يصيبها الوهن .

— أعتقد أنه ليست للصداقة هذه المجالات الواسعة .

— قل لى ... ألا تغضب إذا طلبت منك شيئاً ؟

— سوف ترى بنفسك .

— ذلك لأننى لا أريد أن أغضبك !

— لو حفظت أسئلتك فى صميم نفسك لكان غضبى أشد .

— كنت أريد أن أعرف : أتحس نحو « لورا » باشتهاء ؟

وفجأة انقلب برنارد جاداً تماما :

- سأجيبك لأنك أنت الذى تسأل... حسناً ياصديقى... إن شيئاً غريباً يعتمل فى نفسى . منذ عرفتها ، لم أعد أشتهى أحداً ، أنا الذى كنت ألتهب شوقاً إلى عشرين امرأة أصادفهن فى الطريق ، ألتهب إليهن فى وقت معاً (وكان هذا هو ما يمنعنى عن اختيار واحدة منهن) أما الآن فأعتقد أنى لم أعد أحس بصورة أخرى للجمال غير صورتها ، ولن أعشق طلعة غير طلعتها ، ولن أهوى ثغراً سوى ثغرها ولن أحب إلا نظرتها . إنه نوع من التقديس ذلك الذى أستشعره إزاءها ، وإذا ما كنت

إلى جوارها شعرت أن أية فكرة جسدية هى لون من الكفر . أعتقد أنى لم أفهم حقيقة نفسى وأن طبيعتى عنيفة ، فبفضل (لورا) تسامت غرائزى . وأشعر أن بى قوى هائلة لم تستغل وأريد أن أستغلها ، وأنا أحسد الراهب الذى يخضع كبرياءه احتراماً لما قطعه على نفسه من عهد ، وأحسد الجندى ... أو بالأحرى لا أحسد أحداً ، ولكن نفسى تضيق بما فيها من ثورة داخلية وأحاول أن أسيطر عليها . أشعر وكأن بداخلى بخاراً يمكن أن يخرج وهو يطلق صفيراً (وهذا هو الشعر) كما يمكن أن يدير مضخات أوعجلات أو أن يتسبب خروجه فى انفجار الآلة نفسها . أتعرف ما هو العمل الذى يمكن أن أعبر به عما يجيش فى نفسى ؟ إنه ... أوه ! إننى أعرف حق المعرفة أنى لن أقتل نفسى ، ولكننى أفهم جيداً ما يعنيه (ديمترى كارامازوف)[1] عندما يسأل أخاه إن كان يدرك أنه من الممكن أن يقتل المرء نفسه من فرط الحماس ، ولمجرد شعوره بأن طاقته للحياة قد فاقت الحد ... أى لحاجة فى نفسه تدفعه إلى الانفجار .

وكان ينبعث من كيان (برنارد) بأجمعه وهو يتكلم نوع من الإشعاع غير عادى . كم كان تعبيره عما يجيش فى صدره رائعاً ! وكان (أوليفييه) ينظر إليه وهو شبه مذهول .

وتمتم (أوليفييه) فى تردد : وأنا أيضاً أفهم معنى أن يقتل المرء نفسه ، ولكن ذلك لا يكون إلا بعدأن يذوق المرء لوناً من السعادة فائق القوة بحيث يبهت بعده كل لون يمكن أن تتلون به الحياة ، سعادة تجعل المرء يقول لنفسه : هذا يكفينى ، إنى سعيد وبعد الآن ...

ولكن (برنارد) لم يكن يصغى إليه . وسكت ... فماذا يجدى أن يتكلم فى الفراغ ؟ وأظلمت سماؤه كلها من جديد . وأخرج برنارد ساعته وقال :

— حان الوقت لأذهب إلى لجنة الامتحان ، تقول هذا المساء ؟ فى أية ساعة ؟

---

(١) أحدالأخوة «كارامازوف» بقصة «دوستويفسكى»المشهورة «الأخوة كارامازوف».

— أوه ! أعتقد أن الساعة العاشرة مناسبة ، سوف تأتى ؟

— نعم ، وسأحاول أن أصطحب (ادوارد) ولكنك تعرف أنه لا يحب (باسافان) وأن اجتماعات رجال الأدب تضايقه أشد الضيق . إن حضر فسوف يكون ذلك ليراك فحسب . قل لى : ألا أستطيع مقابلتك بعد أن أنتهى من امتحان اللغة اللاتينية ؟

ولم يجبه (أوليفييه) فى الحال ، وكان يفكر واليأس ملء قلبه ، إنه وعد (باسافان) بأن يذهب إليه فى الساعة الرابعة لدى الناشر الذى سيتولى طبع مجلة « الطليعة » . وكان مستمداً أن يضحى بأى شىء ليتحرر من الميعاد .

— كنت أحب أن أقابلك ولكنى مرتبط بميعاد .

ولم يبد عليه شىء مما كان فى نفسه من حزن ، وأجابه (برنارد) :

— خســـارة !

وهنا افترق الصديقان .

لم يقل (أوليفييه) (لبرنارد) أثناء حديثهما أى شىء مما كان قد عاهد نفسه على أن يقوله له ، وخشى أن يكون كلامه قد ضايق صاحبه . وكان هو فى ضيق من نفسه ، لقد كان يتباهى بنفسه فى ذلك الصباح ، أما الآن فها هو ذا يسير مطأطئ الرأس . أما صداقته لباسافان — وقد كان فخوراً بها فى بادئ الأمر — فها هى ذى ثقيلة عليه لأنه أحس أن (برنارد) لا يرضى عنها . وفى هذا المساء فى حفلة العشاء ـ وأمام الجميع ـ إذا قابل صديقه فلن يستطيع أن يكلمه . لن يكون هـذا الحفل ممتعاً مادام الصديقان لم يتصافيا من قبل . وقد دفع الغرور (أوليفييه) إلى أن يدعو إلى هذا الحفل أيضاً الخال (ادوارد) فيالها من فكرة منكرة ! سيكون لزاماً عليه إذا ما وجد مع (باسافان) وقد أحاط به من هم أكبر منه سناً ، وزملاؤه ومن سيعاونونه فى مجلة « الطليعة » ـ سيكون عليه أن يستعرض نفسه أمامهم ، وسوف يدفع هذا الاستعراض (ادوارد) إلى أن يزيد فى الخطأ فى الحكم

عليه وسيكون هذا الخطأ فى الحكم نهائياً ... آه لو استطاع رؤيته قبل الحفل ! آه لو استطاع رؤيته فى الحال ! إذن لألقى بنفسه على صدره ! وربما بكى وباح له بما فى سريرته ... ومع كل فهناك وقت حتى الرابعة .

واستقل سيارة أجرة بسرعة وأعطى العنوان للسائق ووصل أمام باب البيت وقلبه يخفق خفقاً عنيفاً ، وقرع الجرس ... لم يكن ادوارد موجوداً ... لقد خرج .

يا (لأوليفييه) المسكين ! بدلا من أن يختبئ عن ذويه ، أليس من الأفضل أن يعود إليهم ببساطة ؟ لو فعل لوجد خاله (ادوارد) عند والدته .

الفصل السادس

يوميات « إدوارد »

« يخدعنا كاتبو القصص عندما يعرضون علينا الفرد دون أن يحسبوا حسابا لألوان الضغط التي تحدق به . إن الغابة هي التي تشكل الشجرة . وليس لكل منا إلا مكان ضئيل جداً يستطيع أن يتحرك فيه ، تماما كالشجرة في الغابة ! فما أكثر البراعم التي تختنق ! كل منا يلقي بأغصانه حيث يستطيع . أما غصن « التصوف » فهو وليد الضغط . ولا مفر إلا بالصعود إلى عل . ولست أفهم كيف لا تدفع « بولين » بغصن التصوف ولا أدري ماذا تنتظر من ألوان الضغط أكثر من ذلك . لقد تحدثت إلى هذه المرة عن سريرتها أكثر مما فعلت من قبل .

وأعترف بأنى لم أكن أتصور أن مظاهر سعادتها تخفي ألوانا من الألم والاستسلام . وطبيعي أن تشعر بخيبة أمل في مولينيه فما كان لنفس كنفسها إلا أن تشعر بذلك . في حديثي معه أول أمس استطعت أن أقيس حدوده . كيف استطاعت « بولين » أن تتزوج من شخص كهذا ؟ ... وا أسفاه ! إن ألعن أنواع الضعف — وأعني بذلك ضعف الخلق — إنما هو شيء خفي ولا يظهر إلا عند الاختبار . وشغل « بولين » الشاغل هو أن تخفي سقطات أوسكار وأخطاءه عن عيون الجميع وبخاصة عن عيون أولادها ، وهي تبذل كل جهدها لكي تدفع هؤلاء إلى حب والدهم ، وإن مهمتها لثقيلة . ولكنها تتصرف بمهارة حتى إنني خدعت فيه أنا نفسي . وهي تتكلم عنه بغير ازدراء ، تتكلم عنه بلهجة فيها تسامح يوحي بالكثير من الأشياء ، وهي تشكو أنه ليس له سلطان أقوى على أبنائه . ولما أفصحت لها عن أسفي لوجود « أوليفييه » مع « باسافان » فهمت أن

الأمر بيدها وحدها لما سافر « أوليفييه » إلى جزيرة (كورسيكا) وقالت لى :

لم أكن موافقة على هذه الرحلة . ثم إن هذا السيد (باسافان) لا يعجبنى ، ولكن ما باليد حيلة . عندما أرى أن ليس فى مقدورى منع شىء فإننى أفضل أن أمنحه وكأننى راضية عنه . أما (أوسكار) فهو يتساهل دائما ويتساهل معى أيضا . ولكن عندما أرى من واجبى الاعتراض على شىء يريده الأولاد أو عندما أقاوم رغباتهم أو أصمد أمامهم فإننى لا أجد منه أى سند . و (فنسان) نفسه قد دافع عن الفكرة ، وعندئذ لم أجد فرصة للاعتراض على ما يريده (أوليفييه) دون أعرض نفسى إلى فقدان ثقته ، مع أن جل اعتمادى فى علاقاتى بهم على هذه الثقة .

وكانت ترتق جوارب قديمة من تلك الجوارب التى أتصور أن (أوليفييه) لم يعد يرضى عنها . ووقفت عن الحديث لتدخل الخيط فى الإبرة ، ثم أردفت فى نبرة خفيضة وحزينة كمن يبث همه :

— وثقة (أوليفييه) ... آه لو كنت متأكدة من احتفاظى بها ! ولكن لا ... يبدو أننى فقدتها .

وعندما حاولت أن أعترض على قولها هذا — دون اقتناع منى — ابتسمت . وتركت ما كان فى يدها ، وأردفت :

— هذا هو الدليل . إننى أعرف أنه موجود بباريس ، قابله جورج هذا الصباح ، وقد قال ذلك عرضا ، وتظاهرت بأننى لم أسمع ما قاله ، لأنه لا يعجبنى أن أراه يفشى سر أخيه ، ولكن ها أنا أعرف الحقيقة . (أوليفييه) يخفى نفسه عنى ، وعندما سنتقابل سوف يتصور أنه مجبر على أن يكذب على . وسوف أتظاهر بأننى أصدق قوله ، كما أتظاهر بأننى أصدق ما يقوله أبوه كل مرة يحاول فيها أن يخفى شيئا عنى .

وقلت : السبب فى ذلك أنهم يخشون إيلامك .

— ولكن هذا التصرف يؤلمنى أكثر . إننى متسامحة . هناك كثير من الأخطاء أتسامح فيها وأغمض عينى عليها .

— عمن تتكلمين الآن ؟

— أوه عن الأب وعن الإبن معا .

— عندما تتظاهرين بأنك لا ترين تلك الأخطاء ، فإنك تكذبين أنت أيضا .

— ولكن ماذا تريد أن أفعل ؟ يكفى أننى لا أشكو . وليس فى استطاعتى أن أوافق على هذه الأفعال ! إننى أقول لنفسى إن زمام الأمر يفلت من يد المرء عاجلا أو آجلا ، وإن الحب مهما كان فيه من حنان لن يستطيع شيئا . إن حبى يضايقهم ويحرجهم ويصل بى الأمر إلى حد إخفائه عنهم .

— إنك الآن تتكلمين عن أبنائك ؟

— لماذا تقول ذلك ! أتتصور أننى لم أعد أعرف كيف أحب (أوسكار) ؟ إننى أقول هذا لنفسى أحيانا ، ولكننى أقول أيضا إن خشية الألم الشديد هى التى تجعلنى لا أحبه أكثر من ذلك ... نعم ، لابد أنك على حق . إذا تعلق الأمر بأوليفييه فإننى أوثر الألم .

— و (فنسان) ؟

— من سنوات كنت أقول عنه كل ما قلته لك الآن عن (أوليفييه) .

— يا صديقتى المسكينة ... وعما قريب سوف تقولينه عن (جورج) .

— ولكن المرء يستسلم بطيئا . ومع ذلك لم أكن أطلب من الحياة الكثير . وقد تعلمت أن أطلب منها أقل مما كنت أريد ... ودائما أقل وأقل . وأضافت فى رفق : (وأطلب دائما من نفسى أكثر وأكثر) .

وقلت لها وأنا أبتسم بدورى : بأفكار كهذه توشكين أن تصبحى مسيحية حقيقية .

— هذا ما أقوله لنفسي أحيانا . ولكن لا يكفي أن تكون للمرء هذه الأفكار ليصبح مسيحيا حقا .

— وكذلك لا يكفي أن يكون المرء مسيحيا لتكون له هذه الأفكار .

— كثيرا ما فكرت في أن أطلب منك ، إن سمحت ، أن تكلم هؤلاء الأولاد عوضا عن والدهم .

— (فنسان) بعيد .

— وقد فات الأوان بالنسبة له . إنني أفكر بقولي هذا في (أوليفييه) ، كنت أتمنى أن يسافر معك أنت .

وعند سماعي هذه الكلمات التي صورت لي فجأة ما كان يمكن أن يحدث لو لم أرحب دون تبصر بالمغامرة التي صادفتني ، عند سماعي هذه الكلمات ، انقبض قلبي ، ولم أستطع بادىء الأمر أن أقول شيئا ، ثم صعدت العبرات إلى عيني — ورغبة في أن أبدي مبررا لاضطرابي قلت :

— بالنسبة له هو أيضا ، أخشى أن تكون الفرصة قد فاتت (قلتها وأنا أتنهد) . وعندئذ أمسكت (بولين) يدي وصاحت : كم أنت طيب القلب !

وشعرت بالحرج إذ رأيتها تخطىء فهم حقيقة شعوري ، ولم يكن في استطاعتي أن أبين لها الحقيقة ، ولذا أردت أن أوجه الحديث وجهة أخرى غير هذه الوجهة التي كانت تؤلمني وسألتها :

— و (جورج) ؟

فقالت : إنه يسبب لي هموما أكثر مما سبب الآخران . ولا أستطيع القول بأنني فقدت سلطاني عليه ، إذ أنه لم يمنحني ثقته قط ، ولم يكن ممتثلا قط .

وترددت لحظات ، ولا شك أن ما سترويه سيؤلمها أشد الألم ، وأخيرا قالت :

— حدث هذا الصيف شيء خطير . شيء يؤلمني جدا أن أقصه عليك . ومع

كل ما زلت أشك فيه إلى حد ما ... اختفت ورقة من فئة المائة فرنك من الصوان الذى اعتدت أن أضع فيه نقودى . وخشيت أن يكون ظنى إثما فلم أتهم أحدا . وكانت الخادمة التى تقوم على شئوننا بالفندق شابة يلوح أنها أمينة . وقلت أمام (جورج) إننى فقدت هذا المبلغ ، وأعترف لك أن شكوكى كانت تتجه إليه فلم يضطرب ولم يحمر وجهه خجلا ... وخجلت مما راودنى من شكوك . وأردت أن أقنع نفسى بأنى أخطأت ، وأعدت حسبتى ولكن وا أسفاه ! لم يكن هناك أى مجال للشك فى هذا . كان ينقصنى مائة فرنك . وترددت فى أن أسأله ، وأخيرا لم أسأله . ومنعنى من ذلك خوفى من أن يضيف إلى السرقة خطيئة الكذب . هل أخطأت فى ذلك ؟ ... نعم ، إننى أؤنب نفسى الآن على أنى لم أسرع فى معالجة الأمر ، ولعلى خشيت أن أضطر إلى أن أقسو أو ألا أعرف كيف أقسو قسوة كافية ، وتظاهرت بأنى أجهل ما حدث ، ولكنى أؤكد لك أن قلبى كان معذبا . وتركت الوقت يمر وقلت لنفسى : فاتت الفرصة وسيكون العقاب متأخرا . ولكن كيف أعاقبه ؟ لم أفعل شيئا ، وأنا أؤنب نفسى على هذا ... ولكن ماذا كان عساى أن أفعل ! وفكرت فى أن أبعث به إلى انجلترا ، وفكرت أيضا فى أن أطلب منك النصح فى هذا الأمر ، ولكنى لم أكن أعرف أين أنت ... غير أنى لم أخف عنه ألمى وقلقى وأعتقد أنه تأثر بذلك ، لأن قلبه طيب كما تعلم . وأنا أعتمد على تأنيبه لنفسه — إن كان هو الذى ارتكب هذه الفعلة — أكثر مما اعتمد على ما كان يمكن أن أؤنبه به . وأنا واثقة أنه لن يعيد الكرة . كان مع زميل ثرى جداً ولا شك أن هذا الأخير دفعه إلى التبذير . ولا شك أنى تركت الصوان مفتوحاً ... ثم إننى لست متأكدة تماماً من أنه هو الذى فعل ذلك . لقد كان فى الفندق كثير من النزلاء العابرين يتجولون فى أنحائه .

وأعجبتنى مهارتها فى تلمس الأسباب التى يمكن أن تبرئ ابنها . وقلت :

— كنت أتمنى أن يرجع هذه النقود إلى المكان الذى أخذها منه .

فقالت : قلت ذلك لنفسى . ولكنى إذ لم يفعل هذا ، آثرت أن أرى فى تصرفه دليلا على براءته . وقلت أيضا إنه لا يجرؤ على ذلك .

— وهل تحدثت إلى والده فى الأمر ؟

وترددت لحظات ، وقالت أخيراً :

— لا ، أفضل أن لا يعلم شيئا عن الأمر .

ولا شك أنها تصورت سماع ضوضاء فى الغرفة المجاورة ، فذهبت إليها لتتأكد من أن لا أحد هناك . ثم قالت وهى تجلس من جديد بجانبى :

— قال لى (أوسكار) إنكما تناولتما الغداء معا منذ أيام . ولقد مدحك كثيراً حتى إننى فهمت أنك ولا شك أصغيت إلى ما كان يقول (وكانت تبتسم فى حزن وهى تنطق بهذه الكلمات) . إن كان قد باح لك بأسرار فأنا أحب أن أحترمها ، وإن كنت أعرف عن حياته الخاصة أكثر مما يتصور . ولكن منذ عودتى لا أفهم ما به . إنه يتظاهر بالرقة وأوشكت أن أقول بالخنوع . وأكاد أشعر بالضيق من تصرفه هذا . لكأنه يخافنى . وهو مخطئ فى ذلك . إننى على علم بصلاته منذ وقت طويل . بل أعرف مع من هذه الصلات ، وهو يعتقد أننى أجهلها ويتخذ احتياطات ضخمة ليخفيها عنى . ولكن هذه الاحتياطات مكشوفة لدرجة أنه كلما أخفاها فضحته. فى كل مرة يتظاهر بالمشغولية والضيق والهم وهو موشك على الخروج أعرف أنه يجرى إلى ملذاته . وأشعر عندئذ بالرغبة فى أن أقول له : ولكن يا صديقى إننى لا أمنعك . هل تخشى أن أشعر بالغيرة ، ولو استطعت لضحكت من تصرفاته هذه . أخشى ما أخشاه هو أن يلحظ الأولاد شيئا من هذا فهو شارد اللب غير ماهر فى إخفاء ما به . وأحيانا — دون أن يلحظ شيئا — أرى نفسى مضطرة أن أساعده ، وكأنى شريكته فى إخفاء هذه الأمور . وأؤكد لك أن الأمر يصل بى أحيانا إلى أن أتسلى بذلك فأخترع له الأعذار ، وأضع فى جيب معطفه رسائل ينساها فى كل مكان .

وقلت لها : إنه فعلا يخشى أن تكونى قد وقعت على هذه الرسائل .

— هل قال لك ذلك ؟

— وهذا هو ما يجعله يشعر بكل ذلك الخوف .

— أتتصور أنى أحاول قراءتها ؟

واستعضت كأن جرحاً أصاب كرامتها ، ولذا اضطررت أن أقول :

— ليس الأمر أمر الرسائل التى تركها عن سهو ، ولكن هناك مجموعة من الرسائل كان قد وضعها فى درج ويقول إنه لم يعثر عليها بعد ذلك . وهو يعتقد أنك استحوذت عليها . وعند سماعها هذه الكلمات ، رأيت وجهها يشحب ، واستحوذ على كل فكرى فجأة نفس الشك الذى طاف بذهنها . وأسفت على أنى تسرعت فى الكلام ، ولكن الأمر قد وقع . وأشاحت عنى بوجهها وتمتمت :

— يا ليتنى كنت أنا التى عثرت عليها !

وبدت منهارة وأخذت تردد : « ماذا يمكن عمله ؟ ماذا يمكن عمله ؟ » ، ثم قالت وهى ترفع عينيها نحوى من جديد : « هل تستطيع أنت أن تكلمه فى الأمر ؟ »

وبالرغم أنها تجنبت ذكر اسم (جورج) فقد كان واضحاً تماما أنها تتهمه هو بهذه الفعلة .

وقلت : سوف أحاول . وسأفكر فى الأمر (قلت ذلك وأنا أنهض) وقالت وهى تصحبنى إلى خارج الغرفة :

— لا تقل شيئا لأوسكار فليبق على اتهامه لى ، ليبق فى تصوره للأمر . هذا أفضل، أرجو أن تعود لزيارتى .

الفصل السابع

« شعر أوليفييه » بالحسرة إذ لم يستطع مقابلة الخال « ادوارد » ولم يستطع تحمل وحدته ، ولذا فكر فى أن يوجه قلبه نحو « أرمان » ذلك الفتى الذى ينشد الصداقة ، ولذا يمم وجهه شطر القسم الداخلى بمدرسة « فيدل » .

واستقبله « أرمان » فى غرفته التى يوصل إليها سلم الخدم . كانت غرفة صغيرة ضيقة لها نافذة على فناء داخلى تطل عليه دورات المياة والطاهى فى المبنى المجاور . وكان بها جهاز عاكس للضوء من الزنك المجوف يتلقى ضوء النهار من أعلى ويعكسه ضوءا باهتا فى الغرفة . وتهوية الغرفة رديئة. ولذا كانت تسودها رائحة كريهة ألمية .

وقال « أرمان » : ولكن المرء يعتاد على هذه الغرفة . ولعلك تدرك أن والدىّ يخصصان أفضل الغرف للنزلاء القادرين على الدفع ، وهذا أمر طبيعى . ولقد تركت الغرفة التى كانت لى فى العام الماضى « لفيكونت » ، وهو شقيق صديقك الشهير « باسافان » ، وهى غرفة جديرة باستقبال أمير ، إلا أن قربها من غرفة « راشيل » تجعلنى تحت رقابتها . وهناك كثير من الغرف ولكنها ليست مستقلة كلها . ولذلك فإن « سارة » المسكينة التى عادت هذا الصباح من انجلترا ، تضطر لتذهب إلى غرفتها الجديدة أن تمر من غرفة والدينا (وهذا أمر لايناسبها) أو أن تدخل عن طريق غرفتى ، التى لم تكن فى بادىء الأمر إلا دورة مياه أو مخزنا . ولكنى هنا أتمتع على الأقل بحرية الخروج والدخول كيفما أشاء دون أن يتجسس على أحد . ولقد فضلت هذه الغرفة على الغرف الموجودة بأعلى البناء والتى خصصت للخدم . وفى حقيقة الأمر ، يحلو لى إلى حد ما أن أسكن مكاناً غير مريح . وهذا ما يمكن أن يسميه والدى : « استعذاب العذاب » . ويمكن أن يشرح لك هذا الأمر قائلا إن ما يؤذى الجسد يمهد لخلاص الروح . وعلى كل حال فهو لم يدخل هنا أبدا . ولعلك تدرك أنه مشغول بأمور أخرى تعوقه عن التفكير فى مسكن ابنه . والدى رجل عجيب ، وهو يحفظ عن

ظهر قلب عبارات يهون بها على الناس وتناسب كل أحداث الحياة الهامة ، وييسر المرء أن يسمع هذه العبارات. ومن المؤسف أنه ليس لديه الوقت الكافى أبداً للحديث ... هل تحب أن تشاهد مجموعة لوحاتى ؟ الصباح هو أنسب الأوقات للاستمتاع بمشاهدتها . هذه صورة مطبوعة بالألوان من عمل تلميذ « باولو أوشيلو » ، وهى تصلح للأطباء البيطريين . وقد بذل الفنان مجهودا مشكورا (ليلخص وبركز ويظهر فى جواد واحد كل الآلام التى تظهر روح الجياد على حد قول رجال الدين ، وسوف يلفت نظرك ما فى نظرة الجواد من روحانية ... أما هذه فإنها لوحة رمزية تمثل مراحل الحياة المختلفة من المهد إلى اللحد ، وهى من ناحية فن الرسم لا تساوى كثيراً ، ولكن ربما كان للفكرة ذاتها بعض القيمة . وعلى بعد سوف تعجب بصورة لغانية من رسم تيسيان) [1] وقد وضعتها فوق سريرى لتوحى إلى بالملذات . أما هذا الباب فهو باب غرفة (سارة) .

• وآلم (أوليفييه) مظهر الغرفة القذر . ولم يكن الفراش مرتباً ، وعلى مائدة الزينة إناء الغسيل والذى لم يفرغ من مائه المستعمل !

وأجاب (أرمان) ردا على التساؤل الذى قرأه فى نظرة (أوليفييه) :

— إننى أرتب غرفتى بنفسى . وهنا ترى المائدة التى أستذكر دروسى عليها ، ولا يمكنك أن تتصور ما يوحيه إلى جو هذه الغرفة .

(جو هذا المأوى العزيز ...[2])

وأنا مدين لجو هذه الغرفة بفكرة قصيدتى الأخيرة : (إناء الليل)[3]

وكان (أوليفييه) قد جاء لمقابلة (أرمان) وفى نيته أن يكلمه عن مجلته ، وأن ينال موافقته على التعاون معه فيها ، ولكنه لم يعد يجرؤ على أن يطلب ذلك منه . غير أن (أرمان) عاد إلى حديثه من تلقاء نفسه وقال :

---

(١) مصور إيطالى شهير عاش فى القرن الخامس عشر . (٢) بيت من الشعر

(٣) يقصد الكاتب بإناء الليل الإناء الذى يوضع فى غرفة النوم لقضاء الحاجة .

— (إناء الليل) ... ما رأيك ، أليس عنواناً جميلا ؟ ... وأقدم هذه القصيدة بعبارة الشاعر (بودلير) [1] :

(هل أنت إناء جنائزى معد لاستقبال بعض العبرات ؟)

إننى أستعمل هذا التشبيه القديم (الذى لا يزال فتياً) ، والخاص بصانع الخزف الذى يخلق ويشكل كل إنسان على شكل إناء مخصص لاستقبال شىء ما ، لا يدرك أحد كنهه . وأقارن نفسى فى حماس شاعرى بالإناء المذكور . وقد أوحى لى هذه الفكرة — كما كنت أقول لك — الرائحة الكريهة المنبعثة من هذه الغرفة وأنا معجب على وجه خاص ببداية القصيدة .

(من ذا الذى بلغ الأربعين ولم يصب بالبواسير) . .

وكنت فى بادىء الأمر قد كتبت (من ذا الذى بلغ الخمسين ...) لكى أطمئن القارىء ولكن ضرورة الجناس ألجأتنى إلى أن أضع كلة (الأربعين) ، أما عن كلمة (بواسير) فلا شك أنها أجمل ألفاظ اللغة الفرنسية قاطبة ... حتى بغض النظر عن معناها (وأضاف هذه العبارة وهو يبتسم فى بلاهة وخبث) .

وبقى (أوليفييه) ساكتا وقد انقبض قلبه . ولكن (أرمان) أردف :

— لا داعى لأن أقول لك إن (إناء الليل) يمتلأ فخرا عندما يزوره إناء ملىء مثلك بالروائح العطرة ...

وقال له (أوليفييه) أخيراً فى يأس :

— أو لم تكتب شيئاً آخر غير هذا الشىء ؟

— كنت سأقدم قصيدتى (إناء الليل) لمجلتك الجيدة ، ولكنى بعد أن سمعت اللهجة التى نطقت بها كلة (هذا الشىء) أدركت أن قصيدتى لم يسعدها الحظ

---

(١) « شارل بودلير » (١٨٢١ — ١٨٦٧) وهو صاحب ديوان « أزهار الشر » « Les. Fleurs. Du. Mal » . ولشعره شهرة عالية .

بإعجابك . وفى مثل هذه الحالات يلجأ الشاعر دائما إلى هذا الدفاع : (إننى لا أكتب لكى يعجب بى الناس) ، ويقنع نفسه بأنه أخرج آية من الآيات . ولكنى لن أخفى عليك رأيى فى قصيدتى إذ أنى أحكم عليها بأنها تثير الاشمئزاز . ومع كل فإننى لم أكتب فيها إلا البيت الأول . وعندما أقول (كتبت) فإن هذه طريقة من طرق التعبير ، لأنى لم أنظم هذا البيت إلا الآن فى التو واللحظة للحفاوة بك .. ولكن هل كنت تفكر حقيقة فى أن تنشر شيئاً من تأليفى ؟ هل كنت تتمنى معاونتى ؟ هل كنت تعتقد أن فى إمكانى أن أكتب شيئاً نظيفا ؟ هل تبينت على جبينى الشاحب ما يوحى بعبقريتى ؟ إنى أعرف أن غرفتى هذه لايسمح الضوء فيها بالنظر فى المرآة ولكننى عندما أنظر إلى نفسى فى المرآة كما فعل (نارسيس)[1] فإننى لا أرى غير شخص فاشل .. ومع كل ربما كان ذلك نتيجة لضعف ضوء النهار هنا ... لا ياعزيزى (أوليفييه) ، لا ، إنى لم أكتب شيئاً هذا الصيف وإن كنت تعتمد على لأكتب شيئاً لمجلتك فمن الأفضل ألا ... ل . ولكن كفانى كلاماً عن نفسى . . . هل كان كل شىء على مايرام فى (قورسيقة) ؟ هل استمتعت برحلتك ؟ هل استفدت ؟ هل استمتعت بالراحة بعد ما كابدته من عناء ؟ وهل . . .

وهنا لم يطق (أوليفييه) صبرا وقال :

— صه ياصديقى كفاك مزاحا . إن كنت تتصور أن ما تقوله طريف ...

وصاح (أرمان) : حسنا . وهذا رأيى أنا فيما أقوله ، لا يا عزيزى لا تتصور أنى أبله . ما زال عندى بعض الذكاء لكى أدرك أن ما أقوله لك سخيف .

— ألا تستطيع أن تتكلم بلهجة جادة ؟

— سوف نتكلم بلهجة جادة مادام هذا النوع من الكلام هو الذى يصادف الهوى من نفسك . أصبحت شقيقتى الكبرى (راشيل) عمياء ، ومنذ عامين لم تعد تستطيع

---

(١) فى الأساطير هو ابن النهر « سيفيز » وقد أعجب بصورته عندما رآها تنعكس على مياه حوض واندفع فيه وتحول فى مياهه إلى زهرة تحمل اسمه .

القراءة بلا عوينات . وكنت أتصور فى بادىء الأمر أنه لم يكن عليها إلا تغيير زجاج نظارتها . ولكن هذا لم يعد يكفى . وبناء على طلبى ذهبت لاستشارة أخصائى . ويبدو أن حساسية العين ضعفت . وأنت تعرف أن هذا يعنى شيئين مختلفين تماما : من ناحية ، قد يكون هناك عيب فى قاع العين ، وهنا يمكن للزجاج أن يعالج هذا العيب ، ولكن من ناحية أخرى بعد أن يقرب الزجاج أو يبعد الصورة المرئية يمكن أن لا تؤثر هذه الصورة بشكل كاف على الحدقة ولا تصل حينئذ إلى المخ إلا بشكل مشوه . هل كنت واضحا فى شرحى ؟ إنك لا تكاد تعرف (راشيل) وبناء على ذلك لن تتصور أنى أحاول أن أشعرك بشفقة نحوها . وإذن لماذا أقص عليك كل هذه الأشياء ؟ ... لأنى عندما فكرت فى حالتها تبينت أن الأفكار مثلها فى ذلك كمثل الصور ، يمكن أن تصل إلى المخ بدرجات متفاوتة فى الوضوح . والذهن غير الثاقب لا يمكن أن يستقبل إلا صورة مشوهة للعالم ولكنه لهذا السبب ذاته لا يتبين أنه غير ثاقب . وذهن كهذا لا يمكن أن يتألم من سخفه إلا إذا وعى هذا السخف . ولكى يعى هذا يجب أن يصبح ثاقبا ذكيا وتخيل إذن هذا المخلوق العجيب : رجلا أبله وله من الذكاء قدر يتيح له أن يدرك أنه غبى .

— فى هذه الحالة لن يكون غبيا .

— بلى يا صديقى : إنى متأكد من قولى لأن هذا الغبى هو أنا .

ورفع (أوليفييه) كتفيه بينما استطرد (أرمان) يقول :

— الغبى فعلا لا يدرك أن هناك أفكارا خارج محيط تفكيره . أما أنا فأدرك أن هذه الأفكار موجودة . ولكنى مع ذلك غبى لأنى أعرف أنى لن أستطيع أبدا بلوغها ...

أجابه (أوليفييه) فى نوبة عطف عليه :

— لقد خلقنا كلنا على نحو يسمح بأن نصبح أفضل مما نحن . وأعتقد أن الشخص الذكى حقا هو بالذات ذلك الذى يألم مما يلمس فى نفسه من طاقات محدودة .

وأبعد (أرمان) يد (أوليفييه) التى وضعها على ذراعه بود ، وقال :

— هناك من يدركون حقيقة ما يملكون . أما أنا فلا أدرك إلا حقيقة مايعوزنى من مال ومن قوة ومن ذكاء ومن حب . إن بى دائما عجزا وسأبقى هكذا دائما .

واقترب من منضدة الزينة وغمس فرشاة للشعر فى الماء القذر الذى بالإناء وألصق شعره على جبينه فى شكل قبيح وقال :

— قلت لك إننى لم أكتب شيئا ، ومع هذا فقد راودتنى فى الأيام الأخيرة فكرة بحث يمكن أن أسميه : « بحث فى العجز » ولكننى بالطبع عاجز عن كتابته ... وربما قلت فى هذا البحث ... ولكنى أضايقك .

— استمر إنك تضايقنى عندما تمزح ولكنى الآن شغوف جدا بسماعك .

— كنت سأبحث فيه عن الحد الفاصل . أبحث عنه فى الطبيعة كلها ، الحد الذى لا يمكن أن يكون هناك شىء بعده . وسأضرب لك مثلا يوضح ما أعنيه . لقد نشرت الجرائد قصة عامل صرعه التيار الكهربائى وكان يمسك بلا مبالاة أسلاكاً للتوصيل ، ولم تكن قوة التيار كبيرة ولكن يبدو أن جسده كان مبللا بالعرق . وقد نسب سبب وفاته إلى هذه الطبقة الرطبة التى مكنت التيار من أن يغلف جسمه كله . ولو كان جسمه جافاً لما وقع الحادث . ولكن إذا أضفنا إلى جسمه حبات العرق حبة بعد حبة ... فهناك حبة هى التى يقع بعدها الأمر المحتوم .

وقال (أوليفييه) : لا أفهم ما تعنيه .

— ربما أسأت اختيار المثال ومن عادتى أن أسىء اختيار الأمثلة التى أريد أن أضربها ، وهاك مثلا آخر : ستة من الغرقى جمعوا فى قارب إنقاذ والعاصفة تضلهم منذ عشرة أيام . ومات منهم ثلاثة وأنقذ اثنان وكان السادس يحتضر وكان من المأمول إعادته إلى الحياة ولكن جسمه قد بلغ الحد الفاصل .

وهنا قال (أوليفييه) : نعم أفهم ما تعنيه ، لو وصلوا مبكرين ساعة لأمكنهم إنقاذه .

— ساعة ! كم تبالغ ! إننى أبحث عن اللحظة القصوى : مازالوا يستطيعون ...

ما زالوا يستطيعون . لم يعد ذلك ممكناً . إنه حد فاصل دقيق هو الذى يبحث عنه ذهنى . وهذا الخط الفاصل بين أن يكون المرء أولا يكون ، هذا الخط أحاول أن أرسمه فى كل مكان . الحد الأقصى للمقاومة ... وأضرب لك مثلا ما يسميه والدى : (الإغراء) . ما زال الإنسان يقاوم والحبل مشدود حتى يكاد ينقطع والشيطان يجذبه . . . ولو ما شد قليلا جدا بعد ذلك لانقطع الحبل ، ولحكم على الإنسان باللعنة . أتفهمنى الآن ؟ لو تزحزح الحد الفاصل بين الوجود وعدمه لما كان هناك وجود ولما خلق الله العالم . ولما كان هناك أى شىء ... ولتغير وجه العالم على حد قول (باسكال)[1] . ولكنى لا يكفينى أن أفكر : (لو كان أنف كليوباترا أقصر) . إننى أصر وأسأل : أقصر ... إلى أى حد ؟ لأن هذا الأنف كان يمكن أن يقصر قليلا جدا ، أليس كذلك ؟ هناك تدرج وتدرج ثم قفزة مفاجئة ... إن العبارة اللاتينية (Natura. Non.Facit. Saltus) (ليس فى الطبيعة قفزات) ليست إلا دعابة ! أما أنا فشأنى شأن الأعرابى فى قلب الصحراء ، وهو موشك أن يموت ظمئا ، وأصل إلى هذه النقطة المحددة حيث يمكن لنقطة واحدة من الماء أن تنقذه ... أو ما يشبه الدمعة ...

واختنق صوت (أرمان) وأصبح مؤثرا مما حدا (أوليفيه) وأشاع فيه الاضطراب ، ثم أضاف بلهجة أكثر رقة وكأن بها حنان :

— أتذكر : (لقد أرقت هذه الدمعة من أجلك ...)

وكان (أوليفيه) يذكر دون شك هذه العبارة لباسكال ، (بل لقد ضايقه من صديقه أن لم يذكرها بالضبط ولم يستطع أن يمنع نفسه من تصحيحها : لقد أرقت هذه القطرة ، من الدم ...)

وفترت فى الحال حماسة (أرمان) ورفع كتفيه .

— ماذا نستطيعه إزاء ذلك ؟ ... أتفهم الآن معنى أن يشعر المرء دائما بأنه على (الحد الفاصل) ؟ سوف تنقصنى دائما نقطة واحدة .

---

(١) قال بسكال : لو كان أنف كليوباترا أقصر لتغير وجه العالم .

وعاد إلى الضحك . وظن (أوليفييه) أنه بدأ يضحك خوفا من أن يبكى ، وكان يريد أن يتكلم بدوره وأن يصور لأرمان إلى أى حد تهزه كلماته ويصف له ما يشعر به من قلق تحت هذا التهكم الأليم . ولكن ميعاده مع (باسافان) كان قد قرب ، فأخرج ساعته وقال :

— سأضطر أن أتركك . ألديك فسحة من الوقت هذا المساء ؟

— لماذا ؟

— لكى تقابلنى فى مقهى (البانتيون) فرجال جريدة الـ (Argonautes). يقيمون حفل عشاء . احضر فى آخر الحفل وسوف يكون هناك عدد من شخصيات معروفة إلى حد ما ، وسوف يكونون ثملين قليلا . وقد وعدنى (برنارد بروفيتا نديو) بأن يأتى . من الممكن أن يكون الجو طريفا .

وقال (أرمان) بلهجة حزينة : لم أحلق ذقنى . ثم ماذا تريد منى أن أفعله فى وسط هذه الشخصيات الشهيرة ؟ ولكن هاك فكرة . أطلب ذلك من (سارة) التى عادت هذا الصباح من انجلترا . سوف تسر كثيرا من هذا المجال وأنا متأكد من ذلك . هل تريد منى أن أدعوها باسمك ؟ سوف يصحبها (برنارد) .

— حسناً يا صديق .

الفصل الثامن

كان من المتفق عليه أن يمر « برنارد » و « ادوارد » بعد العشاء ليصحبا « سارة » قبل العاشرة بقليل . وكان « أرمان » قد أبلغها الدعوة وقبلتها بسرور . واعتكفت فى غرفتها فى التاسعة والنصف حيث صحبتها أمها . وكان لابد للوصول إلى هذه الغرفة من المرور بحجرة الوالدين . ولكن كان هناك باب آخر – مفروض أنه مغلق – بين غرفة « سارة » وغرفة « أرمان » . وكانت هذه الأخيرة – كما سبق أن قلنا – تنفتح على سلم الخدم . وتظاهرت سارة أمام أمها برغبتها فى النوم وطلبت أن تتركها لتنام . ولكن ما إن وجدت نفسها بمفردها حتى اقتربت من منضدة زينتها لتصلح من لون شفتيها وخديها . وكانت منضده الزينة تخفى وراءها الباب المغلق ولم تكن ثقيلة حتى تعجز « سارة » عن زحزحتها دون ضوضاء . وفتح الباب السرى وخشيت سارة أن تقابل أخاها ، وكانت تهاب سخرياته . والحقية أن « أرمان » كان يشجع مغامراتها الجريئة حتى ليبدو أنه يجد متعة فى ذلك . ولكن هذا التصرف منه كان نوعا من التسامح المؤقت لأنه كان يحكم على هذه المغامرات بعد أن تتم حكماً قاسياً . وكانت سارة لهذا السبب لا تدرى هل هذا التسامح نفسه خدعة من الرقيب ؟

وكانت غرفة « أرمان » خالية . وجلست « سارة » على مقعد صغير منخفض وراحت تنتظر . إنها تشعر بازدراء لكل الفضائل المحيطة بها فى هذا المنزل ويدفعها إلى هذا الشعور نوع من الثورة الواقعة . وكان الضغط العائلى قد شد عزيمتها ، وأهاج فيها غرائز الثورة . وكانت أثناء إقامتها بانجلترا قد تبينت مدى ما بها من إقدام وقررت أن تسترد حريتها وأن تبيح لنفسها كل شىء ، وأن تقدم على كل شىء كما كانت تفعل الآنسة « آبردين » التلميذة الإنجليزية بالقسم الداخلى . وكانت تشعر بأنها متأهبة لمجابهة كل أنواع الازدراء وكل ألوان اللوم ، كما كانت تشعر بقدرتها على الرد على كل تحد . وكانت بإقدامها مع « أوليفييه » قد تغلبت على تواضعه الطبيعى وعلى كثير مما فيه من خجل . كما تعلمت الكثير من حياة شقيقتها .

وكانت تعتبر استسلام « راشيل » وتقواها لونا من الخداع ، ولم تكن ترى فى زواج (لورا) إلا صفقة مؤلمة تؤدى بها إلى العبودية .. وإن نوع التعليم الذى تلقته ، والتعليم الذى اكتسبته بنفسها لم يكن ليسمح لها بأن ترضى عما يسمونه (التفانى فى الحياة الزوجية) . ولم تكن ترى أى امتياز لمن قد تتزوجه ، ألم تؤد الامتحانات كما يؤديها الرجال ؟! وهكذا لم تكن لها آراؤها وأفكارها الخاصة بها فى كل موضوع يصادفها ولا سيما فى موضوع المساواة بين الجنسين فحسب ، بل كان يبدو لها أن المرأة فى شئون الحياة وفى عالم الأعمال بل فى عالم السياسة إذا لزم الأمر كثيراً ماتثبت أن تقديرها خير من تقدير الرجال ...

وسمعت وقع خطوات على السلم وأرهفت السمع ثم فتحت الباب برفق وكان الممر مظلماً فلم تر القادم ولم يميز أحدهما الآخر فى الظلام .

وتمتم (برنارد) : الآنسة (سارة فيدل) ؟ وتأبطت ذراعه بدون كلفة .

— (ادوارد) ينتظرنا فى سيارة على ناصية الشارع . وقد آثر ألا ينزل منها خشية أن يقابل والديك . أما بالنسبة لى فهذا الأمر لا أهمية له فأنت تعرفين أنى أقيم هنا .

وكان (برنارد) قد حرص على أن يترك باب الفناء مواربا حتى لا يثير انتباه البواب . وبعد لحظات أوصلت السيارة ثلاثتهم أمام حانة (البانتيون) . وبينما كان (ادوارد) يحاسب السائق ، سمعوا الساعة تعلن العاشرة . كانت الوليمة قد انتهت . وقد جمع ما على المنضدة من مأكولات ، ولكنها لا تزال مزدحمة بفناجين القهوة وبالزجاجات والأكواب . وكان الجميع يدخنون والجو خانق . وطالبت مدام (دى بروس) زوجة رئيس تحرير جريدة (الأرجونوت) بتجديد هواء المكان ، وكان صوتها الحاد واضحاً بين الأحاديث الخاصة ، وفتحوا النافذة ولكن (جوستينيان) — الذى كان يريد إلقاء خطاب — طالب بأن تغلق فى الحال ليتمكن الحضور من سماعه ، ونهض وأخذ يضرب على كوبه بملعقة دون أن ينجح فى استرعاء انتباه الحضور . ووفق أخيراً رئيس تحرير (الأرجونوت) الذى كان يسمونه بالرئيس (دى بروس) فى أن يحصل على بعض الهدوء وانتشر صوت (جوستينيان) مرددا

عبارات مملة . وكانت تفاهة فكرته تختفي تحت فيض من التشبيهات ، وراح يعبر عن آرائه بأسلوب متكلف ليستعيض به عما يعوزه من فكر ، كما حاول بشتى الطرق أن يوجه لكل من الحاضرين مديحاً ملتوياً .

وبعد أول فقرة من حديثه ، دخل (ادوارد) و (برنارد) و (سارة) القاعة ، وكان هناك تصفيق للخطيب وأطال بعض المصفقين تصفيقهم سخرية بالخطيب . ولاشك أنهم أرادوا بهذا أن يضعوا حدا لخطبته ، ولكن راحت جهودهم أدراج الرياح إذ استأنف (جوستينيان) الكلام ولم يكن هناك شيء يمكن أن يسكت فصاحته هذه . وها هو ذا الآن يغمر (الكونت دى باسافان) بأزهار من بلاغته . وتكلم عن (القضيب الثابت) وكأنه يتحدث عن (إلياذة) جديدة .

وشرب الحضور نخب (باسافان) ، ولم يكن هناك أكواب أمام (ادوارد) و (برنارد) و (سارة) فأعفاهم ذلك من المشاركة في شرب نخبه .

وأنهى (جوستينيان) حديثة بدعواته للمجلة الجديدة وببعض مديح وجهه لمدير تحريرها المقبل (مولينيه) الشاب الموهوب ، الذى اصطفته آلهة الشعر ، والذى لن ينتظر جبينه طويلا حتى تتوجه أكاليل الزهر .

وكان (أوليفييه) قد تعمد الوقوف بجانب باب الدخول ليستطيع أن يستقبل أصدقاءه بمجرد دخولهم . وقد أحرجه بشكل واضح مديح (جوستينيان) المبالغ فيه ، ولكنه لم يستطع أن يتهرب من المظاهرة الصغيرة التى أعقبته . ولم يكن الضيوف الثلاثة الذين وصلوا فى هذه اللحظة قد تناولوا إلا عشاء خفيفاً ، ولم يسمح لهم ذلك بمجاراة بقية المجتمعين فى مرحهم ، وفى مثل هذه الاجتماعات ، كثيرا ما يسىء الذين يصلون متأخرين فهم حقيقة انفعال الآخرين أو يسرفون فى مدحه ، وهم يحكمون فى ظرف لا يسمح بأن يحكم أحد على أحد ـ وينتقدون ولو بطريقة غير إرادية نقداً لا تسامح فيه ، أو تلك كانت على الأقل طريقة (ادوارد) و (برنارد) . أما (سارة) ، وكان كل ما صادفته فى هذا المكان جديداً عليها ، فلم تفكر إلا فى أن تتعلم أشياء جديدة ، وكان شغلها الشاغل أن تجارى المجال .

ولم يكن (برنارد) يعرف أحداً من الحاضرين. وأراد (أوليفيه) بعد أن أمسك به من ذراعه ، أن يقدمه (لباسافان) و (دى بروس) ولكنه رفض ، إلا أن (باسافان) أحرجه إذ تقدم إليه ماداً يده ، ولذا لم يستطع أن يتنصل عن تحيته من باب الأدب . وقال (باسافان) لبرنارد :

— سمعت عنك منذ أمد طويل ، حتى يبدو لى أنى أعرفك فعلا .

وأجابه (برنارد) : (هذا شعور متبادل) . قالها (برنارد) بلهجة سكبت ماء بارداً على حرارة (باسافان) . وفى الحال اقترب هذا الأخير من (ادوارد) . ورغم أن (ادوارد) كان كثير الأسفار ، ورغم أنه كان يعيش فى باريس بعيداً عن الناس ، إلا أنه كان يعرف الكثيرين من المدعوين إلى هذا الحفل ، ولم يشعر بأى حرج فى هذا الجو . ولم يكن محبوباً من زملائه ، وإن كانوا يقدرونه مع أنه كان يبتعد عنهم ، وكانوا يصفونه بالتعالى ، وكان يصغى إليهم أكثر مما كان يتكلم .

وبدأ (باسافان) حديثه قائلا بصوت رقيق وخفيض : جعلنى ابن أختك آمل فى حضورك إلى هنا . وقد سرنى ذلك كثيراً إذ أن ... ولكن نظرة (ادوارد) الساخرة جعلته يمسك عن إكمال جملته . كان (باسافان) ماهراً فى اجتذاب الإعجاب وكان معتادا أن يعجب به الناس ، ولذا كان يشعر بحاجة إلى أن يرى أمامه مرآة مشجعة ، مرآة تجعله يلمع ويبهر ، ولكنه مع ذلك تماسك إذ لم يكن ممن يفقدون سيطرتهم على أنفسهم بسهولة وممن يسمحون بأن يتغلب عليهم الآخرون . ولذا رفع جبينه وشحن نظرته وقاحة ... إذا لم يكن (ادوارد) مستعداً لمجاراته فى هذا المجال عن طيب خاطر فسيعرف كيف يقهره . وأردف (باسافان) وكأنه يكمل جملته :

— (كنت أريد أن أسألك) : أعندك أخبار عن صديقى (فنسان) ابن أختك الآخر ؟ فهو الذى كانت تربطنى به بخاصة صلات الصداقة . وأجاب (إدوارد) بجفاء : لا .

كلمة (لا) هذه حيرت (باسافان) إذ لم يدرأ كان عليه أن يحمل هذه الإجابة محمل التحدى ، أم يأخذها على أنها مجرد إجابة بسيطة على سؤاله ، ولم يدم انفعاله أكثر من لحظة ، ولكن (ادوارد) دفعه عن غير قصد إلى أن يتحفز من جديد إذ قال .

— علمت من أبيه أنه فى رحلة مع أمير (موناكو) .

وأجاب (باسافان) . كنت قد طلبت فعلا من إحدى صديقاتى أن تعرفه بالأمير ، وكنت سعيداً بأن وجدت له ما يغير أفكاره ويلهيه قليلا عن مغامرته التعسة مع السيدة التى تسمى (دوفيه) .. التى تعرفها ، كما قال لى (أوليفيه) ، فقد كان معرضاً لأن يفسد حياته فى تلك المغامرة .

وكان (باسافان) بارعاً فى استعمال عبارات الازدراء والاحتقار والتنازل ، ولكن كفاه أنه كسب هذه الجولة ، وأن اضطر (ادوارد) أن يحسب له حسابا . وكان (ادوارد) بدوره يبحث عن أى شىء يرد به هذا الهجوم ، ولكن بديهته كانت تخونه إلى أقصى حد ، ولا شك أن هذا سبب ابتعاده عن الناس ، فلم يكن يتمتع بأى ميزة تجعله يلمع فى المجتمع . وخلال ذلك قطب حاجبيه . وكانت لباسافان حاسة تحذره عندما تراود الآخرين الرغبة فى أن يقولوا له ما لا يعجبه ، كان يشعر بهذه الرغبة فيهم ويستعد لها ، ولذا أضاف دون أن ينتظر ــ وقد غير لهجته فجأة وسأل باسما : ولكن من هى هذه الصبية الشهية التى تصحبك ؟

وقال «ادوارد» : إنها الآنسة «سارة فيدل» وهى بالذات شقيقة السيدة «دوفيه» صديقتى . ولما لم يكن لديه شىء آخر يتحداه به فقد قال كلمة « صديقتى » هذه بلهجة حادة كأنها سهم مشحوذ ، ولكنها أخطأت هدفها ، وتركها « باسافان » تسقط إذ تجاهل ما فيها وقال :

— أكون شاكراً لو تفضلت بأن تقدمنى لها .

وقال هذه الكلمات الأخيرة والجملة السابقة لهـا بصوت مرتفع لتسمعه «سارة»

وإذا استدارت نحوهما لم يتمكن « ادوارد » من التهرب وقال : يا « سارة » يتطلع « الكونت دى باسافان » إلى شرف التعرف بك . قالها بابتسامة مفتعلة .

وكان « باسافان » قد أمر بإحضار ثلاثة أكواب ملأها بمشروب «الكوميل» وشرب الأربعة نخب «أوليفييه» . وصارت الزجاجة شبه فارغة ، ولما كانت «سارة» تعجب من وجود بعض الرواسب فى قاعها اجتهد « باسافان » فى أن يخرج بعضاً منها مستعيناً بشفاطة من البوص . ولكن اقترب منه شخص عجيب فيه سمات البلاهة ، وكان وجهه مغطى بطبقة من الدقيق ، له عين كالزجاج الأسود ، وشعر ملتصق كقلنسوة من القطيفة ـ اقترب منهم وقال ، وكأنه يمضغ بصعوبة ظاهرة كل مقطع من كلماته :

— لن توفق فى ذلك . أعطنى الزجاجة لأهشمها .

وأمسك بالزجاجة وهشمها بأن دقها على حافة النافذة ، وقال وهو يقدم قاعها لسارة :

— بهذه القطع الحادة تستطيع الآنسة اللطيفة دون جهد أن تثقب زورها .

وسألت « سارة » « باسافان » : « من هذا المهرج » ؟ وكان « باسافان » قد أجلسها على مقعد وجلس بجانبها :

— إنه « الفريد جارى » مؤلف (الملك أوبو) ومحررو جريدة (الأرجونوت) ، يضفون عليه عبقرية لأن الجمهور سخر من مسرحيته . ومع ذلك فإن مسرحيته هذه تعتبر أعجب ما قدمه المسرح منذ وقت طويل .

وقالت (سارة) : أعجبتنى كثيراً مسرحية الملك أوبو . . وأنا سعيدة جداً بلقاء (جارى) . لقد قالوا لى إنه ثمل دائماً .

— لا بد أن يكون كذلك هذا المساء . لقد رأيته يشرب أثناء العشاء كوبين كبيرين ممتلئين بمشروب (الأبسانت) الصافى ولكنه لا يبدو عليه إرهاق من

ذلك . هل لك فى سيجارة ؟ يجب أن يدخن المرء فى جو كهذا حتى لا يختنق بدخان الآخرين .

وانحنى نحوها وهو يشعل لها سيجارتها . وقضمت بعض البلورات الراسبة فى الزجاجة ، وقالت : ولكن ذلك ليس إلا سكراً متبلورا — قالتها فى لهجة من خاب ظنه — كنت آمل أن يكون له مفعول قوى . وكانت وهى تتحدث مع (باسافان) تبتسم لبرنارد الذى بقى جالسا بجانبها . وكانت نظرتها المستمتعة تلمع ببريق عجيب . ودهش (برنارد) لما بينها وبين (لورا) من شبه كبير إذ لم يكن قد تبين ملامحها فى الظلام . وكان لها نفس الجبين ونفس الشفاه ... حقاً لم تكن على ملامحها سمات الجمال العذرى التى تلوح على شقيقتها ، وكانت نظراتها تثير فى قلبه اضطرابا لا يدرى كنهه ، وإذ شعر بالضيق التفت نحو (أوليفييه) وقال له :

— قدمنى لصديقك (بركايل) .

وكان قد قابل (بركايل) من قبل فى حديقة (اللوكسمبورج) ، ولكنه لم يتحدث معه . وكان (بركايل) يشعر بأنه غريب فى هذا الوسط الذى أدخله فيه (أوليفييه) ويمنعه خجله من أن يستعذب هذا الجو ، كما يحمر وجهه كل مرة يقدمه فيها صديقه على أنه أحد المحررين المهمين بمجلة (الطليعة) . وحقيقة الأمر أن قصيدته الرمزية التى كان يكلم (أوليفييه) عنها فى بداية قصتنا هذه كان مقدراً لها أن تظهر فى مقدمة هذه المجلة بعد الافتتاحية مباشرة .

وقال (أوليفييه) لبرنارد : ستظهر هذه القصيدة فى المكان الذى كنت قد خصصته لك ، وأنا واثق من أنها ستنال إعجابك ! إنها ولا شك أحسن ما فى هذا العدد كما أنها فريدة فى نوعها .

وكان يحلو لأوليفييه أن يمتدح أصدقائه أكثر مما يطيب له سماع الآخرين يطرونه ، وكان (لوسيان بركايل) قد نهض عندما اقترب منه (برنارد) ، وكان يمسك بفنجان من القهوة بيده بشكل مرتبك لدرجة أنه سكب نصفه على صديريته بسبب انفعاله . وفى هذة اللحظة سمع صوت (جارى) بالقرب منه وهو يقول :

— سيتسمم (بركايل) الصغير لأنى وضعت سما فى فنجانه .

وكان يحلو لجارى أن يسخر من خجل (بركايل) ، كما كان يسره أن يخرجه عن طوره . ولكن (بركايل) لم يكن يخشى (جارى) فرفع كتفيه وأكمل احتساء فنجانه فى هدوء .

قال برنارد :

— من هذا الشخص ؟

— كيف ! ألا تعرف مؤلف مسرحية (الملك أوبو) ؟

— غير ممكن ! أهذا هو (جارى) ؟ تصورت أنه خادم .

وقال (أوليفييه) ، وقد ساءه ذلك قليلا ، إذ كان فخوراً برجاله العظام :

— أوه ! دقق النظر فيه ألا ترى أنه شخصية فذة ؟

وقال برنارد : (إنه يبذل أقصى جهده ليبدو كذلك) . وبرنارد لا يعجبه إلا المظهر الطبيعى ، وإن قدر مسرحية (أوبو) كل التقدير .

وكان (جارى) يرتدى زياً شاذاً كالذى يلبسه رجال السيرك ، وكان كل ما فيه ينطق بالتكلف ، ولاسيما لهجته التى كان يقلده فيها ويحسده عليها محررو (الأرجونوت) وكانت مقاطع كلماته متقطعة ، وقد دأب على اختراع كلمات غريبة وتشويه كلمات أخرى بطريقة شاذة ، ولم يكن يستطيع كل ذلك إلا (جارى) . كان الوحيد الذى يستطيع أن يكون له هذا الصوت المجرد من النبرات ، المجرد من الحرارة ، الخالى من النغم والذى لا طابع له .

وأردف « أوليفييه » : عندما يعرفه المرء حق المعرفة ، أؤكد لك أنه يجده شخصا جذابا .

— ولكنى أفضل ألا أعرفه . إنه يبدو متوحشاً .

— إنه يريد أن يبدو كذلك ، و « باسافان » يعتقد أنه فى حقيقته رقيق جدا ، ولكنه أفرط فى الشراب هذا المساء ، ولم يشرب نقطة ماء واحدة ، وأؤكد لك هذا ،

كأنه لم يشرب نبيذاً . لم يحتس غير الأبسنت ومشروبات قوية أخرى، ويخشى « باسافان » أن يتصرف تصرفات شاذه .

وكانت شفتاه تنطلقان بالرغم عنه باسم « باسافان » ، وكلما أراد أن يتجنب النطق بهذا الاسم عاد الاسم على فمه .

وإذ يئس من التحكم فى نفسه ، وإذ بدا له أن ذاته تضيق عليه الخناق ، غير مجرى الحديث وقال :

— عليك أن تذهب لتتحدث مع « دورمير » قليلا . أخشى أن يكون بالغ الحنق علىّ لأننى انتزعت منه رئاسة تحرير « الطليعة » ، ولكن ليس الخطأ خطئى ، فلم أستطع إلا القبول . عليك أن تحاول إفهامه حقيقة الأمر وأن تهدئ من ثورته . إن « باس... » قيل لى أن « دورمير » ثار ضدى ثورة عنيفة . و كان لسان « أوليفييه » قد تعثر ولكنه لم ينزلق هذه المرة .

وقال « بركايل » : آمل أن يكون « دورمير » قد استرد مقاله . أنا لا أحب ما يكتبه . ثم أضاف وهو يلتفت نحو « بروفيتا نديو » : ولكنك ياسيدى ... كنت أعتقد أن ...

— أوه ! لا تقل لى « يا سيدى » ... إنى أعرف حق المعرفة أننى أحمل اسما مضحكا يصعب النطق به ... وفى نيتى إذا كتبت أن أتخذ إسما مستعاراً .

— ولماذا لم تقدم لنا شيئا ؟

— لإننى لم أعد شيئا .

— وترك « أوليفييه » صديقيه يتحدثان واقترب من « ادوارد » وقال :

— كم أنت رقيق إذ حضرت ! كنت فى لهفة إلى رؤيتك ، ولكنى كنت أتمنى أن أراك فى أى مكان آخر غير هذا المكان ... بعد ظهر اليوم ذهبت إلى منزلك وقرعت الجرس . هل أخبروك بذلك ؟ وأسفت لأننى لم أقابلك ولو عرفت أين أجدك ؟

وكان « أوليفييه » سعيداً للغاية لأنه عبر عما فى نفسه بهذا اليسر ، وتذكر وقتا كان ارتباكه فيه فى حضرة « ادوارد » يخرسه ، وكان يدين بهذا اليسر مع الأسف

إلى تفاهة ما يقول وإلى الإفراط فى الشراب . وتبين « ادوارد » هذه الحقيقة وهو حزين النفس .

وأجاب « ادوارد » : كنت فى زيارة والدتك .

قال (أوليفييه) : (هذا ما علمته عند عودتى) ، ولـكنه ذهل لأن (ادوارد) يكلمه بصيغة الجمع . وتردد فى أن يعترف له بذلك .

وسأله (ادوارد) وهو يحدق فيه : هل تنوى أن تعيش فى هذا الوسط ؟

وأجاب (أوليفييه) : ولـكننى لا أنساق إلى التأثر بما فيه .

— أمتأكد أنت تماماً من ذلك ؟

نطق (ادوارد) بهذا بلهجة جادة فيها حنو أخوى .. لدرجة أن (أوليفييه) شعر بأن الثقة فى نفسه بدأت تتزعزع وقال :

— أترى أنى مخطىء بمعاشرتى هؤلاء القوم ؟

— ربما لا أقصد الجميع ، ولـكن أقصد البعض بالتأكيد .

وفهم (أوليفييه) أنه يقصد (بالبعض) شخصا واحدا : تصور أن (ادوارد) يقصد (باسافان) بالذات ، وكان هذا الكلام بمثابة بريق خاطف مؤلم فى سماء نفسه ، وكأنه اخترق الغيوم التى كانت تتجمع بقسوة فى قلبه منذ الصباح . كان يحب (برنارد) وكان يحب (ادوارد) . كان يحبهما حباً جماً ، ولم يكن يطيق عدم تقديرهما له . كان يشعر فى حضرة (ادوارد) بأن أفضل ما فى نفسه يتيقظ . أما فى حضرة (باسافان) ، فينبعث أحط ما فى نفسه . واعترف لنفسه بهذا الآن ، ولـكن ؛ ألم يكن يعرف هذه الحقيقة منذ البداية ؟ ألم يكن تعاميه فى حضرة (باسافان) بمحض إرادته ؟ وراح اعترافه بالجميل نحو كل ما عمله الـكونت من أجله يتحول إلى شعور بالحقد . لقد أصبح يتبرأ من كل هذا بشكل غريب . وما رآه هذا المساء دفعه إلى أن يشعر نحوه بالـكراهية .

كان (باسافان) وهو يميل على (سارة) قد لف زراعه حول وسطها ، وكان يزداد عليها إلحاحاً . ولعلمه بما يشاع عن صلته (بأوليفييه) وبما فيها من تجريح ،

حاول أن يخدع ، ولـكى يخدع بطريقة علنية عاهد نفسه على أن يحمل (سارة) على الجلوس على ركبتيه . ولم تمتنع (سارة) حتى هذه اللحظة إلا قليلا ولـكن نظراتها كانت تتحرى نظرات (برنارد) ، فإذا ما تلاقت نظراتهما تبسمت وكأنها تقول له :

— أنظر ماذا يستطيع الناس أن يتجرأوا عليه معى .

ومع ذلك كان (باسافان) يخشى نتيجة التسرع ، فالمران ينقصه فى هذا المجال ، وحدث نفسه قائلا : إذا ما وفقت فى أن أجعلها تشرب أكثر من ذلك قليلا ، فإننى سوف أجازف . وكان فى هذه اللحظة يمد يده الأخرى نحو زجاجة من شراب الـ (كوراسو) ولـكن (أوليفييه) ــ وكان يتابعه ــ سبق حركته وأخذ الزجاجة ، لا لسبب إلا لـكى يمنع عنها (باسافان) . ولـكن تراءى له فى نفس هذا اللحظة أنه ربما استطاع إذا ما شرب أن يسترد قليلا من شجاعته ، وكان يشعر بأن شجاعته تخونه ، وهو فى أشد الحاجة إليها لـكى يستطيع أن ينطق أمام (ادوارد) بهذه الشكوى .

— وكان الأمر يتوقف عليك لـكى ...

واترع (أوليفييه) كأسه وأفرغه فى جرعة واحدة . وفى هذه اللحظة سمع (جارى) وهو يتجول بين مختلف جماعات المدعويين ، سمعه يقول فى صوت خافت وهو يمر خلف (بركايل) : والآن سوف نفزع (بركايل) الصغير . وتلفت هذا الأخير فجأة وقال :

— كرر هذا بصوت مرتفع .

وكان (جارى) قد ابتعد فى هذه الأثناء وانتظر حتى دار حول المائدة وكرر ما قاله فى صوت ساخر :

— والآن سوف نفزع (بركايل) الصغير . ثم أخرج من جيبه مسدسا كبيرا ، كثيراً ماراه محررو (الأرجونوت) وهو يلهو به ، وتأهب لإطلاقه .

وكان (جارى) معروفا لدى الجميع بمهارته فى إصابة الهدف . وارتفعت فى هذه اللحظة أصوات تحتج على هذا التصرف ... ولم يدر أحد أيمكن لجارى وهو فى هذه الحاله من السكر أن يتحكم فى أعصابه ، وأن لايتجاوز حد الدعابة . ولـكن (بركايل)

الصغير أراد أن يثبت للجميع أنه غير خائف ، فوقف على مقعد وعقد ذارعيه خلف ظهره وكانت وقفته كوقفة (نابوليون) . كان مضحكا إلى حد ما ، وسمعت بعض ضحكات غطى عليها فى الحال تصفيق عال .

وقال (باسافان) لسارة بسرعة فائقة :

— قد يمر هذا الأمر بسلام . إنه ثمل تماماً . اختبئى تحت المنضدة .

وحاول (دى بروس) أن يمنع (جارى) عما نواه ، ولكن هذا الأخير تخلص منه ووقف على مقعد هو الآخر ، وهنا لاحظ (برنارد) أنه ينتعل نعلا خفيفا من النعال المخصصة للرقص ومد ذراعيه ليحكم التصويب ، كان فى مواجهة (بركايل) تماماً .

وصرخ (دى بروس) قائلا :

— اطفئوا الأنوار ! اطفئوا الأنوار ..

وأدار (ادوارد) وكان بجانب الباب زر النور .

وكانت (سارة) قد نهضت تبعاً لما طلبه منها (باسافان) وبمجرد أن أطفئت الأنوار ألصقت نفسها (ببرنارد) لتحمله على أن يختبىء معها تحت المنضدة .

وانطلقت القذيفة ، ولكن المسدس لم يكن محشواً بالرصاص . ومع ذلك سمع الحضور صرخة تدل على الألم : كان ذلك صوت (جوستينيان) وقد أصابته الطلقة الفارغة فى عينه .

وعندما أضيئت الأنوار أعجب الحضور (ببركايل) وكان لا يزال واقفاً ، يحتفظ بالمظهر الذى ظهر به فى بادىء الأمر ، لا يبدى حراكا ، ولم يتغير فيه شىء سوى بعض شحوب طفيف اعتراه .

ومع ذلك كانت سيدة على رأس المائدة ، قد اعترتها نوبة عصبية ، فأسرع نحوها الجميع ، وسمع صوت يقول من السخف أن نسبب للناس كل هذا الإزعاج ، ولما لم يكن على المائدة ماء ، بلل (جارى) بعد أن نزل من فوق المقعد منديلا فى الخمر ليدلك وجنتيها على سبيل الاعتذار .

ولم يبق (برنارد) تحت المائدة إلا لحظة أتاحت أن يشعر بشفتى (سارة) المشتعلتين تلثمان فى نشوة شفتيه .

وكان (أوليفييه) قد تبعهما ، ولعل ذلك من باب الصداقة ، أو لما شعر به من غيرة ... وكانت الخمر قد أهاجت فيه هذا الإحساس الفظيع الذى كان يعرفه تماما والذى يشعر به ، وهو كونه على هامش الأحداث . وعندما خرج بدوره من تحت المائدة كانت رأسه تدور قليلا ، وسمع دورمير وهو يصيح :

— أنظروا إلى (أوليفييه) ، إنه جبان كامرأة .

وكان الأمر قد فاق الحد . واندفع (أوليفييه) رافعاً يده فى اتجاه (دورمير) دون أن يدرك ما هو فاعل ، كأنه يتخبط فى حلم . ولكن (دورمير) تجنب اللطمة فلم تصطدم يد (أوليفييه)ا وكأنها فى حلم – إلا بالهواء – .

وسادت الفوضى الجميع ، وراح البعض يسرع نحو المرأة الجالسة فى الصدارة والتى استمرت فى القيام بالحركات والعواء ، وأحاط البعض الآخر بدورمير الذى كان يصيح قائلا : (لم يصبنى شىء . لم يصبنى شىء ...)

والتفت آخرون حول (أوليفيه) وكان وجهه مشتعلا ، ويوشك أن يندفع ثانية والبعض يحاول جاهداً أن يحول بينه وبين ذلك .

وسواء أصابت اللطمة (دورمير) أم لم تصبه ، فقد كانت الفعلة بمثابة لطمة له ، وذلك ما حاول (جوستينيان) أن يوضحه له وهو يمسح عينيه . وكانت المسألة مسألة كرامة ، ولكن(دورمير) لم يكن يأبه بدروس الكرامة التى يلقنها إياه (جوستينيان) وسمع وهو يردد فى إصرار .

— لم يصبنى شىء ... لم يصبنى شىء .

قال « دى بروس » : اتركوه وشأنه . لا يمكن أن يجبر الناس على النزال . ومع ذلك كان « أوليفيه » يعلن بصوت عال أنه إذا لم يكن دورمير راضياً عما حدث ، فإنه مستعد أن يلطمه من جديد . وإذ أصر على أن ينازله فقد طلب من

(برنارد) ومن (بركايل) أن يكونا شاهديه ، ولم يكن أحد منهما يعرف شيئاً عما يسمونه (الأعمال الخاصة برد الشرف) ، ولكن (أوليفييه) لم يجرؤ على أن يطلب من (إدوارد) أن يكون أحد شاهديه ، وكانت عقدة رباط عنقه قد انحلت كما انسدل شعره فوق جبينه الذى فاض منه العرق ، وكانت يداه ترتجفان فى حركات عصبية . وأمسك به (ادوارد) من ذراعه وقال :

— تعال لتغسل وجهك بالماء إنك تبدو كالمعتوه . وصحبه إلى دورة المياه .

وما أن خرج من القاعة حتى أدرك إلى أى حد كان ثملا ، وعندما شعر بيد (ادوارد) على ذراعه ، تصور أنه سينهار ، وترك (ادوارد) يقوده دون أن يقاوم ولم يدرك من كل ما قاله (ادوارد) إلا لهجة عدم الكلفة التى كان يتحدث بها ، وشعر كأن قلبه يذوب فجأة فى سيل من الدموع كما تتحول الغيوم الكثيفة إلى أمطار ووفق (ادوارد) فى أن يقضى على سكره بأن مسح جبهته بمنشفة مبللة . ماذا حدث ؟ أحس إحساسا مبهما أنه تصرف تصرف الأطفال ، تصرف كشخص خشن ... وشعر بأنه مهزأ ، وأنه كريه ... وعندئذ ارتمى بين أحضان (ادوارد) :

— اصحبنى إلى الخارج .

وكان (ادوارد) بدوره منفعلا للغاية .

وسأله : إلى بيت والديك .

— إنهم يجهلون عودتى .

وبينما هما يجتازان المقهى ، قال (أوليفييه) إنه يريد أن يكتب رسالة قصيرة ، ثم أردف :

— إن وضعتها بصندوق البريد هذا المساء فسوف تصل غدا صباحا فى الساعات الأولى .

وكتب وهو جالس على مائدة بمقهى :

أى عزيزى (جورج) .

نعم ، أكتب لأطلب منك خدمة بسيطة ، ولن أخبرك بجديد إذا أنبأتك أنى عدت إلى باريس لأنى أعتقد أنك لحتنى هذا الصباح بالقرب من جامعة (السوربون) وكنت قد نزلت ضيفا على الكونت دى باسافان (وأعطاه عنوانه) وما زالت حاجياتى عنده . ولأسباب يطول ذكرها ، ولا يهمك منها شىء ، أخبرك أنى أوثر أن لا أعود إلى منزله ولا أجد أحدا غيرك يمكن أن أطلب منه أن يحضر لى هذه الأشياء ، ولعلك تقبل أن تؤدى لى هذه الخدمة . هناك حقيبة مغلقة . وبعض الأشياء الموجودة بالغرفة ، فأرجو أن تضعها بنفسك فى حقيبتى . وأن تحضر لى كل هذه الحاجيات عند الخال « ادوارد » . سوف أدفع أجرة السيارة ، ومن حسن الحظ أن غدا يوم الأحد ، وتستطيع أن تقوم بهذا العمل بمجرد أن تصل إليك رسالتى .

أنا أعتمد عليك . ألا يمكننى ذلك ؟

أخوك الأكبر

« أوليفيه »

ملحوظة : أعرف أنك تحسن التصرف ، ولا شك أنك ستقوم بذلك خير قيام . ولكن إن كان عليك أن تتعامل مع « باسافان » مباشرة ، فإنى أطلب منك أن تتصرف معه ببرود شديد ... إلى غد صباحا .

ومن لم يسمع عبارات « دورمير » وما فيها من سب لا يدرك تماما معنى تهجم « أوليفيه » المفاجىء عليه ، وقد بدا عليه كأنه فقد صوابه ، ولو قد تمكن من الاحتفاظ برباطة جأشه لوافقه « برنارد » على ما قام به . ولم يكن « برنارد » يحب « دورمير » ولكنه اعترف بأن أوليفيه تصرف كالمعتوه ، وأنه بهذا التصرف بدا بمظهر المخطىء . وآلم « برنارد » أن يسمع الناس يحكمون على تصرفه بقسوة فاقترب من « بركابل » واتفق معه على ميعاد للقاء . وبالرغم مما بدا فى هذه الحادثة من سخف فقد كان يهم كلا منهما أن يتصرفا تصرفا سليما . واتفقا على أن يطاردا « دورمير » فى صباح اليوم التالى ابتداء من الساعة التاسعة .

ولم تعد لبرنارد رغبة فى البقاء بعد أن رحل صديقاه ، وبحث بنظره عن « سارة » وامتلأ قلبه غضباً عند ما رآها جالسة على ركبتى (باسافان) ، وكان يبدو على الاثنين أنهما ثملان . ومع ذلك نهضت (سارة) عند مارأت (برنارد) يقترب منها .

وقالت وهى تمسك بذراعه . هيا بنا .

وأرادت أن تعود إلى المنزل سيراً على الأقدام ، ولم تكن المسافة بعيدة وقد قطعاها دون أن ينطقا بكلمة واحدة . وفى القسم الداخلى كانت جميع الأنوارمطفأة وراحا يتحسسان طريقهما نحوسلم الخدم خشية أن يلفتا الأنظار ، ثم أشعلا أعوادثقاب وكان (أرمان) ساهراً فلما سمعهما يصعدان السلم ، خرج إلى عتبة الباب، وبيده مصباح وقال لبرنارد :

خذ المصباح ـ وكانا منذ اليوم السابق يتحادثان دون كلفة ـ أضىء الطريق أمام (سارة) إذ لا توجد بغرفتها شموع ... وأعطنى أعواد الثقاب التى معك لأشعل مصباحى .

واصطحب (برنارد) سارة إلى الغرفة ، وما إن دخلاها حتى قال (أرمان) بلهجة ساخرة وكان منحنياً من خلفها وهو يطفىء المصباح بنفخة قوية :

ـ طابت ليلتكما ، ولكن لا تصدرا أى ضوضاء ، فإن الوالدين ينامان بالقرب منكما .

ثم تراجع ، وأغلق الباب عليهما بالمزلاج .

الفصل التاسع

تمدد (أرمان) على فراشه بكامل ملابسه وهو يعرف أنه لن يستطيع النوم وانتظر أن ينتهى الليل . إنه يتأمل ويصغى . خيم السكون على الدار وعلى المدينة وعلى الكون بأسره ، فما عادت هناك حركة تسمع .

وأتى عاكس الضوء يبعض نور السماء الخافت وأتاح له أن يتبين من جديد بشاعة غرفته ثم نهض وسار نحو الباب وكان قد أغلقه بالمزلاج فى المساء وواربه ... لم تكن ستائر غرفة (سارة) مسدلة . وأفاض الفجر الوليد على زجاج النافذة ، ضوءاً أبيض وتقدم (أرمان) فى اتجاه الفراش حيث ترقد شقيقته ويرقد (برنارد) وكان هناك غطاء واحد يبين عن أطرافهما المتشابكة . ما أجملهما ! ورنا إليهما (أرمان) طويلا فى إعجاب . وتمنى لو كان هو النوم الذى شملهما ، والقبلة التى ضمتهما ، وابتسم بادىء الأمر ، ثم جثا فجأة على ركبتيه عند قدمى الفراش بين الأغطية التى لفظها جسداهما . ترى إلى من يتوجه بصلاته هذه ؟ ... واستولى على نفسه انفعال لا يوصف . وارتجفت شفتاه ... لقد تبين تحت الوسادة منديلا ملوثاً بالدم ، ونهض وأمسك به وحمله ، ووضع شمته على المنضدة الصغيرة العنبرية اللون وانخرط فى البكاء .

وخرج ، ولكنه التفت إذ بلغ عتبة الباب ... وود لو أيقظ (برنارد) . وكان على هذا الأخير أن يعود إلى غرفته قبل أن يستيقظ أى شخص فى القسم الداخلى . وفتح برنارد عينيه ــ لقد سمع الصوت الخافت الذى أحدثه أرمان ، وهرب هذا الأخير تاركا الباب مفتوحاً . وهبط السلم . سيختبىء فى أى مكان فإن وجوده سيضايق (برنارد) وهو لا يريد أن يقابله .

سيراه بعد لحظات ، سيراه من نافذة حجرة الاستذكار سائراً بحذاء الحائط يتسلل كاللص ... لم ينم برنارد إلا قليلا ولكنه تذوق هذه الليلة لوناً من النسيان

يريح الجسد أكثر من النوم . ذاق نشوة وفناء لكيانه فى وقت معاً . وها هو ذا ينساب فى يوم جديد ، وقد غدا قريباً على ذاته مشتتاً خفيفاً ، جديداً هادئاً ومرتجفاً كأنه من آلهة الأقدمين . لقد ترك (سارة) فى نومها وانسل من ذراعيها خلسة دون أن تشعر به ، ولكن كيف تركها دون قبلة جديدة ، دون نظرة أخيرة دون ضمة عاشقة تدل على حبه لها ؟ أتركها هكذا لتجرده من الإحساس ؟ لست أدرى ، وهو نفسه لايدرى ، ويجتهد ألا يفكر فى الأمر ، إذ كان يضايقه أن يسلك هذه الليلة التى لاسابقة لها بين سابقات قصته . لا ، هذه ليلة زائدة : إنها ملحق ، ولا يمكن أن تجد لها مكاناً فى صلب كتابه — كتابه أو قصة حياته التى ستجرى ... ستستأنف كأن شيئاً لم يكن !

صعد إلى الغرفة التى يقتسمها مع (بوريس) الصغير ، وكان هذا الأخير يغط فى نوم عميق . ياله من طفل ! أزاح (برنارد) غطاء سريره . وبعثر الأغطية ذراً للرماد فى العيون ، واغتسل ، وصب على نفسه ماء كثيراً ، ولكن رؤية (بوريس) أعادته إلى مدينة (ساس فيه)، وتذكر ما كانت (لورا) تقوله عندئذ : لا أستطيع أن أتقبل منك إلا هذا التفانى فى الإخلاص الذى منحتنى إياه . أما الباقى فسوف يكون له مطالب عليك أن ترضيها فى كل مكان آخر . لقد أثارته هذه الجملة وخيل إليه أنه لايزال يسمعها . كان قد نسى ذلك، ولكن ذاكرته فى هذا الصباح بالذات قد صارت جلية حية بشكل لم يألفه ، وراح ذهنه يعمل بالرغم منه فى مرح عجيب . وحاول (برنارد)أن ينحى عنه صورة (لورا) وأن يخمد تلك الذكريات ، ولكى يمنع نفسه من التفكير ، أمسك بكتاب مدرسى وحاول جاهداً أن يعد نفسه للامتحان . ولكن الجو فى هذه الغرفة خانق فنزل ليستذكر دروسه فى الحديقة وتمنى لو خرج إلى الشارع وسار وجرى فى الهواء . وراح يراقب الباب الكبير وما أن فتحه البواب حتى مرق إلى الخارج .

وبلغ حديقة اللوكسمبرج ومعه كتابه فجلس على مقعد ، وكانت أفكاره تنساب انسياب الخيط الحريرى بين يديه . ولو قد أثقل عليها لانقطع الخيط وكلما

أراد أن يستذكر دروسه تطفلت عليه الذكريات وتدخلت بينه وبين كتابه . ولم تكن ذكريات اللحظات الحادة ، لحظات البهجة ، ولكنها تفاصيل غريبة تافهة تتعلق بها كرامته فتنخدش وتتعذب ، لن يبدو بعد الآن محدثا .

وحوالى الساعة التاسعة نهض وتوجه لمقابلة (لوسيان بركايل) وقصد الاثنان إلى منزل (ادوارد) .

كان (ادوارد) يسكن منزلا فى حى (پاسى) بالطابق الأخير . وكانت حجرة نومه تؤدى إلى غرفة فسيحة اتخذها مكتبا له . لقد نهض (أوليفيه) فى الفجر ولم يقلق عليه (ادوارد) .

قال (أوليفيه) سأستريح قليلا على الأريكة . وخشى (ادوارد) أن يصاب (أوليفيه) بالبرد فطلب منه أن يحمل معه بعض الأغطية . وبعد أن استيقظ (أوليفيه) بقليل ، نهض (ادوارد) ، ولاشك أنه استغرق فى النوم ثانية دون أن يشعر ، لأنه اندهش عندما صحا هذه المرة فرأى النهار يغمر الحجرة بضوئه ، وأراد أن يعرف كيف نام (أوليفيه) وأن يطمئن عليه ، وربما دفعه شعور خفى إلى القلق ...

كانت غرفة مكتبه خاوية والأغطية باقية عند أسفل الأريكة لم تبسط ثم تنبه إلى رائحة غاز كريهة . وكانت غرفة مكتبه تفتح على حجرة صغيرة تستعمل للحمام لاشك أن الرائحة تنبعث من هذا المكان فجرى إلى الحمام ولكنه لم يستطع أن يدفع الباب فى بادىء الأمر إذ كان هناك شىء يعوقه : إنه جسد (أوليفيه) الذى تمدد خائراً عند أسفل حوض الاستحمام مجردا من ملابسه ، بارداً كالثلج شاحباً وملوثا ببشاعة بآثار قيئه ! !

وأغلق (ادوارد) فى الحال صنبور الغاز ماذا وقع ؟ أهى حادثة ؟ أهى جلطة دموية ؟ لم يستطع أن يصدق هذا . كان حوض الاستحمام خاوياً وحمل المحتضر بين ذراعيه إلى حجرة مكتبه ووضعه على البساط أمام النافذة المفتوحة على مصراعيها ،

وفحص (أوليفييه) وهو جاث على ركبتيه ينحنى عليه فى حنان . كان (أوليفييه) لازال يتنفس تنفسا ضعيفاً . وبذل (ادوارد) كل مافى وسعه محاولا أن يبعث الحياة التى أوشكت أن تخبو . وأخذ يرفع فى حركات منتظمة الذراعين الخائرين ، ويضغط على جبين الفتى، ويدلك القصبة الهوائية. حاول أن يفعل كل ما تعيه ذاكرته عما يجب عمله فى حالات الاختناق ، وكان آسفا لأنه لايستطيع أن يفعل كل هذه الحركات فى وقت معا . كانت عينا (أوليفييه) مازالتا مغلقتين . ورفع (ادوارد) بأصابعه الجفنين فانسدلا من جديد على نظرة زايلتها الحياة ومع ذلك كان القلب يخفق واحضر بعضاً من كونياك وأملاحاً دون مانتيجة ، وكان قد سخن بعض الماء وغسل أعلى الجسد والوجه ، ثم أرقد من جديد هذا الجسد على الأريكة وغطاه بالأغطية . كان بوده أن يستدعى طبيباً ، ولكنه لم يجرؤ على ترك الفتى وحيـداً . هناك خادمة تحضر إليه كل صباح لتقوم بأعمال المنزل ولكنها لاتحضر إلا فى الساعة التاسعة وما إن سمع وقع أقدامها حتى بعث بها لتبحث عن طبيب من أطباء الحى ، ولكنه استدعاها فى الحال خشية أن يتعرض للتحقيق .

وأثناء ذلك أخذت الحياة تعود بطيئة إلى (أوليفييه)، وجلس (ادوارد) بجانبه على مقربة من الأريكة ينظر إلى هذا الوجه المغلق ، ويحاول أن يفك الرموز المرتسمة عليه . لماذا ؟ لماذا ؟ من الجائز أن يتصرف المرء دون إدراك فى المساء إذا كان ثملا . ولكن القرارات التى تتخذ فى الصباح الباكر لاتتم إلا بعد التروى . وأمسك عن التفكير فى أى شىء انتظاراً للحظة التى يستطيع (أوليفييه) أن يكلمه فيها . ولن يتركه حتى تحين تلك اللحظة ، وكان قد أمسك بإحدى يديه وركز تساؤله وأفكاره وحياته كلها فى هذه الصلة . وأخيرا بدا له أن يد (أوليفييه) تستجيب فى ضعف لضغط يده ... وعندئذ انحنى ووضع شفتيه على هذا الجبين الذى كان الألم الهائل الغامض يرسم التجاعيد عليه . ودق الجرس ، ونهض (ادوارد) ليفتح الباب ـ إنهما (برنارد) و (لوسيان بركايل) ، فاحتجزهما (ادوارد)فى مدخل الشقة وأخبرهما بما حدث ثم أخذ (برنارد) على حدة وسأله : هل (أوليفييه) معرض للإغماء أو للنوبات ؟ وتذكر (برنارد) فجأة حديثهما فى اليوم السابق

ولاسيما كلمات نطق بها (أوليفيه) ولم يكن يصغي إليها ، ولكنه فهم الآن مرماها بشكل أوضح . قال (برنارد) لادوارد : كنت أ كلمه أنا نفسى عن الانتحار وسألته : أيمكن أن ينتحر المرء لمجرد شعوره بطاقة من الحياة زائدة عن الحاجة ، لشعوره بنشوة غامرة ، كما كان يقول (ديمترى كارامازوف) : كنت غارقا فى أفكارى ولم ألق بالا عندئذ إلا إلى ما كنت أقول ، ولكنى أذكر) ما أجابنى به .

— وبماذا أجابك ؟

وألح « ادوارد » فى السؤال إذ كف « برنارد » عن الحديث، وكان يبدو عليه أنه لا يريد أن يزيد شيئاً على ما قال .

— قال إنه يفهم أن ينتحر المرء ولكن بعد أن يبلغ قمة من المتعة لا يمكنه بعدها إلا أن ينزل من جديد .

ونظر كل منهما إلى الآخر دون أن يضيف شيئاً ، رأضاء النور ذهنهما . وأخيراً أدار « ادوارد » عينيه ، وأنب « برنارد » نفسه على أن تكلم ، واقتربا من « بركايل » وقال هذا الأخير :

— المزعج فى الأمر هو أن الناس قد يقولون إنه أراد الانتحار ليتهرب من النزل .

وكان « ادوارد » قد كف عن التفكير فى هذا النزال ، وقال :

— تصرفا وكأن شيئاً لم يحدث .. اتصلا بدورمير واطلبا منه أن يعرفكما بشاهديه ، وسوف تتفاهمان مع هذين الشاهدين إذا فرض ولم يحل هذا الموضوع السخيف من تلقاء نفسه . فلم يبد على « دورمير » أنه راغب فى الاسترسال فى هذا الموضوع ، وقال (لوسيان) :

— لن نحكى له شيئاً على الإطلاق ، لكى نترك له عار التراجع ، وأنا واثق أنه سيهرب .

وسأل (برنارد) أيستطيع مقابلة (أوليفييه) ، ولكن (ادوارد) كان يريد أن يتركوه يستريح فى هدوء .

وتأهب (برنارد) و (لوسيان) للخروج ، وإذا بجورج الصغير يصل آتيا من عند (باسافان) ولكنه لم يتمكن من الحصول على أشياء أخيه .

وكان الخادم قد أجابه عندما توجه إلى منزل (باسافان) بقوله : خرج الكونت ولم يلق لى بأية أوامر بهذا الصدد .

ثم أغلق الخادم الباب فى وجهه .

وأقلق (جورج) ما لاحظه من جد فى لهجة (ادوارد) وفى تصرفات الاثنين الآخرين ، واشتم رائحة شىء غريب ، فطلب إيضاحا واضطر (ادوارد) أن يحكى له كل شىء ، ولكنه قال له :

ــ ولكن لا تقل شيئاً من ذلك لوالديك .

وسر (جورج) أيما سرور أن ائتمنوه على سر ، وقال :

ــ أعرف كيف أصون السر ، ولما لم يكن عنده ما يعمله فى هذا الصباح اقترح أن يصطحب (برنارد) و (لوسيان) إلى بيت (دورمير) .

وبعد أن انصرف الزوار الثلاثة نادى ادوارد خادمته وطلب منها أن تعد غرفة مخصصة للأصدقاء تقع بجانب غرفته لكى يرقد فيها (أوليفييه) ، ثم دخل إلى غرفة مكتبه دون أن يبدو منه أى صوت . كان (أوليفييه) مضطجعاً يستريح وجلس (ادوارد) بجانبه وكان قد أمسك بكتاب ، ولكنه ألقاه بعد هنيهة دون أن يفتحه ، وأخذ يرنو إلى صديقه وهو يغط فى نومه .

الفصل العاشر

« ليس فيما تتلقاه النفس أى شىء بسيط
كما أن النفس لا تلقى أى شىء ببساطة »
« باسكال »

قال ادوارد (لبرنارد) فى اليوم التالى : أعتقد أنه سوف يسر برؤياك ، لقد سألنى هذا الصباح هل جئت أمس ، ولا شك أنه سمع صوتك بينما كنت أتصوره فاقد الوعى .. إنه يغمض عينيه ولكنه لا ينام ، وهو لا ينطق بكلمة واحدة ، وكثيراً ما يرفع يده إلى جبهته دلالة على الألم . وما أن أوجه له الحديث حتى تتغضن جبهته ، ولكننى إذا ابتعدت عنه طلب منى العودة وأجلسنى بجانبه ... لا إنه ليس فى غرفة مكتبى . لقد أرقدته فى الغرفة المجاورة لغرفتى ، حتى أستطيع أن أستقبل زواراً دون أن أزعجه .

ودخلا إلى غرفة (أوليفييه) .

وقال : (برنارد) برفق . جئت لأسأل عن أخبارك .

وبدت معالم الحياة على ملامح (أوليفييه) عندما سمع صوت صديقه ، وارتسم على وجهه شبه ابتسام .

ـ كنت أنتظرك .

ـ سوف أرحل إن كنت أرهقك .

ـ ابق .

ولكن (أوليفييه) وضع إصبعاً على شفتيه وهو ينطق بهذه الكلمة كان يطلب أن لا يكلموه ، ولم يكن (برنارد) يتحرك فى هذه الأيام إلا وهو يحمل أحد هذه الكتب الصغيرة التى تتركز فيها ـ وكأنها إكسير ـ كل ما فى مواد الامتحان

من مرارة ، إذ كان عليه أن يتقدم للامتحان الشفهى بعد ثلاثة أيام . وجلس بجانب فراش صديقه واستغرق فى القراءة ، وأدار (أوليفييه) وجهه ناحية الحائط فبدا كالنائم . أما (ادوارد) فقد اعتكف فى غرفته وكان يعود من وقت إلى آخر عند الباب الموصل بين الغرفتين والذى بقى مفتوحا وكان يعطى (لأوليفييه) كل ساعتين كوبا من اللبن ، ولم يفعل ذلك إلا فى هذا الصباح فقط ، فلم تكن معدة المريض طوال اليوم السابق تستطيع أن تحتمل أى شىء .

وانقضى وقت طويل . ونهض (برنارد) لكى يرحل ، واستدار (أوليفييه) ومد له يده ، وقال وهو يحاول الابتسام :

ـ هل ستأتى غدا ؟

وفى آخر لحظة استدعاه من جديد وأشار إليه بأن ينحنى وكأنه خشى أن يعجز عن إسماعه صوته ، وقال بصوت خفيض :

ـ أتعتقد أننى كنت غبيا ؟

ثم رفع من جديد إصبعه إلى شفتيه ، وكأنه يريد أن يمنع (برنارد) من الاحتجاج وقال :

ـ لا ، لا ... فيما بعد سوف أشرح لك الأمر .

وتسلم ادوارد فى اليوم التالى رسالة من (لورا) ولما عاد (برنارد) سلمه إياها وها هى :

يا صديقى العزيز

أكتب لك على وجه السرعة لأحاول تجنب كارثة سخيفة ، وأنا واثقة أنك ستساعدنى إذا ما وصلت إليك رسالتى فى الوقت المناسب . رحل (فيلكس) لتوه إلى باريس وفى نيته أن يقابلك . وهو يأمل أن يحصل منك على الإيضاحات التى امتنعت عن إعطائها له . يريد أن يعرف منك اسم الشخص الذى ينوى أن يبارزه . ولقد فعلت كل ما فى مقدورى لأمنعه من السفر ، ولكنه لم ينثن عن قراره ، وكل

ما أبديه له من أسباب يزيده إصراراً ، ولعلك الوحيد الذى يستطيع إقناعه فهو يثق بك وأرجو أن يعمل بنصحك . تصور أنه لم يمسك أبدا فى يده لا سيفاً ولا مسدساً وإن فكرة تعريض حياته للخطر من أجلى فكرة لا أطيقها، ولكن أخشى ماأخشاه ولا أكاد أستطيع الاعتراف به ، هو أن يجلب على نفسه الهزء والسخرية . ومنذ عودتى و (فيلكس) يبدى اهتمامه بأمرى ويحيطنى بحنانه ويكرمنى كل الإكرام ولكننى عاجزة عن أن أتصنع حباً أكبر من الذى أشعر به نحوه . وأعتقد أن رغبته فى استجلاب تقديرى وإعجابى هى التى ستدفعه إلى هذا التصرف الذى ستنعته بالطيش والذى لا يكف هو عن التفكير فيه منذ عودتى بحيث أصبح فكرة ثابتة لديه . لا شك أنه قد سامحنى ، ولكن حقده على الشخص الآخر حقد مميت .

أتوسل إليك أن تستقبله بعين الود الذى تستقبلنى به . ولن يمكنك أن تعطينى دليلا على صداقتك لى يؤثر فى أكثر من هذا . وأرجو عفوك إذ لم أكتب لك قبل الآن لأعبر لك عن عرفانى لتفانيك فى العناية التى أحطتنى بها وأغدقتها على طوال إقامتنا بسويسرا وذكرى هذه الفترة تقوينى على احتمال الحياة .

صديقتك القلقة دائما والواثقة بك أبدا .

(لورا)

قال (برنارد) لادوارد وهو يعيد إليه الرسالة :

ــ ماذا تنوى عمله ؟

وأجابه (ادوارد) فى شىء من الضيق ، ولم يكن ذلك بسبب سؤاله ، ولكن لأنه سبق أن سأل نفسه عين هذا السؤال :

ــ ماذا تريد أن أفعل ؟ إذا ماجاء فسأستقبله أحسن استقبال ، وسوف أبدى له النصح بقدر ماأستطيع إذا ماسألنى النصح ، وسوف أحاول أن أقنعه بأن ليس ثمت خير من أن يبقى هادئاً . إن أمثال (دوفييه) يخطئون عند ما يحاولون أن يقوموا بالأدوار الأولى . وكل منا يقوم بدور على قدره ، ويتحمل ما يمكن أن يكون فى هذا

الدور من مأس . ماذا نستطيع أن نفعل فى هذا الصدد ؟ إن مأساة (لورا) أنها تزوجت رجلا لايصلح إلا للأدوار الثانوية . ولا يمكن تغيير هذا الوضع .

وقال (برنارد) : ومأساة (دوفييه) أنه تزوج امرأة سوف تبقى دائما متفوقة عليه مهما فعل .

وأردف (ادوارد) مؤمنا على قوله : مهما فعل ومهما فعلت (لورا) . الجدير بالإعجاب هو أن (لورا) أرادت أسفاً على ما ارتكبته وتكفيرا عن خطيئتها — أرادت أن تذل نفسها أمامه، ولكنه كان يرد على هذا بأن يسجد أمامها، وما فعله كل منهما فى هذا الموقف لم يؤد إلا إلى التقليل من شأنه وإلى رفع شأنها .

قال (برنارد) : إننى أرثى له كثيرا ... ولكن لماذا لا تعتبر أنه عندما يسجد أمامها يرتفع شأنه هو أيضا ؟

— لأن نفسه تفتقر إلى (الحمية) . قالها (ادوارد) بلهجة لا تحتمل الجدال .

— ماذا تعنى بقولك هذا ؟

— أعنى أنه لا ينسى نفسه أبدا فيما يشعر به ، ولذا فهو لا يشعر أبدا بأى شىء عظيم . أرجو أن لا تدفعنى إلى الإطالة فى هذا الموضوع . إن لى آرائى الخاصة فيه ، ولكنها آراء تنفر من قياس الناس بمقياس معين . لقد اعتاد (بول أمبرواز) أن يقول إنه لا يحسب حسابا لأى شىء لايقوم برقم ، ورأيى أنه يتلاعب بكلمة (يحسب حسابا) لأننا إذا حسبنا هذا الحساب سوف نضطر إلى أن نخرج الله من حسابنا . إنه يهدف إلى هذا ويصبو إليه ... اصغ إلى : إننى أعتبر أن (الحمية) هى حالة الإنسان الذى يرتضى أن ينهزم أمام الله .

— أليس هذا بالذات ما تعنيه كلمة (وجد) ؟

— وربما أيضا كلمة (الإلهام) ... نعم هذا ما أعنيه . (دوفييه) شخص عاجز عن أن ينزل عليه الإلهام وأرى أن (بول أمبرواز) على حق عندما يعتبر (الإلهام) شيئا يسىء أكبر إساءة للفن . ورأيى أنه لا يمكن للشخص أن يكون فنانا إلا إذا استطاع أن يسيطر على هذه الحمية ، ولكن لابد لكى يتحكم فيها من أن يكون قد عاناها أولا .

— ألا تظن أن حالة الإلهام الإلهى هذه يمكن تفسيرها من الناحية الفيسيولجية بـ ...

وقاطعه (ادوارد) بقوله : هذا لا يقدمنا فى شىء ، ولو صحت مثل هـذه الاعتبارات لما عاقت إلا الأغبياء ، ومامن عمل صوفى إلا وله صداه المادى ، ولـكى تبدو الروح لا بد لها من إطار مادى ، ومن هنا كان سر التجسد فى المسيحية .

ـ وعلى العكس يمكن للمادة أن تستغنى عن الروح .

وقال ادوارد (ضاحكا) : أما عن هذا الأمر فإننا لا ندرى شيئاً .

وسر (برنارد) كثيرا إذ سمعه يتحدث على هذا النحووكان من عادة (ادوارد) أن لا يفصح كثيرا عن نفسه . وكان مصدر حماسته اليوم هو وجود (أوليفييه) ، وأدرك ذلك (برنارد) .

قال (برنارد) يحدث نفسه : إنه يحدثنى كما كان يتمنى أن يحدثه هو . يجب أن يجعل من (أوليفييه) سكرتيراً له . بمجرد أن يشفى (أوليفييه) فسوف أنسحب ، مكانى ليس هنا .

وكان (برنارد) يفكر فى هذا الأمر دون مرارة، إذ كانت (سارة) هى شغله الشاغل .

وكان قد رآها مرة أخرى فى الليلة الماضية كما كان يتأهب للقياها هذه الليلة ، وأردف وهو يضحك بدوره :

ـ ها نحن قد ابتعدنا كثيراً عن (دوفييه) ، ستكلمه عن (فنسان) ؟

ـ طبعاً لا ، وما جدوى ذلك ؟

ـ ألا تعتقد أن جهل (دوفييه) بمن يوجه نحوه شكوكه يمكن أن يسمم حياته ؟

ـ ربما كنت على حق . ولـكن هذا يجب أن يقال للورا . لا أستطيع الـكلام دون أن أخون سرها ... ومع كل فإنى أجهل أين هو .

ـ مكان (فنسان) ؟ ... لا شك أن (باسافان) يعرف ذلك .

ودق جرس الباب فقطع حديثهما . جاءت السيدة (مولينيه) لتستفسر عن ابنها ، ولحق بها (ادوارد) فى حجرة مكتبه .

يوميات « أدوارد »

(زارتنى پولين) . كنت محرجا إذ لا أعرف كيف أخبرها بمرض ابنها ، ومع ذلك لم يكن بد من إخبارها . ورأيت أن لا جدوى من أن أروى لها قصة محاولته الانتحار ، وأخبرتها ببساطة أنه أصيب بنوبة عنيفة فى كبده ، وكانت هذه النوبة فعلا هى الشىء الوحيد الذى بقى ظاهرا بعد ما حدث .

وقالت لى (بولين) : إننى مطمئنة لوجود (أوليفييه) تحت رعايتك . ولم يكن فى استطاعتى أن أسهر عليه خيرا مما تسهر عليه ، لأننى أشعر شعوراً عميقاً بأنك تحبه بقدر ما أحبه .

ونظرت إلى وهى تنطق بهذه الكلمات الأخيرة نظرة فيها إلحاح عجيب . هل أدركت معنى ما بدا لى فى نظرتها هذه ، لقد شعرت وأنا فى حضرة (بولين) كأننى آثم ، ولم أستطع أن أجيبها إلا بكلمات متلعثمة غير واضحة المعانى . ويجب أن أعترف بأننى كنت مفعما بالانفعالات خلال هذين اليومين حتى إننى فقدت كل السيطرة على نفسى ، ولا شك أن اضطرابى كان ظاهراً لها ، لأنها أضافت .

ـــ احمرار وجهك يفصح عن الكثير ، ولا تنتظر منى يا صديقى عتابا . كان يمكن أن أعاتبك لو كنت لا تحبه ، هل أستطيع رؤيته .

وقدتها إلى حيث يرقد (أوليفييه) ، وانسحب (برنارد) قبل أن تدخل الغرفة إذ سمعنا قادمين . وتمتمت وهى تنحنى فوق الفراش ، كم هو جميل ! ثم أضافت وهى تلتفت نحوى .

ـــ أرجوك أن تقبله نيابة عنى فأنا أخشى أن أوقظه .

لا شك أن (پولين) امرأة غير عادية . وليس رأيي فيها ابن اليوم فقط . ولكني لم أكن أتوقع أن يبلغ فهمها للأمور هذا الحد . ومع ذلك بدا لي خلال ما لمسته في كلماتها من مودة ، ومما وضعته في صوتها من مرح ـ بدا لي أنها تحاول أن تضغط على أعصابها (ولعل شعوري هذا كان رد فعل لما كنت أبذله من جهد لأخفي ما أنا فيه من ضيق) . وتذكرت جملة قالتها أثناء حديثنا السابق ، جملة بدت لي حكيمة جداً ، ولم أهتم ولم يكن يهمني عند ذاك أن أتبين تلك الحكمة « أفضل أن أمنع عن طيب خاطر ما أعرف أنني لن أستطيع أن أمنعه » . ولاشك أن (پولين) كانت تحاول جهدها أن تبدو طيبة الخاطر ، وأردفت وكأنها تجيب على فكرة راودتني ، عندما عدنا من جديد إلى غرفة مكتبي :

ـــ أخشى أن أكون قد أثرت سخطك لأنه لم يبد على السخط منذ قليل فثمت ألوان من التحرر في الفكر يريد الرجال أن يحتكروها لأنفسهم ومع ذلك لا أستطيع أن أظهر أمامك اشمئزازاً أكثر مما أستشعره حقا . لقد علمتني الحياة الكثير ، وفهمت أن عفة الأولاد شيء هش مهما بدت صلدة وزيادة على ذلك لا أعتقد أن أكثر المراهقين عفة سيكونون فيما بعد أفضل الأزواج، ولا حتى أكثرهم وفاء للأسف (وقد أضافت هذه الجملة الأخيرة وهي تبتسم في حزن) . وأخيراً فإن المثل الذي ضربه والدهم جعلني أتمنى لأبنائي فضائل أخرى ، ولكني أخشى عليهم من الإسراف أو من العلاقات التي تحط بالإنسان ، (وأوليفييه) سهل الانقياد ، وسوف يؤلمك أن تمنعه من الاندفاع وأعتقد أن في إمكانك أن تفيده ولا يتوقف الأمر إلا عليك .

وملأتني كلماتها ارتباكاً ، وقلت :

ـــ إنك تصورينني في صورة أفضل مما أنا عليه فعلا .

وهذا كل ما استطعت أن أقوله . وقد قلته بطريقة مبتذلة متكلفة ، وأردفت في عذوبة ورقة : (أوليفييه) هو الذي سيجعل منك شخصا أفضل مما أنت ، الحب يجعل المرء ينال من ذاته كل شيء .

وسألتها ـ لـكى أخفف من وطأة هذا الحديث ـ :

— هل يعلم « أوسكار » أنه يقيم عندى ؟

— إنه يجهل حتى مجردوجوده فى باريس، سبق أن قلت لك. إنه لا يهتم كثيرا بأولاده ، ولهذا السبب كنت أعتمد عليك لـكى تبدى النصح لجورج . هل كلته ؟

— لا ، لم أكلمه بعد .

وفجأة تجهم وجه « بولين » وقالت :

— إن قلقى ليزداد أكثر وأكثر، لقد اتخذ مظهر الصلف ولا أرى فى هذا إلا الاستهتار والدناءة والغرور ، إنه مجد فى دراسته ، ومدرسوه راضون عنه ، ولا أجد لقلقى سنداً ...

وفجأة زايلها هدوءها ، وقالت فى انفعال لم آلفه منها :

— هل تتبين ماصارت إليه حياتى ؟ لقد ضيقت آفاق سعادتى ، وكان على أن أنقص منها عاما بعد عام ، وحذفت من آمالى أملا إثر أمل ، وتنازلت، ثم تسامحت، وتصنعت أنى لا أفهم ولا أرى ... ولـكن المرء يتعلق بشىء ما ، فإذا ما ضاع منه هذا القليل ! . إنه يأتى فى المساء ، فيستذكر دروسه بالقرب منى تحت المصباح ، فإذا ما رفع رأسه أحيانا عن كتابه لا أصادف فى نظرته حباً ، وإنما أرى فيها تحديا . إننى لا أستحق هذا...ويبدو لى أحيانا أن كل ماأشعر به من حب نحوه يتحول إلى بغضاء، وكم تمنيت أن لا أرزق أولاداً .

وأخذ صوتها يرتجف ، وأمسكت بيدها ، وقلت :

— سوف يكافئك أوليفيه وأعاهدك بهذا .

وبذلت مجهودا لتتماسك ، ثم قالت :

— من الجنون أن أتكلم هكذا وكأننى نسيت أن لى ثلاثة أبناء ، وعندما أفـكر فى أحدهم لم أعد أرى إلا « جورج » سوف تحكم على بأننى لست عاقلة ... ولـكن العقل لا يكفى أحيانا ، وقلت لها لأهدىء من روعها :

— ومع ذلك فأكثر ما يعجبنى فيك هو عقلك ، لقد حدثتنى بكثير من الحـكمه عن « أوسكار » فى المرة السابقة ...

وفجأة اعتدلت « بولين » ونظرت إلىّ ورفعت كتفيها وأردفت بانفعال وغضب :

— عندما تظهر المرأة أقصى الاستسلام ، تبدو فى غاية العقل وهذا ما يحدث دائماً .

أزعجتنى هذه الملاحظة لما فيها من صحة . ولكنى أردفت حتى لا أبدى شيئا مما أشعر به :

— أليس هناك جديد بخصوص الرسائل ؟

— جديد ؟ جديد ؟ ... هل يمكن أن يحدث جديد بينى وبين « أوسكار » ؟

— كان ينتظر منك إيضاحا .

— وأنا بدورى أنتظر إيضاحا ... يظل المرء طوال حياته ينتظر إيضاحات .

فقلت بلهجة فيها شىء من الضيق : شعر أوسكار أنه فى وضع زائف .

— إنك تعرف تماما يا صديقى أن لا شىء فى هذه الحياة يمكن أن يدوم إلى الأبد مثلما تدوم المواقف الزائفة . وعليكم أنتم معشر كتاب القصة أن تحاولوا إيجاد حل لها ، ولكن فى الحياة لا يحل شىء من تلقاء نفسه ، وإنما يستمر كل شىء ونبقى دائما فى شك ، وسوف نبقى حتى النهاية دون أن ندرى علام نعتمد ، وتستمر الحياة فى سيرها وكأن شيئا لم يكن . وحتى هذا يرضى المرء عنه كما نرضى عن كل شىء . وداعا .

كنت متألما مما لمسته فى صوتها من نبرة جديدة تشبه التهجم ، وقد دفعنى هذا إلى التفكير ، ربما ليس فى اللحظة نفسها ، ولكن عندما استرجعت التفكير فى حديثنا ، التفكير فى أن « بولين » لم ترض بالسهولة التى تدعيها عن علاقتى بأوليفييه ، وأن رضاءها عن هذا أقل من رضائها عن الباقى كله ، وكنت أميل إلى الاعتقاد أنها لا تدينها بل على العكس تغتبط بها فى بعض النواحى ـ كما أرادت أن توحى إلىّ بذلك ـ ولكنها مع هذا تشعر بشىء من الغيرة التى قد تعترف بها لنفسها .

وهذا هو التعليل الوحيد الذى أجده لما بدا عليها فجأة من ثورة فى موضوع يهمها أقل جداً مما يهمها موضوع علاقات « أوليفييه » بى . وإن المرء ليخال أنها

ـ وقد منحتنى أولا أعز ما لديها ـ أنضبت رصيدها من التسامح وأصبحت فجأة صفر اليدين ، وذلك سر ما بدر منها من ألفاظ جافة وشاذة تقريبا . ولا شك أنها دهشت هى نفسها عندما أعادت التفكير فى هذه الألفاظ التى أظهرت غيرتها بالرغم منها . على أنى أسائل نفسى : ماذا يمكن أن تكون عليه حالة المرأة التى لا تستسلم ، وأعنى بذلك « المرأة الشريفة » التى لا تستسلم ... كأن ما يسمونه « الشرف » لدى النساء لا يحمل فى طياته الاستسلام .

بدأ أوليفييه قرب المساء يتحسن بشكل ملحوظ ، ولكن الحياة وهى تعود تجلب معها القلق ، وحاولت جهد استطاعتى أن أطمئنه لما سألنى عن موضوع المبارزة ، فأجبته بأن « دورمير » هرب إلى الريف ، ولم يكن طبعا من المستطاع أن يجرى الشهود وراءه . أما عن المجلة فقد أخبرته بأن « بركايل » يهتم بها .

ولكنه لما سألنى عن أشيائه التى تركها عند « باسافان » وجدت نفسى أمام موقف دقيق ، فاضطررت إلى أن أعترف له بأن « جورج » لم يوفق فى استردادها ، ولكنى تعهدت بأن أذهب بنفسى لاسترجاعها فى اليوم التالى . وكان يخشى كما بدا لى أن يحتفظ بها « باسافان » كرهينة ، وهذا أمر لا يمكن أن أتصوره على الإطلاق .

تأخرت بعض الوقت فى مكتبى بعد أن كتبت هذه الصفحات وإذا بأوليفييه ينادينى ، فذهبت إليه فى لهفة .

وقال لى : كنت سأحضر بنفسى إليك لولا إنى أشعر بضعف زائد . لقد أردت أن أنهض من فراشى ، ولكننى عندما أقف على قدمى أشعر بدوار فى رأسى ، وقد خشيت الوقوع ... لا . لا ، لست أشعر بأنى أسوأ حالا ـ على العكس ـ ولكنى كنت أحس أنى فى حاجة إلى أن أكلمك . يجب أن تعدنى بشىء : أن لا تحاول أبدا معرفة الأسباب التى دعتنى إلى محاولة الانتحار أمس الأول . وأعتقد أنى لم أعد أنا نفسى أعرف هذه الأسباب ، ولو أردت ذكرها لما استطعت ، ولكن يجب ألا تظن أن السبب فى هذا يرجع إلى شىء غامض فى حياتى ، شىء لا تعرفه أنت . ثم قال بصوت

خفيض : ويجب أن لا تتصور أيضا أنى حاولت ذلك لشعور بالخجل .

ورغم أننا كنا فى الظلام فقد أخفى جبينه فى كتفى .

— لو شعرت بالخجل لكان ذلك مما حدث فى الوليمة تلك الليلة ، ومن شدة سكرى ، ومن اندفاعى ، ومن دموعى ، ومن رحلتى فى شهور الصيف . ومن أننى لم أحسن انتظارك .

ثم قال : إنه فى كل ما حدث لا يريد أن يتصور أنه هو الذى قام بهذه الأعمال ، وأنه أراد أن يقتل كل هذه الذكريات ، وأنه قتلها ومحاها من حياته .

وأحسست خلال اضطرابه هذا بضعفه، ورحت أهدهده كالطفل دون أن أقول شيئا ، ولا أنه كان محتاجا إلى الراحة ، وجعلنى سكوته أؤمل فى أن ينام هادئا ، ولكنى سمعته يتمتم :

— عندما أكون بالقرب منك أحس بسعادة تمنعنى من النوم .

ولم يسمح لى أن أتركه إلا فى الصباح .

الفصل الحادى عشر

حضر (برنارد) فى ذلك الصباح مبكراً وما زال (أوليفييه) نائماً ، وجلس (برنارد) إلى جوار فراش صديقه وفى يده كتاب كما اعتاد أن يفعل فى الأيام الأخرى وأتاح ذلك (لادوارد) أن يتوجه إلى بيت (الكونت دى باسافان) كما كان قد وعد ، ففى الساعة المبكرة كان وجوده فى البيت مؤكداً . سطعت الشمس ورق الهواء وراح يجرد الأشجار من أوراقها الأخيرة وبدا كل شئ شفافا لازورديا . ولم يكن (ادوارد) قد غادر منزله منذ ثلاثة أيام ، وكانت السعادة تغمر قلبه ، وبدا له وكأن كيانه كله غلاف رسالة خاو يطفو على سطح بحر لانهائى من الطيبة والنقاء . وهكذا يفعل الحب والجو الجميل فعلهما فيوسعان آفاقنا حتى تصبح وكأن لا حدود لها .

كان (ادوارد) يعرف أنه فى حاجة إلى سيارة ليحضر فيها حاجيات (أوليفيه) ، ولكنه لم يسرع إلى ركوبها لأنه شعر بمتعه فى السير على قدمية ، وكان ما به من رضا نفسى يجعله فى حالة لا تشجعه على مجابهة (باسافان) . وقال لنفسه إنه يجب أن يشعر نحوه بالبغضاء . كان يستعرض فى ذهنه ألوان هجومه عليه ، ولكنه لم يعد يشعر بوخز عبارات هذا الغريم الذى كان يمقته حتى الأمس . لقد احتل مكانه تماما فلم تعد به حاجة إلى كرهه أو على الأقل لم يعد يستطيع أن يكرهه هذا الصباح . وإذ رأى من ناحية أخرى وجوب إخفاء ما طرأ عليه من تغيير مما كان خليقاً أن يكشف سعادته ، فقد تمنى أن يتجنب المقابلة ولا يبدو بمظهر المنهزم ، ولماذا يسعى هو إلى هذه المقابلة ... هو (ادوارد) بالذات ؟ سيذهب إلى شارع (بابيلون) وسيطالب بحاجيات (أوليفيه) ، بأى صفة سيعقل هذا ؟ لقد قبل هذه المهمة ولا شك دون أن يقدر عواقبها . كان يقول لنفسه كل هذا وهو يسير ، وكان يرى أن قيامه بهذه المهمة يفهم منه أن (أوليفيه) قد أقام لديه ، وهذا بالذات ما كان يريد إخفاءه .... ولكن فات أوان التراجع ، لقد وعد

(أوليفييه) بذلك ، وعليه إذن أن يتظاهر أمام (باسافان) بالبرود وبالصلابة . وأبصر سيارة أجرة فناداها .

والحق أن (ادوارد) لم يعرف (باسافان) حق المعرفة . لقد جهل ناحية من نواحى نفسه . كان من العسير أن يؤخذ (باسافان) على غرة . ولم يكن يحتمل أن يخدعه أحد . ولكى لا يعترف بهزائمه ، اعتاد أن يتظاهر دائماً بأنه تمنى ما حدث له ، بل وأنه أراد ماحدث له ، وما إن أدرك أنه فقد (أوليفيه) حتى أصبح كل همه أن يخفى ثورته ، وبدلا من أن يحاول الجرى وراءه ، وأن يعرض نفسه للسخرية ، آثر أن يتماسك ، وأجبر نفسه على أن يرفع كتفيه استهزاء . ولم تكن انفعالاته قط بالعنف الذى يعجز إزاءه عن السيطرة عليها ، وذلك ما يغتبط به البعض — دون أن يدركوا أنهم لا يدينون بهذه السيطرة على أنفسهم لقوة أخلاقهم بقدر ما يدينون بهذا إلى عجز فى شخصياتهم . وأنا لا أسمح لنفسى بأن أعمم فى هذا الصدد ولنفرض أن ما قلته لا ينطبق إلا على « باسافان » وحده ، ولذا لم يجد هذا الأخير كبير صعوبة فى أن يقنع نفسه بأنه قد زهد « أوليفيه » ، وأنه استنفد أثناء شهرى الصيف كل ما كان فى هذه المغامرة من نشوة ، وأن هذه المغامرة كانت خليقة بأن تربك حياته ، وأنه قد بالغ فى تقدير جمال هذا الصبى وظرفه وذكائه ، وأن الوقت حان لأن يفتح عينيه على مدى مجازفته بأن يعهد إلى غر عديم التجربة بإدارة المجلة . يستطيع « ستروفيلهو » أن يقوم بهذه المهمة أفضل مما يستطيعه « أوليفيه » ، فهو يعرف كيف يشرف على مجلة ، وكان قد كتب له يستدعيه لهذا الغرض ، وكان ينتظره هذا الصباح .

ولنضف إلى ما ذكرناه أن « باسافان » أخطأ فى تقدير الأسباب التى حدت بأوليفييه إلى الهروب ، فقد ظن أنه أثار غيرته عند ما بالغ فى إظهار اهتمامه بسارة ، وارتاح إلى هذا التعليل الذى أرضى غروره الطبيعى وخفف من غيظه .

كان إذن ينتظر حضور « سترو فيلهو » ، وقد ألقى أوامره بأن يدخلوه بمجرد حضوره ، ومن هذا استفاد « ادوارد » ووجد نفسه أمام « باسافان » دون أن يعلنوا حضوره .

ولم يظهر « باسافان » دهشته ، ومن حسن حظه أن الدور الذى سيقوم به يتلاءم مع طبيعته ، ولم يكن من المواضيع التى يمكن أن تضلل أفكاره . قال لادوارد بمجرد أن أخبره عن الباعث على زيارته .

— كم أنا سعيد بما تخبرنى به . أهذا صحيح ؟ أستتكفل به أنت ؟ ألا يزعجك هذا كثيرا ؟ « أوليفيه » صبى لطيف ، ولكن بدأ وجوده عندى يزعجنى بشكل لا يطاق . ولم أكن أجرؤ على إشعارة بذلك لأنه ظريف جدا . وكنت أعلم أنه لا يود العودة إلى والديه ... إن المرء إذا ترك والديه ، لا يستطيع العودة إليهما . أليس كذلك ؟ ولكن أليست أمه أختا غير شقيقة لك ، أو شيئا من هذا القبيل ؟ لقد أخبرنى « أوليفيه » بشىء من هذا فيما مضى . وإذن فمن الطبيعى جدا أن يقيم لديك . ولا يمكن أن يكون هذا داعيا للابتسام (وكان هو نفسه يبتسم وهو يقول هذا الكلام) . أما إقامته عندى ، ولعلك تدرك ذلك ، فقد كانت تحرجنى ، وربما كان هذا أحد الأسباب التى حدت بى إلى أن أتمنى رحيله ... ومع ذلك فليس من عادتى أن أبالى بالرأى العام ، لقد كنت أريد صالحه ...

بدأ الحديث بطريقة لا بأس بها ، ولكن كان يطيب لباسافان أن يلقى على سعادة « ادوارد » قطرات من السم الذى تزخر به طبيعته الغادرة . كان فى جعبته كثير منه يدخره احتياطا لما يقع . وشعر « ادوارد » أن صبره يوشك أن ينفد ولكنه تذكر فجأة « فنسان » ، ولا بد أن « باسافان » على علم بأخباره . كان قد عاهد نفسه على ألا يكلم « دوفيه » عن « فنسان » إذا ما جاء « دوفيه » يسأله ، ولكنه رأى ليتهرب من هذا الاستجواب أنه من الأفضل أن يكون هو نفسه ملماً بأخبار « فنسان » ، فذلك جدير أن يدعم مقاومته . واغتنم هذه الفرصة ليغير مجرى الحديث .

ورد « باسافان » قائلا : لم يكتب لى « فنسان » ولكننى تسلمت رسالة من « ليدى جويفيث » ، إنك تعرف ولا شك أنها هى التى حلت محل الأخرى . وقد حدثتنى طويلا عنه فى هذه الرسالة . خذ ها هى الرسالة ولست أرى مانعا من أن تلم بما جاء فيها .

ومد يده بها فقرأ « ادوارد » ما جاء فيها :

٢٥ أغسطس

يا عزيزى

سيغادر يخت الأمير ميناء « داكار » بدوننا ، ومن يدرى أين سنكون عندما تصل إليك هذه الرسالة التى يحملها . ربما نكون على ضفتى « الكازامانس » حيث يريد « فنسان » أن يجمع النباتات لدراستها وأريد أنا أن أصطاد . ولم أعد أعرف أأنا التى أقوده أم هو الذى يقودنى ؟ ولعله بالأحرى شيطان المغامرة هو الذى يطاردنا نحن الاثنين على هذه الصورة . وقد قدمنا لهذا الشيطان شيطان آخر هو شيطان الملل الذى تعرفنا به على ظهر الباخرة . . . آه يا عزيزى ، لا بد من أن يعيش المرء على ظهر يخت ليعرف حقا ما هو الملل . الحياة محتملة على ظهره ما دام الجو عاصفا إذ أنك تشارك الباخرة اضطرابها . ولكن بعد أن تركنا « تينيريف » لم تصادفنا نسمة واحدة ولم نر تجعيدة واحدة على سطح البحر . . . « مرآة يأسى الكبيرة »(١) .

أو تدرى بماذا شغلت نفسى منذ هذه اللحظة ؟ شغلتها بكره « فنسان » . نعم ياصديقى ... بدا الحب لنا شيئاً لا طعم له ، ولذا قررنا أن يكره كل منا الآخر ، والحقيقة أن هذا الشعور بدأ قبل ذلك بكثير . نعم بدأ منذ ركوبنا اليخت ، لم يكن فى بادئ الأمر إلا شعوراً بالضيق ، نوعاً من النفور المكتوم لا يعوق صلتنا الجسدية ، ولكن مع الجو الجميل أصبح ذلك الضيق شيئا فظيعا . آه ! إننى أعرف الآن معنى أن يشعر الإنسان بالعشق نحو إنسان . . ! » .

وكانت الرسالة طويلة جدا .

وقال «ادوارد» وهو يعيدها إلى « باسافان » : لست فى حاجة إلى قراءة المزيد ، ومتى سيعود ؟

— لم تشر « ليدى جريفث » فى رسالتها إلى العودة .

---

(١) شطرة من بيت شعر .

وحنق « باسافان » إذ رأى « ادوارد » لايبدى اهتماما بالرسالة ، وإذ قد سمح لادوارد بقراءتها فإن عدم مبالاة هذا الأخير بها كانت إهانة فى نظر « باسافان » . كان يرفض دائما ما يقدمه له الآخرون ، ولكنه لم يكن يطيق أن يهمل الآخرون ما يقدمه لهم . كانت هذه الرسالة قد ملأته بالغبطة ، وكان يشعر ببعض الحب نحو « ليليان » و « فنسان » ، وقد ثبت له أن قادر على أن يخدمهما ويساعدهما . ولكن حبه كان يضعف بمجرد أن يستغنى عنه . وما دام صديقاه لم يقلعا نحو السعادة بعد أن تركاه فقد جعله ذلك يقول لنفسه : « هذا حسن » . أما عن إدوارد ، فقد كان إحساسه بالسعادة الشاملة ذلك الصباح صادقا ، حتى أنه شعر بالضيق أمام وصف الانفعالات ، وقد أعاد الرسالة إلى « باسافان » دون أى تصنع .

وشعر « باسافان » أن عليه أن يعاود الهجوم :

— آه ... كنت أريد أن أقول لك أيضا : تعلم أننى كنت قد فكرت فى « أوليفييه » لكى يرأس تحرير مجلة . بالطبع لم أعد أفكر فى هذا الأمر .

ورد « ادوارد » على الفور : هذا أمر مفروغ منه .

ولم يشعر « باسافان » أنه بقوله ذاك قد أزاح هما ثقيلا عن « ادوارد » ، ثم أحس « باسافان » بذلك من لهجة « ادوارد » فأردف على الفور دون أن يظهر أى ندم :

حاجيات « أوليفييه » موجودة بالغرفة التى كان يشغلها . لاشك أن معك سيارة أجرة ، وسآمر بحمل هذه الأشياء إليها ... وبهذه المناسبة : كيف حاله ؟

— على خير مايرام .

ونهض « باسافان » ، وكذلك فعل « ادوارد » وافترقا بعد تحية باردة .

وضايقت زيارة « ادوارد » الكونت دى باسافان إلى حد كبير ، فلما رأى « ستروفيلهو » داخلا ، قال.

— آف .

ورغم أن « ستروفيلهو » كان يتصرف معه تصرف الند للند ، فإن « باسافان » كان يشعر معه بأنه على راحته ، أو بمعنى أصح يجعل نفسه على راحتها . كان يتعامل ولا شك مع طرف قوى ، ويعرف ذلك ، ويؤمن أنه قادر على هذا ويهمه أن يثبته .

وقال وهو يدفعه نحو أحد المقاعد · يا عزيزى « ستروفيلهو » اجلس إنى سعيد حقا برؤيتك .

— لقد طلب منى سيدى الكونت الحضور وها أنا فى خدمته .

كان « ستروفيلهو » يتعمد عندما يكون فى حضرة الكونت أن يتكلف وقاحة الخدم ولكن باسافان كان معتادا على طرائقه ، وقال :

— لنتكلم مباشرة فيما طلبتك من أجله . حان الوقت كما يقولون لأن تخرج من تحت قطع الأثاث . لقد زاولت حرفاً كثيرة ... وسوف أعرض عليك اليوم عملا فيه سيطرة كبرى . وها أنا أسرع فأقول لك إن الأمر يتعلق بالأدب .

— هذا من سوء حظى .

وأردف ، بينما كان « باسافان » يقدم له علبة اللفائف :

— إذا سمحت ... إنى أفضل ...

— لا ، لا أسمح بذلك إطلاقا . هذا السيجار المهرب الفظيع يفسد جو الحجرة ، ولم أفهم أبدا ما يمكن أن يشعر به البعض من متعة فى تدخين مثل هذا .

— أوه ... لا أستطيع القول بأنى مجنون بالسيجار ، ولكنى أحبه لأنه يزعج الجيران .

— أما زلت تطعن على كل شىء ؟

— ومع ذلك يجب ألا تصور أنى إنسان غبى .

وبدلا من أن يجيب مباشرة على اقتراح « باسافان » ، آثر « ستروفيلهو »

أن يوضح موقفه وأن يدعمه ، وسيرى الأمور فيما بعد . وواصل كلامه :

لم يكن حب الإنسانية من شيمتى .

وأجاب « باسافان » : ـ أعرف ذلك . أعرف ذلك .

ـ لا وليست الأثرة من طباعى، وهذا هو ما تجهله ... يتصور الناس أن المخرج الوحيد للتخلص من الأثرة هو الإيثار، مع أن الإيثار أبشع وأقبح. إنى أعتقد أنه ليس ثمت شيء أكثر بعثــا للاشمئزاز من مثل هذه الجماعات من بنى الإنسان ؛ فلا يمكن لأى منطق أن يقنعنى بأن جمع وحدات قذرة من البشر ينتج مجموعا نظيفا . وكلما ركبت تراما أو قطارا تمنيت أن يقع حادث يقضى على كل هذه القاذورات الحية . أوه ، وأنا معهم ولا شك . وما دخلت قط قاعة عرض إلا تمنيت أن تسقط الثريات أو أن تنفجر قنبلة ، حتى لو كنت سأتحطم معها . إنى على استعداد لأن أحملها تحت سترتى لولا أننى ، أدخر نفسى لما هو أكبر من ذلك . ماذا كنت تقول ؟ ...

ـ لا ، لا شيء استمر . إنى مصغ إليك . لست من هؤلاء الخطباء الذين ينتظرون المعارضة لتحفزهم على الكلام .

ـ الحقيقة أنه بدا لى أننى سمعتك تقدم لى كأسا من شراب « البورتو » الفاخر .

وابتسم « باسافان » وقال وهو يمد يده إليه بالزجاجة :

ـ ضعها بجانبك وأفرغ ما بها من فضلك ولكن تكلم .

وملأ « ستروفيلهو » كأسه، وجلس على مقعد وثير عميق، وراح يقول :

ـ لست أدرى هل لى قلب مما يسمونه بالقلب الفظ ؟ إننى أشعر نحو الناس بكثير من الازدراء والاشمئزاز ولا يهمنى أقلبى كذلك أم لا ، لقد قضيت منذ وقت طويل على كل العواطف التى يمكن أن تجعل قلبى يضعف أو يشعر بالشفقة ، ولكننى لست عاجزاً عن الشعور بالإعجاب ، وبلون من الإخلاص الغريب ؛

بصفتى إنسانا أشعر نحو نفسى بنفس الاحتقار ، بنفس الكراهية التى أشعر بها نحو الغير . طالما سمعت الناس يقولون ويكررون أن الأدب والفنون والعلوم تهدف آخر الأمر إلى خير الإنسانية، وهذا القول وحده خليق بأن يبغضنى فيها ويجعلنى لا أطيقها ، ولكن ليس هناك ما يمنعنى من أن أتصور العكس وعندئذ أتنفس الصعداء . نعم . يحلو لى أن أتصور الإنسانية على العكس من ذلك — مسخرة فى تشييد أثر تسوده القسوة ، وأن أتخيل « برنارد باليسى »[1] (وكم أزعجونا بكلامهم عنه) وهو يحرق زوجته وأولاده بنفسه ، لكى يحصل على طلاء لطبق جميل . إنى أحب أن أقلب الأمور رأسا على عقب فذلك يشعر ذهنى بأن توازنها أقوى وأحسن . وإذا كنت لا أطيق فكرة أن المسيح ضحى بنفسه ليشترى بتضحيته خلاص كل هؤلاء الناكرين للجميل ، كل هؤلاء الناس البشعين الذين أعيش بينهم ، فإننى أشعر بالرضا وبنوع من الطمأنينة عندما أتخيل هذه الجموع وقد أدركها العفن لكى تنتج مسيحا . شقاؤنا ناتج من أنانية القساة منا . أما القسوة المشبعة بالإخلاص فهى الجديرة بأن تنتج العظيم من الأشياء . إننا عندما نحمى البؤساء والضعفاء والمشوهين والجرحى فإننا نخطىء الطريق ، ولهذا السبب أكره الذين الذى يدعوننا إلى ذلك ، الراحة الكبرى التى يدّعى محبو الإنسانية أنفسهم أنهم يشعرون بها عندما يتأملون الطبيعة وعالم الحيوان وعالم النبات ، هذه الراحة ناتجة من أن الكائنات القوية هى وحدها التى تترعرع فى الحالة البرية ، أما ما عدا ذلك من كائنات فلا ينفع إلا كسماد ، ولكن الناس لا يعرفون كيف يرون هذا ولا يريدون الاعتراف به .

— نعم . نعم إنى أعترف بذلك تماما . أكمل .

— قل لى ، أليس مخجلا وحقيراً ... أن يتكبد الإنسان كل ما تكبده ليحصل على أجناس ممتازة من الخيل والماشية والدواجن والحب والزهر — فى الوقت الذى يبحث فيه لنفسه ومن أجل نفسه فى علوم الطب عما يخفف به آلامه ،

---

(١) فنان وصانع خزف فرنسى من القرن السادس عشر .

وفى الإحسان عما يهون على نفسه ، وفى الدين عن عزاء ، وفى السكر عن النسيان ؟ علينا أن نهتم بتحسين النوع وذلك جدير بأن يكون شغلنا الشاغل ولـكن كل انتقاء يقتضى القضاء على الضعيف ، وهذا أمر لا يستطيعه مجتمعنا المسيحى . وهذا المجتمع لا يقوى أن يأخذ على عاتقه تعقيم المنحطين وهم أكثر الناس إنجابا . إن ما نحتاج إليه ليس المستشفيات وإنما هى مزارع تحسين أنواع البشر .

— إنك حقيقة تعجبنى عندما تتكلم هكذا يا « ستروفيلهو » .

— أخشى أن تكون قد كونت فكرة خاطئة عنى حتى الآن ياسيدى «الـكونت» ، ربما تصورت أننى من المتشككين ، مع أننى مثـالى وصوفى . لم ينتج الشك أبداً أى خير ونحن نعرف إلى أين يؤدى ... إلى التسامح ! إننى أعتبر المتشككين أناساً يعوزهم المثل الأعلى كما يعوزهم الخيال . إننى أعتبرهم مغفلين ... ولست أجهل أن وجود هذه الإنسانية القوية سيقضى على المشاعر الرقيقة وعلى العواطف النبيلة ، ولـكن لن يكون هناك من يأسف على هذه المشاعر الرقيقة لأننا سنكون قد قضينا عليها بالقضاء على أهل الرقة . لا تسئ فهم ما أعنيه ، إن لدى ما يسمونه بالثقافة ، وأعرف حق المعرفة أن مثلى الأعلى سبق أن صبا إليه بعض اليونانيين ، وأذكر أن « كوريه » ابنة « سيريس » كانت تنزل إلى العالم الآخر مدفوعة بشفقتها على من فيه ، ولـكنها ما إن أصبحت ملـكة وزوجة لـ «بلوتون» حتى صار «هوميروس» لا يدعوها إلا بـ « روزربين التى لا تلين » ، يمكن أن نرجع إلى الأغنية السادسة من « الأوديسة » ... إن كلمة « لايلين » هى التى يجب أن تكون صفة لـكل من يدعى الفضيلة .

— يسعدنى أن نعود إلى الأدب — إذا فرض واعتبرنا أننا قد تركناه — وأطلب منك إذن أيها الفاضل « ستروفيلهو » : أتقبل أن تـكون رئيساً « لايلين » لتحرير المجلة . ؟

— أعترف لك بصراحة ياعزيزى « الـكونت » أن الأدب من اللقيثات التى تخرجها الإنسانية، بل إنه أكثر إغثاء لنفسى من أى شىء آخر، فأنا لا أرى فيه إلا

مجاملات وتملقات ، ويصل بي الأمر إلى الاعتقاد أنه لا يمكن أن يصبح شيئاً آخر إن لم يمح من الماضي محوا تاماً . إننا نعيش على عواطف متعارف عليها ويتصور القارىء أنه يشعر بها لأنه يصدق كل ما يطبع ، ويتلاعب المؤلف بهذه العواطف ويعتبرها أسس فنه ، ولهذه العواطف رنين كرنين النقد الزائف ، الذى يتداوله الناس رغم زيفه ، وكما أننا نعرف أن النقود المزيفة تطرد النقود الحقيقية ، فإن من يقدم للجمهور قطعاً حقيقية يبدو وكأنه لا يدفع لنا إلا كلاما . وفى عالم يغش فيه الجميع يبدو الرجل الصادق وكأنه مهرج . إننى أحذرك بأننى إذا أشرفت على المجلة فسوف يكون كذلك لكى أقطع أكياسا مليئة بالزيف ، لكى أقضى على القيم التى يعطيها الناس للعواطف الجميلة ، لأقضى على هذه العملة : « الكلمات » .

— أود فى الحقيقة أن أعرف كيف ستحقق هذا الهدف .

— اتركنى وشأنى وسوف ترى . لقد فكرت فى هذا الأمر كثيراً .

— لن يفهمك أحد ولن يتبعك أحد .

— لا تصدق ذلك .. أكثر الشباب حرارة اليوم يعادون هذا التضخم الشعرى ، فهم يعرفون ما يختفى وراء هذه الموازين الشعرية المتينة ، ووراء الجرس الغنائى الأجوف . لنقترح القضاء على هذه الأشياء وسوف تجد السواعد لهدمها . ألا تريد أن تنشىء مدرسة يكون هدفها الوحيد هدم كل شىء ؟ ... أيخيفك هذا ؟

— لا ... لا يخيفنى طالما لا يطأ أحد حديقتى .

— عندنا ما يشغلنا غير ذلك ... فى الوقت الحاضر إن والوقت مناسب . وأعرف من لا ينظرون إلا الإشارة لينضموا إلىّ ، وهم من ناشئة الشباب ... نعم هذا يعجبك ، أعرف ذلك ، ولكنى أحذرك أنهم لن يسمحوا لأحد بأن يخدعهم . . كثيراً ما تساءلت عن المعجزة التى دفعت بفن التصوير إلى الأمام وكيف ارتضى الأدب أن يتأخر عنه إلى هذا الحد ؟ لقد ضاعت فى أيامنا قيمة ما كان يدعى « الموضوع » فى فن التصوير وكلمة « موضوع جميل » أصبحت تضحكنا الآن ، ولم يعد الرسامون

يجرؤون على عرض « صورة شخص» إلا إذا أزالوا منها كل شبه به. إذا سرنا سيراً حسناً — وتستطيع أن تعتمد على فى ذلك — فلن أطلب منك أكثر من سنتين لكى ترى أن شاعر الغد سوف يعتبر نفسه فاشلا إن فهم الناس ما يعنيه . نعم ياسيدى « الكونت » أتراهنى ؟ سوف يعتبر الناس أن ليس من الشعر كل ماله مغزى أو معنى ، وأقترح أن نعمل على نشر كل ما هو غير منطق ، ياله من اسم جميل للمجلة : « المنظفون » ! !

واستمع « باسافان » دون أن تبدو منه حركة ، ثم قال بعد لحظة صمت :

— هل فى نيتك أن تأخذ ابن أخيك الصغير بين مساعديك ؟

— « ليون » الصغير ولد فيه أصالة ويعرف دقائق الأمور ، حقاً سوف أجد متعة فى تعليمه . قبل الصيف ، طاب له أن يتفوق على الأقوياء فى فصله وينتزع منهم جميع الجوائز ، ولكنه لم يعد يعمل شيئاً منذ عودة الدراسة ، ولست أدرى ماذا يدبر ، ولكننى أثق فيه ولا أريد أن أضايقه .

— هل تأتينى به ؟

— هل يمزح سيدى « الكونت » ؟ ... إذن هذه المجلة ؟

— سوف نتكلم ثانية فى هذا الأمر . إنى فى حاجة إلى أن أترك مشاريعك تنضج فى ذهنى أما الآن فعليك أن تجد لى سكرتيراً ، فلم أعد راضياً عن السكرتير الذى يعمل معى .

— سوف أبعث إليك غداً « كوبلافور » الصغير وسوف أراه بعد قليل ، ولاشك أنه بغيتك .

— هل هو من نوع « المنظفين » ؟

— قليلا .

— أمتطرف هو ؟

— لا : لا إنه معتدل وهو خير من يصلح لك .

ونهض « ستروفيلهو » .

وأردف « باسافان » : بهذه المناسبة ، لم أكن قد أعطيتك على ما أعتقد كتابى ، وأنا آسف إذ لم يعد عندى نسخ من الطبعة الأولى ...

— هذا أمر غير هام ، ما دمت لا أنوى بيعه .

— المسألة ، أن الطباعة كانت أحسن .

— أوه اليس فى نيتى كذلك أن أقرأه .. إلى اللقاء وإذا أردت فانا فى خدمتك. لى بالشرف أن أحييك .

الفصل الثانى عشر

يوميات « إدوارد »

أعدت لأوليفيه حاجياته ، وما إن عدت من لدن (باسافان) حتى عكفت على العمل . أشعر بحماسة للعمل، وصفاء ذهن، وسعادة لم أعرفها من قبل. كتبت ثلاثين صفحة فى كتابى (المزيفون) دون تردد ودون أن أشطب . وكما تتضح معالم المنظر الطبيعى عندما يلقى عليه البرق فجأة نوره الوهاج ، كذلك برزت لى القصة فجأة من الظلمات ، وهى مختلفة تماما عما حاولت ابتكارة دون جدوى . إن الكتب التى ألفتها حتى الآن ، تبدو لى كأحواض المياه فى الحدائق العامة ، لها إطار واضح ، إطار ربما كان رائعاً ، ولكن الماء الأسير بها لا حياة فيه . أما الآن فأريد أن أترك الماء يجرى وفقا لميله ، سريعا طورا وبطيئا طورا آخر، فى جداول أرفض التنبؤ بها .

يقول (س) : إن القصصى البارع يعرف قبل أن يبدأ كتابه كيف سينتهى . أما عنى ، وأنا أترك لقصتى العنان تسير على غير هدى ، فإنى أعتقد أن الحياة لا تقدم إلينا شيئا يمكن أن نعتبره نهاية لقصة إلا وكان ممكنا فى الوقت عينه اعتباره نقطة بداية جديدة .

(يمكن أن تستمر هذه القصة) تلك هى الكلمات التى أريد أن أنهى بها قصتى (المزيفون) .

زارنى (دوفيه) . لاشك أنه شاب طيب للغاية .

وإذ بالغت فى إظهار عطفى له فقد كان على أن أتحمل إسرافه فى إبداء عواطفه وكنت وأنا أكلمه أكرر لنفسى هذه الكلمات لـ (لاروشفوكوه) : (إننى أشعر بالشفقة قليلا وأتمنى أن لا أشعر بها إطلاقا) ... وفى رأيى أنه على المرء أن يكتفى بإظهار شفقته وأن يحرص على أن لا تكون لديه شفقة إطلاقا . ومع هذا فإن عطفى

كان حقيقيا لاشك فيه ، وكنت متأثرا حتى بكيت، ويبدو أن دموعى قد هونت عليه أكثر من كلاتى ، بل أعتقد أنه نسى حزنه بمجرد أن رآنى أبكى .

كنت مصراً على ألا أبوح له باسم من غوى زوجته . ولكننى دهشت إذ لم يطلب منى ذلك . أعتقد أن غيرته تزول بمجرد شعوره أن « لورا » لا تراه ، وعلى أى حال فإن سعيه إلى قد أوهن غيرته شيئا ما .

هناك شىء غير منطقى فى موقفه ، فهو ساخط لأن الآخر هجر (لورا) ولقد أفهمته أنه لولا هذا الهجران لما عادت إليه . وفى نيته أن يحب الطفل حبه لابن أنجبه هو . أما عن مباهج الأبوة ، فمن يدرى؛ أكان مقدراً له أن يشعر بها لو لم يقم غريمة بما قام به ؟ وقد أمسكت عن أن أنبهه إلى هذا الأمر، لأنه عندما يتذكر نواحى عجزه تزداد غيرته حدة . ولكن غيرته حينذاك تصدر عن الكرامة، وفى هذه الحال يزول اهتمامى بها .

لأن يكون شخص مثل (عطيل) غيورا فهذا أمر أفهمه؛ إذ أن تصوره لما تتمتع به زوجته مع غيره يرهقه عسرا ، ولكن شخصا مثل (دوفيه) لا يصبح غيورا إلا إذا تصور أن واجبه يقضى عليه بأن يكون كذلك .

ولا شك أنه يغذى فى نفسه هذه الغيرة لحاجة غامضة فى ذاته تدفعه إلى تضخيم شخصيته الهزيلة نوعا . إن السعادة لخليقة بأن تكون شيئا طبيعيا له ، ولكنه فى حاجة إلى الإعجاب بنفسه ، وهو يقدر المجلوب ولا يقدر الطبيعى . وقد جاهدت لأصور له أن السعادة البسيطة تستحق التقدير أكثر مما يستحق العذاب ، وأنها أمر بعيد المنال ، ولم أتركه يرحل إلا وقد اطمأنت نفسه .

لا يعجبنى التسلسل المنطقى فى تصرفات شخصيات القصة ، تلك الشخصيات التى تتصرف من بداية القصة إلى نهايتها طبقا لما توقعناه ... إن القصصيين يريدون منا أن نعجب بما نراه من ثبات فى تصرفات هذه الشخصيات ، ولكننى ـ على العكس من ذلك ـ لا أرى فى هذه التصرفات إلا افتعالا ، ولا أعتبر هذه الشخصيات إلا شخصيات صناعية مخترعة .

ولست أدعى أن «اللامنطق» هو العلامة الأكيدة على الشخصية الطبيعية ؛ لأننا نصادف — ولا سيما لدى النساء — كثيراً من التصرفات اللامنطقية المفتعلة . ومن ناحية أخرى فى إمكانى أن أعجب بما يسمونه « تسلسل الفكرة » لدى قلة من هذه الشخصيات ولكن الشخصية المنطقية كثيراً ما تكون نتيجةلتشبث غرورى ، وعلى حساب الطبيعى . وكلما كان الفرد ذا طبيعة كريمة ، وكلما ازدادت إمكانياته ، كلما كان عرضة للتغير ، وكلما قلت رغبته فى أن يترك ماضيه فإنه يقرر مستقبله . إن الذين يقترحون هذهالعبارة اللاتينية[1] Justum. Et. Tenacem. Propositi Virvm « الرجل العادل الحازم » - كمثل يحتذيه - لا يقدمون لنا فى الواقع إلا أرضاً صخرية كنوداً لا تصلح للنمو .

وقد عرفت أفراداً من نوع آخر ، أفراداً اصطنعوا لأنفسهم فى صبر شخصيات فريدة ، وهم يتمسكون بهذه الشخصية ولا يرضون بها بديلا ، ويبقون دائماً فى موقف الحذر ، ولا يسمحون لأنفسهم بأى تراخ ، وأنا أفكر فى (س) الذى رفض كأسا من نبيذ الـ « مونتراشيه » متعللا بأنه لا يحب إلا نبيذ « البوردو » ولكن بمجرد أن قدمته على أنه « بوردو » بدا له «المونتراشيه » شراباً مقبولاً .

عندما كنت شاباً كنت أتخذ قرارات أتصور أنها فاضلة ولم أكن أبالى بما كنته قدر ما كنت أبالى بأن أصبح من أريد أن أكونه . أما الآن ، فقد أوشكت أن أرى فى التردد السر الذى يجنبنا الشيخوخة .

سألنى « أوليفيه » فيم أكتب؟ وقد تركت نفسى أحدثه عن كتابى ، بل قرأت له الصفحات التى كتبتها حديثاً ؛ إذ بدا عليه الاهتمام بما كنت أكلمه فيه . ولقد خشيت حكمه لعلمى بأن الشباب متصلب فى رأيه ، ولأنه من العسير أن يقبل وجهة نظر مختلفة عن وجهة نظره . ولكن الملاحظات القليلة التى أبداها - بوجل - بدت لى حكيمة للغاية ، حتى إننى استفدت منها فى الحال .

« إنه مصدر إحساسى وحياتى » .

---

(١) عبارة لاتينية معناها : « الرجل العادل الحازم » .

ما زال قلقا بشأن هذه المجلة التى كان يرأس تحريرها ، ولا سيما فيما يختص بالقصة التى كتبها بناء على طلب « باسافان » والتى يستنكرها . وقد قلت له : إن التغييرات الجديدة ـ التى اعتزم هذا الأخير إدخالها على المجلة ـ لا بد أن تستلزم تغييرات فى موادها ، وأن فى استطاعته أن يسترد منه أصل القصة .

زارنى السيد « بروفيتانديو » قاضى التحقيق ، ولم أكن أتوقع هذه الزيارة على الإطلاق . كان يجفف عرق جبينه ، ويتنفس بصعوبة ، وبدا لى أن ذلك يرجع إلى حرجه أكثر مما يرجع إلى جهده فى صعود ستة أدوار . كان محتفظا بقبعته فى يده ، ولم يجلس إلا بعد أن دعوته إلى ذلك . إنه رجل جميل المظهر ، قوى البنية ، مهيب الطلعة .

وقال لى : أعتقد أنك صهر السيد « مولينييه » رئيس المحكمة ، ولقد استمحت لنفسى بأن آتى إليك لأحدثك فى موضوع يتعلق بابنه « جورج » . ولعلك تعذرنى لما يبدو فى هذا التصرف من تطفل ، ولكن آمل أن يكون ما أكنه لزميلى من مودة وتقدير كافياً لتبرير تصرفى .

وسكت بعض الوقت ، ونهضت وأغلقت الباب خشية أن تسمعنا الخادمة ، وكانت فى الغرفة المجاورة — وكنت أعرف مدى تطفلها ، وقد أمن « بروفيتانديو » على هذا بابتسامة .

وأردف : بصفتى قاضى تحقيق ، كلفت أن أشرف على تحقيق قضية تحرجنى إلى أقصى حد — سبق أن أقحم ابن أختك نفسه فى مغامرة ... وليبق هذا الأمر سراً بيننا ، أليس كذلك ؟ — وهى مغامرة فيها فضيحة ، وأحسب أن حداثة سنه وبراءته قد ساعدتا على استغلال حسن نيته ، ولكنى أعترف لك أنى اضطررت إلى أن استخدم كثيراً من المهارة لكى ... أحدّ من تطورها دون أن أسىء إلى العدالة ، وأحب أن أضيف أن محاولة أخرى ... من نوع آخر ... ليس فى استطاعتى أن أضمن أن يفلت منها « جورج » الصغير كما أفلت فى المرة الأولى ، بل أشك فى أن يكون من مصلحة الصبى أن تحاول إخراجه منها رغم كل ما أشعر به من رغبة تدفعنى إليها

الصداقة لكى أجنب زوج أختك هذه الفضيحة ، ومع ذلك فسوف أحاول ، ولكنك تعرف ـ ولاشك ـ أن لى مساعدين ، وأنهم يخلصون لعملهم ، ولا أستطيع دائماً أن أمنعهم من ذلك ، وإذا كنت أستطيع اليوم فإننى قد لا أستطيع غداً . ولذا فكرت فى أن أطلب منك أن تكلم ابن أختك ، وأن تفهمه إلى أى خطر يعرض نفسه ...

لماذا لا أقول صراحة: إن زيارة « بروفيتانديو » أقلقتنى كثيراً فى بادى الأمر ، ولكن بعد أن أدركت أنه لم يأت كعدو ولا كقاض شعرت ـ بالأحرى ـ بشىء من المتعة ، وازددت شعوراً بالمتعة عند ما أضاف :

— هناك نقود مزيفة يتداولها الناس ، وقد نبهت إلى ذلك الأمر . ولم أوفق بعد فى الاهتداء إلى مصدرها ، ولكنى أعرف أن «جورج» الصغير – ولعله قام بذلك بسذاجة كما أحب أن أعتقد ـ واحد ممن يستعملونها ويروجونها ، أنهم بعض الصغار الذين فى مثل سن ابن أختك يقومون بهذه العملية المخزية ، ولست أشك فى أن هناك أناساً يستغلون سذاجتهم ، وأن هؤلاء الصبية ألعوبة فى أيدى بعض المجرمين ، وكان فى استطاعتنا فى بادىء الأمر أن نقبض على هؤلاء المنحرفين دون عناء ، وأن نحملهم على الإعتراف بمصدر هذه القطع المزيفة ، ولكنى خير من يعرف أنه إذا ما تجاوز التحقيق حداً معينا ، فإننا لا نستطيع الكف عن الاسترسال فى البحث ... وأعنى بذلك أن التحقيق لا يمكن أن يعود القهقرى ، وأننا سنجد أنفسنا مضطرين إلى معرفة ما كنا نؤثر أن نجهله . وفى هذه القضية بالذات أعتقد أنى توصلت إلى معرفة المجرمين الحقيقيين دون أن ألجأ إلى شهادة هؤلاء المنحرفين ، ولذا أمرت بألا يزعجوهم ، ولكن هذا الأمر مؤقت ، وبودى ألا يضطرنى ابن أختك إلى إلغائه ، ومن الأفضل أن يعرف أننا متيقظون ، بل لعلك تحسن إن أخفته قليلا فهو على منحدر سيئ .

وأجبته بأنى سأبذل أقصى جهد لأنبهه إلى خطورة ما يقوم به ، ولكن بدا كأن « بروفيتانديو » لم يسمع ما أقول ؛ فقد زاغت نظرته ، وكرر

مرتين : إنه على ما يسمونه « منحدر سيء » ثم صمت .

ولا أدرى كم من الوقت استغرقه صمته هذا ، ولكن بدا لى كأنى أدرك مايفكر فيه ، وأنى أسمع كلماته هذه قبل أن ينطق بها .

— إننى أنا نفسى أب يا سيدى ...

واختفى كل ما قاله قبل ذلك، ولم يعدهناك شيء بيننا إلا « برنارد » أماالباقى، فكان ذريعة ، لقد جاءنى لكى يكلمنى عنه .

وإذا كانت إراقة العواطف تزعجنى ، وإذا كانت المبالغة فى إظهارها تضايقنى ، فليس ثمة شيء — على العكس — يؤثر فى أكثر من كتمان الانفعال .

كان (بروفيتانديو) يبذل قصارى جهده ليكبت شعوره ، ولكن كان مجهوده مرهقا حتى ارتعشت شفتاه ، وارتجفت يداه .

ولم يستطع الاستمرار فى السيطرة على نفسه ، وفجأة أخفى وجهه بين يديه ، وأخذ أعلى جسمه يهتز ، فقد كانت عبراته تخنقه .

وقال متلعثما : هل أنت ترى يا سيدى إلى أى حد يمكن أن يكون الولد نقمة .

لم يعد هناك ما يدعونى إلى اللف والدوران ، ولذا قلت صائحاً وأنا فى أشد حالات الانفعال :

— إذا رآك (برنارد) لذاب قلبه لوعة ، إنى واثق من ذلك .

ولكن مع ذلك كنت فى غاية الحرج ، فلم يحدثنى (برنارد) عن أبيه . سبق أن رضيت بأن يترك عائلته لأنى أعتقد بأن مثل هذا الهروب شيء طبيعى ، كما أميل إلى أن أرى فيه فائدة للصبى ، ويضاف إلى ذلك — فى حالة (برنارد) — كونه ابنا غير شرعى ، ولكن ها هى ذى مشاعر أبيه (المستعارة) وهى مشاعر قوية صادقة ؛ لأنه ليس ثمت ما يدعو إلى تصنعها . ولذا تساءلت أمام هذا الحب ، وأمام هذا الحزن :

أكان (برنارد) مخطئا عندما هجر المنزل ؟ لم أعد أشعر بالقدرة على تأييد فعلته هذه .

وقلت للرجل : أرجو أن تكلفنى ما تريد إن كنت تعتقد أن فى إمكانى أن أعمل شيئاً نافعاً ، إن كنت ترى أن على أن أكلمه . إنه طيب القلب .

— أعرف ذلك ... نعم إنك تستطيع أن تعمل الكثير . إنى أعرف أنه كان فى صحبتك هذا الصيف . إن (مخابراتى) ، جيدة وأعرف كذلك أنه يتقدم اليوم لامتحانه الشفوى . وقد اخترت هذا الوقت لأنى أعرف أنه فى (السوربون) ، وكنت أخشى أن أقابله لديك .

منذ لحظات أخذ تأثرى يقل شيئا فشيئا ؛ إذ لاحظت أنه يستعمل فعل (عرف) فى أغلب جمله ، ولم أعد مهتما بما يقوله قدر اهتمامى بمتابعة هذه اللازمة التى ربما اكتسبها من عمله .

وقال لى أيضاً : إنه « يعرف » أن « برنارد » نجح بتفوق فى الامتحان التحريرى ، وقد أخبره بذلك أحد المصححين وهو صديق له ، كما أخبره أن البحث الذى كتبه استحق — على ما يبدو — كل التقدير .

وكان يتكلم عن « برنارد » بلهجة الإعجاب ، الإعجاب المكتوم ، مما حدا بى إلى التشكك فى أنه ربما يعتقد أنه والده الحقيقى .

وأضاف : « يا إلهى ! أرجو أن لا تخبره بكل ما قلته لك . إنه بطبعه معتز بنفسه ، وهو كثير التشكك ، وإذا ما عرف أنى منذ رحيله لم أكف عن التفكير فيه وعن متابعته ... ولكن — مع هذا — يمكنك أن تخبره بأنك قابلتنى . (كان يتنفس بعناء بعد كل جملة ينطق بها) وأنت وحدك الذى تستطيع أن تخبره بأنى لست حانقا عليه . (ثم أضاف بصوت أخذ يضعف) ويمكنك أن تقول : له إن شعورى نحوه بالحب باق كما هو ... كما يحب الأب ابنه . نعم إنى أعرف أنك تعلم — وهذا أيضاً يمكنك أن تخبره به (وأضاف دون أن ينظر إلى ، وبعناء ، وهو فى أشد حالات

الاضطراب) ـ إن أمه هجرتني ... نعم نهائياً في هذا الصيف ، وأنه إذا أراد أن يعود فأنا ...

ولم يستطع أن يكمل عبارته .

رجل قوي البنية ، رجل عملي استقر في الحياة وفي مركزه المرموق ، وها هو ذا يتخلى فجأة عن هيبته ، ها هو ذا يفتح قلبه ويعترف بما فيه لشخص غريب ، ويظهر أمام الغريب بهذا المظهر الشاذ ، وقد لاحظت مرة أخرى بهذه المناسبة أن تأثري بما يعترف لي به شخص لا أعرفه أكثر من تأثري بما يعترف لي به شخص أعرفه . سوف أحاول أن أحلل شعوري هذا في يوم آخر .

ولم يخف عني « بروفيتانديو » ما انتابه من شكوك بادىء الأمر نحوي، وقال: إنه كان يتصور ـ مخطئاً ـ أن « برنارد » هجر المنزل ليلحق بي، وهذا هو ما منعه أول الأمر من أن يسعى لمقابلتي ، ولم أجرؤ على أن أقص عليه قصة حقيقي، ولم أكلمه إلا عن الصداقة التي تربط ابنه بأوليفييه ، والتي ساعدت على أن تكون بيننا صلة بهذه السرعة .

وأردف « بروفيتا نديو » يندفع هؤلاء الشبان في الحياة دون أن يدركوا ما يعرضون أنفسهم له. وجهلهم بالأخطار هو سر قوتهم دون شك، ولكننا نحن ـ نحن الآباء ، نحن الذين نعرف ـ ترتجف خوفاً عليهم ، وعطفنا البالغ عليهم يضايقهم، ولذا كان من الأفضل أن لا نشعرهم بذلك . وأنا أعرف حق المعرفة أن هذا العطف يمارس أحيانا بشكل محنق وأخرق . وإنه لمن الأحكم أن تدع الطفل يحترق قليلا بدلا من أن تكرر على مسامعه دائماً أن النار محرقة ، فالتجربة تعلم أكثر من النصح، ولقد منحت دائماً لبرنارد أكبر قسط من الحرية، حتى لقد حمله ذلك ـ مع الأسف على أن يتصور أنني لا أبالي به كثيراً، وقد أساء التأويل، وربما كان ذلك سبب هروبه، وحتى عندما أقدم على ذلك ، تصورت أن من الأفضل أن أتركه وشأنه مع استمراري في السهر عليه من بعيد دون أن يشعر . وحمداً لله؛ فقد كنت أملك الوسائل لذلك (لا شك أن « بروفيتانديو » كان فخوراً كل الفخر بهذا الأمر ، وأنه كان يفخر

بنوع خاص بنظام « مخابراته » وقد حدثنى عن هذا للمرة الثالثة) واعتقدت أن علىّ ألا أقلل أمام هذا صبى من مخاطر عمله، وهل بى من حاجة ، أن أعترف لك أن هذا العمل الشاذ — رغم ما سببه لى من ألم — لم يزدنى إلا تعلقا به ، فقد رأيت فيه دليلا على الشجاعة والإقدام ..؟ »

وإذ شعر هذا الرجل الممتاز بالثقة فى ، راح يسترسل فى الموضوع ، ولا يكف عن الكلام . وحاولت أن أدير دفة الحديث إلى الموضوع الذى كان يشغلنى أكثر مما كان يتكلم فيه ، ولذا سألته مقاطعا : « هل رأى هذه القطع المزيفة التى كلمنى عنها فى بادىء الأمر ؟ » ودفعنى حب الاستطلاع إلى معرفة ماإذا كانت شبيهة بالقطعة الصغيرة البلورية التى أرانا إياها « برنارد » . وما إن كلمته عن هذه القطعة حتى تغير لون وجهه . وأغمض عينيه نصف إغماضة ، بينما لمع فى أعماقهما بريق غريب ، وارتسمت على ركنى عينيه التجاعيد ، وزم شفتيه ، وشد الانتباه كل ملامحه إلى أعلى ، ولم يعد مهتما بكل ما كان يكلمنى فيه . لقد حل القاضى محل الأب ، ولم يعد فيه شىء إلا مهنته ، وأرهقنى بأسئلته ، ودون ملاحظات ، وتحدث عن إرسال أحد أعوانه إلى مدينة « ساس فيه » ليأتيه بأسماء المسافرين من سجلات الفنادق .

وأضاف قوله — ولو أن هذه القطعة المزيفة قد وصلت فى الغالب إلى البدال الذى ذكرته عن طريق مسافر عابر ، وفى مكان لم يفعل أكثر من أنه مر به .

وقد أجبته بأن مدينة « ساس فيه » تقع فى نهاية طريق مغلق ، وأنه غير متيسر الذهاب إليها والعودة منها فى نفس اليوم . وأظهر رضاه لهذه المعلومات الأخيرة ، وتركنى بعد أن شكرنى بحرارة ، وكان يبدو عليه السرور مختلطا بالانشغال بشىء آخر ، وتركنى دون أن يشير ثانية لا إلى « جورج » ولا إلى « برنارد » .

الفصل الثالث عشر

شعر برنارد فى ذلك الصباح أن نفساً كريمة كنفسه خليقة أن تمنح البهجة لشخص آخر فليس ثمة سعادة بالقياس إليه أكبر من ذلك ، ولكنه حرم تلك السعادة ، لقد نجح لتوه بامتياز فى الامتحان ، ولم يجد إلى جواره شخصاً يحمل إليه هذا النبأ السعيد فكان هذا كعبء أثقل نفسه . وإن برنارد ليعلم تمام العلم أن أول من يسعد بهذا هو والده . وتردد لحظة فى أن يذهب فيخبره ولكن منعه كبرياؤه ، فمن ينبئ إذن : إدوارد ؟ أوليفييه ؟ لو قد فعلق ، لعلى على هذه الشهادة أهمية أكبر مما تستحق لقد حصل على « البكالوريا » ، ولكن ما قيمة ذلك ، الآن ستبدأ الصعاب .

وفى فناء « السوربون » رأى زميلا له نجح مثله ، وانتحى مكاناً بعيداً عن الآخرين وانخرط فى البكاء ، وكان هذا الزميل فى ملابس الحداد . وكان « برنارد » يعلم أنه فقد أمه حديثاً ، وشعر بشفقة شديدة تدفعه إلى هذا اليتيم ، واقترب منه ، ولكنه ابتعد لشعور سخيف بالخجل اعتراه ، وشعر الآخر بالخجل من دموعه عندما رآه يقترب منه ويمر به ثم يمضى فى طريقه ، لقد كان يحمل فى نفسه التقدير لبرنارد وآلمه ما حسبه ازدراء منه .

دلف برنارد إلى حديقة « اللوكسمبورج » ، وجلس على مقعد فى نفس المكان الذى سبق أن أتى إليه ليقابل أوليفييه ليلة أن كان يبحث عن مأوى لديه ، كان الهواء دافئاً ، وبدت له السماء باسمة من خلال أغصان الأشجار المجردة من أوراقها ، ولم يكن الإنسان ليصدق أن الشتاء مقبل، فالطيور تصدح وكأنها أخطأت معرفة الفصل القادم ، ولكن برنارد لم يكن ينظر إلى الحديقة ، كان يرى أمامه محيط الحياة يمتد امتداداً ، يقولون : إن فى البحر طرقاً ولكنها غير مخطوطة ، وما عرف برنارد أين سيكون سبيله .

كان غارقاً فى تأملاته ، وإذا به يرى ملاكاً يقترب منه وهو ينساب بخطى خفيفة، حتى خيل إليه أنه قادر أن يسير بقدميه على الأمواج ، لم يسبق لبرنارد قط أن رأى ملائكة ، ومع ذلك لم يتردد لحظة عندما قال له الملاك : « تعال » ، فنهض مطيعاً وتبعه . ولم يستشعر دهشة أكثر مما لو كان فى حلم ، وحاول فيما بعد أن يتذكر هل أمسك الملاك من يده ؟ ولكن الحقيقة هى أنهما لم يتلامسا ، وأن مسافة قصيرة كانت تفصل بينهما ، وعاد كلاهما إلى ذلك الفناء حيث ترك برنارد الفتى اليتيم ، وكانا مصممين على أن يكلماه ، ولكن الفناء أضحى خاويا .

وسار « برنارد » فى صحبة الملاك متجها شطر كنيسة « السوربون » حيث دخل الملاك أولا ، وهو مكان لم يسبق قط لبرنارد أن دخله ، وكان هناك ملائكة آخرون يتجولون فى هذا المكان ، ولكن برنارد لم يكن فى حالة تسمح له برؤيتهم ؛ لقد شمله هدوء لم يعرفه من قبل، واقترب الملاك من المذبح وركع ، وركع « برنارد » مثله لم يكن « برنارد » يؤمن بوجود أى إله ، ولذا لم يكن فى استطاعته أن يصلى، ولكن حاجة غريبة إلى التضحية والبذل قد استحوذت على قلبه ، فراح يقدم نفسه قربانا ، وكان تأثره من الغموض بحيث لا يمكن لكلام أن يصفه ، وفجأة ارتفع نشيد الأرغن .

وقال له الملاك : كنت تقدم نفسك هكذا للورا ، وأحس « برنارد » بالعبرات تسيل على خديه .

ثم قال الملاك : تعال ، اتبعنى .

وبينما كان الملاك يقوده ، كاد أن يرتطم بزميل قديم له نجح لتوه هو أيضا فى الامتحان الشفوى ، كان « برنارد » يعتبره تلميذاً فاشلا، ودهش لنجاحه فى الامتحان ولم ير هذا الفاشل (برنارد) ولكن برنارد رآه وهو يضع فى يد خادم الكنيسة نقوداً ليدفع ثمن شمعة . ورفع (برنارد) كتفيه وخرج ، وإذ خرج إلى الشارع تبين أن الملاك قد تركه ، ودخل إلى حانوت لبيع الطباق ، وهو نفس الحانوت الذى جازف فيه (جورج) منذ ثمانية أيام باستعمال قطعة نقوده المزيفة ،

وكان جورج منذ ذلك اليوم قد صرف قطعا أخرى كثيرة ، واشترى (برنارد) علبة سجائر ودخن ، لماذا رحل الملاك ؟ ألم يكن هناك ما يمكن أن يقوله كل منهما للآخر ؟ ... دقت الساعة معلنة الظهر ، وكان (برنارد) يشعر بالجوع ، هل يعود إلى القسم الداخلى ؟ أيذهب ليلحق بأوليفيه ويقتسم معه غداء (إدوارد) ؟ ... وتأكد من أن فى جيبه ما يكفى من النقود ، ودخل مطعما ، وبينما هو ينتهى من تناول طعامه سمع صوتا رقيقا يتمتم :

— حان الوقت لتراجع حسابك .

أدار (برنارد) رأسه ، فإذا الملاك من جديد على مقربة منه .

وراح يقول له : عليك أن تتخذ قراراً ، إنك لم تعش إلى الآن إلا مغامراً ، أتترك الصدف تتحكم فى أمورك ؟ إنك تريد أن تقوم بشىء نافع، وقد آن الأوان لتحدد هذا الشىء .

قال له (برنارد) : علمنى ، أرشدنى .

وقاد الملاك (برنارد) إلى قاعة مليئة بالناس ، وكان فى آخر القاعة منصة عليها مائدة مغطاة بغطاء أحمر قاتم وجلس وراءها رجل حديث السن ، وكان يتكلم .

كان يقول : من الجنون ادعاؤنا أن فى استطاعتنا أن نكتشف أى شىء ، إننا لا نملك شيئا إلا ونكون قد أخذناه ، وعلى كل منا أن يفهم وهو فى سن مبكرة أننا نخضع لماض وأن لهذا الماضى فضلا علينا ، وعن طريقه نخط مستقبلنا كله .

وبعد أن انتهى من معالجة هذا الموضوع ، حل مكانه خطيب آخر ، وبدأ يؤمن على ما قاله ، ثم هاجم كل مغرور يدعى أن فى استطاعته أن يعيش دون مذهب ، أو أنه قادر على أن يوجه نفسه بنفسه ، أو معتمداً على معرفته وحدها .

كان يقول : هناك مذهب قد ورثناه ، عبر القرون ، إنه خير مذهب ، إنه المذهب الوحيد ، وعلى كل منا أن يثبت لنفسه ذلك . إنه المذهب الذى نقله إلينا أساتذتنا ، إنه مذهب وطننا الذى إذا ما حاول مرة أن ينكره دفع غاليا ثمن ذلك

الخطأ ، ومستحيل أن يكون المرء مواطناً فرنسياً مخلصاً إن جهل هذا المذهب ، ولا يمكن له أن ينجح فى شىء إن لم ينضم إلى صفه .

وأعقب ذلك الخطيب ، خطيب ثالث شكر الاثنين الآخرين على أنهما أحسنا عرض ما أسماه نظرية برنامجهم ، ثم أكد أن أقل ما يهدف هذا البرنامج إليه هو النهوض بفرنسا ، وسوف يتم ذلك بفضل مجهودات كل فرد من أفراد حزبهم . وقال عن نفسه إنه رجل عمل لا رجل كلام ، وأكد أن أى نظرية لا تجد هدفها ، ولا تثبت صحتها إلا فى التطبيق العملى ، وأن على كل فرنسى أن يكون مجاهداً .

وأضاف : ولكن ، وا أسفاه ! كم من قوى متفرقة ، وكم من قوى ضائعة ! لو نظمت قوانا لأصبح بلدنا بلدا عظيما ، ولشع نور إنتاجنا الفكرى ، ولكان لكل منا مكانته ، نعم لن يتم ذلك إلا إذا عجدت الأعمال الفكرية النظام ، وإلا إذا انتظم كل منا فى الصف .

وبينما كان يسترسل فى حديثه ، أخذ بعض الشبان يتجولون بين الحضور ، وهم يوزعون بطاقات للانضمام ، ولم يكن ينقصها إلا التوقيع .

وقال الملاك : كنت تريد أن تقدم نفسك ، ماذا تنتظر ؟

وأمسك « برنارد » بإحدى هذه الأوراق التى قدموها له ، وكانت تبدأ بهذه الكلمات : أتعهد على رؤوس الأشهاد بأن... قرأ الورقة ثم نظر إلى الملاك ، ورآه يبتسم ، ثم نظر إلى الحاضرين ، ووجد بينهم زميله الذى نجح معه فى شهادة البكالوريا ، والذى كان يوقد شمعة منذ قليل بكنيسة « السوربون » شكراً وعرفاناً لما أحرزه من نجاح ، وفجأة لمح على مسافة منه أخاه الأكبر ، ولم يكن قد رآه منذ هجر المنزل . لم يكن « برنارد » يشعر نحوه بالحب ، كما كان يغار من التقدير الذى بدا أن والده يحيطه به ، وفرك البطاقة بين يديه بشكل عصبى ، وسأل :

— هل من رأيك أن أوقع ؟

قال الملاك : نعم إن كنت تشك فى نفسك .

وقال (برنارد) : لم أعد أشك ، قالها وهو يلقى بالورقة بعيدا عنه .

وكان الخطيب أثناء ذلك مستمرا فى حديثه ، وبدأ (برنارد) يصغى إليه من جديد ، فوجده يلقن الحضور درسا عن وسيلة مضمونة لكى لا نقع فى الخطأ أبدا ، وهى أن نكف نهائيا عن الحكم على الأشياء بأنفسنا ، وأن نترك تلك الأحكام لمن هم أعلى منا .

وسأل برنارد : من هم أعلى منا ؟ ومن يكونون هم ؟ ثم شعر فجأة بسخط شديد يستولى عليه .

وقال للملاك ، إذا أنت صعدت إلى المنصة ، وإذا ما اشتبكت معه ، فلا شك أنك ستلقى به أرضا ...

ولكن الملاك أجابه وهو يبتسم : إننى سوف أنازلك أنت . هل تريد ذلك هذا المساء ؟

وقال (برنارد) : نعم .

وخرجا ، ووصلا إلى الشوارع الكبيرة ، كانت جموع الناس المندفعة فى هذه الشوارع تبدو وكأن أفرادها كلهم من طبقة الأثرياء ، كان كل منهم يبدو واثقا من نفسه ، غير مبال بالآخرين ، ولكن يبدو فى الوقت عينه مشغول البال .

وسال (برنارد) إذ شعر بقلبه يبكى : أهذه صورة السعادة ؟

ثم قاده الملاك إلى أحياء فقيرة لم يكن يتصور من قبل أن يرى فيها كل هذا البؤس ، وكان الليل يرخى سدوله ، وهاما طويلا بين بيوت مرتفعة قذرة يسكنها المرض والدعارة والخجل والجريمة والجوع ، وعندئذ فقط أمسك (برنارد) بيد الملاك ، وكان الملاك يشيح بوجهه عنه ليبكى .

لم يتناول (برنارد) عشاءه تلك الليلة ، وعندما عاد إلى القسم الداخلى لم يحاول أن يلحق بسارة كما اعتاد أن يفعل فى الأمسيات السابقة ، ولكنه صعد مباشرة إلى تلك الغرفة التى كان يشغلها مع (بوريس) .

كان (بوريس) راقدا ، ولكن لم ينم بعد ، كان يعيد على ضوء شمعة قراءة الرسالة التي تسلمها من (برونجا) في صباح ذلك اليوم .

قالت له صديقته في تلك الرسالة : أخشى ألا أراك بعد الآن ، لقد أصبت بالبرد عند عودتي إلى (بولونيا) وأنا أسعل ، وبالرغم من أن الطبيب يخفي عني الأمر إلا أنني أشعر بأنني لن أعيش طويلا .

وأخفى (بوريس) الرسالة تحت وسادته ، وأسرع في إطفاء شمعته ، وسمع وقع أقدام (برنارد) وهو يقترب منه .

سار (برنارد) في الظلام ، وكان الملاك قد دخل الغرفة معه ، ولكن بالرغم من أن الليلة لم تكن حالكة الظلام فإن (بوريس) لم ير غير (برنارد) .

وساله (برنارد) : هل أنت نائم ؟ ولما لم يجبه (بوريس) استنتج أنه نائم .

وقال (برنارد) للملاك : والآن هيا بنا .

وتشابكا طوال تلك الليلة حتى الصباح .

كان (بوريس) يرى — في غير وضوح — برنارد وهو يأتي بحركات مضطربة ، واعتقد أن هذه طريقته في الصلاة ، وقرر أن لا يقطع عليه صلاته ... ومع ذلك كان بوده أن يتحدث معه ؛ لأنه كان يشعر بحزن ويأس عظيمين . وبعد أن نهض (بوريس) ركع عند أسفل فراشه ، كان بوده أن يصلي ، ولكنه لم يكن يستطيع إلا البكاء .

— أوه يا (برونجا) أنت يا من ترين الملائكة ، أنت التي كان يجب أن تفتحي لي عيني ، هل تتركينني ؟ ماذا أصير إليه يا (برونجا) بدونك ؟ ماذا سيحدث لي ؟

كان (برنارد) والملاك مشغولين جدا ، ولذا لم يستطيعا سماع ما يقوله (بوريس) ، وتشابك الاثنان حتى الفجر ، وانسحب الملاك دون أن يتغلب أحدهما على الآخر .

وعندما خرج (برنارد) بدوره — فيما بعد — من الغرفة صادف (راشيل) في الممشى فقالت له :

— أريد أن أتحدث معك .

كان صوتها حزينا حتى أن « برنارد » فهم في الحال كل ما كانت تريد أن تقول له، ولم يجب بشيء، وطاطا رأسه . وإذ شعر بالشفقة نحو (راشيل) فقد أحس فجأة بالكراهية لسارة وبالاشمئزاز من اللذة التي استمتع بها معها .

الفصل الرابع عشر

فى حوالى العاشرة وصل « برنارد » إلى منزل « إدوارد » وبيده حقيبة تـكفى لحمل القليل الذى كان يملـكه من ملابس وكتب ، وكان قد استأذن من « آزاثيس » ومن مدام « فدل » ولـكنه لم يحاول أن يرى « سارة » ثانية .

كان « برنارد » جاداً كل الجد ، وكان صراعه مع الملاك قد أنضجه ولم يعد يشبه فى شىء سارق الحقيبة المستهتر الذى كان يتصور أن المرء يكفيه فى هذه الدنيا أن يتمتع بشىء من الجرأة . لقد بدأ يفهم أن سعادة الغير كثيراً ما تـكون ثمرة الإقدام .

وقال لإدوارد : جئت لأبحث عن مأوى عندك ، ها أنا من جديد بلا مأوى

— ولماذا تترك آل « فيدل » ؟

— لأسباب اعتبرها سراً ... إسمح لى ألا أذكرها لك .

كان « إدوارد » قد راقب « برنارد » و « سارة » مساء الوليمة مراقبة كافية ليدرك مرمى ذلك السكوت .

وقال (إدوارد) باسماء : هذا يكفى . أريكة مكتبى تحت تصرفك لتقضى عليها ليلتك ، ولـكن يجب أن أخبرك أولا : أن والدك جاءنى أمس ليكلمنى .

وقص عليه جزءاً من الحديث رأى أنه كفيل بالتأثير عليه ، ثم قال :

— (كان عليك أن لا تقضى هذه الليلة فى بيتى ، وإنما فى بيته ، إنه فى انتظارك . ومع هذا التزم (برنارد) الصمت .

وقال أخيراً : سوف أفـكر فى الأمر ، وإلى أن أقرر شيئاً إسمح لى أن أترك هنا حاجاتى . هل أستطيع رؤية (أوليفيه) ؟

ـ الجوجميل ، ولذا شجعته على أن يستنشق الهواء، وكان بودى أن أصحبه لأنه ما برح ضعيفاً ، ولـكنه آثر أن يخرج بمفرده ، وعلى أى حال لقد خرج منذ ساعة ولن يتأخر فى العودة . إنتظره ... ولـكن قل لى :

ـ ما أخبار امتحانك ؟

ـ لقد نجحت ولا أهمية لذلك . المهم هو ما سأعمله الآن أتدرى ما الذى يمنعنى بخاصة من العودة إلى منزل والدى ؟ السبب هو أنى لا أريد أن ينفق على . ولعلك تجدنى سخيفاً فى أن لا أستفيد من هذه الفرصة السانحة ، ولـكنه عهد قطعته على نفسى بأن أستغنى عنه ، أن أثبت لنفسى أنى رجل يحترم كلمته . إنى شخص يمكنى أن أعتمد عليه .

ـ أرى فى ذلك كبرياء أكثر من أى شىء آخر .

ـ سم هذا كما تشاء : كبرياء ،خيلاء، غرور... ولـكنك لن تقلل من قدر العاطفة التى تدفعنى . وأريد الآن أن أعرف : هل من الضرورى لـكى يشق المرء طريقه فى الحياة ، أن يكون له هدف يضعه نصب عينيه ؟

ـ وضح ما تعنيه .

ـ لقد تدبرت هذا الأمر طوال الليل، فى أى شىء يمكننى أن أستخدم هذه الطاقة التى أشعر بها تعتمل فى نفسى ؟ كيف أستطيع أن أستخرج من ذاتى خير ما فيها ؟ هل يكون ذلك باتجاهى إلى هدف معين ؟ ولـكن كيف أختار هذا الهـدف ؟ وكيف أعرفه ما دمت لم أصل إليه .

ـ الحياة بلا هدف تجعل المرء نهبا للمغامرات .

ـ أخشى أن لا تكون قد فهمت تماما ما أعنيه . عندما اكتشف « كولومبس » أمريكا ، هل كان يعرف إلام يسير ؟ كان هدفه أن يسير قدما إلى الأمام . كان هدفه هو ذاته وكان هو الذى يدفعه إلى الأمام .

وقاطعه « ادوارد » بقوله : لقد آمنت طويلا أنه فى الفن ، وفى الأدب بخاصة لا قيمة إلا لمن يندفعون نحو المجهول . لا يمكن أن نكتشف أرضاً جديدة إلا إذا ارتضينا أن نبقى طويلا بعيدين عن رؤية أى شاطىء ، ولكن كتابنا يخشون عرض البحر ، وهم ليسوا سوى ملاحين يسيرون حذاء الشواطىء .

وأضاف « برنارد » دون أن يسمع ما قال « إدوارد » : أمس بعد خروجى من لجنة الامتحان ، دخلت ، ولست أدرى أى شيطان دفعنى إلى ذلك ، دخلت قاعة فيها اجتماع عام . كان الموضوع الذى يتناقشون فيه يتناول شرف الوطن والتضحية من أجل الوطن ومسائل أخرى كثيرة خفق لها قلبى . وكنت على وشك أن أوقع ورقة أتعهد فيها بشرفى أن أقف كل جهودى لخدمة قضية كانت تبدو لى ولاشك جميلة ونبيلة .

ــ إننى سعيد بأنك لم توقع هذه الورقة ، ولكن ما الذى جعلك تمسك عن هذا ؟

ــ لا شك أنه شعور غريزى خفى ... (وفكر « برنارد » لحظات ثم أضاف وهو يضحك) :

ــ أعتقد أن الذى منعنى هو منظر الذين انضموا إلى هذه الهيئة . وأولهم أخى الأكبر الذى لمحته بين المجتمعين . ولاح لى أن هؤلاء الشبان قد دفعتهم أنبل المشاعر ، وأنهم أحسنوا إذ تخلوا عن حريتهم فى التصرف ؛ لأنها لم تكن خليقة أن توصلهم إلى شىء ذى قيمة ، كما أنهم أحسنوا إذ تخلوا عن رأيهم ــ لأنه كان ناقصاً ــ وعن حريتهم الفكرية ــ لأنها كانت ستؤدى بهم سريعاً إلى اليأس . وقلت لنفسى أيضاً : إن من صالح بلدنا أن يضم بين مواطنيه عدداً كبيراً من هؤلاء الذين يتلقون الأوامر طائعين ، ولكننى لن أكون أبداً من هؤلاء . وعندما وصلت بتفكيرى إلى هذه النتيجة ، تساءلت : كيف أستطيع أن أضع لنفسى قاعدة ؛ لأننى لا أرضى أن أعيش بلا قاعدة ، كما أننى لا أرضى أن يفرض على الغير هذه القاعدة .

ـ تبدو لي الإجابة على سؤالك بسيطة : يجب أن تجد هذه القاعدة فى ذاتك وأن يكون الهدف هو تنمية ذاتك .

— نعم ... هذا فعلا ما قلته لنفسى . ولكن إدراك هذه الحقيقة لم يقدمنى فى شيء . ولو قد كنت واثقاً أننى سأختار خير ما فى ذاتى ، إذن لوضعت ذلك قبل كل شيء. ولكننى لا أصل إلى معرفة خير مافى ذاتى... لقد قلبت الأمر على جميع وجوهه طوال الليل كما أخبرتك ، وعندما أدركنى الصباح ، كنت متعباً لدرجة أننى فكرت فى أن أبكر فى التقدم للخدمة العسكرية قبل السن المطلوبة ، وأن أتطوع .

— التهرب من المشكلة لا يعتبر حلا لها .

— هذا ما قلت لنفسى ، كما قلت أيضاً : إن تأجيل هذه المشكلة لن يمنعها من أن تظهر أمامى ثانية وبشكل أخطر بعد الخدمة العسكرية ، ولذلك جئتك لأطلب منك النصح .

— ليس لدى نصح أمنحه لك. ولن تجد النصيحة إلا فى قرارة ذاتك، ولن تتعلم كيف تعيش إلا بممارسة الحياة .

— وإن أنا عشت عيشة سيئة فى انتظار أن أقرر كيف أعيش ؟

— هذا الأمر نفسه سوف يعلمك . من الأفضل للمرء أن يسير مع ميله على شرط أن يسير معه صاعداً لا هابطاً .

— أهذه دعابة ؟... كلا ، أعتقد أننى أفهم ما تعنيه ، وأقبل هذا الحل . ولكن فى الوقت الذى أنمى فيه ذاتى ، لابد لى من أن أكتسب قوتى . ماررأيك فى أن أطلب وظيفة على صفحات الجرائد بهذه الصيغة المبتكرة : « شاب أمامه مستقبل باهر ، يمكن أن يعمل أى شيء » . ؟

وانفجر ادوارد . ضاحكا وقال :

— أصعب شيء تحصل عليه هو « أى شيء » . ومن الأفضل أن تحدد ما تريد .

— كنت أفكر فى أحد هذه الإدارات الصغيرة المتعددة فى دار من دور الصحافة . أوه ! إنى مستعد أن أقبل وظيفة متواضعة : مصحح لتجارب الطبع ، ملاحظة مطبعة ، أى شيء . لست فى حاجة إلا إلى القليل جداً .

كان يتكلم بتردد ، والواقع أنه كان يصبو إلى وظيفة سكرتير . ولكنه خشى أن يفصح عن ذلك لإدوارد لما بينهما من عدم انسجام متبادل . وبعد كل فلم يكن خطؤه هو أن فشلت على هذه الصورة تلك المحاولة التى قام بها فى شغل هذه الوظيفة .

قال له « ادوارد » : ربما استطعت أن أساعدك على أن تعمل بجريدة « الصحيفة الكبرى » ؛ إذ أننى أعرف مديرها ...

وبينما كان « برنارد » و « ادوارد » يتحدثان على هذا المنوال ، كانت « سارة » فى حديث مؤلم للغاية مع « راشيل » . لقد أدركت « سارة » فجأة أن تأنيب « راشيل » لبرنارد هو السبب فى رحيله المفاجىء . وكانت ثائرة ضد شقيقتها التى كانت - على حد قولها — تمنع من حولها من تذوق أية سعادة . وكانت تقول لها : إنه ليس من حقها أن تفرض على الآخرين فضيلة ضربت بها هى نفسها مثلا يكفى لكى ينفر الناس منها .

وآلمت هذه الاتهامات « راشيل » أيما إيلام ؛ لأنها ضحت دائماً بنفسها . وأخذت تحتج على ما تسمعه ، وازداد وجهها شحوبا ، وارتجفت شفتاها وقالت :

— لا أستطيع أن أتركك تقضين على نفسك .

ولـكن « سارة » أجهشت بالبـكاء وصاحت قائلة :

— لا أستطيع أن أؤمن بفردوسك : لا أريد أن أنقذ نفسى .

وقررت فى الحال السفر إلى انجلترا حيث تستضيفها صديقتها ؛ لأنهـا تعتبر أنها حرة فى أن تفعل ما تشـاء وهى تريد أن تحيا بالطريقة التى تحلو لهـا .

وترك هذا الشجار المؤلم « راشيل » وقد حطمها الحزن .

الفصل الخامس عشر

تعمد « ادوارد » أن يصل إلى القسم الداخلي قبل انصراف التلاميذ . لم يكن قد قابل « لابيروز » منذ بداية السنة الدراسية . وكان يريد أن يتحدث معه أولا . كان مدرس « البيانو » الكهل يؤدي الأعمال التي كلف بها قدر استطاعته ، ومعنى ذلك أنه كان يؤديها على أسوأ وجه ممكن . لقد بذل قصارى جهده في بادىء الأمر لاكتساب حب التلاميذ ولكن كان يعوزه الحزم ، واستغل التلاميذ ضعفه هذا ، واعتبروا تسامحه لوناً من الضعف ، ولذا استباحوا لأنفسهم كل شيء بطريقة غريبة ، وحاول « لابيروز » أن يتخذ معهم الشدة ، ولكن فاتت الفرصة ولم يجد تأنيبه وتهديداته ومؤاخذاته إلا في إثارة التلاميذ ضده . فإذا ضخم صوته ، سخر الفتيان ، وإن دق بقبضة يده على منضدته أطلقوا صيحات خوف متصنع — وراحوا يقلدون حركاته ، ويسمونه الأب « لابير » ومرروا بين المقاعد كثيراً من الرسوم الهزيلة التي تمثله — وهو الرجل المتسامح — كشخص متوحش ، مسلح بمسدس ضخم (هذا المسدس الذي استطاع « جيريد انيزول » ، « وجورج » ، « وفيفي » أن يكتشفوه عندما دفعهم فضولهم إلى تفتيش غرفته) أو تمثله وهو يقوم بمذابح يقتل فيها تلاميذه ، أو أخرى تمثله راكعاً أمام تلاميذه ويداه ملتصقتان ، متوسلاً كما كان يفعل في الأيام الأولى عندما كان يقول لهم : « السكون شفقة بي » . وكان المسكين في موقف يأس ، وجهل ادوارد كل ذلك .

يوميات « ادوارد »

استقبلني « لابيروز » في حجرة صغيرة بالطابق الأرضي ، وكنت أعرف أنها أسوأ الحجرات بالقسم الداخلي ، لم يكن فيها من الأثاث إلا أربعة مقاعد ملصقة بأربعة قطرات في مواجهة سبورة ، ومقعد من القش أجبرني « لا بيروز » أن أجلس

عليه ، وانطوى هو فجلس على أحد « التخت » ، بعد أن بذل جهوداً مضنية لكى يدخل ساقيه الطويلتين تحت القمطر .

وقال لى : لا ، لا ، إننى أشعر بكل راحة هكذا ، أؤكد لك .

وكانت نبرة صوته وتعبير وجهه يقولان : إننى على أسوأ حال . وأرجو أن يظهر ذلك للعيان . ولكن يحلو لى أن أبقى فى هذا الوضع المتعب ، وكلما زاد ألمى قلتْ شكواى .

وقد حاولت أن أمزح ولكنى عجزت عن أن أجعله يبتسم . وكان يتصرف معى بطريقة رسمية تجعل الكلفة قائمة بيننا وكأنه يقول : « إننى هنا بسببك أنت » .

وكان مع ذلك يؤكد أنه راض عن كل شىء كما كان يتهرب من أسئلتى ، ويتضايق من إلحاحى فى السؤال . ومع هذا عندما سألته أين تقع غرفته نطق فجأة بهذه الكلمات : إنها بعيدة جداً عن المطبخ .

وأردف عندما ارتسمت على وجهى الدهشة : إننى أشعر بالجوع أحياناً أثناء الليل ... عندما أعجز عن النوم .

وكنت جالساً على مقربة منه ، فاقتربت منه أكثر وأكثر ووضعت يدى برفق على ذراعه وأردف بنبرة أقرب إلى صوته الطبيعى :

— يجب أن أعترف لك بأننى لا أكاد أذوق طعم النوم . وعندما يصادف أن أنعس ، فإننى أفقد الشعور بأنى نائم . ليس هذ هو النوم بمعناه الحقيقى أليس كذلك ؟ إن الذى ينام حقاً لا يشعر بأنه نائم ، وهو يشعر ببساطة عندما يستيقظ أنه كان نائماً .

ثم أضاف فى إلحاح محاولاً أن يشرح الأمر فى أدق تفاصيله وهو منحن تجاهى .

— أتصور أحياناً أنى واهم ، وأنى أنام فعلا ، ولكن الواقع أنى لا أنام . والدليل على أنى لا أنام حقيقة هو أن فى إمكانى أن أفتح عينى إذا أنا أردت ذلك .

وأنا لا أرغب عادة فى هذا . ولعلك تفهم أنه ليس لى أى فائدة فى ذلك ، إذ ماذا يفيدنى أن أثبت لنفسى أنى لا أنام ؟ إننى أحتفظ دائماً بأمل أن أستطيع النوم ، وأقنع نفسى دائماً بأنى نائم فعلا ... (وازداد انحناء وأردف بصوت خفيض) : ثم إن هناك شيئاً يزعجنى . أرجوك أن لا تخبر به أحداً ... إننى لم أشك من ذلك لأنه لا حيلة لى فى معالجة الأمر ، ثم إنه لا جدوى من الشكوى من شىء لا نملك أن نغير من وضعه ... تصور أن داخل الحائط اللاصق لفراشى وعلى ارتفاع رأسى بالضبط يوجد شىء يسبب ضوضاء !

كان وهو يتكلم قد انفعل فاقترحت أن أصحبه إلى غرفته .

وقال وهو ينهض فجأة : نعم ! نعم ! لعلك تستطيع أن تشرح لى هذا الأمر . أما أنا فقد عجزت عن إدراك كنهه ، تعال معى .

صعدنا طابقين ثم سلكنا ممراً طويلا إلى حد ما . لم أكن قد شاهدت أبداً هذا الجزء من البيت .

كانت غرفة « لا بيروز » تطل على الشارع وهى صغيرة ونظيفة ولمحت على المنضدة المجاورة لسريره بجانب كتاب كنائسى ، الصندوق الذى يحفظ فيه مسدساته ، والذى كان قد أصر على أن يحمله معه . وأمسك بى من ذراعى ، وقال وهو يدفعنى نحو الفراش :

— هنا . اسمع ... التصق بالحائط . هل تسمع ؟

أرهفت السمع لمدة طويلة وركزت انتباهى . ولكن بالرغم من كل المحاولات ، لم أتوصل إلى تمييز أى شىء . كان « لا بيروز » يعذب نفسه .

وصادف أن مرت سيارة نقل وهزت المنزل وجعلت زجاج النوافذ يرتطم .

قلت له : فى هذه الساعة من النهار تغطى ضوضاء الشارع على الصوت الذى يزعجك . قلت ذلك لكى أطمئنه .

وصاح فى قوة : هذا الصوت يخفى عنك ؛ لأنك لا تعرف كيف تميز بينه وبين الأصوات الأخرى . أما أنا فإنى أسمعه بالرغم من كل هذا ، وبالرغم من كل شىء ، وما زلت أسمعه . وأشعر أحيانا بضيق بالغ حتى أنى فكرت فى أن أكلم «آزائيس» أو المسالك فى الأمر ... أوه ! إننى لا أطلب إسكات هذا الصوت ... ولكنى على الأقل أريد أن أعرف سببه .

وبدا عليه الاستغراق فى التفكير بعض الوقت ثم استطرد :

— يشبه هذا الصوت الكحت بالأظافر . ولقد لجأت إلى كل الوسائل لأكف عن سماعه . أبعدت سريرى عن الحائط ، ووضعت قطناً فى أذنى . وعلقت ساعتى بالضبط فى المكان الذى تمر فيه الماسورة ، على حد تقديرى ، لكى يغطى صوت الساعة على الصوت الآخر ... وها أنت ترى أننى دققت مسماراً صغيراً فى هذا المكان . ولكن ذلك يرهقنى أكثر وأكثر ؛ لأننى أضطر إلى بذل مجهود لكى أتعرف على هذا الصوت . هذا أمر سخيف . أليس كذلك ؟ ولذلك أفضل أن أسمع هذا الصوت صراحة ما دمت أعرف رغم كل شىء أنه موجود ... أوه ! كان يجب أن لا أروى لك هذه الأشياء . ها أنت ترى أننى لم أعد إلا كهلاً .

جلس على حافة الفراش وبقى هكذا وكأنه فى ذهول . إن التدهور المؤلم الذى يلحق بنا عند الشيخوخة لم يؤثر عند « لا بيروز » فى ذكائه ، وإنما أثر على أعماق نفسه . قلت لنفسى : لقد استقرت الدودة فى قلب الثمرة ، وكان هذا ما تصورته ، عندما رأيت هذا الرجل الذى كان حازماً وذا كبرياء فى الماضى يستسلم الآن ليأس صبيانى ، وحاولت أن أحول أفكاره بأن أتحدث عن بوريس .

قال وهو يرفع جبينه . نعم ، إن غرفته قريبة من غرفتى . سوف أريك إياها . إتبعنى .

وسار أمامى فى الممر وفتح لى بابا مجاوراً وقال :

— هذا السرير الثانى الذى تراه هو سرير (برنارد بروفيتانديو) الشاب (ورأيت ألا جدوى من أن أخبره بأن (برنارد) ابتداء من هذا اليوم بالذات ، لن ينام عليه) . وأضاف : إن (بوريس) سعيد برفقة (برنارد) وأعتقد أنهما متفاهمان ، ولكن (بوريس) لا يكلمنى كثيراً ، إنه شديد الانطواء على نفسه ... وأخشى أن يكون قلب هذا الولد مجرداً من العاطفة .

كان يقول ذلك بلهجة حزينة ، ولذا أردت أن أثبت له العكس ، وأن أؤكد له أن حفيده ليس مجرداً من العاطفة .

وأردف (لابيروز) : إذن كان يمكنه أن يظهر لى القليل من هذه العواطف ، سوف أشرح لك الأمر : عندما يتوجه إلى المدرسة فى الصباح مع الآخرين ، أنحنى فوق نافذتى لأراه وهو يمر ، وهو يعرف ... حسناً ! إنه لا يلتفت وراءه !

وأردت أن أقنعه بأن (بوريس) يتصرف هكذا ؛ لأنه يخشى أن يلفت نظر زملائه ، ويخاف سخريتهم ، ولكن فى هذه اللحظة سمعنا أصواتاً صاخبة تأتى من الفناء .

وأمسك (لابيروز) من ذراعى وقال بصوت متغير : اصغ ! اصغ ! ها هم يعودون .

نظرت إليه . كان قد بدأ يرتجف من أعلى رأسه إلى أخمص قدميه ، وسألته : أيمكن أن يخيفك هؤلاء الصغار ؟

وقال متأثماً : لا ، لا ، كيف يمكن أن تتصور ... ثم أضاف فى سرعة فائقة :

— يجب أن أنزل ، الفسحة ، لا تستغرق إلا بضع دقائق ، وأنت تعلم أنى أشرف على حجرة الاستذكار . وداعاً ، وداعاً .

واندفع إلى الممر دون أن يشد على يدى ، وأدركت من وقع أقدامه على السلم

أنه يترنح ، وبقيت لحظات أصغى إلى ما حدث لأننى لم أكن راغباً فى أن أمر أمام هولاء التلاميذ ، كانت أصواتهم وهم يصيحون ويضحكون ويغنون مسموعة تماماً ، ثم دق الجرس وساد السكون فجأة .

ذهبت لرؤية (آزائيس) ، وحصلت منه على إذن ليسمح لجورج بأن يترك حجرة الاستذكار ليرانى ، ولحق بى (جورج) بعد قليل فى نفس تلك الحجرة الصغيرة حيث استقبلنى (لابيروز) فى بادئ الأمر .

بمجرد أن وجد (جورج) نفسه فى حضرتى تصور أن عليه أن يتخذ مظهراً وقحاً ، كانت هذه طريقته ليخفى بها ضيقه وحرجه ، ولكننى لا أستطيع أن أجزم بأنه كان أكثر منى شعوراً بالضيق والحرج ، كان متأهباً للدفاع عن نفسه ؛ إذ كان يتوقع ولا شك أن أؤنبه ، وبدا لى أنه يحاول أن يجمع فى أسرع وقت ممكن الأسلحة التى يمكن أن يهاجمنى بها ، لأنه قبل أن أفتح فمى سألنى عن أخبار (أوليفيه) وبلهجة وقحة حتى أننى شعرت بالرغبة فى أن ألطمه على وجهه ، كان يتحدانى ، وكنت أقرأ فى نظراته الساخرة وفى الابتسامة المرتسمة على شفتيه وفى نبرة صوته ما معناه : أتعرف أننى لا أخافك ، وفقدت فى الحال هيبتى ولم أعد أبالى إلا بإخفاء ذلك عنه ، شعرت فجأة بأن ما أعددته لأقوله له لا محل له ، ولم تكن لى الهيبة التى تتيح لى أن أقوم بدور الناصح ، وانتهى به الأمر أن وجدت مسلاة كبرى فى موقف جورج .

وقلت له أخيراً : لم آت لكى أوبخك ، جئت فقط لأحذرك (وبالرغم منى كان وجهى كله يبتسم) .

— قل لى أولا هل أمى هى التى أرسلتك ؟

— نعم ، ولا ، لقد تكلمت مع والدتك بشأنك ، ولكن انقضى على ذلك الحديث أيام ، وكان لى أمس حديث مهم للغاية عنك مع شخص خطير الشأن ، وهو شخص لا تعرفه ، وقد جاءنى ليكلمنى فى شأنك ، إنه قاضى تحقيق ، وجئت من قبله ، أتعرف معنى قاضى التحقيق ؟

شحب وجه (جورج) فجأة ، ولا شك أن قلبه كف لحظة عن الخفقان ورفع كتفيه ، ولكن ارتعش صوته قليلا وهو يقول :

ــ أفصح إذن عما قاله لك الأب (بروفيتانديو) .

وأثارني ثبات هذا الصغير ، لو أني جابهته بالحقيقة مباشرة لكان الأمر أيسر لى ولا شك ، ولكنى أكره بطبعى كل ما هو سهل وألجأ بالرغم منى إلى اللف والدوران . ولكى أشرح مسلكى الذى بدا لى سخيفاً بمجرد أن سلكته ، والذى سلكته دون ترو ، يمكننى أن أقول : إن حديثى الأخير مع (بولين) كان قد شغل بالى بشكل غير عادى ، وكل ما تركه هذا الحديث فى نفسى كنت قد سجلته فى الحال فى قصتى على شكل حوار يتلاءم بالضبط مع طبيعة بعض شخصيات القصة . فنادرا ما يحدث لى أن أستغل فى كتابتى ما تأتينى به الحياة ، ولكن مغامرة (جورج) قد أفادتنى ، جاءت هذه المغامرة وكأن كتابى كان ينتظرها فوجدت فيه مكانها الملائم ، ولم أغير من تفاصيلها شيئا يذكر ، ولكن لم أعرض هذه المغامرة (وأعنى بهذا سرقات جورج) عرضا مباشرا . لقد ألمحت إليها وإلى ما ترتب عليها خلال حوار الشخصيات ، وقد دونت هذا الحوار فى مذكرة كنت أحملها فى جيبى إبان حديثى مع (جورج) . أما قصة النقود المزيفة كما ذكرها لى (بروفيتانديو) فلم تكن ــ على العكس ــ تفيدنى فى شىء ، وهذا هو السبب ولا شك فى أننى بدلا من أن أواجه (جورج) مباشرة بهذه النقطة بالذات ، وقد كانت هدفى الأول من هذه الزيارة ، أخذت ألف وأدور .

قلت له : أريد منك أولا أن تقرأ هذه السطور ، سوف تدرك ما الذى دفعنى إلى ذلك ، ومددت إليه يدى بمفكرتى وهى مفتوحة عند الصفحة التى يمكن أن يجد فيها ما يهمه .

وأكرر القول بأنى أعتبر الآن هذا التصرف سخيفا ، ولكنى فى قصتى كنت أعتقد أن أفضل الطرق لتحذير أصغر شخصياتى سنا هى أن أدعوه إلى قراءة كهذه ، وكان يهمنى أن أعرف رد فعل ذلك لدى جورج ... بل كنت آمل أن تعطى لى

هذه القراءة فكرة عن جودة ما كتبته ، وهذه هى الفقرة التى أعطيتها له ليقرأها :

كان فى قلب هذا الطفل منطقة بأكملها تكتنفها الظلمات ، وانكب (أوديير) فى تطلع ودود عليها ، أما أن يكون (أودولف) قد سرق فهذا أمر لم يكن يكفيه أن يعرفه ، كان بوده أن يشرح له (أودولف) البواعث التى دفعته إلى هذا وما شعر به عندما سرق فى المرة الأولى ، وعلى أى حال ، لم يكن فى استطاعة الطفل — حتى إن هو أراد ذلك — أن يبين له هذا الأمر ، ولم يجرؤ (أوديير) أن يطلب منه ذلك خشية أن يدفع الطفل إلى اختلاق أكاذيب يبرر بها فعلته .

وذات ليلة كان (أوديير) يتناول فيها العشاء مع (هيلدبرانت) وأخبره بحالة (أودولف) دون أن يذكر اسمه ومع ترتيب فى الوقائع بحيث لا يستطيع معرفته .

قال عندئذ (هيلدبرانت) : ألم تلاحظ أن الأعمال التى تعتبر فاصلة فى حياتنا وأعنى بها تلك التى يمكن أن تقرر مصيرنا كله ، ألم تلاحظ أن هذه الأعمال نرتكبها فى أغلب الأحيان دون تبصر ؟

وأجابه (أوديير) : إنى أميل إلى هذا الاعتقاد ، إنه قطار نستقبله دون أن نفكر فى الأمر ، ودون أن نسأل أنفسنا أين يحملنا ، بل وفى أغلب الأحيان لا ندرك أن القطار يحملنا فعلا إلا بعد فوات الوقت واستحالة النزول ...

— ولكن ربما لم يشعر الصبى المشار إليه بأية رغبة فى النزول ...

— إنه لا يرغب بعد فى النزول ، إنه الآن يترك نفسه للقطار يسير به . والمناظر الطبيعية التى يمر بها تلهيه ، ولا يهمه كثيراً أن يعرف إلى أين هو ذاهب .

— وهل ستعطيه درساً فى الأخلاق ؟

— لا ، بالتأكيد ! لن يفيد ، هذا فى شىء . لقد أشبعوه دروساً فى الأخلاق حتى غثيت نفسه .

ــ ولماذا كان يسرق ؟

ــ لا أعرف هذا السبب بالضبط . لاشك فى أنه لم يرتكب هذه السرقات لحاجة حقيقية تدفعه إلى ذلك وإنما لكى يحصل على بعض المزايا ، لكى لا يتخلف عن رفاق أكثر يسرا منه ... أو شىء من هذا القبيل . وربما كان عن ميل غريزى أو لمجرد اللذة فى أن يسرق .

ــ هذه أسوأ حالة .

ــ هذا صحيح ! لأنه عندئذ سوف يعيد الكرة .

لقد اعتقدت طويلا أنه أقل ذكاء من إخواته . ولكنى أشك الآن فى أنى كنت على صواب ، وأعتقد أن سبب خطئى هو أنه لم يعرف بعد مدى ما كان يستطيع أن يعمل عليه من ذاته . فتطلعه مازال ضالا حتى الآن أو بالأحرى ما زال فى حالته البدائية أو فى مرحلة الفضول .

ــ هل ستكلمه فى الأمر ؟

ــ فى نيتى أن أجعله يوازن بين ما يمكن أن يستفيده من سرقاته وبين ما يفقده بعدم أمانته : يمكن أن يفقد ثقة أقرب الناس إليه ، ومحبتهم ، وكذلك محبتى ... يمكن أن يفقد كل هذه الأشياء التى لا تقاس بالأرقام ولا تقدر قيمتها إلا بما يجب علينا أن نبذله من جهد لكى نستردها ، لقد أفنى البعض حياتهم كلها ليستردوا هذه الأشياء التى فقدوها . سوف أقول له : ــ وهذا شىء ما زال هو أصغر من أن يتبينه ــ منذ هذه اللحظة ، سوف تتجه كل الشكوك نحوه إذا ما حدث أى شىء مريب فى الوسط الذى يعيش فيه . ربما وجد نفسه متهما بارتكاب أعمال كبيرة يكون بريئاً منها ولن يستطيع عندئذ أن يدافع عن نفسه . فما سبق أن ارتكبه سوف يجعله محل اتهام . إنه ما يسمونه « موصوما » وأخيراً أريد أن أقول له ... ولكنى أخشى احتجاجه .

ــ ماذا تريد أن تقول له ؟ !

ـ أريد أن أقول له : إن ما ارتكبه يعتبر سابقة ، وإن من يرتكب السرقة لأول مرة لا بد أن يقنع نفسه قبل أن يرتكبها ، أما فى السرقات التالية فلا صعوبة بل انسياق فى هذا الطريق . وكل ما يرتكبه بعد ذلك لا يعتبر إلا استسلاما لعادة ... ما أريد أن أقول له هو أن أول خطأ نرتكبه ، ويكون تقريباً دون وعى منا ، إنما يخط إلى الأبد شكلنا ، ويبدأ فى رسم خط من ملامح شخصيتنا يستحيل علينا بعدئذ أن نمحوه مهما بذلنا من جهود . أريد ... ولكننى لن أستطيع أن أكلمه فى هذا الأمر .

ـ ولماذا لا تكتب ما دار من حديث بيننا الليلة وتعطيه له ليقرأه ؟

وقال : « أودبير » : إنها فكرة . ولم لا ؟

طوال المدة التى كان يقرأ فيها « جورج » صفحة مفكرتى ، لم أرفع عينى عنه ولكن لم يبد على وجهه أى شىء مما كان يعتمل فى نفسه .

وسأل وهو يتأهب ليقلب الصفحة : « هل أستمر ؟ »

وأجبته : لا فائدة من ذلك فالحوار ينتهى عند هذا الحد .

ـ هذا شىء يؤسف له .

وأعاد إلى مفكرتى وقال بلهجة تكاد تكون مرحة :

ـ كان بودى أن أعرف ما يقوله « اودولف » بعد أن يقرأ هذه المفكرة .

ـ إننى أنتظر أنا نفسى أن أعرف ماذا تكون إجابته .

ـ اسم « اودولف » اسم مضحك . ألم يكن فى استطاعتك أن تجد له اسماً آخر ؟ .

ـ هذا أمر لا قيمة له .

ـ وكذلك إجابته لا قيمة لها . وماذا يحدث له بعد ذلك ؟

ـ ما زلت أجهل هذا . الأمر متوقف عليك . سوف ترى .

ـ إنك تعني إذن — على ما أفهم — أن عليّ أنا أن أساعدك فى الاستمرار فى تأليف كتابك . ولكن ألا ترى أن ...

وسكت وكأنه يجد صعوبة فى التعبير عما يدور فى خلده .

وقلت لكي أشجعه ؟ أن ماذا ؟

وأردف أخيرا : إعترف بأنك سوف تفاجأ إن أصبح « أودولف » ......

وسكت ثانية . واعتقدت أنى فهمت ما يعنيه وأكملت الجملة نيابة عنه !

ـ إن أصبح « أودولف » ولداً شريفاً ؟ ... لا ، لا يا صغيرى . واغرورقت عيناى فجأة بالدموع ووضعت يدى على كتفه . ولكنه قال وهو يتخلص منى :

ـ هل كنت تكتب كل هذا لو لم يسرق ؟

وفهمت عندئذ فقط خطئى . لقد سر « جورج » لأنه شغل تفكيرى مدة طويلة كهذه . وشعر أنه شخص يثير الاهتمام . كنت قد نسيت « بروفيتانديو » . و « جورج » هو الذى جعلنى أتذكره .

وسألنى : وماذا حكى لك السيد قاضى التحقيق ؟

ـ كلفنى إبلاغك أنه يعلم أنك تروج قطعاً مزيفة ... ومرة أخرى تغير لون « جورج » لقد أدرك أن الإنكار لن يجديه شيئاً . ولكن أجاب فى شبه احتجاج وهو مرتبك : ولكنى لست بمفردى .

وأردفت: ... وأنك إن لم تكف فى الحال عن هذا العمل ، أنت ورفاقك فسوف يجد نفسه مضطراً إلى أن يقبض عليكم .

وكسا وجه « جورج » شحوب شديد فى بادئ الأمر . ثم اشتعلت وجنتاه وراح يحدق بنظره أمامه بلا أهداف . واحتفر حاجباه المقطبان تجعيدتين عند أسفل جبهته .

وقلت وأنا أمد يدى إليه : أنصحك بان تحذر رفاقك أيضاً . أما عنك فاعتبر أنى قد بينت لك حقيقة الأمر .

وشد على يدى دون أن ينطق بينت شفة ، وتوجه إلى حجرة الاستذكار دون أن يلتفت وراءه .

عندما أعدت قراءة صفحات « المزيفون » التى أريتها لجورج ، وجدتها رديئة إلى حد ما .

وقد سجلت هذه الصفحات هنا كما كانت عندما قرأها « جورج » ولكن كل هذا الفصل من كتابى يجب أن أعيد كتابته . لا شك أن من الأفضل التحدث إلى الصبى ، ويجب أن أبحث عن النقطة التى أؤثر بها عليه . لا شك أن من العسير إعادة «أودولف» إلى حظيرة الشرف بعد أن وصل إلى ما وصل إليه ، ولكنى مع ذلك أرجو أن أوفق . وسوف أغير اسم « أودولف » فإن « جورج » على حق فى هذا . ومهما كان رأى جورج فى هذا ، فإنى أعتقد أن هذا الأمر هو الأهم لأنه هو الأعسر (هأنذا أفكر مثل « دوفيه ») . ولندع للقصصيين الواقعين فكرة الاستسلام للأمر الواقع .

ما إن رجع «جورج» إلى حجرةالاستذكار حتى أخبر صديقيه بتحذير (ادوارد).

وكل ما قاله « ادوارد » لهذا الطفل عن سرقاته لم يؤثر فيه على الإطلاق ، أما ما قاله له عن القطع المزيفة ، وهو مايعرضهم للوقوع فيما لا قبل لهم به ، فكان عليهم أن يتخلصوا منها بأسرع ما يمكن . وكان كل منهم يحتفظ ببعض هذه القطع معه ، وكان فى نيته أن يصرفها فى أقرب فرصة . ولذلك جمع (جريد انزول) القطع كلها ، وأسرع يرمى بها فى الحفر . وفى نفس هذا المساء أبلغ ما حدث إلى « ستروفيلهو » فاحتاط للأمر فى الحال .

الفصل السادس عشر

فى نفس هذا المساء ، وساعة أن كان « ادوارد » يتحدث مع ابن أخته « جورج » كان « أوليفييه » يستقبل « أرمان » ، بعد أن تركه « برنارد » بمفرده .

لم يعد يمكن التعرف على « أرمان فيدل » ؛ لقد حلق ذقنه بعناية وشاعت البسمة فى وجهه ، وارتفعت هامته ، وارتدى حلة جديدة ضيقة عند الوسط بشكل مبالغ فيه ، تثير السخرية إلى حد ما ، وكان يشعر بهذه السخرية ولا يخفى هذا الشعور .

قال « أرمان » لصديقه : كان بودى أن آتى لأراك قبل الآن ولكنى كنت مشغولاً إلى حد كبير ... أتعرف أننى أصبحت سكرتيراً لـ « باسافان » ؟ أو إن شئت : رئيس تحرير المجلة التى يديرها . ولن أطلب منك أن تشترك فى تحريرها لأنه يبدو لى أن « باسافان » ثائر ضدك إلى حد ما . وعلى أى حال فإن هذه المجلة تميل إلى اليسار ولهذا السبب كان من أول ما قامت به الاستغناء عن « بركايل » وعن قصائده الخيالية ...

وأجابه « أوليفييه » : هذا من سوء حظ المجلة .

— وهى لهذا السبب أيضاً قبلت بدلا من هذه القصائد قصيدة « إناء الليل » وسوف يكون الإهداء — بهذه المناسبة — لك ، إن أنت سمحت بذلك .

— هذا من سوء حظى .

— بل كان « باسافان » يريد أن تظهر قصيدتى هذه ، وهى عنوان عبقريتى فى الصفحة الأولى من العدد الأول ، مما أخجل تواضعى الطبيعى . لقد اجتاز تواضعى محنة قاسية لفرط ما مدحنى به . ولولا خشيتى أن أرهق أذنيك وأنت فى دور

النقاهة لقصصت عليك ما دار إبان مقابلتى الأولى مع مؤلف « القضيب الثابت » ذلك الـكاتب الشهير الذى لم أكن أعرف عنه شيئاً حتى هذا اليوم إلا عن طريقك.

— ليس عندى شىء أفعله أفضل من أن أصغى إليك .

— ألا يضايقك دخان سيجارتى ؟

— سوف أدخن أنا نفسى لـكى أطمئنك .

بدأ « أرمان » حديثه وهو يشعل سيجارة :

— يجب أن أخبرك أن رحيلك قد ترك « الـكونت » العزيز فى ارتباك شديد ، ولأقل لك دون أن أتملقك ، إنه ليس من السهل تعويض هذه المجموعة من المواهب والصفات والفضائل التى تجعل منك أحد . . .

قاطعه « أوليفييه » قائلا : وبالاختصار . . . (وكان تهكمه قد أثاره كل الثورة).

— بالاختصار كان « باسافان » فى حاجة إلى سكرتير ، وكان يعرف بالصدفة شخصاً يدعى « ستروفيلهو » وهو شخص أعرفه بدورى لأنه عم ومراسل أحد تلاميذ القسم الداخلى ، وهذا الأخير يعرف شخصاً يدعى « كوب لا فلور » وأنت تعرفه .

وقال « أوليفييه » : أنا لا أعرفه .

— حسنا يا صديقى كان يجب أن تعرفه . إنه شخص عجيب . إنه أعجوبة . إنه يشبه طفلا ذابلا ، مجعد الوجه يعيش على شرب الخمر ، وعندما يكون ثملا ينظم أشعاراً لطيفة للغاية وسوف تقرأ بعض أشعاره على صفحات عددنا الأول . وقد تراءى لستروفيلهو أن يبعث به إلى «باسافان» لـكى يشغل مكانك ، ولك أن تتخيل منظره وهو يدخل قصر شارع « بابيلون » . يجب أن أقول لك أيضاً أن « كوبلا فلور » يرتدى ملابس تغطيها البقع ، وأنه يترك شعره الأصفر اللون الباهت كالـكتان ، مسترسلا ، ويبدو كأنه لم يغتسل منذ ثمانية أيام . وأكد « باسافان » — وهو الذى

يدعى السيطرة دائماً على الموقف – أكد أنه شديد الإعجاب بـ « كوبلا فلور » وكان « كوبلا فلور » هذا قد وفق فى أن يبدو رقيقاً ، مبتسما خجولا ، وهو إذا أراد ، استطاع أن يظهر بمظهر « جرانجوار » للكاتب « بانفيل ». وبالاختصار فتن « باسافان » وكان على وشك أن يعينه . ويجب أن أقول لك إن (كوبلا فلور) لا يملك شروى نقير ... واستأذن ليخرج وقال للكونت :

— قبل أن أرحل أرى لزاماً على أن أنبهك ياسيدى الكونت إلى أن لى بعض العيوب .

— ومن منا بلا عيوب ؟

— وبعض الرذائل . إننى أدخن الأفيون .

قال « باسافان » وهو رجل ثابت الجنان : وماذا فى ذلك ؟ عندى منه أصناف ممتازة يمكن أقدم لك منها .

وأردف « لافلور » : نعم ولكننى بعد أن أدخن الأفيون أفقد تماماً كل معلوماتى فى الهجاء ...

وتصور « باسافان » أنه يمزح وحاول أن يبتسم ومد له يده . ولكن « لافلور » استمر فى حديثه قائلا : ثم أننى أتعاطى الحشيش .

وقال « باسافان » : وأنا نفسى قد تعاطيته أحياناً .

— نعم ولكنى تحت تأثير الحشيش لا أمنع نفسى من السرقة .

وبدأ « باسافان » يدرك أن الشاب يسخر منه . واسترسل « لافلور » وأضاف فى تدفق :

— ثم أنى أشرب (الأثير) وعندئذ أمزق كل شىء وأحطم كل شىء .

وأمسك بإناء من البللور وتظاهر بأنه سيلقى به فى المدفأة فانتزعه « باسافان » من بين يديه وقال :

— أشكرك على أنك نبهتنى إلى هذا الأمر .

وسأل « أوليفيه » : وهل طرده ؟

وأجاب « برنارد » : ثم راقبه من النافذة ليرى إن كان لم يلق قنبلة فى قبو داره وهو راحل .

— ولـكن لماذا فعل (لافلور) ذلك ؟ (سأله «أوليفيه» هذا السؤال بعد أن سكت قليلا) . وأردف : على ما فهمته منك ، كان لافلور فى حاجة شديدة إلى هذه الوظيفة .

— لابد يا عزيزى أن توافقنى أن هناك أناساً يشعرون بحاجة إلى أن يتصرفوا بطريقة تسىء إلى مصلحتهم . ثم إن رأيى أن « لافلور » ... إشمأز من الرفاهية التى يعيش فيها « باسافان » ومن أناقته ومن رقته الزائفة ، ومن الظرف الذى يعامل به الناس ومن حبه فى تصنع التفوق . نعم لقد اشمأز من كل هذا . وأضيف إلى ما قلته إننى لم أفهم معنى تصرفه هذا ... وعلى كل فإن صديقك « باسافان » هذا يخنق النفس .

— ولماذا تقول صديقك « باسافان » ؟ إنك تعلم أننى لم أعد أراه . ثم إننى أسألك : لماذا قبلت هذه الوظيفة ما دمت تشمئز منه إلى هذا الحد ؟

— لأننى فى الواقع أحب كل ما أشمئز منه ... وأول من يشعرنى بهذا الاشمئزاز هو شخصى نفسه ، شخصى القذر ... ثم إن « كوبلا فلور » فى حقيقة الأمر ليس إلا شاباً خجولا ولم يكن ليقول ما قال إلا لأنه شعر بالضيق .

— أوه ! هذا عجيب

— دون شك . كان يشعر بالضيق ، ولم يطق أن يشعره شخص كباسافان بهذا الضيق فى حين أنه يحتقر باسافان فى قرارة نفسه وقد تصنع هذه الوقاحة لـكى يخفى ضيقه .

— إننى أعتبر هذا التصرف منه غباء .

— يا صديقى ليس الجميع فى مثل ذكائك .

— سبق أن قلت لى هذا القول فى آخر مرة تقابلنا فيها .

— يالها من ذاكرة .

وبدا على « أوليفييه » أنه صمم على الصمود أمامه ، وقال :

— إننى أحاول أن أنسى دعاباتك ، ولكنك فى آخر مرة تقابلنا فيها كلمتنى بطريقة جدية . لقد قلت لى أشياء لا أستطيع أن أنساها .

واضطربت نظرة « أرمان » وأطلق ضحكة مفتعلة وقال :

— أوه يا صديقى . فى آخر مرة تقابلنا فيها كلمتك بالطريقة التى تحب أن أكلمك بها . كنت تطلب منى قطعة موسيقية حزينة ولكى أجيبك إلى طلبك عزفت قطعتى وكأن قلبى مفعم بالحزن ، وتظاهرت بآلام على طريقة « باسكال » ... هكذا أنا . لا أكون صادقا إلا عندما أمزح .

— لن تقنعنى أبداً بأنك لم تكن صادقا فيما قلته عندما كلمتنى بهذه الطريقة فى آخر مرة تقابلنا فيها . إنك الآن تمثل دوراً وأنت تكلمنى هكذا .

— يا لك من شخص ساذج وكم تبدو نفسك ملائكية ـ إن كل شخص يمثل ، يقوم بدور ... مع تفاوت فى الصدق وفى الوعى! ليست الحياة يا عزيزى سوى ملهاة . ولكن الفرق بينك وبينى هو أنى أعرف أنى أمثل دوراً بينما ...

وكرر « أوليفييه » فى تحد : بينما ....

— بينما والدى ، على سبيل المثال ـ ولكى لا أتكلم عنك ـ لا يتبين أنه يمثل دوراً عندما يقوم بدور القس . إنى فى كل ما أقول وفى كل ما أفعل أخفى قطعة

فى نفسى، وهذه القطعة المختفية تنظر إلى القطعة الأخرى وهى تلقى بذاتها فى المهالك ، وتراقبها وتسخر منها أو تصفق لهـا . وعندما يكون الشخص منقسما على نفسه هكذا كيف تطلب منه أن يكون صادقاً ؟ لقد وصلت بى الحـال إلى حد أنى لم أعد أفهم ما يمكن أن تعنيه هذه الـكلمة ولا أجده علاجاً لهذا الأمر : عندما أكون حزينا أرى نفسى مضحكا ويضحكنى ذلك ، وعندما أكون سعيداً أنطق بدعابات سخيفة لدرجة أن هذا يشعرنى بالرغبة فى البـكاء .

— إنك تشعرنى أنا أيضاً بالرغبة فى البـكاء يا صديقى المسكين . ولم أكن أتصورك مريضاً إلى هذا الحد .

ورفع « أرمان » كفيه وقال بلهجة مختلفة تماما :

— لـكى أهوّن عليك ، أتريد أن أعطيك فـكرة عن الشكل الذى سيظهر به العدد الأول من المجلة ؟ سوف يحتوى إذن على قصيدتى « إناء الليل » وعلى أربعة أغان من نظم « كوبلا فلور » ، وعلى حوار لجارى ، وعلى قصائد منثورة ، كتبها « جيريد انيزول » الصغير وهو نزيل قسمنا الداخلى . ثم « المـكواة » وهو بحث واسع فيه نقد لـكل شىء وسوف تتحدد فيه أهداف المجلة . لقد تعاون عدد منا لـكى نظهر هذه الآية .

ولم يدر «أوليفييه» ماذا يجيب ، ثم قال : إن التعاون لا يمكن أن ينتج أية آية ! وانفجر « أرمان » فى الضحك وقال :

— ولـكن يا عزيزى ، لقد أسميت ذلك آية على سبيل الدعابة ، بل إن عملنا هذا ليس عملا فنيا بمعنى الـكلمة ، وعلى أى حال يجب أن نعرف معنى كلمة « آية » .

و « المـكواة » بالذات تهتم بأن توضح معناها . هناك عدد ضخم من الأعمال الفنية نعجب بها دون تبصر لأن الناس أجمعين يعجبون بها ، وهى عبارة عن أعمال لم يفـكر أحد حتى الآن فى أنها أعمال سخيفة ، أو لم يجرؤ أحد على أن يقول إنهـا

كذلك . وسوف نضع على سبيل المثال ، فى الصفحة الأولى من عددنا الأول صورة (الجوكوندا) وسوف نلصق على شفتيها شارباً . وسترى يا صديق أن تأثير هذا سيكون كالصاعقة .

— هل معنى ذلك أنك تعتبر (الجوكوندا) شيئاً سخيفاً ؟

— لا أعنى هذا إطلاقاً يا عزيزى ، وإن كنت لا أعتبرها عملا رائعاً . إنك تفهم ما أعنيه . السخيف هو هذا الإعجاب الذى نحيطها به ، هو ما اعتدنا أن نبديه من توقير كلما تحدثنا عما ندعوه (بالآيات الفنية) . إن (المكواة) — وسيكون هذا العنوان اسم المجلة كلها — تهدف إلى السخرية من هذا التوقير وإلى تقليل شأن ... وثمت وسيلة أخرى بارعة . وهى أن ندعو القارئ إلى الإعجاب ببعض الأعمال السخيفة . مثل قصيدتى « إناء الليل » مثلا لمؤلف تجرد تماما من كل تفكير سليم .

— وهل يوافق (باسافان) على كل ذلك ؟

— إنه يجد فى هذا تسلية كبرى .

— أرى أنى أحسنت صنعا حين انسحبت .

— الانسحاب . عاجلا أو آجلا يا صديق سواء أردنا ذلك أو لم نرد يجب دائماً أن نصل إليه ، وهذا الرأى الحكيم يشجعنى على أن أستأذن فى الانصراف .

— ابق لحظة أيها المهرج ... ما الذى دعاك إلى القول بأن والدك يمثل القس ؟ ألست مقتنعاً بإيمانه ؟

— قد رتب والدى حياته بحيث لم يعد له الحق أو الوسيلة أن يكون غير ذلك : نعم إنه مؤمن محترف ، أستاذ فى الإيمان ، إنه يغرس الإيمان وهذه هى رسالته ، وهذا هو الدور الذى يقوم به والذى لابد من أن يقوم به حتى النهاية . أما عما يحتمل فيما يسميه أعماق نفسه ؟ ... لعلك تدرك أن سؤاله عن هذا الأمر يعتبر تطفلا .

وفى رأيي أنه لا يوجه هذا السؤال لنفسه أبداً . وقد عمل بحيث لا يجد الوقت أبداً ليسأل نفسه هذا السؤال . لقد شغل حياته بعدد لا حصر له من الالتزامات وهى التزامات ستفقد كل معناها إذا ما اعترى الوهن إيمـانه كما أن إيمانه يقوم على هذه الالتزامات ويحيا بها . وهو يتصور أنه مؤمن لأنه يتصرف فى الحياة وكأنه مؤمن ، ولم يعد حرا فى أن لا يؤمن . وإذا ما ولى هذا الإيمان ، كانت الـكارثة ، كان الانهيار ، ولعلك تتصور أن عائلتى فى هذه الحال لن تجد مصدراً تتعيش منه . هذا أمر يجب اعتباره يا عزيزى . إن إيمـان والدى هو مورد عيشنا . فنحن نعيش جميعاً على إيمـان والدى وها أنت ترى إذن أن السؤال عن مدى إيمـان والدى سؤال غير رقيق من ناحيتك .

— كنت أتصور أن مواردكم تعتمد على ما تـكسبونه من (القسم الداخلى) .

— هذا صحيح إلى حد ما ولـكن ليس من اللياقة كذلك أن تقضى هكذا على التأثير الشاعرى الذى أرجوه من حديثى هذا .

وسأله (أوليفيه) بحزن لأنه كان يحبه ويتألم من حطته .

— إذن فأنت لم تعد تؤمن بشىء على الإطلاق ؟

— لقد نسيت يا عزيزى أن والدىّ كانا يأملان أن يجعلا منى قسا . لقد أرادا أن يؤهلانى لذلك ، وملآنى بالتعاليم الدينية على أمل أن يتمدد إيمانى — إذا أمكن استعمال هذا التعبير — وقد تبينا بعد كل هذه المحاولات أنى لم أوهب الإلهـام الربانى وأنها لخسارة ، فلربما أصبحت واعظاً قديراً . أما استعدادى الحقيقى فهو الذى يدفعنى إلى كتابة (إناء الليل) ؟

— يا صديقى المسكين . آه لو عرفت كم أنا مشفق عليك !

— لقد تمتعتَ دائما بما يسميه والدى (قلب من ذهب) ... وليس فى نيتى أن أستغل طيبتك إلى أبعد من ذلك .

وأخذ قبعته واستدار فجأة بعد أن أوشك على الخروج وقال :

ـــ ألا تسألني عن أخبار « سارة » ؟

ـــ لأنك لن تخبرني بشيء إلا وأكون قد عرفته من « برنارد » .

ـــ هل أخبرك بأنه ترك « القسم الداخلي » ؟

ـــ أخبرني بأن « راشيل » دعته للرحيل .[1] ...

ـــ « راشيل » على ما أعتقد هي الشخص الوحيد في هذا العالم الذي أحبه وأحترمه . إنني أحترمها لفضيلتها وأعمل دائماً على خدش فضيلتها . ولم تكن تدرى شيئاً عما حدث بين « برنارد » و « سارة » ، وقد قصصت عليها كل شيء ... وطبيب العيون يطلب منها أن تكف عن البكاء . وهذه مهزلة .

ـــ هل يمكن أن أتصورك الآن صادقاً ؟

ـــ نعم أعتقد أن أصدق مافي نفسي من مشاعر هو الشعور بالاشمئزاز وبالكراهية لكل ما يسمونه فضيلة . أنت لا تحاول أن تفهم . لا يمكنك أن تتصور ما يمكن أن تفعله بنا التربية المبالغة في التدين التي يلقنوننا إياها في الطفولة . إنها تترك في قلوبنا أثرا لا يمكن أن نشفى منه أبداً ... ويمكنني أن أضرب مثلا بشخصي (قال هذه العبارات الأخيرة وهو يبتسم) ، بهذه المناسبة يجدر بك أن تقول لي أي شيء أصابني في هذا المكان ....

ووضع قبعته واقترب من النافذة .

ـــ أنظر : على حافة شفتي بالداخل .

وانحنى نحو « أوليفييه » ورفع باصبعه شفته

ـــ إنني لا أرى شيئاً .

---

(١) وردت هنا عبارة فيها خروج عن الأدب فحذفناها .

— هنا في هذا الركن .

ورأى « أوليفيه » بقعة بيضاء قريبة من التقاء الشفتين . وقال في شيء من القلق :

— إنها التهاب (قال ذلك ليطمئن « أرمان »)

ولكن أرمان رفع كتفيه وقال : لا تقل سخافات وأنت رجل جاد ، أولا كلة « التهاب » مذكرة لا مؤنثة . ثم إن الالتهاب يكون طريا ويزول مع الوقت . أما هذا فإنه متحجر ثم إن حجمه يزيد من أسبوع لأسبوع ويسبب لى مذاقاً كريهاً في فمي .

— هل اكتشفت هذا منذ وقت طويل ؟

— لقد لاحظته منذ أكثر من شهر ولكن ـ على حد ما يعبرون به في الكتب العظيمة ... (مصدر عذابي أبعد من ذلك بكثير)[1] .

— حسنا يا صديقي ، إن كنت قلقا فيجب أن يفحصك الطبيب .

— أتتصور أنني أنتظر نصيحتك ؟

— وماذا قال الطبيب ؟

— لم أنتظر نصيحتك لكي أقول لنفسي إن عليّ أن أستشير الطبيب . ومع ذلك لم أستشره لأنه إن كان ما أتصوره فإنني أوثر أن أجهله .

— هذا سخف .

— أليس هذا سخفا فعلا ، ولكن فيه معنى إنساني يا عزيزي . فيه معنى إنساني جداً ...

— السخف هو أن لا تعالج ما بك .

---

(١) عبارة يستعملها العاشق عندما يتكلم عن مصدر عذابه .

— ومن السخف أيضاً أن أقول لنفسى بعد البدء فى العلاج : (لقد فات الأوان) وهذا ما أحسن التعبير عنه « كوبلا فلور » فى إحدى القصائد التى ستقرأها . :

« يجب أن نخضع للأمر الواقع

لأن — فى عالمنا هــذا —

كثيراً ما سبق الرقص الغناء » .

— نستطيع أن نصوغ الأدب من أى شىء

— لقد صدقت ! كل شىء... ولـكن يا صديقى ، ليس هذا الأمر بالسهولة التى تتصورها . هيا ، وداعاً ... آه لقد نسيت أن أقول لك إن أخباراً وصلتنى عن « اسكندر » . نعم ، إنك تعرفه : إنه أخى الأكبر ، الذى هرب إلى أفريقيا حيث بدأ حياته بعمليات مريبة ، وحيث أضاع كل المبالغ التى كانت ترسلها له (راشيل) إنه يقيم الآن على ضفاف نهر (الـكازامانسى) ، وقد كتب لى ليخبرنى بأن تجارته تزدهر وأنه سوف يستطيع بعد قليل أن يسدد ديونه .

وفيم يتاجر ؟

— وكيف أعرف ؟ ربمـا كان يتاجر فى المطاط أو العاج أو ربما فى الرقيق ... أو فى أنواع مختلفة من أشياء لا قيمة لهـا ... وهو يطلب منى أن ألحق به هناك .

— هل تفـكر فى الرحيل ؟

— منذ غد إن لم يكن على أن أتقدم للتجنيد بعد قليل . « اسكندر » شخص شاذ سخيف من نفس نوعى . وأعتقد أنى سوف أتفاهم معه ... هل تريد أن تحكم عليه ؟ إنى أحمل رسالته معى .

وأخرج من جيبه مظروفا وتناول منه أوراقاً عديدة واختار منها واحدة قدمها لأوليفييه .

— ليس من الضرورى أن تقرأ كل شىء . ابدأ من هنا .

وقرأ (أوليفيه) بها :

« أقيم منذ حوالى خمسة عشر يوما مع إنسان شاذ آويته فى كوخى . لا شك أن الشمس لفحت جمجمته بحيث أثرت فيها . وكنت أتصور بادئ الأمر أن هذيانه ناتج عن الحمى ، ولـكنه جنون حقيقى ، ويبلغ هذا الشاب الغريب الأطوار الثلاثين من عمره تقريباً ، وهو طويل القامة قوى البنية جميل المحيا ولا شك أنه من عائلة طيبة » كما يقولون ، وكما يثبت ذلك أسلوبه فى الـكلام وأصابعه الرقيقة التى يظهر أنه لم يستعملها فى أعمال يدوية مرهقة ـ هذا الشاب يتصور أن الشيطان تقمص روحه ، على ما أمكننى أن أفهمه من حديثه . لا شك أنه قام بمغامرة ما ، لأنه لا يكف عن الـكلام عن (أيد مقطوعة) وهو يحلم ، أو عندما يكون فى شبه الغيبوبة التى كثيرا ما يقع فيها (وهو فى هذه الحالة يحدث نفسه ولا يشعر بوجودى) ونظراً لأنه كثيرا ما يصيبه الهياج فى هذه الحالات ويدير عينيه بشكل مخيف ، فقد تعمدت أن أبعد عنه أى سلاح ، وفيما عدا هذه الحالات . يكون شخصاً طيباً ، تحلو صحبته . وأنا أقدر هذه الصحبة بعد شهور طويلة قضيتها فى عزلة تامة ـ ثم إنه يساعدنى فى أعمالى . وهو لا يتـكلم أبدا عن حياته السابقة ولذا لم أتمـكن من معرفة أى شىء عنه لا اسمه ولا حقيقة أمره . وهو مهتم بوجه خاص بالحشرات والنباتات ، ويظهر من بعض أحاديثه أنه على قدر فائق من التعليم . ويبدو أن صحبتى تروقه ولا يفـكر فى الرحيل ، وقد قررت أن أبقيه معى ما دام يريد ذلك . وكنت أتمنى أن أجد من يساعدنى ، فإذا به يأتى فى الوقت المناسب .

أخبرنى زنجى قبيح الشكل كان يصحبه ورافقه فى رحلته على نهر (الـكازامانسى) أن امرأة كانت معه وقد غرقت ـ على ما فهمت ـ فى النهر ذات يوم عندما انقلب الزورق بهم . ولن أدهش إن عرفت أن رفيقى آثر أن يتخلص منها بإغراقها فإن وسائل التخلص من شخص فى هذا البلد متنوعة ، ولا يبالى أحد بالبحث فى هذا الأمر . وإذا ماوصلتنى عنه معلومات أخرى فسوف أخبرك

بها فى رسالة ـ أو أسمعك تفاصيلها عندما تلحق بى . نعم ، إننى أفهم ... خدمتك العسكرية ؟ لا بأس . سوف أنتظر . وإن كنت تود رؤيتى فثق أن عليك أن تحزم أمرك وأن تأتى . أما أنا فإن رغبتى فى العودة تقل يوماً عن يوم . والحياة التى أحياها تناسبنى تماما وكأنها حلة فصلت على قدى . وتجارتى تزدهر . أما (ياقة المدينة المنشاة) فهى طوق لن أطيقه بعد الآن .

ومع رسالتى هذه حوالة بريدية أخرى ، لك أن تعمل بها ما يحلو لك . أما الحوالة السابقة فقد كانت لراشيل . احتفظ بهذه الحوالة لك .

وقال (أرمان) :

ــ ليس فى بقية الرسالة ما يهم

وأعاد (أوليفيه) الرسالة له دون أن يقول شيئاً . ولم يطرأ على ذهنه أن القاتل الذى جاء ذكره فى الرسالة هو أخوه . لم يكن (فنسان) قد بعث إلى ذويه بأخباره منذ وقت طويل ، وكانو يتصورن أنه فى أمريكا .

وحقيقة الأمر أن (أوليفيه) لم يكن مهتماً كثيراً بمعرفة أخباره .

الفصل السابع عشر

لم يعلم « بوريس » بموت « برونجا » إلا بعد زيارة قامت بها « مدام سوفرونيسكا » للقسم الداخلي بعد الوفاة بشهر . ومنذ استلم الرسالة الحزينة التي بعثت بها إليه صديقته لم يصل إليه شيء من أخبارها . ورأى مدام سوفرونيسكا داخلة حجرة الاستقبال الخاصة بالسيدة « فيدل » وكان من عادته أن يبقى فيها في أوقات الفسح وكانت تتشح بالسواد ، وفهم حينئذ كل شيء قبل أن تكلمه في الأمر . كانا بمفردهما في الحجرة واحتضنته « سوفرونيسكا » وامتزجت عبراتهما . ولم تكن تردد إلا هذه العبارة : « ياصغيرى المسكين ... ياصغيرى المسكين » ، وكأن « بوريس » هو الذى يستحق الشفقه وكأنها نسيت حزنها كأم أمام حزن هذا الطفل ، أمام هذا الحزن الهائل .

وحضرت السيدة «فيدل» ، وكانوا قد استدعوها ، وابتعد « بوريس » والعبرات تخنقه ، ليترك لهاتين السيدتين حرية الكلام . كان يتمنى أن لا تتحدثا أمامه عن « برونجا » ولم تكن مدام « فيدل » قد عرفت هذه الصبية ، ولذا راحت تتكلم عنها كما تتكلم عن أى طفل عادى . وحتى الأسئلة التى سألتها ، بدت لبوريس بعيدة عن الذوق ، تافهة. وكان يرجو أن لا تجيبها «سوفرونيسكا » على هذه الأسئلة، وتعذب وهو يراها تعرض حزنها . أما حزنه هو فقد طواه وأخفاه كما يخفى الإنسان كنزا .

لا شك أن « برونجا » كانت تفكر فيه عندما سألت أمها قبل وفاتها بأيام هذا السؤال :

ـــ أريد أن أعرف يا أماه ... أخبرينى : ما معنى كلمة (شعر عاطفى) بالضبط ؟

كانت هذه الكلمات تمزق نياط قلبه ، وود (بوريس) لو لم يعرفها أحد غيره .

وقدمت (السيدة فيدل) الشاى ، وكان لبوريس فنجان منه ، شربه مسرعا ، وكانت الفسحة قد انتهت ، ثم استأذن فى الانصراف من (سوفرونيسكا) .

وكانت قد اعتزمت السفر إلى (بولونيا) فى اليوم التالى حيث تتطلب أعمالها وجودها هناك .

بدت الدنيا له صحراء . فأمه بعيدة جداً عنه ، وقد طالت غيبتها ، أماجده فكان طاعنا فى السن ، وحتى « برنارد » لم يكن بجانبه وكان يطمئن إليه ... وروح حنونة كروحه النبيلة التقية فى حاجة إلى من تبثه نقاءها ... ولم تكن به كبرياء تجعله يقنع بطهره ونبله .

لقد أحب « برونجا » حباً لا حد له ، حبا لا يؤمل بعده فى أى حب : ففقد أمله بفقدها وأما الملائكة التى كان يتمنى رؤيتها ، فكيف يؤمن الآن بوجودها وقد رحلت « برونجا » ؟ حتى سماؤه قد خوت الآن .

ودخل « بوريس » قاعة الاستذكار كمن يلقى بنفسه فى جهنم . كان فى استطاعته أن يتخذ من « جونتران دى باسافان » صديقا له ، فهو ولد طيب فى مثل سنه ، ولكن لاشىء يلهى « جونتران » عن عمله . و « فيليب آدا مانتى » بدوره ليس ولدا شريرا وكان يسعده أن يصادق « بوريس » إلا أنه قد خضع لجيريدانيزول كل الخضوع حتى لم يعد يجرؤ على أن يشعر بأى شعور توحيه إليه نفسه . وهو يتبع « جيريدانيزول » كظله وهذا الأخير لا يطيق « بوريس » فصوت « بوريس » الموسيقى ، ورشاقته ، وما يبدو عليه من سمات كسمات الفتيات ، كل ما فيه يضايقه ويحنقه ، وكأنه يشعر عند رؤيته بتلك الكراهية الغريزية التى يشعر بها — فى القطيع — القوى نحو الضعيف ، ولعله استمع إلى تعاليم ابن عمه ، ولعل بغضاءه تقوم على نظرية تصور له أن شعوره هذا ليس إلا عدم رضاء عن تصرفات « بوريس » . وهو يجد أعذارا تبرر له هذه البغضاء بل تجعله يهنىء نفسه إذ يشعر بها . وقد أدرك إلى أى حد يتألم « بوريس » من هذا الاحتقار الذى يبديه له . وهو يلهو بما يراه ويتصنع بأنه يتآمر مع « جورج » و « فيفى » على شىء ، وهدفه من هذا أن يشاهد ما يرتسم فى عين « بوريس » حينئذ من تساؤل قلق .

قال « جورج » : أوه ! كم هو فضولى ، هل نخبره بما نتكلم فيه ؟

وأجابه (جيريد انيزول) : لا جدوى من ذلك فهو لن يفهم شيئا .

وهم دائما يصدمونه بهذه العبارات : (لن يفهم) ، (لن يجرؤ) (لن ، يستطيع) و (بوريس) يتعذب لأنهم لا يشركونه فى مشروعاتهم . وهو لا يفهم تماما ، فى الواقع ، معنى هذا النعت الذى يطلقونه عليه : (لا يتمتع بشىء) أو هو يتألم مما يفهمه من هذه العبارة . إنه على استعداد لأن يضحى بأى شىء ليثبت لهم أنه ليس بالشخص الذى يتصورونه .

وقال (جيريد انيزول) لستروفيلهو :

— إننى لا أطيق (بوريس) . لماذا طلبت منى أن أتركه فى حاله ؟ إنه لا يريد أن نتركه فى حاله . إنه دائم النظر إلى ... وذات مرة ضحكنا جميعاً لأنه تصور أن معنى (امرأة بشعرها)[1] هو أن تكون امرأة ذات لحية . وقدسخرمنه (جورج) ولما أدرك (بوريس) خطأه اعتقدت أنه سينخرط فى البكاء .

ثم أخذ (جيريد انيزول) ينهال بأسئلته على ابن عمه ، وقد دفعت أسئلته ابن عمه هذا أخيرا إلى أن يسلمه (تعويذة) (بوريس) وأفهمه كيف يتصرف بها .

وبعد أيام وجد (بوريس) على درجه عند دخوله حجرة الاستذكار ، هذه القصاصة ولم يكن يذكرها تقريبا . كان قد لفظها من ذاكرته كما لفظ معها كل ماله علاقة بالسحر الذى كان يقوم به فى طفولته ، ويخجل منه الآن . ولم يتعرف على تعويذته فى بادىء الأمر لأن (جيريدانيزول) كان قد أحاط العبارة السحرية : (غاز ... تليفون ... مائة ألف روبل) بإطار عريض من اللونين الأحمر والأسود مزين بصور مخجلة تمثل شياطين صغيرة ، وكان هذا الرسم متقنا إلى حد كبير وكان (جيريدا نيزول) يرى أن هذا الإطار بما فيه يضفى على القصاصة شكلا غريباً ، شكلا جهنميا كفيلا بأن يزعج (بوريس)

وربما لم يدفعه إلى هذا العمل إلا رغبته فى أن يلهو ، إلا أن لعبته هذه نجحت

---

[1] هو اصطلاح بالفرنسية الدراجة معناه « المرأة العارية » .

نجاحا فاق كل ما كان يرجوه ، وكسا وجه (بوريس) احمرار شديد ، ولم يقل شيئاً وتلفت يمينا ويسارا ، ولـكنه لم ير (جيريدانيزول) الذى كان يراقبه وهو يختبىء خلف الباب . ولم يكن فى مقدور (بوريس) أن يتهمه ولا كان فى مقدوره كذلك أن يفهم كيف ظهرت هذه (التعويذة) فى هذا المـكان . كان يبدو وكأنها سقطت من السماء ، أو أنها جاءت من جهنم وكانت سن (بوريس) خليقة بأن تجعله يرفع كتفيه سخرية أمام هذه الأعمال الشيطانية التى يقوم بها التلاميذ ، ولـكن هذه الأعمال هزت فى أعماقه ذكرى ماض مضطرب .

وأمسك (بوريس) بالحجاب ووضعه خلسة فى جيب سترته . وتسلطت ذكرى أعماله السحرية على مخيلته طوال اليوم . وقاوم رغبة ملحة وغامضة تسلطت عليه حتى المساء . ولـكن لم يكن هناك شىء يسانده فى صراعه ولذا تخاذلت إرادته بمجرد أن دخل غرفته .

بدا له أنه ينغمس فى هوة عميقة ، وأنه يبتعد كل البعد عن السماء ، ولـكنه شعر بلذة فى أن ينغمس هـكذا ، ووجد فى هذا الانغماس نشوة .

ورغم ما كان به من يأس وحزن ، فقد احتفظ فى قرارة نفسه بالـكثير من الحنان ، وبألم شديد لما يشعره به زملاؤه من ازدراء ، حتى أنه كان خليقا بأن يجازف بأى شىء مهما كان خطرا أو سخيفا لـكى ينال منهم شيئا من التقدير .

وسنحت الفرصة بعد قليل .

فبعد أن اضطر (جيريدانيزول) و (جورج) و (فيفى) إلى الـكف عن تصريف قطع النقود المزيفة ، لم يطيقوا أن يبقوا طويلا دون أن يقوموا بشىء . وكان ما تخيلوه من لعب حتى الآن لايعدو لهوا مؤقتا لا طعم له فى انتظار أن يقوموا بعمل يستهويهم . وقد تفتق ذهن (جيريدانيزول) عن شىء جدير بأن يستهويهم فعلا .

لم يكن ثمت من سبب فى بادىء الأمر لتـكوين جمعية (الرجال الأقوياء) إلا أن يشعروا بلذة فى حرمان بوريس من الانضمام إليها . ولـكن تراءى لجيريدانيزول

بعد قليل أن السماح لبوريس بهذه العضوية ربما أتاح له القيام بأعمال ترضى نزعته الشريرة ، وربما استطاع أن يدفعه إلى ارتكاب عمل فظيع .

وتبلورت هذه الفكرة فى مخيلته ، ولم يعد يهمه العمل الذى يمكن القيام به — وكثيراً ما يحدث هذا عندما نقدم على مشروع — بقدر ما كانت تهمه الوسائل التى تمكنه من النجاح فى تحقيقه ، وربما بدا أن ما أقوله هنا ليس فيه ما يلفت النظر ، ولكن هذا الرأى قد يوضح لنا سبب ارتكاب كثير من الجرائم . وعلى العموم فإن « جيريدانيزول » كان شرساً ، ولكنه كان يشعر برغبة فى إخفاء شراسته هذه ، أو على الأقل فى أن يخفيها عن « فيفى » ، ولم يكن فى « فيفى » أى شىء يدل على القسوة ولذا بقى مقتنعاً حتى آخر لحظة بأن الأمر لا يعدو أن يكون لعبا .

وكل جمعية تحتاج إلى شعار . واقترح « جيريدانيزول » — وكان يهدف إلى شىء — هذا الشعار : « الرجل القوى لا يتمسك بالحياة » وقد وافقوا على هذا الشعار ، ونسبوا هذه العبارة إلى «شيشرون» ، وأرادوا علامة تميزهم واقترح (جورج) أن يرسموا وشما على ذراعهم الأيمن ، ولكن (فيفى) — وكان يخشى الألم — أكد لهم أنه لا يمكن أن يجدوا إلا فى الموانىء من يحسنون الوشم . وعارض (جيريدانيزول) هذا الاقتراح إذ أن (الوشم) يترك أثراً لا يمحى ويمكن أن يضايقهم فيما بعد . وعلى أى حال فإن هذه العلامة المميزة لم تكن شيئاً ملحاً ، واكتفى المنخرطون فى صفوف الجمعية بأن يقطعوا على أنفسهم عهداً لا رجوع فيه .

عندما كان الأمر متعلقا بالقيام بترويج قطع مزيفة من النقود اقتضى العهد أن يقدموا (ضمانات) ، ولذا كان على (جورج) أن يقدم لهم رسائل أبيه . ولكنهم نسوا كل هذا ، فهؤلاء الأطفال لا يبقون — لحسن الحظ — على حال واحدة وهم لم يقرروا شيئاً ، لا فيما يختص بشروط الانضمام إلى الجمعية ، ولا فيما يختص بالصفات المطلوب توفرها فى العضو . وما قيمة هذا مادام هدفهم أن يكونوا فى جمعية لا يسمح لبوريس بالانضمام إليها . ومع ذلك قرروا أن (من يتخاذل سوف يعتبر خائنا وسوف يفقد نهائياً حق الانضمام إلى الجمعية) . وكان (جيريدانيزول) يصر على هذه النقطة بالذات كل الإصرار ، إذ كان قد قرر أن يضم (بوريس) إلى الجمعية .

والحقيقة أن هذه الجمعية قد صارت بدون (بوريس) لا طعم لها ولا أمل فى أن تؤدى إلى لعبة مسلية . وكان فى إمكان (جورج) أن يستدرج الطفل أكثر مما يستطيع (جيريدانيزول) أن يفعل ، إذ كان من الممكن أن يثير هذا الأخير شكوك بوريس ، أما فيفى فلم يكن ماكرا ، كما أنه كان يفضل أن لا يعرض نفسه لخطر .

وربما كان أبشع شىء أراه فى هذه القصة الفظيعة هو تلك الصداقة المزيفة التى وافق (جورج) على أن يصطنعها فتظاهر بأن حبا (لبوريس) قد اعتراه فجأة ولم يكن يبدو عليه قبل ذلك مجرد أنه رأى بوريس ، وأكاد أشك فى أن (جورج) قد وقع نفسه فى حبائل لعبته ، وفى أن العواطف التى تظاهر بها أمام (بوريس) قد أصبحت حقيقة منذ أن استجاب لها بوريس .

كان (جورج) يرنو إليه متظاهرا بالحنان ، وبدأ يحادثه بعد أن دفعه (جيريد انيزول) إلى ذلك ... وبمجرد أن بدأ حديثه ، استحوذ على (بوريس) الذى كان ظامئا إلى شىء من التقدير والحب .

ورسم (جيريدانيزول) خطته ، وأوضحها لفيفى وجورج . كانت الخطة أن يتخيلوا (اختبارا) يجب أن يخضع له أى واحد من الأعضاء تقع عليه القرعة . ولكى يطمئن (فيفى) ، أفهمه أنهم سيدبرون الأمر بحيث تقع القرعة على (بوريس) والغرض من الاختبار هو التأكد من الشجاعة .

أما ما سيكون عليه هذا الاختبار بالضبط ، فلم يفصح لهما (جيريدانيزول) بشىء عنه . كان يخشى أن يجد من فيفى بعض المعارضة .

وعندما بدأ (جيريد انيزول) يلمح فيما بعد إلى أنهم قد يحتاجون إلى مسدس الأب لابيروز فى هذا الاختبار ، صاح (فيفى) قائلا :

— لا ، لن أوافق على ذلك .

وأجابه (جورج) محتجا . يالغبائك . الأمر لا يعدو المزاح !

قالها (جورج) باندفاع ، نلأ أن الفكرة راقته .

وأضاف (جيرى) : ثم إذا سرك أن تتصنع البله فليس عليك إلا أن تخبرنا بذلك . لسنا فى حاجة إليك .

وكان (جيريدانيزول) يعرف أن مثل هذا الكلام يؤثر دائما فى (فيفى)

وكان قد أعد استمارة التطوع التى يجب على كل عضو فى الجمعية أن يسجل فيها اسمه وقال :

— يجب أن تحزم أمرك فى الحال لأنه بعد التوقيع يفوت الأوان .

وقال (فيفى) : هيا لا تغضب . أعطنى الورقة — ووقع .

قال (جورج) لبوريس وهو يلف ذراعه بحنان حول عنقه :

— إننى ياصغيرى أتمنى أن تشترك معنا . ولكن (جيريدانيزول) هو الذى لا يريد ذلك .

— لماذا ؟

— لأنه لا يثق فيك ويعتقد أنك ستتراجع .

— كيف يتسنى له أن يحكم على ؟

— إنه يعتقد أنك ستهرب بعد أول تجربة .

— سوف ترى .

— هل تجرؤ حقا على أن تشترك معنا فى التوقيع ؟

— طبعا .

— لكن أتعرف مالذى تتعهد بالقيام به إن أنت فعلت ؟

لم يكن (بوريس) يعرف ولكنه كان يود أن يعرف . وعندئذ شرح له (جورج) معنى شعارهم : (الرجل القوى لا يتمسك بالحياة) وبقى أن يختبروا مدى قوة من تقع عليه القرعة .

وشعر (بوريس) برأسة تدور ، ولكنه تماسك وقال وهو يخفى اضطرابه:

— هل وقعتم حقا ؟

— خذ . أنظر . ومد له (جورج) يده بالورقة وقرأ (بوريس) فيها الأسماء الثلاثة) .

وسأل فى وجل : هل ... ؟

وقاطعه (جورج) بعنف لدرجة أن(بوريس) لم يستطع أن يكمل عبارته :

— هل ماذا ؟

ما كان يريد أن يسأل عنه قد فهمه (جورج) كل الفهم . كان يريد أن يسأل هل تطوع الآخرون فعلا وهل من الممكن الوثوق أنهم لن يتراجعوا بدورهم .

قال « بوريس » : لاشىء .

ولكنه منذ هذه اللحظة بدأ يشك فى الآخرين ، بدأ يعتقد أن الآخرين لن يقدموا ، وأن لعبتهم لم تكن شريفة . وقال لنفسه فى الحال : « ليكن ما يكون وماذا يهمنى إن هم تراجعوا وسوف أثبت لهم أنى أكثر إقداماً منهم . ثم قال وهو يحدق بثبات فى عينى « جورج » :

— قل لجيرى إن فى استطاعتكم أن تعتمدوا على .

لم يكن هذا ضرورياً . كان يمكنهم أن يعتمدوا على كلمته .

وقال ببساطة :

— إذا أردت .

وسجل اسمه على الورقة الملعونة وتحت توقيع « الرجال الثلاثة الأقوياء » وقع بخط منمق .

وأطلع « جورج » زميليه على الورقة مزهواً بانتصاره . واعترفوا بأن «بوريس» تصرف تصرفاً يدل على الثبات والإقدام . وأخذوا يتشاورون .

— بالتأكيد لن يحشى المسدس بالرصاص . وعلى أى حال لم يكن لديهم رصاص

وكان الشيء الذى يخيف « فيلى » هو ماسمعه عن احتمال أن يتسبب الانفعال الشديد فى القضاء على حياة الإنسان . وقال إن والده أكد أن هذا حدث عندما تظاهروا بإعدام شخص ... ولكن « جورج » سخر منه بقوله :

— والدك مبالغ .

لا لن يحشو « جيريدانيزول » المسدس بالرصاص ولم يكن هناك داع لهذا ، فالرصاصة التى وضعها فيه « لابيروز » منذ أيام كانت لاتزال فيه إذ لم يخرجها منه . وكان « جيريدانيزول » قد لاحظ هذا ولكنه أخفاه عن الآخرين .

ووضعوا قصاصات تحمل الأسماء فى قبعة . أربع قصاصات متشابهة ومطوية بنفس الشكل . وكان « جيريدانيزول » وهو المكلف بالسحب ، قد كتب اسم « بوريس » على ورقة خامسة احتفظ بها فى يده ، وكأن الأمر حدث بمحض الصدفه ، فإن اسم « بوريس » هو الذى سحب . وكان « بوريس » يشك فى أنهم يغشون ولكنه لم يقل شيئا . فيم يجدى الاحتجاج ؟ كان يعرف حق المعرفة أنه ضائع لامحالة . ولم يبد حركة واحدة لكى يدافع عن نفسه ولو كان الحظ اختار أحداً من الآخرين فإنه كان سيتقدم ليحل محله ، لأن يأسه كان كبيراً جداً .

وقال « جورج » وقد تصور أن عليه أن يقول شيئا :

— ياصديقى المسكين ، لست محظوظاً .

ولكن نبرة صوته كانت تنضح بالزيف ، ولذا نظر إليه « بوريس » فى حزن وقال :

— كان كل منا معرضاً لذلك .

وقرروا بعد هذا أن يقوموا بتجربة . ولكن لخشيتهم أن يراهم أحد ، اتفقوا على ألا يستعملوا المسدس فى هذه التجربة ، وأن لايخرجوه من جرابه إلا فى اللحظة الأخيرة ، وعندما يلعبون اللعبة الحقيقية . ولم يكن هناك داع لأن ينبهوا أحدا إلى مايقومون به .

واكتفوا فى هذا اليوم بأن يحددوا الساعة والمكان وقد حدد هذا الأخير برسم دائرة بالطباشير على خشب الأرض . كان هذا المكان فى حجرة الاستذكار ، فى تجويف على باب يمين المنصة ، وهو باب مغلق كان يوصل فيما مضى إلى مدخل المدرسة كان مقرراً أن يقوموا بهذه التجربة أمام أعين جميع التلاميذ وكان المقصود من التجربة أن تفزعهم . .

وقاموا بتجربة للعبتهم فى وقت كانت القاعة فيه خاوية ، ولم يشهد التجربة إلا الشهود الثلاثة . ولكن لم يكن فيها ما يثير ، ولم يستفيدوا منها إلا شيئا واحداً ، إذ تبينوا أن المسافة بين المكان الذى يقف فيه « بوريس » والبقعة المرسومة بالطباشير ، كانت اثنتى عشرة خطوة بالضبط .

وقال جورج : إذا أصابك الفزع فلن تخطو خطوة واحدة إلى الأمام .

وأجاب « بوريس » وكان يشعر بالمهانة من شكهم الدائم فيه :

— لن يصيبنى الفزع .

وبدأ ثبات هذا الصغير يؤثر فى نفوس الثلاثة الآخرين . وكان من رأى « فيفى » أن يكتفوا بما قاموا به . ولكن « جيريدانيزول » كان مصمماً أن يستمروا فى دعابتهم حتى النهاية .

وقال وابتسامة غريبة ترتسم على ركن شفته : حسناً . إلى غد .

وصاح « فيفى » فى حماسة : ألا نعانق « بوريس » ؟

وكان يفكر فى هذه اللحظة فى العناق التقليدى الذى كان يقوم به الفرسان الشجعان ، وفجأة احتضن « بوريس » وبذل « بوريس » مجهوداً لكى يحبس دموعه عندما طبع « فيفى » على خديه قبلتى طفل .

ولكن « جورج » و « جيرى » لم يقلدا « فيفى » ورأى فيه جورج عملا لا وقار فيه . أما « جيرى » فإنه لم يكن يبالى شيئا .

الفصل الثامن عشر

وفى مساء اليوم التالى ، تجمع التلاميذ فى حجرة الاستذكار عند سماعهم الجرس .

وجلس (بوريس) و (جيريدانيزول) و (جورج) و (فيليب) على مقعد واحد وتناول (جيريدانيزول) ساعته من جيبه ووضعها بينه وبين (بوريس) وكانت الساعة الخامسة والدقيقة الخامسة والثلاثين . كانت فترة الاستذكار قد بدأت فى الخامسة وستنتهى فى السادسة . وكانوا قد قرروا أن ينتهى (بوريس) من تجربته فى السادسة إلا خمس دقائق أى قبيل انصراف التلاميذ وهذا أنسب إذ كان من الممكن أن يهربوا بسرعة عقب ذلك مباشرة . وقال (جيريدانيزول) لبوريس بعد قليل بصوت غير عال ودون أن ينظر إليه ، وكانت هذه اللهجة فى نظره خليقة بأن تضفى على أقواله صفة الحتمية .

— لم يعد أمامك يا صديقى إلا ربع ساعة .

وتذكر « بوريس » قصة قرأها فيما مضى ،كان اللصوص فيها على وشك أن يقتلوا امرأة فدعوها إلى تأدية صلواتها الأخيرة لكى يفهموها أن عليها أن تتأهب للموت . وأخذ « بوريس » يبحث فى قلبه وفى رأسه عن صلوات كما يبحث السائح الغريب عند الحدود عن أوراقه ، ولم يجد فى قلبه أو فى رأسه أى شىء ، إلا أنه كان متعباً ومشدود الأعصاب فى وقت معاً حتى أنه لم يبال كثيراً بهذا الأمر وبذل مجهودا ليركز فكره ، ولكن لم يكن فى مقدوره أن يفكر فى شىء . كان المسدس ثقيلا فى جيبه ولم يكن فى حاجة إلى أن يضع يده عليه ليشعر بوجوده .

— لم يبق إلا عشر دقائق ؟

وكان جورج على يسار « جيريد انيزول » يراقب مايحدث بطرف عينيه ولكنه

كان متظاهراً بأنه لا يرى شيئاً وكان يستذكر بطريقة محمومة ولم يسبق قط أن كانت حجرة الاستذكار فى مثل هـذا الهدوء وكان « لابيروز » لا يكاد يتعرف على شياطينه الصغار ، ويتنفس الصعداء لأول مرة ، ومع ذلك فلم يكن «فيفى» مطمئناً . كان « جيريدانيزول » يخيفه ولم يكن متأكدا تماما من أن هـذه اللعبة ستنتهى بسلام . وكان يشعر بألم من شدة انقباض قلبه ويسمع من حين إلى آخر تنهدات عميقة تصدر عنه هو ذاته . واضطر أخيراً إلى أن يمزق نصف ورقة من كراسة التاريخ التى أمامه (إذ كان عليه أن يستعد لامتحانه ولـكن السطور تتراقص أمام عينيه والتواريخ تتلاطم فى رأسه)

قطع الجزء الأسفل من الصفحة وكتب عليها فى عجلة : « هل أنت متأكد من أن السدس ليس محشواً ؟ ومد يده بالورقة لجورج الذى سلمها لجيرى ولـكن هذا الأخير رفع كتفيه بعد أن قرأها دون أن ينظر حتى إلى « فيفى » ولف الورقة على شكل كرة أطلقها من بين أصابعه كالسهم وأصاب الدائرة المرسومة بالطباشير ، وابتسم إذ كان مسروراً لأنه أصاب الهدف ، وكانت هذه الابتسامة إرادية فى بادئ الأمر ولـكنها استمرت مرسومة على شفتيه حتى نهاية المشهد وكانت تبدو وكأنها طبعت على ملامحه .

— لم يبق إلا خمس دقائق .

قال هذه الـكلمات بصوت عال تقريباً حتى أن (فيليب) سمعها واستحوذ عليه قلق لا يطاق. وبالرغم من أن الفترة كانت على وشك الانتهاء فقد تظاهر بأن حاجة ملحة تدفعه إلى الاستئذان فى الخروج أو لعله شعر بمغص حقيقى — ولذا رفع يده وطرقع أصابعه كما اعتادأن يفعل التلاميذ عند مايطلبون الإذن بالخروج من مدرسهم، ثم اندفع خارج المقعد دون أن ينتظر إذن (لابيروز) لكى يصل إلى الباب . كان عليه أن يمر أمام منصة المدرس وكان يجرى تقريبا ولـكنه يترنح .

وبعد أن خرج (فيليب) بلحظة انتصب (بوريس) واقفاً ورفع (باسافان) الصغير عينيه وكان يعمل بجد وهو جالس خلفه (وقد روى لسيرافين فيما بعد أن

« بوريس » كان شاحباً بشكل كثيب لكن هذا هو الوصف المألوف في مثل هذه هذه المناسبات) وعلى أى حال فقد كف فى الحال عن النظر إليه واستغرق من جديد فى استذكار دروسه . وقد لام نفسه على هذا فيما بعد إذ لو استطاع أن يدرك ما كان يجرى حوله لمنع وقوع ما حدث دون شك، وكان يكرر قوله هذا وهو يجهش بالبكاء ولكنه لم يكن يشعر بشىء مما يدور حوله .

وتقدم « بوريس » حتى المكان المرسوم . كان يسير فى خطوات بطيئة وكأنه إنسان آلى، وكانت نظراته ثابتة وكأنه نائم ويده اليمنى ممسكة بالمسدس المختفى فى جيب سترته ولم يخرجه إلا فى اللحظة الأخيرة .

وكانت البقعة المميتة كما ذكرت فى ملاصقة باب مغلق وكانت هذه البقعة ، وهى تقع على يمين المنصة تشبه المخبأ ولم يكن فى استطاعة المدرس وهو على منصته أن يرى هذا المخبأ إلا إذا انحنى إلى الأمام .

وانحنى «لابيروز» ولم يفهم فى بادىء الأمر ماعمله حفيده ، وإن كانت حركاته الوئيدة المهيبة قد أقلقته وصاح بأعلى صوته وكان يحاول أن يبدو حازما :

— يا سيد « بوريس » أرجوك أن تعود فى الحال إلى ...

ولكنه تعرف فجأة على المسدس وكان « بوريس » ألصقه بصدغه وفهم (لابيروز) وشعر بقشعريرة باردة وكأن الدم قد تجمد فى عروقه . حاول النهوض حاول أن يجرى إليه ، أن يمنعه ، أن يصيح ... وخرجت من بين شفتيه حشرجة مبحوحة . وبقى مسمراً فى مكانه ، مشلولا وكيانه يهتز بعنف .

وانطلقت الرصاصة . ولم يسقط (بوريس) فى الحال وبقى الجسد منتصباً لحظة وكأنه متشبث بتجويف الباب ، ثم انحنى رأسه على كتفه وانهار الجسد كله على الأرض .

ولما عاين الشرطة المكان فيما بعد دهشوا إذ لم يجدوا المسدس بجانب (بوريس)

وأعنى بذلك قريباً من المكان الذى وقع فيه (بوريس) لأنهم كانو قد نقلوا الجثة الصغيرة فى الحال إلى سرير ... وفى أثناء الفوضى التى عمت المكان بعد الحادث مباشرة (وكان جيريدانزول باقياً فى مكانه) كان (جورج) قد قفز من فوق مقعدة واستطاع أن يلتقط السلاح دون أن يراه أحد ، وكان فى بادىء الأمر قد أبعده إلى الخلف بركلة من قدمه — حينما كان الآخرون يلتفون حول (بوريس) ثم التقطه بسرعة وأخفاه تحت سترته وأعطاه خلسة لجيريدانيزول . وكان انتباه الجميع منصباً على نقطة واحدة ولم يلحظ أحد (جيريد انيزول) الذى استطاع أن يجرى دون أن يراه أحد حتى أدرك غرفة (لابيروز) ووضع المسدس فى الجراب الذى سرقه منه . ولما اكتشف الشرطة فى أثناء تفتيشهم فيما بعد المسدس موضوعاً فى جرابه ، كان من الممكن أن لا يشكوا فى أن يكون المسدس قد خرج منه أو أن يكون (بوريس) قد استعمله ، لو أن (جيريدانيزول) فكر فى أن يخرج الغلاف المتبقى من الرصاصة داخل المسدس . ولا شك أنه فقد صوابه قليلا وهى هفوة طارئة لام نفسه عليها فيما بعد أكثر مما أنبه ضميره على ما اقترف من جرم وعلى أى حال فإن هذه الهفوة أنقذته إذ أنه عند ما نزل ليختلط بالآخرين ، اعترته رعشة شديدة وكانت ظاهرة جداً ، أشبه ما تكون بنوبة عصبية . ولم تر السيدة (فيدل) و (راشيل) — اللتين أسرعتا فى الحضور — فيما بدا عليه إلا دليلا على ألم زائد . إن المرء ليؤثر أن يفترض أى شىء إلا تجرد صبي يافع من معانى الإنسانية إلى هذا الحد . ولما دافع (جيريدانيزول) عن براءته ، صدقوه . إن القصاصة الصغيرة التى أعطاه إياها (فيفى) والتى قذف بها كالسهم والتى عثروا عليها فيما بعد تحت مقعد ، إن هذه القصاصة الصغيرة قد خدمته .

لقد كان ولا شك مذنباً كما كان كل من (جورج) و (فيفى) ، لأنهم قاموا بهذه اللعبة التى تتسم بالقسوة ولكن أصر (جيريدانيزول) على أنه لم يكن ليلهو بهذه اللعبة لو عرف أن المسدس كان محشواً بالرصاص . وكان (جورج) هو الشخص الوحيد الذي ظل مقتنعاً بسوء نية صديقه .

ولم يكن (جورج) فاسداً إلى هذا الحد ، ولذا حل فى قلبه محل الإعجاب بصديقه شعور الفزع والاشمئزاز . ولما عاد فى المساء إلى بيت والديه ارتمى بين ذراعى أمه ، وقد غمر (بولين) عندئذ شعور بالشكر والحمد لله الذى رد إليها ابنها ، بعد هذه المأساة البشعة .

يوميات « ادوارد »

« لا أدعى القدرة على شرح كل شىء ، ولكنى لا أريد أن اذكر هنا شيئاً أعجز عن إيجاد تبرير كاف له . ولهذا السبب لن أحاول أن أقحم فى كتاب (المزيفون) حادثة انتحار (بوريس) الصغير وإنى لأشعر بعجز عن فهم حقيقة هذا الحادث . ثم إننى لا أحب أن أتكلم عن الحوادث ، ففيها شىء من الحسم ، والوضوح والعنف والواقعية البالغ فيها ... وإنى لأرضى أن يساند الواقع فكرتى بصفته برهاناً ولكنى لا أحب أن يسبقها ... ولا يعجبنى أن يفاجئنى الواقع ، ويبدو لى انتحار (بوريس) وكأنه مجاف للذوق ، لأننى لم أ كن أتوقعه .

وفى كل إقدام على الانتحار شىء من الجبن . بالرغم مما يظنه (لابيروز) ولعله تصور أن حفيده فاقه شجاعة . لو كان فى مقدور هذا الطفل أن يتصور ما دهى عائلة (فيدل) من جراء فعلته البشعة ، لما صفحنا عنه ، اضطر (آزائيس) أن يغلق قسمه الداخلى ... إلى حين — على حد قوله — ولكن (راشيل) تخشى أن يكون فى ذلك خرابهم ، وسحبت أربع عائلات أولادها من هذا القسم . ولم أستطع أن أثنى (بولين) عن عزمها فى إبقاء (جورج) إلى جوارها وخاصة لأن هذا الصغير قد تأثر تأثراً عظيما بموت زميله فيدا وكأنه يريد أن يصلح نفسه . ما أعجب نتائج هذه الكارثة فأوليفييه نفسه تأثر منها . و (أرمان) مهموم —

رغم مظاهره الوقحة — للخراب الذى يتهدد عائلته، ولذا فقد عرض أن يكرس للمدرسة الفراغ الذى يمكن أن يسمح له به (باسافان) ، ذلك لأن (لابيروز) العجوز أصبح لا يصلح للقيام بالعمل الذى كان مكلفاً به .

كنت أخشى لقاءه . لقد استقبلنى فى غرفته بالطابق الثانى بالقسم الداخلى وأمسك بذراعى فى الحال وقال لى بلهجة غامضة وعلى وجهه شبه ابتسامة ، وأدهشنى ذلك فلم أكن أتوقع إلا دموعاً .

— أتذكر الصوت ؟ ... هذه الضوضاء التى كلمتك عنها منذ أيام ... ؟

— حسناً ؟

— لقد كفت . لقد انتهيت . لم أعد أسمعها . وقد حاولت أن أسمعها دون جدوى .

وقلت وأنا أجاريه كما يجارى المرء طفلا فى لهوه .

— أراهن على أنك آسف الآن لأنك لا تسمع تلك الضجة ؟

— أوه ! لا ، لا ... إننى أشعر الآن براحة كبيرة . إننى فى أشد الحاجة إلى السكون ... أتعرف فيم فكرت ؟ أدركت أننا طول حياتنا لا نستطيع أن نفهم حقيقة معنى السكون . إن دماءنا ذاتها تسبب داخل أجسامنا ما يشبه الضوضاء المستمرة ونحن لا نتبين هذه الضوضاء لأننا ألفناها منذ طفولتنا — ولكنى أعتقد أن ثمت أشياء لا نتوصل إلى سماعها أثناء حياتنا ، وهى تشبه الأنغام ، لأن الصوت الناتج عن تدفق دمائنا يغطى على هذه النغمات. نعم أعتقد أننا لن نستطيع سماع هذه النغمات فعلا إلا بعد الموت .

— كنت تقول لى أنك لا تؤمن بـ ...

— بخلود الروح ؟ هل قلت لك ذلك ؟ نعم لا شك أنك على حق ولكنى لا أؤمن مع ذلك بالعكس .

وبقيت ساكنا فأردف ، وهو يومئ رأسه بلهجة فيها وقار متكلف :

— هل لاحظت أن الله صامت فى دنيانا هذه ؟ إن الشيطان وحده هو الذى يتكلم أو على الأقل ... أو على الأقل ... مهما كان انتباهنا فإننا لا نتوصل أبداً إلا إلى سماع صوت الشيطان . ليست لنا آذان تتيح لنا سماع صوت الله ، كلمة الله ! هل سألت نفسك أحيانا عن ماهية هذه الكلمة ؟ ... أوه ! إنى لا أعنى الكلمة التى صبوها فى لغة الإنسان ... أتذكر مستهل الإنجيل ؟ : (فى البدء كان الكلمة) . وكثيرا ما فكرت أن كلمة الله ليست إلا السكون كله . ولكن الشيطان استحوذ عليها وضجيجه يغطى الآن على صوت الله فى آذاننا . أوه قل لى : ألا تعتقد أن كلمة الله ستكون الفاصلة رغم كل شىء ؟ ... وإذا كان الزمن لا وجود له بعد الموت وإذا دخلنا إلى الخلود فى الحال ، ألا تعتقد أن فى استطاعتنا عندئذ أن نسمع صوت الله ... مباشرة ؟

واستحوذ عليه ما يشبه الهيمان وبدأ يهتز هزات عنيفة وكأن جسده سينهار ، ثم انتابته فجأة نوبة من البكاء .

لم يقل لى كلمة واحدة عن (بوريس) ولكنى أعتقد أن ماظهر عليه من يأس كان تعبيرا غير مباشر عن ألمه المذهل الذى لا يمكن للعين أن تتأمله .

عرفت من (أوليفيه) أن (برنارد) عاد إلى والده ، ولعمرى إن هذا خير ما فعل . كان قد عرف من (كالوب) الصغير أن صحة القاضى العجوز سيئة لما استمع إلا إلى صوت قلبه ، سوف أقابله غدا ، إذ قد دعانى (بروفيتانديو) لتناول العشاء مع (مولينييه) و (بولين) وابنهما . كم أتوق إلى معرفة (كالوب) .

فهرس

صفحة

الجزء الأول : باريس

الجزء الثانى : مساس فيه

الجزء الثالث : باريس

دار القومية العربية للطباعة
١٦ شارع النزهه (ميدان الجيش) بالقاهرة

الناشر

دار سعد مصر
للطباعة والنشر

١٦ شارع النزهة (ميدان الجيش)



دار القومية ا
١٦ شارع النزهه (ميدان الجيش) بالقاهرة

الثمن ٢٧